بغية الرواد

في ذكر الملوك من بني عبد الواد

تأليف

أبي زكرياء يحيى بن خلدون

تقديم وتحقيق وتعليق

الأستاذ : بوزياني الدراجي

الجزء الثاني

دار الأمل للدراسات

عاصمة الثقافة العربية

تحميل كتب http://abbassa.wordpress.com

بغية الرواد

في ذكر الملوك من بني عبد الواد

تأليف

أبي زكرياء يحيى بن خلدون

(الجزء الثاني)

تقديم ومراجعة وتعليق

بوزياني الدراجي

عاصمة الثقافة العربية

وهو كتاب

تاريخ بني زيان

المعروف ببغية الرواد في ذكر الملوك من
بني عبد الواد وما حازه أمير المسلمين مولانا
أبو حمو من الشرف الشاهق الأطواد

تأليف

الشيخ الفقيه أبي زكرياء يحيى ابن أبي بكر
محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن
خلدون

(الجزء الثاني)

تقديم ومراجعة وتعليق

بوزياني الدراجي

دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع
شارع بلخوني يوسف السحاولة (16305)
الجزائر
هاتف وفاكس: (021) 357829
المنقول: 072264070 - 071517389

جميع الحقوق محفوظة
لا يسمح بنسخ هذا الكتاب بأي شكل من الأشكال إلا بترخيص مكتوب من الناشر

2007

الإيداع القانوني: 2006/1209
ردمك: 9778-9961-858-15-8

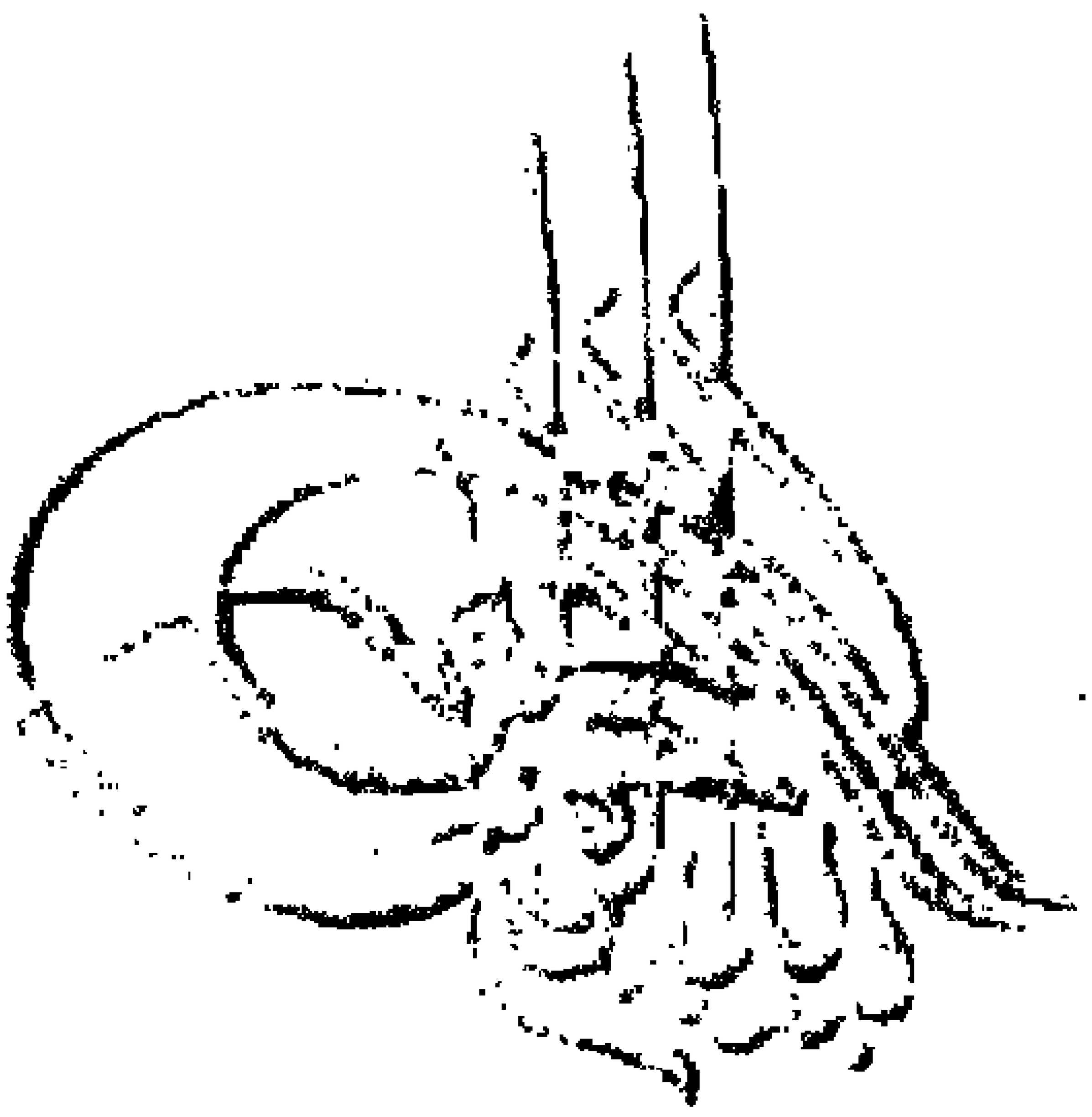

تقديم

يتناول هذا الكتاب ـ بجزأيه: الأول والثاني ـ تاريخ دولة **بني زيان**؛ المعروفين **ببني عبد الواد**. وقد سبق للدكتور **عبد الحميد حاجيات** إعادة تحقيق الجزء الأول منه؛ ونشره برعاية المكتبة الوطنية؛ وذلك في عام 1980م. بينما بقي الجزء الثاني طيّ النّسيان والإهمال. علماً بأن التحقيق الأول ـ للجزأين ـ كان الفضل فيه للمستشرق الفرنسي **ألفرد بل** BEL, A. O. (1873 ـ 1945). وقد استعنّا بنسخته في إعادة تحقيق الجزء الثاني.

والواقع أن الجزء الثاني هذا له أهمية كبيرة تفوق ما حظي به الجزء الأول؛ لأن هذا الأخير كتبه **يحيى**؛ نقلاً عن غيره من المؤرخين والأخباريين. وتم تحريره بشكل مقتضب؛ بحيث تسرد الأحداث العامة؛ دون التّطرق للتّفاصيل. كما يخلو الجزء الأول من أي معلومات توضح الحياة الاجتماعية في تلك الدولة. وكل ما فيه: أنّه يشير ـ باختصار ـ إلى خبر سلاطين الدولة: واحداً إثر واحد. ذاكراً بعض أسماء: الوزراء، والقادة،

والكتاب، والقضاة. ثمّ يتكلم – باختصار – عن بعض المعارك، والأحداث السياسية، وما جرى مع دول الجوار، وحدث مع القبائل؛ المنضوية في نطاق الدولة، والخارجة عنها.

أما الجزء الثاني من كتاب **بغية الرواد**؛ فله أهمية معتبرة؛ لأن كاتبه **يحيى بن خلدون**؛ عايش معظم الأحداث التاريخية التي واكبت مسيرة الدولة **العبد الوادية**؛ أيام السلطان **أبي حمو موسى الثاني**؛ كما مارس بعض تلك الأحداث بنفسه؛ إذ كان موظفاً ببلاط الدولة، ومقرباً من السلطان؛ بحكم وظيفته السّامية في الدولة؛ وهي خطة "**كاتب السر، وصاحب الإنشاء، وكاتب رسائل السلطان**. لذا فقد ضمّن كتابه هذا دقائق الأمور؛ بالإضافة إلى ما يشتمله من معلومات: تنظيمية، وسياسية، وعسكرية، وثقافية، وأدبية في غاية الأهمية. غير أن ما عثر عليه من كتاب بغية الرواد؛ تنتهي أحداثه بسنة 777هـ/1375م. أي في وقت قريب من يوم اغتيال **يحيى بن خلدون**؛ الذي راح ضحية مؤامرة؛ دبّرها **أبو تاشفين عبد الرحمن ابن السلطان أبي حمو الثاني**، وولي عهده؛ وذلك في سنة 780هـ/1378م.

ـ يحيى بن خلدون مؤلف الكتاب:

هو الشيخ أبو زكرياء يحيى ابن أبي بكر **محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن خلدون**؛ وهو أخو العلامة **عبد الرحمن بن خلدون**؛ وأصغر منه بعامين. ولد **بتونس** سنة 734هـ/1333م؛ وله أخ آخر أكبر منهما أيضاً اسمه **محمد**؛ قبلهما توفي.

لا بدّ من الإشارة هنا؛ إلى أننا قد اصطدمنا بشحّ المعلومات التي تخصّ **يحيى بن خلدون**؛ إلاّ أن محقّق الجزء الأول من **بغية الرواد**؛ **عبد الحميد حاجيات** افترض سياقاً، ومساراً لحياة **يحيى** متوافقاً مع مسار أخيه **عبد الرحمن**. لذا فقد لجأ إلى الحديث عن هذا الأخير؛ كما لو أنّه **يحيى**. وحتى أنّه سرد معلومات عن أساتذة **عبد الرحمن**؛ مفترضاً أنهم أساتذة **ليحيى** أخيه أيضاً. مع أنّنا نجد ـ بشكل واضح ـ أن ثقافة **عبد الرحمن** وأسلوبه الأدبي يختلافان اختلافاً جلياً عن أخيه **يحيى**؛ ولابدّ أن يعود هذا إلى اختلاف المؤثرات الثقافية، وتباين المنابع التي نهلاَ منها؛ حتى وإنْ

أخذنا في الاعتبار الفروق الفردية، والملكات الشخصية لكل منهما.

كما اتضح أن **عبد الرحمن** وأخيه **يحيى**؛ لم يكونا معاً في كل الأوقات؛ حتى وإن ثبت تواجدهما في مكان واحدٍ أحياناً. وعندما نقرأ ما كتبه **عبد الرحمن** ـ في ترجمته لنفسه ـ نجد أنّه ذهب إلى **المغرب الأقصى** في سنة 755هـ/1354م، وتم الاتصال بالسلطان **أبي عنان** في أواخر سنة 756هـ/1355م. وفي المقابل لم يشر إلى وجود أخيه معه؛ غير أن **يحيى بن خلدون** ذكر ـ في هذه النّسخة التي بين أيدينا أنّه كان ـ بعد فترة من ذلك ـ كاتباً للإنشاء لدى **أبي سالم المريني**؛ وأنّه كان متواجداً في معسكره؛ أثناء زحفه نحو **تلمسان** سنة 761هـ/1359م.

ويبدو أنّه فارق أخاه **عبد الرحمن** سنة 764هـ/1362م؛ بعد أن ألحقه **أبو سالم** بمن رافق الأمير **أبي عبد الله محمد بن الأمير أبي زكرياء ابن السلطان أبي يحيى الموحد** ـ كحاجب له ـ لاستعادة إمارته في **بجاية**؛ ولكنّه وجد صعوبة في تحقيق غرضه؛ فاضطرّ إلى الاستعانة **بأبي حمو**؛ فبعث **يحيى بن خلدون** إليه لطلب العون.

هذا ما قاله **يحيى** في هذا الكتاب. أما **عبد الرحمن بن خلدون**؛ فذكر أنّه هو الذي بعث أخاه **يحيى** مع الأمير **محمد الحفصي**؛ ((**حافظاً للرسم**))؛ الذي كتب به إليه **الأمير محمد** ((**بخطّه عهداً بولاية الحجابة؛ متى حصل على سلطانه**))[1].

إذن؛ لقد كان **يحيى** وكيلاً لأخيه **عبد الرحمن** مع **الأمير أبي عبد الله محمد الحفصي** في **بجاية**. ومجمل القول؛ أنه أضحى حاجباً **لأبي عبد الله محمد الحفصي**؛ الذي بعثه لجلب عون **أبي حمّو**؛ كما رافقه في السنة نفسها – أي في سنة 764هـ/1362م – إلى **تلمسان**؛ لإصلاح الحال بين أميره **محمد**، و**أبي حمو**.

ولمّا رجع **عبد الرحمن بن خلدون** من **الأندلس** إلى **بجاية** سنة 766هـ/1364م؛ واستلم مهامه كحاجب **للأمير محمد**؛ تبين من خلال قول **عبد الرحمن** أن **يحيى** أضحى في **بونه**؛ دون شرح السّبب في ذلك. وكل ما أشار إليه **عبد الرحمن** أن أخاه **يحيى** اعتقله **الأمير أبو العباس أحمد الحفصي** في مدينة **بونة** سنة 767هـ/1365م. وبعدها ذكر أنّه

---

[1] التعريف بابن خلدون؛ ص: 97.

أطلق سراحه؛ فالتحق به أثناء مقامه بمدينة بسكرة. وعندما طلب منه **أبو حمو** استئلاف قبيلة **رياح**، وعرض عليه منصب الحجابة في بلاطه؛ اعتذر، وبعث أخاه **يحيى** بدلاً منه إلى **تلمسان**. هذا ما ذكره **عبد الرحمن**؛ أما **يحيى** فقد صمت عن ذكر أخيه **عبد الرحمن**، وقال إنه هو الذي استألف **رياح**؛ بعد أن وصله كتاب **أبي حمّو** سنة 769هـ/1367م؛ ففعل، والتحق بخدمته.

وفي عام 772هـ/1370م؛ حدث أمر بقي غامضاً إلى الآن. لقد ترك **يحيى بن خلدون** الخدمة في بلاط **أبي حمو**؛ دون أن يشرح السّبب في ذلك، واكتفى بالقول: **((ومن هنا فارقته أيده الله لخيالات سوداوية اعتورتني، ونزعات شيطانية تجاذبني، وسوء بخت تقاعس عن إدراك الفخر برحلي، وشقاء مكتوب أهوى إلى درك الخسارة بي؛ ولا حول وقوة إلا بالله. ولولا أن أفضح مستوراً وأخلد في بطون الأوراق وصماً مشروحاً؛ لأبنت ما جرى، وقلت كيف كان...)).**[1]

---

[1] بغية الرواد، ج: 2.

وكلّ ما في الأمر؛ أن **يحيى بن خلدون** تخلّى عن **أبي حمو**؛ وهو في شدّة ومحنة؛ بعد أن استولى ملك **المغرب** السلطان **عبد العزيز** على **تلمسان**؛ وأثناء مطاردة جيش ذلك الملك له؛ وبعد خيانة حلفائه **الأعراب** وتفرقهم عنه. وعلى هذا؛ فلم يصرّح **يحيى** ـ بصدق ـ بما في نفسه من إحساس بالذّنب أو غيره، ولم يشرح الطريقة التي تخلّى بها عن صاحب نعمته. وقد أشار **عبد الرحمن بن خلدون** إلى هذا؛ قائلاً؛ عن أخيه **يحيى**؛ أنه رجع عن السلطان أبي **حمو** من **بلاد زغبة** (أي ما بين **تلمسان** و**المسيلة**)؛ حيث التحق بالسلطان المريني **عبد العزيز** عدو سيده الأول؛ الذي احتل **تلمسان**؛ وبقي في خدمته، وبعد وفاته ظلّ في خدمة ابنه **محمد السعيد**؛ الذي تولى الأمر بعده. علماً بأن **عبد الرحمن** ـ في هذه الأثناء ـ كان في **بسكرة**؛ يقوم بالدعوة إلى **السلطان المريني**؛ ضد **أبي حمو**. وربما كان لهذا الأمر؛ علاقة بتخلى أخيه **يحيى** عن سلطانه.

وقال **عبد الرحمن** ـ أيضاً ـ أن أخاه عاد إلى **أبي حمو**؛ بعد أن تغلب **السلطان المريني**

أبو العباس على البلد الجديد في **المغرب الأقصى**. وحتى **يحيى** ذكر هذا ـ كما سبق ـ وتكلم أيضاً عن عودته سنة 776هـ/1374م إلى بلاط **أبي حمو**؛ دون ذكر الدّوافع لذلك ـ كعادته ـ حيث قال: ((**وفي غرة شهر ربيع الأول؛ كان قدومي على بابه الكريم؛ معترفاً بالذّنب، متبرئاً من الإصرار، مستقيلا العثار، لم أقدم إليه شافعاً غير حبي فيه، ولا عرفت إليه وسيلة سوى إحسانه السابق إليّ؛ ولقيته بالوجه الذي ألقى به غافر الزّلاّت، وقابل التّوب**))[1].

وقد اتّضح أن في هذا الشهر بالذّات، وفي السنة نفسها (شهر ربيع من سنة 776هـ)، ترك **عبد الرحمن بن خلدون المغرب الأقصى**، وعبر البحر إلى **الأندلس**. وربما كان هذا هو الحافز؛ الذي دفع أخاه **يحيى**؛ إلى ترك تلك البلاد أيضاً، والعودة **إلى بلاط أبي حمو**.

وجملة القول؛ فقد بقي **يحيى بن خلدون** في خدمة **السلطان أبي حمو** ـ بعد ذلك ـ دون انقطاع؛ حيث أكمل كتابه هذا عن دولة بني عبد

---

[1] بغية الرواد، ج: 2.

الـواد؛ الـذي ينتـهي ـ مـا وجـد منـه حـتى الآن ـ بسنـة 777هـ/1375م. ولـم يستمـر طويـلاً؛ حـتى قتـل في عـام 780هـ/1378م؛ في عمليـة اغتيـال قـام بهـا أعـوان **الأميـر أبي تاشفيـن**؛ ولي عهـد **أبي حمـو**. وقـد خصـص أخـوه **عبـد الرحمـن** فصـلاً صغيـراً ـ في كتـاب العبـر[1] ـ تكلـم فيـه عـن الكيفيـة الـتي اغتيـل بهـا **يحـيى**. شـرح ذلـك بحياديـة تامـة؛ حـتى أنـه تجنـب القـول بأنـه أخـوه.

المهـم؛ أنـه يستحسـن مراجعـة مـا جـاء في الجـزء الأول مـن **بغيـة الـرواد**؛ لأن مـا تضمنـه الجـزء الـذي حققـه **الدكتـور حاجيـات** قـد يغـني بعـض الـشيء، ويسـدّ الحاجـة. ومـع هـذا أجـد نفـسي مدفوعـاً لإضافـة لبنـة؛ للعمـل الـذي أنجـزه **الدكتـور حاجيـات**؛ وذلـك بتقديـم مـا أمكـن لأمّـهُ، وجمعـه مـن فتـات؛ لأن المعلومـات الواسعـة والصحيحـة والثابتـة عـن حيـاة **يحـيى بـن خلـدون** منعدمـة تقريبـاً؛ مـا عـدا بعـض الإشـارات الخاطفـة ـ هنـا وهنـاك ـ أهمّهـا مـا ذكـره هـو نفسـه في **بغيـة الـرواد**، ومـا أشـار إليـه أخـوه **عبـد الرحمـن**، ومـا سجلـه عنـه **ابـن الخطيـب** في

---

[1] **العبـر، مج: 7، ص ص: 292 ـ 293.**

الإحاطة في أخبار غرناطة، وما أثبته المقري من أشعار يحيى بن خلدون في كتابيه: نفح الطيب، وأزهار الرياض.

بوزياني الدراجي

السحاولة في: 2007/10/8

* * * * *

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد
وآله وصحبه وسلم

القسم الثالث[1]

فيما حازه أمير المسلمين مولانا أبو حمو من الشرف الشاهق الأطواد

أوج[2] الملوك العالي، والسجدة في فرقان[3] المعالي، وقبلة الآمال المضروبة إليها آباط البُخْتِ لالتماس الحظ والبَخْتِ،[4]؛ وآية الله التي رأيناها أكبر

---

[1] القسم: الأول والثاني يدخلان في مجال الجزء الأول من كتاب بغية الرواد؛ الذي عالج مواضيع تتعلق بقيام دولة بني عبد الواد؛ وما عرفته من أحداث في ظل ملوكها الأوائل؛ وتنتهي أحداثه بموت السلطانين: أبي سعيد وأبي ثابت في عام 753هـ/1352م؛ وقد قام الدكتور عبد الحميد حاجيات بتحقيقه ونشره ضمن منشورات المكتبة الوطنية سنة 1980م. أما القسم الثالث فهو الذي بين أيدينا؛ ويؤرخ لدولة أبي حمو الثاني لا غير. وهو هام جداً.

[2] الأوج: العلو. والأوج: أبعد ما يصل إليه القمر في الارتفاع.

[3] الفُرْقان: كل الذي يفرق به بين الحق والباطل، والحلال والحرام. والفرقان: الحجة. والفرقان: النصر.

[4] البُخْتُ: هي الأبل أو الجمال. نقول: (جمل بُخْتِيٌّ وناقة بُختية). أما البَخْت (بفتح الباء) فهي فارسية وتعني: الحظ. والمقصود بـ (نضرب

مـــن الأخـــت والأخـــت.[1] طـــود قـــد أرســـاه الوقـــار، وجـــود ظهـــر في الأرض إليـــه الافتقـــار، **وكســـرى**[2] السياســـة بالمغـــرب، والآتي مـــن آياتـــه الموسويـــة[3] بالمُعْجِـــز المُغْـــرِب. ضـــرب بعصـــا الحـــزم بحـــر الخطـــوب حـــتى فرقـــه، ثـــم أطبقـــه عـــلى **فرعـــون**[4] الأزمـــات فأغرقـــه، وأخـــرج قومـــه بعـــد يأسهـــم مـــن التيـــه، وقبـــس لهـــم مـــن طـــور[5] العنايـــة نـــوراً والله مؤتيـــه، ثـــم أنالهـــم الســـؤل بمـــا يـــدره في سياستهـــم أو يأتيـــه؛ إلى أن حـــرك منهـــم السكـــون، وألـــقى عصـــا حزمـــه إلى سحـــرة عداهـــم حيـــة تلقـــف مـــا

بآبـــاط البخـــت) هـــو: أنهـــم يستحثـــون مراكبهـــم مـــن الإبـــل للإتيـــان ـــ مـــن أماكـــن بعيـــدة ـــ إلى المقـــام العـــالي المتمثـــل في بـــلاط أبي حمـــو.

[1] إشـــارة إلى قولـــه تعـــالى: ((وَمَـــا نُرِيهِـــمْ مِـــنْ آيَـــةٍ إلاَّ هِيَ أكْبَـــرُ مِـــنْ أخْتِهَـــا وَأخَذْنَاهُـــمْ بِالعَـــذَابِ لَعَلَّهُـــمْ يَرْجِعُـــونَ)). ســـورة الزخـــرف، الآيـــة: 48.

[2] "كســـرى" اســـم يطلـــق عـــلى ملـــوك الفـــرس دون استثنـــاء؛ ولكـــن المقصـــود هنـــا ـــ بحكـــم الشهـــرة ـــ هـــو كســـرى أنُوشـــروان بـــن قُبـــاذ ابـــن فيـــروز. اتصـــف هـــذا الملـــك بالعـــدل والحكمـــة وحســـن السياســـة. ولـــد في زمنـــه محمـــد عليـــه الســـلام. وفيـــه قـــال رســـول اللـــه صـــلى اللـــه عليـــه وسلـــم: ((ولـــدت في زمـــن الملـــك العـــادل)).

[3] نسبـــة إلى النـــبي مـــوسى عليـــه الســـلام.

[4] ملـــوك مصـــر القديمـــة كلهـــم يسمـــون (فرعـــون)؛ إلاّ أن المقصـــود هنـــا هـــو فرعـــون الـــذي عاصـــر مـــوسى عليـــه الســـلام؛ وثمـــة مـــن يـــرى أنـــه رمسيـــس الثـــاني.

[5] إشـــارة إلى جبـــل الطـــوْر بسينـــاء.

يأفكون[1]؛ ومن قبل ما أقتحم الأهوال في طلب حقه المغصوب؛ حتى أنفرد بتاجه المعصوب؛ فأدال النعيم من البؤس، والبِشْر من العبوس؛ ثم قارعَتْه الحوادث، ونازلته الصُروف الكوارث، وماجت بسفينة أمره بحور الأهوال أول وثان وثالث.[2] ولله در القائل حيث قال:

البسيط:

لكنه ما تشين الحُر موجعة.
فالمسك يسحق والكافور مفتوت
وطالما أصلي اليقوت جمر غضى
ثم انطفى الجمر واليقوت ياقوت

فلم تَفُلّ[3] الحوادث له حداً، ولا أضرع التمحيص[1] له خداً؛ كلاّ بل الدّين نسيجه سابري[2]،

---

[1] التأثير القرآني واضح في أسلوب يحيى بن خلدون. فالجمل السابقة مستوحاة من الآيات القرآنية في سورة البقرة وسورة الشعراء المتعلقة بموسى عليه السلام وبني إسرائيل.

[2] يختلف أسلوب يحيى بن خلدون عن أسلوب أخيه عبد الرحمن الذي يتميز بالطابع العلمي الواضح والدقيق. غير أن يحيى لجأ إلى أسلوبه الأدبي هذا بحكم اشتغاله بالكتابة؛ إذ أسندت إليه خطة الإنشاء وكتابة السر في بلاط أبي حمو موسى الثاني.

[3] الفلُّ جمعه فلول: الكسر أو الثُلْمة في حد السيف.

والتفويض إلى الله من الاعتراض بري؛ إلى أن جلا ظلام الشدة صباح الفرج، وجاءه روح الله من حيث لم يحتسبه طيب الأرج[3]. وعاد ذلك التمحيص والمنة لله تخصيصاً سامي الدرج[4]. أخرج **أبو داوود**[5] في سننه عن **مصعب بن سعيد** عن أبيه؛ قال: ((**قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء. قال: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل**)). وأخرج أيضاً عن آنس؛ قال: ((**قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم؛ فمن رضى فله الرضى، ومن سخط فله السخط**)). وأخرج أيضاً؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((**حفت**[6] **الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات**)). فأي مجد لم يطنب عليه برده، أم أي شجاعة لم تسرح إليها جرده ، أم أي متعدد من

---

[1] ويقولون: (أضرع الرجل)؛ أي أذله. و(محّص الذهب بالنار): يحدث هذا لكي يصفّى الذهب من الشوائب.

[2] السابريّ: ثوب رفيع النسج جيد الصنعة؛ نسبة إلى مكان صنعه؛ أي كورة سابور بفارس. والمعنى هنا يفيد بأن دين أبي حمو جيد النسج رفيع القيمة مثل النسيج السابريّ.

[3] الأرج: نفحة الريح الطيبة.

[4] الدّرج: هنا المراتب. ومعنى الجملة: المراتب السامية.

[5] هو الإمام أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد الأزدي الساجستاني (ت: 275هـ/888م).

[6] حفّ: الناس بالشيء: أحدقوا واستداروا به.

الكمال لم يجمعه فرده، أم أي وقار لم يتحل به طوده، أم أي أمل لم يغمره جوده. دام بقاؤه، واتصل عزه وارتقاؤه. ولا زال وملوك العباد مماليكه وأرقاؤه. سآتي من التعريف بقدره، وذكر أوليته وسيره، وما جمعته أيامه من أثره؛ بما أمكن القلم الإتيان به حسب الوسع. ومن الله أسأل العون والتوفيق والإرشاد إلى سواء الطريق؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه.

* * * * *

الباب الأول

في ذكر سجاياه الكريمة وسيره الحميدة

إشتمل هذا الخليفة[1] – أيده الله – من خلال الكمال، وكمال الخلال على آي لا تحصى، وانفرد من عوالي المعالي، والمعالي العوالي بالمطمح الأقصى. عيص ريحاني الشجار[2]، وخلق طالبي النجار، وخلق للمحاسن في آيات فرقانه آي اشتجار. فما شئت من شرف ملتف الوشيج[3]، ودين سابري النسيج، وفضل على أيمة الأمة ليس بالمريج[4]؛ فالمعارف واضحة البرهان، والمفاخر مسلم لجيادها السبق في يوم الرهان، والسراوة معلمة البرد، والمجادة محكمة السرد، والمعالي تقاصر عن حسبانها مدارك الزوج والفرد؛ إلى النائل والحلم الواضح الدلائل، والعدل المتفيئة ظلاله عن اليمين

---

[1] يقصد بقوله: الخليفة هنا؛ السلطان أبا حمو موسى الثاني.

[2] عيص جمع أعياص: منبت خيار الشجر. نقول (هو من عيص كريم). وريحاني الشجار: طيب في رائحة العود.

[3] الوشيج: اشتباك القرابة.

[4] ليس بالمريج هنا: ليس بالمختلط أو الملتبس.

والشمائـــل، في حـــزم مـــاضي الشبـــاة[1]، ودهـــاء يشـــرق نـــور سياسيـــة منـــه بالمشكـــاة؛ مـــع الجنـــان العطـــوف، والهمـــة الغـــروف، والفضـــل المشهـــور المعـــروف؛ فالإصابـــة خصـــل، والفضـــاء فصـــل، والمستخـــدم يراعـــة أو نصـــل؛ قلـــت:

الطويـــل:

خـــلال نمتهـــا للكمـــــال عصابـــــة
فمنهـــم وصـــي طاهـــــر وبتـــــول[2]
ترنـــح عطفـــاه إذا ذكـــرت عـــلى
وليـــس ســـوى حـــب الفخـــار شمـــول
صفـــوح عن الجـــاني كظـــوم لغيظـــه
فـــؤول بمـــا شـــاء الكمـــال فعـــول
عطـــوف على الراجي رعوف بقومـــه
فصـــول لأجـــل الله فيـــه وصـــول

نهـــوض لكســـب الحمد ينظـــم شملـــه
وقـــور إذا هـــول الخطـــوب مهـــــول
غمـــام إذا أعـــطى همـــام إذا سطـــــا

[1] الشبـــاة: حـــدُّ كـــل شـــيء، وأبـــرة العقـــرب.

[2] البتـــول: الـــذي انقطـــع عـــن الـــزواج:

فلا صعب إلاّ في يديه ذلول
مراقي سناءٍ دونه الأوج رفعة
ومرمى علاه ما إليه وصول
ولا عيب إلا أن عضب مضائه[1]
لتشديخ هام الخطب فيه فلول

فلمقامه الكريم مثل المحامد الأعلى، ولسلطانه الشريف حيز قدح المفاخر المعلى، وفي فرات أخلاقه تكرع ظماء المعالي نهلا وعلاًّ، ولتداول بشره واعتراضه تقرأ: ((**وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى**))[2]. فإن سفر؛ فالقمر ليلة تمامه، أو التثم فذكاء[3] من وراء غمامه، أو ركب فالعسكر اللجب مهابة وجلالاً، أو مشى فالروض المعجب نضارة وجمالاً؛ ويقتعد سرير الخلافة؛ فكأنما هو الضرغام[4]، ويقضي بكتاب الله وسنة رسوله؛ فتمضي بفصل خطابه الأحكام، لا يرسل لسوى مرضاة الله

---

[1] العضب: السيف القاطع.
[2] سورة الليل، الآيتين: 1 ـ 2 .
[3] سفر: كشف عن وجهه. إلتثم: شد اللثام على أنفه أو فمه. ذُكاء: اسم علم للشمس. يقولون: (طلعت ذُكاء).
[4] الضرغام: الأسد. والضرغام: الشجاع، والقوي.

سهماً، ولا يقطع إلاّ في السياسة والنفابة يقظة ولا حلماً؛ قد نبذ الرياض المزهرات، والقصور المحبرات؛ اكتفاءً بالبيض الصفاح[1] عن بيض هاتيك الصبّاح، وبالسّمر الرّدينيات الرّماح عن سمر مقصورات الفصاح، وبصهوات العراب المسروجة عن نمارق الأرائك المنسوجة، وبمطلق الصهيل والصليل عن نغمات المثالث والمثاني في البكرة والأصيل، وبثمار السنابك من العثير عن دخاني المندل والعنبر العبير، وبعَرْفِ الأذخر والجليل عن شذا رياحينها الجليل:

الطويل:

لـه الله مـن ذي همـة همـه العـلَى
فليس لـه سعي على الحرب زائد
كأن عداه إذ تحس ببأسه
قطا قد أثارتها صقور صوائد

قلت أيضاً:

الكامل:

لو أن أهل الأرض شخص جمعت

---

[1] بيض الصفاح: السيوف.

فيه العلى ما كان من أكفائه
لله فيه سر غيب كامن
قد دق عن ألبابنا بخفائه
الله يكلأ نفسه العليا فما
للدين محبوب سوى حوبائه
قد حمل الأعداء من وطآته
ما حمل الأيام من أعبائه

فاقتاد بزمام مهابته الدنيا الحرون، ودمث بسنابك آرائه حوادثها الحزون، وعلم بصحة تجاربه ما يكون فيها قبل أن يكون؛ فهو كما قال جده **علي ابن أبي طالب لابن عمه عبد الله بن العباس** رضي الله تعالى عنهم: ((**لله أنت من رجل فلقد تنظر إلى الغيب من ستر رقيق**))؛ فليقظة حربه نام **عمرو الحروب**[1]، وبصرامة إقدامه تجلت عن **معدي كرب**[2] غمرات الكروب؛ فمن **زيد الخيل**[1]، وأين

---

[1] معنى هذه الجملة غير واضح. وربما سقطت بعض الكلمات أثناء النسخ. ويرى أبو عياد أنه يقصد عمرو بن معدي كرب الزبيدي.

[2] معد كرب أو (يكرب) بن سيف بن ذي اليزن؛ من أقيال اليمن. ويبدو أن يحيى بن خلدون يقصد هنا عمرو بن معدي كرب بن عبد الله الزبيدي؛ من أشهر فرسان العرب وسيد قومه. وفد على الرسول صلى

عامــر بــن الطفيــل[2]، ومــا ابــن المكــدم[3] وأيــده، وعمــرو ابــن العــاصي[4] وكيــده؛ كــلاّ إن هي إلاّ الشجاعــة العلويــة، تعضدهــا عنايــة الله العلويــة. وليــوم سلمــه خلــق الرخــاء، والجــود والسخــاء، والبــأو[5] في العــز والانتخــاء، ثــم الحلــم

اللــه عليــه وسلــم وأسلــم؛ ولكنــه ارتــد، ثــم عــاد إلى الإســلام. وقــد أبــلى في القادسيــة بــلاء حسنــاً.

[1] هــو زيــد بــن مهلهــل بــن زيــد الطــائي (النبهــاني). ســمي زيــد الخيــل لكثــرة خيلــه. وهــو سيــد مــن أسيــاد العــرب وأحــد فرسانهــا المشهوريــن؛ وفــد عــلى رســول اللــه، وأسلــم عــلى يديــه؛ فسمــاه عليــه الســلام ((زيــد الخيــر)). وتــوفي بالحــمى في أرض نجــد عنــد عودتــه.

[2] سيــد بــني عامــر بــن صعصعــة ومــن أشهــر الفرســان في الجاهليــة؛ اشتهــر بالغطرســة والعنجهيــة الجاهليــة والكبريــاء. وفــد عــلى رســول اللــه صــلى اللــه عليــه وسلــم؛ ولكنــه بــقي عــلى ضلالــه وكفــره؛ فــدعى عليــه الرســول؛ فأصيــب بالطاعــون ومــات. مــن شعــره:

وإني وإن كنــت ابــن سيــد عامــر
وفارسهــا المشهــور في كــل موكــب
فمــا ســودتــني عامــر عــن وراثــة
أبى اللــهُ أن أسمــو بجــدٍ ولا أبِ

[3] هــو ربيعــة بــن مكــدم الكنــاني؛ أحــد الفرســان المشهوريــن في الجاهليــة. جــرت العــادة أن يُعْــقــر عــلى قبــره في الجاهليــة. وقــد انفــرد بهــذا عــن غيــره.

[4] هــو أبــو عبــد اللــه عمــرو بــن العــاص بــن وائــل السهــمي القــرشي (50 ق هــ/574م ــ 43هــ/664م)؛ فاتــح مصــر. اشتهــر بالدهــاء وحبــك المكائــد. كــان في الجاهليــة مــن أشــد النــاس عــلى المسلميــن؛ ولكنــه أسلــم بعــد هدنــة الحديبيــة.

[5] بــأى بــأواً: عليهــم؛ أي تكبَّــر وفخــر.

والأغضاء، والطاعة لله ورسوله والإرضاء؛ فمن الأحنف[1] يومئذ أو إياس[2]، ومن للسموئل بن عادي[3] بالقبض على ذلك الرئاس، وأين ابن مامة[4] وحاتم طيّ[1] عند القياس:

---

[1] هو صخر أو (الضحاك) بن قيس بن معاوية بن حصن السعدي التميمي؛ سمي الأحنف لحنف في رجله. ضرب به المثل في الحلم والسيادة والحكمة. أدرك النبي ولكنه لم يره؛ ومع ذلك فقد أسلم. وتقول الرواية أن الرسول عليه السلام بعث من يدعو قوم الأحنف بن قيس للإسلام؛ فنصحهم الأحنف بالاستجابة لداعي الإسلام قائلاً: إنّه يدعوكم إلى خير، ولا أسمع إلاّ حسناً. فلما علم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك قال: ((اللهم أغفر للأحنف)). راجع خبره في سرح العيون، ص ص: 104 ــ 112.

[2] هو إياس بن معاوية بن قرة المزني. تولى قضاء البصرة؛ واشتهر بالفراسة والذكاء؛ إذ يضرب به المثل فيقولون: (أذكى من إياس). وفيه يقول أبو تمام:

في حلم أحنف في ذكاء إياس

[3] اسمه السموءل بن عادياء من قبيلة بني غسان؛ ويعتنق الديانة اليهودية. عاش أيام الشاعر إمرؤ القيس الكندي. اشتهر بالوفاء والتضحية في سبيل الحفاظ على العهد. ويضرب به المثل في الوفاء فيقولون: (أوفى من السموءل). وله قصة مشهورة يتناقلها الأخباريون. ويعد من بين الشعراء الجيدين فمن قوله:

إذا لم يدنس من اللؤم عرضه

فكل رداء يرتديه جميل

[4] هو كعب بن مامة الإيادي. اشتهر بالجود والكرم؛ حتى أن العرب قالوا: (أجود العرب في الجاهلية ثلاثة: حاتم الطائي وهرم بن سنان=

الكامـــل:

لا تنكـــرو ضـــربي لـــه مـــن دونـــه
مثـــلا شـــرودا في النـــدى والبـــأس
فالله قـــد ضـــرب الأقـــل لنـــوره
مثـــلا مـــن المشكـــاة والنبـــراس[2]

ولـــه ـــ أيـــده الله ـــ نظـــم ارتفعـــت طبقتـــه عـــن شعـــر الملـــوك[3]، وسياســـة تَكَفَّلَ بتعريـــف فضلهـــا تأليفـــه

=وكعـــب بـــن مامـــة). ويقـــال أنـــه آثـــر رفيقـــة النَّمـــري بالمـــاء؛ وبـــقي هـــو عطشانـــاً حـــتى مـــات ونجـــا النَّمـــري. ويقـــول أحدهـــم فيـــه:

يجـــودُ بالنّفـــسِ إنْ ضـــنَّ البخيـــلُ بهـــا
والجـــودُ بالنفـــس أقـــصى غايـــة الجـــودِ

[1] هـــو حاتـــم بـــن عبـــد اللـــه بـــن سعـــد الطـــائي. اشتهـــر بالجـــود والكـــرم. لـــم يـــدرك الإســـلام؛ إذ مـــات قبـــل البعثـــة. ويعتبـــر مـــن فحـــول الشعـــراء. ومـــن قولـــه لزوجتـــه:

أمـــاويّ إن المـــال غـــادٍ ورائـــحٌ
ويبـــقى مـــن المـــال الأحاديـــث والذكـــرُ

[2] يشيـــر هنـــا إلى قولـــه تعـــلى: ((اللَّـــهُ نُـــورُ السَّمَـــاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَـــلُ نُـــورِهِ كَمِشْكَـــاةٍ فِيهَـــا مِصْبَـــاحٌ الْمِصْبَـــاحُ فِي زُجَاجَـــةٍ الزُّجَاجَـــةُ كَأَنَّهَـــا كَوْكَـــبٌ دُرِّيٌّ يُوقَـــدُ مِـــنْ شَجَـــرَةٍ مُبَارَكَـــةٍ زَيْتُونَـــةٍ لا شَرْقِيَّـــةٍ وَلاَ غَرْبِيَّـــةٍ يَكَـــادُ زَيْتُهَـــا يُـــضِيءُ وَلَـــوْ لَـــمْ تَمْسَسْـــهُ نَـــارٌ نُـــورٌ عَـــلَى نُـــورٍ يَهْـــدِي اللَّـــهُ لِنُـــورِهِ مَـــنْ يَشَـــاءُ وَيَضْـــرِبُ اللَّـــهُ الأَمْثَـــالَ لِلنَّـــاسِ وَاللَّـــهُ بِكُـــلِّ شَـــيْءٍ عَلِيـــمٌ)).ســـورة النـــور، الآيـــة: 35.

[3] ينـــوه بشاعريـــة أبي حمـــو بيـــن ملـــوك عصـــره.

المسمى "بنظم السلوك"[1]، وعلم جلا نوره عن الدنيا مدلهمات الحلوك، وخضوع إلى الله لا تطمس معالم نهجه المسلوك، واختصه الذي يزيد في الخلق ما يشاء بأحلام كأنما هي فلق الصباح، وألمعية تزري في مشكاة حجره بضوء المصباح، ورأي يحط عصم الأهواء من معاقل إبانها إلى صعيد الاستفتاح:

البسيط:

يأوي إلى عزة فعساءَ[2] مرغمة
أنف الزمان على ما فيه من أشر[3]
لا تقلت الحرب من أيدي عزائمه
أو يجعل الهام أجفان الظبى البتر
جارٍ على شأو آباءٍ غظارفة[4]

---

[1] يشير هنا إلى الكتاب الذي ألفه أبو حمو موسى الثاني؛ وعنوانه (واسطة السلوك في سياسة الملوك).

[2] فعس الفاعوسة: نار وجمر بدون دخان.

[3] الأشر: الأسنان الحادة المسننة كالمنشار.

[4] الشأو: الأمد. والغاية. و(فلان بعيد الشأو): أي عالي الهمّة. أما بخصوص. غظارفة: فيبدو أنها حرفت؛ والصحيح هو (غطارفة) بالطاء المهملة. بمعنى: من يتصف بالقوة والشجاعة والضرف والحسن والسخاء والسؤدد.

أسـد على الخيـل أقمـار على السـرر
لا تستليـن المنايـا عجـم عودهـم[1]
والنبـع ليـس بمنسـوب إلى الخـور

((ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤتِيهِ مَنْ يَشَاءُ))[2]، اختصاصه المرتب على قواعده الإنشاء، فهو الإمام الذي شرف أصلاً وفرعاً، ووجبت خلافته الهاشمية طبعاً وشرعاً، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **((الخلافة في قريش والأئمة من قريش))**.[3] وقال للأنصار: **((منكم الوزراء ومنا الأمراء))**[4]. وروى **الأعمش** عن **أبي سفيان** عن **جابر بن عبد الله**؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **((الناس**

[1] عجم عودهم: صلابة عودهم. يقولون: (عجم عجماً العود): عضَّه؛ ليعلم صلابته.

[2] سورة الحديد، من الآية: 21.

[3] جاء هذا الحديث في سنن أبي داود هكذا: ((قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الأئمة من قريش)). أنظر معالم السنن "وهو شرح سنن الإمام أبي داود"، مج: 3، ص: 5. بينما ينسب الترميذي حديث مثله إلى عمرو ابن العاص؛ ويقول عنه أنه حديث حسن صحيح غريب. أنظر سنن الترميذي؛ ج: 3، ص: 342.

[4] ورد في طبقات ابن سعد أن هذا القول لأبي بكر الصديق؛ إذ قال: (نحن الأمراء وأنتم الوزراء)؛ وذلك رداً على مقالة الأنصار (منا أمير ومنكم أمير). ج: 3، ص: 182.

تبع لقريش في الخير والشر)). وروى عبد الأعلى عن معمر الزهري عن سهل بن أبي خيثمة؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((تعلموا من قريش ولا تعلموها وقدموا قريشاً ولا تؤخروها)). وروى يزيد بن عمرو عن محمد بن يوسف عن أبيه عن إبراهيم ابن أبي إبراهيم عن مكحول؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((لا يقومن أحد إلاّ لهاشمي)).[1] وروى حميد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن المؤمل عن إعطاء عن ابن عباس؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إذا اختلف الناس فالحق في مضر)).[2]

---

[1] أورد الترميذي وأبو داود ما يخالف هذا القول: ((عن أنس قال: لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا؛ لما يعلمون مقعده من كراهيته لذلك)). حديث حسن صحيح غريب. سنن الترميذي، ج: 4، ص ص: 183 ــ 184. وورد في سنن أبي داود أن معاوية قال: ((سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من أحب أن يمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده في النار)). معالم السنن، مـ ج: 4، ص: 156.

[2] لم نعثر على ما يثبت صحة هذه الأقوال كلها؛ غير أننا نلفت انتباه القارئ إلى الموجة العارمة الساعية لانتحال الأحاديث النبوية تبعاً لأهداف سياسية؛ خاصة في عهد بني أمية، وفي وقت انتشرت فيه المذاهب والفرق المختلفة.

إلى أحاديث متعاضدة في فضل قريش واستحقاقها الخلافة؛ فإن قلتم المراد من الخلافة حفظ نظام الأمة، وإقامة شرائع الملة، والذب عن بيضة الإسلام؛ فأيما رجل اضطلع بذلك لوفور شروطه فيه، وقوة عارضة حاميته كان خليفة؛ بدليل قوله صلى الله عليه وسلم: **((لا يزال هذا الأمر في قريش ما أقاموا الدين))**.

قلنا سلمناه؛ لكن إذا حضر رجلان جمع كل واحد منهما شروط الخلافة؛ إلاّ أن أحدهما ليس بقرشي؛ كان القرشي أولى؛ عملاً بمقتضى الأحاديث النبوية، وتوخياً للكمال. ولا يرتاب كل منصف نابذ لهواه في إستحقاق هذا الإمام الأعلى ــ أيده الله ــ الخلافة بدينه وفضله وسياسته وعدله وعلمه وبره وذاته وقدره وحمله وخصله وفرعه وأصله فهو المعني بقول **أبي العتاهية**[1]:

المتقارب:

---

[1] **اسمه بالكامل إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان (130هـ/748م ــ 210هـ/ 825م). ولد في بلدة صغيرة بالأنبار تسمى عين التمر؛ وعرف بأبي العتاهية. تربع على عرش شعر الزهد في العهد العباسي. قال هذه القصيدة في في الخليفة العباسي المهدي.**

أتتــه الخلافــة منقــادةً
إليـــه تجــرِّرُ أذياليهــا
فلــم تــك تصلــح إلاَّ لــه
ولــم يــك يصلـــح إلاَّ لهــا

ولــو رامهــا أحــد غيــره
لَــ(زُلْزِلَــتِ الأرْضُ زِلْزَالَهَــا)[1]

فليكــفِ الملــك شرفــاً ارتياعــه بــروض فنائــه، وتجليــه عــن الدنيــا وسكانهــا مــن ريــع سنائــه؛ وحســب الرعايــا مــا أظلهــم مــن سيــره الحســنى، وشملهــم مــن قسطـــاس عدلـــه الأســنى. فلقــد قســم ــ أيــده الله ــ زمنــه فيهــم بيــن حكــمٍ يقضيــه، وحــقٍ يمضيــه، وعــافٍ يرضيــه، وسيــف لحمايــة الديــن ينضيــه، وجفــن عــن عــوار الأمــة يغضيــه، وسبيــل إلى مرضــاة الله ومرضــاة رسولــه يفضيــه.

يبــدأ ــ خلــد الله ملكــه ــ بقضــاء حــق الله تعــالى مطفــف الكيــل، ثــم بضــرورات ذاتــه الكريمــة منــزورة النيــل، ويجلــس لمصالــح العبــاد **((طَــرَفَيْ النهــار**

[1] هــذا العجــز مقتبــس مــن الآيــة الأولى مــن ســورة الزلزلــة: ((إِذَا زُلْزِلَــتِ الأرْضُ زِلْزَالَهَــا)).

وزلفاً من الليل))[1]؛ مصطفياً من أعلام قومه أولي الشهرة والفضل خلفاءَ قد عرف لهم الحق، وسلم إليهم بميدان السن والمعرفة السبق؛ يظللهم بين يديه الجلال، ويغض من أبصارهم المهابة والإجلال؛ فكأنما على رؤسهم الطير[2]؛ فمن كتائب للحروب تجهز، وآمال من المفاخر تنهز، ومواعيد في سبيل المعالي تنجز، ورسائل توقيعها لأجل السياسة يؤجز، ومال يجبى فيخزن، وأرزاق تنقد وتوزن.

عَيَّنَ – أعلى الله مقامه – أصائل عروبة[3] للشاكين؛ فيأتونها ((مِنْ كُلِّ فَجٍ عَمِيق)).[4] ركباناً وعلى كل ضامر أو فنيق[5]. فإذا صلى العصر واقتعد سرير الخلافة بمشوره الأعظم؛ فتحت

[1] اقتبس هذا من قوله تعالى: ((وأقم الصّلاة طرفي النّهار وزُلَفاً من اللّيلِ إنّ الحسنات يُذْهبْن السّيِّئات ذلك ذكْرى للذّاكرين)). الآية 114، سورة هود.

[2] هذا مثل أطلق على مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ إذ يقال: (أنه إذا تكلم عليه السلام أطرق جلساؤه؛ كأنما على رؤوسهم الطير). والمراد بذلك أنهم يصمتون في سكون تام؛ ولا يتكلمون. وعليه فالطير لا تسقط إلاّ على ما هو ساكن.

[3] عروبة أو العروبة: الأسم القديم ليوم الجمعة.

[4] من الآية: 27 من سورة الحج.

[5] الضامر هنا: الفرس أو الناقة اللطيفة الجسم، الهزيلة البطن. أما الفنيق: المركوب الممتلئ المتنعم في العيش.

الأبواب، وأذن لهم فدخلوا؛ لا يحويهم الكت[1] والحساب، ثم اصطفوا شاخصة أبصارهم تجاهه؛ يذكر مرآهم العرض الأكبر؛ فيقدمون إليه واحداً بعد واحد ـ سواءٌ في ذلك الشريف والمشروف، والقوي والمضعوف ـ فينصف المظلوم، ويعدي المستجير، ويهدي العائل، ويرحم المسكين؛ إلى غروب الشمس؛ سُنة متصلة غير منفصلة، وعادة مبتدعة لا تهمل. وقد وسع الناس عدله وشملهم فضله وبذله؛ فهم بين راج أو خائف؛ فلا الراجي يفوته الغنى، ولا الخائف ينجيه الحذر:

<u>الخفيف:</u>[2]

ذي المعالي فلْيَعْلُوَنْ مَنْ تعالَى
هكذا هكذا وإلاّ فلا لاَ
شرف يمتطي[3] النجوم بنعليـ
ـه وعز يقلقل الأجبالا

---

[1] كتّ كتاً: عدّ وأحصى.

[2] هذين البيتين للمتنبي.

[3] في الديوان: ينطح النجوم بروقيه.

قال ابن عبد البر: قال النابغة لعبد الله ابن الزبير: ـ أيام إمارته بمكة شرفها الله؛ وقد أحسن إليه ـ أشهد؛ لقد سمعت رسول الله صلى عليه وسلم يقول: **((ما وليت قريش فعدلت، وحدثت فصدقت، ووعدت خيراً فأنجزت؛ إلاَّ وذكر كلمة معناها أنهم تحت النبئين بدرجة في الجنة))**. وأنا أشهد أن هذه الصفات المشروطة متجمعة في هذا الخليفة الهاشمي ـ أيده الله ـ فهو الكامل في الحياة الدنيا، والمجاور للنبئين ـ إن شاء الله ـ في الجنة. فالحمد لله الذي جعلنا من أهل إيالته، وشرفنا بطاعته، ونظمنا في سلك جماعته. أدام الله أيامه، ونصر أعلامه، وحلّى كلامه، وعلّى مقامه بحمد الله.

* * * * *

الباب الثاني

في أوليته ومصير الملك إليه

هو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن ابن يحيى بن يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد بن سدوكسن بن أطاع الله بن علي بن يمل ابن يزجن ابن القاسم بن محمد بن عبد الله بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن محمد بن الحسن بن علي ابن أبي طالب بن عبد المطلب ابن هاشم:

الكامل:

نسب كأن عليه من شمس الضحى

نوراً ومن فلق الصباح عمودا

وقد مر التعريف بأمير المسلمين أبي يحيى يغمراسن[1] بن زيان ـ قدسه الله تعالى ـ وأما ولده يحيى ـ رضوان الله عنه ـ فشريف ولد أبيه، وولي

[1] هو يغمراسن أو إغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد مؤسس دولة بني عبد الواد. حكم من سنة 633هـ/1236م إلى سنة 681هـ/1283م.

عهده؛ لو فسح في عمره؛ وبه يكنى. وكان ـ رحمه الله ـ يقول إذا رآه: **((يعقوب ولدي هذا تحيى دولة بني عبد الواد، وفيهم يبقى ملكنا إلى آخر الدهر))**. مولده **بتلمسان**[1] سنة تسع وثلاثين وستمائة [1241م].

وكان ما كان من الفضل والشهامة والأقدام؛ تأمر في **سجلماسة**[2] عن أبيه[3] سبع سنين، وتوفي **بتلمسان** سنة ستين[4]؛ فخرج والده ـ رضوان

---

[1] تلمسان: هي من أعظم مدن بلاد المغرب. بناها أول مرة الرومان؛ إذ كانت تسمى عندهم (بوماريا)؛ ثم أعاد بناءها أبو قرة اليفرني واتخذها حاضرة لملكه. ثم انتقل أمرها إلى المغراويين الذين اتخذوها عاصمة لدولتهم. ولما قدم سليمان بن عبد الله الكامل أسس بها دولته العلوية التي تشمل المغرب الأوسط. كما أصبحت في أيام بني عبد الواد عاصمة لدولتهم طوال حكمهم للمغرب الأوسط؛ إلى أن سقطت نهائياً في العهد العثماني (التركي).

[2] سجلماسة: مدينة صحراوية تربط بين شمال المغرب وجنوب الصحراء ـ في الطريق التجاري نحو إفريقيا السوداء ـ بناها المكناسيون سنة 140 هـ/757م؛ عندما أسسوا دولتهم الخارجية الصفرية؛ التي عرفت باسم دولة بني واسول أو بني مدرار. وهي مندثرة حالياً. أما موقعها الآن فيتواجد في منطقة تافيلالت المغربية.

[3] يغمراسن.

[4] يقول عبدالرحمن بن خلدون أنه استعمل على سجلماسة سنة إحدى وستين وستمائة [1262]. وفي هذه الحال تكون مماته في تلمسان بعد هذا التاريخ.

الله عليه – في جنازته راجلاً. وقبره – رحمه الله تعالى – بدار الراحة من الجامع الأعظم.

وأما ولده **عبد الرحمن**[1] فمحسد[2] آل بيته فضلاً معروفاً، ومجداً مشهوراً، وديناً متيناً وحصافة. أجازه عمه السلطان **أبو سعيد**[3] **ابن يغمراسن** إلى **الأندلس**[4] بولده – حذراً منه على سلطنه[5]؛ لمكان بنوته من وليّ العهد – سنة أربع وتسعين وستمائة [1294م]؛ فأقام بها مكرماً، موفى البر، معروف القدر؛ إلى أن جاءه به ملك المغرب[6]؛

---

[1] يقول عبد الرحمن بن خلدون أنه ولد في سجلماسة عندما كان والده يحيى والياً عليها. أنظر العبر، مج: 7، ص: 238.

[2] الحسد: أن تتمنى زوال نعمة المحسود إليك. ومحسَّد: المحسود؛ وفي هذا قال أحدهم:

وتَرى اللّبيب مُحسَّداً لم يَجْتَرِمْ
شتْم الرِّجال، وعِرْضُهُ مشْتُومُ

[3] عثمان بن يغمراسن؛ ثاني سلاطين الدولة العبد الوادية.

[4] بقي مرابطاً في ثغر قَرْمُونة إلى أن استشهد بها أثناء الجهاد. أنظر العبر، مج: 7، ص ص: 238 – 239.

[5] سلطانه أصح.

[6] وهو أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق. حكم دولة بني مرين من سنة 710هـ/1310م إلى سنة 731هـ/1330م..

لاشجاء[1] ابن عمه السلطان ابن أبي سعيد عثمان[2] به؛ فقدم عليه، وأقام بالمغرب مُعَظّم الجناب مرعي الذمام أياماً قلائل؛ ثم ظهر ملك المغرب على نعرة الرجل لقبيله، وإيعازه إلى ابن عمه بكل مرءى ومسموع؛ فصرفه عن قطره بخير؛ ولحق **بتلمسان** سنة إثنتي عشرة وسبعمائة[3].

فلما بصر به ـ صدر موكب بنيه الغر ـ لم يأمن على ملكه منه؛ فاقتدى في إجازته ـ وإياهم ـ البحر إلى **الأندلس**[4] سنة ثلاث عشرة وسبعمائة [1313م]؛ لما كتب له من فضل الشهادة وأعد له من الفوز بالسعادة. فاستقر ثانية

---

[1] جاجا: دعا. أي إلى أن دعاه ملك المغرب. أما شجى لشجى إشجاءً الرجل: أحزنه. وشغله واعترضه. وهذه الجملة تعني: أن ملك المغرب دعاه لإشغال ابن عمه أبي حمو الأول.

[2] يبدو أن المقصود هنا هو أبو حمو موسى الأول ابن أبي سعيد عثمان ابن يغمراسن.. حكم دولة بني عبد الواد من سنة 707هـ/1308م إلى سنة 718هـ/1318م.

[3] 1313م.

[4] الأندلس: نسبة إلى الفندال أو الوندال (وندلس أو فندلس)؛ أطلق هذا الاسم على جنوب إسبانيا بالتحديد. ظهر ذلك منذ الفتح الإسلامي لتلك الديار سنة 92هـ/710م. وبعد سقوط الدولة الأموية في المشرق لجأ إلى الأندلس عبد الرحمن الداخل الملقب بصقر قريش؛ حيث أسس بها الدولة الأموية الثانية سنة 133هـ/750م.

بإغرناطة[1]؛ معظم القدر، معروف الحق، ظاهر الغيث، مشهور الغنى في الجهاد؛ حتى إذا استنصر **أبو الجيوش**[2] ـ مخلوع **بني نصر**[3] ـ بالروم على قريعه في الملك، وقسيمه في النسب ـ السلطان **أبي الوليد بن فرج**[4]. والتقى أهل الملتين **بوادي فرتونة**[5] سنة ست عشرة وسبعماية؛ انهزم المسلمون، وألجأهم الروم إلى وعر مضيق استجنوا[6] فيه بستة عشر نفراً من المسلمين؛ كان الأمير **أبو زيد**[7] هذا أغناهم في الله إلى أن استشهد؛ نضر الله وجهه؛ بعد منال عظيم من عدو الله، وعناءٍ كبير

---

[1] إغْرَناطة أو غرْناطة: مدينة في كورة إلبيرة بالأندلس. أسست ـ على أنقاض مباني رومانية ـ زمن الثوار في العصر الإسلامي. أول من مدّنها وحصّن أسوارها حبُوس بن ماكسن بن زيري الصنهاجي ثم ابنه باديس ابن حبوس. أصبحت عاصمة لدولة بني الأحمر.

[2] هو أبو الجيوش نصر بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر (ت: سنة 722هـ/1322م). خامس سلاطين الدولة النصرية المنسوبة إلى بني الأحمر بغرناطة.

[3] سلاطين غرناطة بالأندلس.

[4] هو أبو الوليد إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن محمد؛ (ت: سنة 725هـ/1324م) السلطان السادس لبني نصر.

[5] في العبر: قرمونة. والصحيح وادي فرتونة كما جاء أيضاً في اللمحة البدرية في الدولة النصرية، ص: 84.

[6] استجنوا: استتروا.

[7] عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن. (جدُّ أبي حمو).

في ملة رسول الله. وترك بنين:[1] كبيرهم المولى **أبو يعقوب**[2]، وأخواه: **أبو سعيد**[3]، **وأبو ثابت**[4].

فأما المولى **أبو يعقوب**؛ فهو زاهد آل هذا البيت الشريف، وصقر **زناتة**[5] أجمعين، والواحد الذي لا نظير له: رجولة وفظلاً وحياءً وكرماً ومجداً وشرفاً. مولده سنة **تسع وثمانين وستمائة** [1290م]. وأقام **بالأندلس** ــ وأخواته بعد وفاة أبيهم ــ ليالي وأياماً آمنين؛ يتهلل بمرآهم وجه الإسلام، وتبأى بآثار سلفهم مواقف الجهاد[6]، وتخفض لأذمتهم أجنحة البرّ والإكرام. وشهدوا مع المسلمين وقائع جهادية؛ أحسن فيها المولى الصالح **أبو يعقوب** ــ

---

[1] قال عبد الرحمن بن خلدون أنهم أربعة. العبر، مج: 7، ص: 239.

[2] يوسف بن عبد الرحمن.

[3] عثمان بن عبد الرحمن.

[4] الزعيم بن عبد الرحمن. ورابعهم هو إبراهيم بن عبد الرحمن.

[5] زناتة: قبيلة بترية أمازيغية عظيمة. يرى معظم المحققين أنهم ينحدرون عن شخص يسمى (زانا أو جانا أو شانا). وتتفرع زناتة إلى فروع كثيرة لا تحصى؛ بحيث أضحى كل فرع منها يعادل قبيلة أو أكثر. وحتى عبد الرحمن بن خلدون فإنه يضع زناتة في مرتبة جيل؛ أي أكثر من مرتبة قبيلة بكثير. ومواطن زناتة منتشرة عبر بلدان المغرب كلها؛ إلا أنها اختصت بالمغرب الأوسط. وأهم ما تميزت به زناتة هي روح البداوة، وحب الحرية والانطلاق في البراري مثل الأعراب.

[6] المقصود هنا هو: تفر بآثار سلفهم مواقف الجهاد.

قدسه الله ـ البلاء، وأجاد في جهاد الكفرة ما شاء؛ فارتفعت لذلك درجة إعظامه، وتضاعفت أقسام بره. وهنالك[1] ولد له مولانا الخليفة أمير المسلمين **أبو حمو موسى** ـ أيده الله ـ سنة **ثلاث وعشرين وسبعماية**؛[2] نبعة مجد وشرف، ودرة حسب وعلاء، وفرع شجرة **(أصلها ثابت، وفرعها في السماء)**[3]؛ طيب سليل أطايب، وكريم سبط أكرمين:

الطويل:

تخيره الله اعتناءً بأمره
لباب لباب طيباً فرع طيب
وأرشده لما اجتباه وإنه
ليختار للأمر العلي ويجتبي

---

[1] **أي في الأندلس.**

[2] **يرى صاحب روضة النسرين أنه ولد في سنة 722هـ/1322م. بينما يتفق التنسي في نظم الدر مع يحيى بن خلدون. أما ابن الخطيب فيقول: ((ولد بغرناطة ـ حسبما وقعت عليه بخط الثقة من ناسه ـ في أول عام ثلاثة وعشرين وسبعماية)). الإحاطة في أخبار غرناطة، ج: 3، ص: 292.**

[3] **اقتبس هذا من قوله تعالى: ((كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ)). من الآية 14 من سورة إبراهيم.**

فانتقى سبحنه(؟) له الأباءَ، وارتضى لمولده الدار، واصطفاه لأحياء رسوم الخلافة. وفي سنة هذا المولد المبارك[1] استقدم السلطان **أبو تاشفين**[2] ــ رحمه الله ــ المولى **أبا يعقوب** وإخوته؛ ووفدوا عليه؛ فرحب وسهل، وأعز وأكبر، ورفع الرتب وأعظم الجريات. فكان ذلك مبتدأ الخبر، ومركز دائرة المنال، ووتد نظم هذه الدولة وسببها. و((**يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الكِتَابِ**))[3]. فنشأ هذا الإمام الأعلى ــ أيده الله ــ **بتلمسان** مظطأر[4] عز وشرف، ومكفول طهارة ومجد، ومحضون عفاف وصون. ثمت شبّ مطمح آمال، وثلج صدور، وقرة أعين، ومفخر أعمام وأخوال.

---

[1] أي في السنة التي ولد فيها أبو حمو موسى بن يوسف؛ وهي سنة 723هـ/1323م.

[2] هو أبو تاشفين عبد الرحمن الأول ابن موسى بن عثمان بن يغمراسن. حكم دولة بني عبد الواد من سنة 718هـ/ 1318م إلى سنة 737هـ/1337م.

[3] سورة الرعد، الآية: 39.

[4] كان الأصح أن يقول: مستظأر عز وشرف. والظأر هو: عاطفة المرضعة من الإبل والناس على غير ولدها.وفي الحديث: ((من ظأره الإسلام)). أي عطفه عليه. وفي حديث علي كرم الله وجهه: ((أظأرُكُمْ إلى الحقّ وأنتم تفِرُّون منه)).

ومـــرت الأعصـــار، وتقلبـــت ــ كعادتهـــا ــ الصـــروف؛ إلى أن دالـــت أيـــام عميـــه السلطانيـــن المرحوميـــن: **أبي سعيـــد**[1] و**أبي ثابـــت**[2] ــ رضي الله عنهمـــا ــ كمـــا مـــر. فقنـــع والـــده المـــولى **أبـــو يعقـــوب**[3] ــ رضـــوان الله عليـــه مـــن ملـــك أخويـــه ــ بسكـــنى قصبـــة **ندرومـــة**[4]؛ زهـــداً في الدنيـــا، وتقلـــلاً مـــن متاعهـــا الذاهـــب وتخليـــاً؛ لعبـــادة الـــرب، والعمـــل النافـــع في الأخـــرى؛ فكـــان ــ أبقـــاه الله بهـــا معـــه ــ محمـــود السيـــر، ظاهـــر الشـــرف، مشهـــور الفضـــل؛ يحمـــل الكـــل، ويقـــري الضيـــف، ويوثـــر العفـــاف؛ فـــلا يعتـــرض الطيـــف؛ وشمائـــل الخلافـــة ــ مـــع ذلـــك ــ معروفـــه فيـــه، ومخائـــل الملـــك باديـــة عليـــه؛ والقلـــوب لإكبـــاره وإعظامـــه معتقـــدة، والأفـــواه بالثنـــاء عـــلى مجـــده قائلـــة، ولســـان دهـــره بمصيـــر الأمـــر إليـــه ناطـــق؛ يسمـــع

---

[1] عثمـــان بـــن عبـــد الرحمـــن؛ هـــو السلطـــان الفعـــلي لدولـــة بـــني عبـــد الـــواد عنـــد استحداثهـــا؛ حكـــم الدولـــة ــ مـــع أخيـــه الزعيـــم ــ مـــن سنـــة 749هـــ/1348م إلى سنـــة 755هـــ/1352م..

[2] الزعيـــم بـــن عبـــد الرحمـــن؛ مساعـــد السلطـــان عثمـــان وشريكـــه في الحكـــم.

[3] يوســـف بـــن عبـــد الرحمـــن.

[4] ندرومـــة: أخـــذت إســـم إحـــدى عشائـــر قبيلـــة كوميـــة. وتقـــع شمـــال غـــرب تلمســـن؛ في الطريـــق الرابـــط بينهـــا وبيـــن مـــرسى هنيـــن. وهي تستنـــد إلى جبـــل يســـمى تاجـــرا.

ذلــك عمــاه فــلا ينكرانــه؛ بــل يعترفــان بفضلــه في آل بيتهمــا ويرجوانــه.

ولمــا كــان أول شهــر ربيــع الأول سنــة **اثنتيــن وخمسيــن وسبعمائــة** [1351م]؛ ولــد لــه[1] المــولى **أبــو تاشفيــن**[2] كوكــب الشــرف الوقــاد، وهــلال الكمــال المنقــاد، ودرة التــاج، وفخــر الأخــدان والإنتــاج، فــرع دوحــة النبــوة والرسالــة، وجامــع خصلــتي: الكــرم والبسالــة؛ والأخــذ بمجامــع القلــوب؛ خلقــاً عظيمــاً وخلقــاً بهيــاً، والمحمــود بقولــه تعــالى: **((وَبَــرّاً بِوَالِدَيْــه ولَــمْ يَكُــنْ جَبَّــاراً عَصِيّــاً))**.[3]

حــتى إذا كــان ــ بقضــاء الله وقــدره ــ وقيعــة **شلــف**[4]؛ المتقدمــة الذكــر؛ شــرّق؛ وفــاءً مــع عمــه السلطــان **أبي ثابــت** ــ رحمــه الله ــ معززيــن مــن يحــيى

---

[1] يشيــر ــ هنــا ــ إلى أبي حمــو مــوسى بــن يوســف.

[2] ولي عهــده أبــو تاشفيــن عبــد الرحمــن الثــاني ابــن مــوسى بــن يوســف.

[3] ســورة مريــم، الآيــة: 14.

[4] شلــف: نهــر ذو امتــداد وطــول؛ يفــوق بقيــة الأنهــر في المغــرب الأوســط. ينطلــق مــن وســط الصحــراء ويصــب في البحــر ــ شــرق مستغانــم ــ ســمي باســم إحــدى المــدن الأزليــة المسمــاة **Castellum Tingitanum** القائمــة عــلى ضفتــه اليســرى. وهــذه المدينــة عرفــت في أيــام متأخــرة باســم الأصنــام. وعرفــت ــ قبــل ذلــك ــ باســم شلــف بــني واطيــل مــن زواغــة. أمــا الوقيعــة الــتي حدثــت بيــن أنصــار بــني مريــن وسلطــان بــني عبــد الواد أبي ثابــت بالشلــف فوقعــت في ســنــة 753هــ/1352م.

بن داوود ابن علي بن مجد[1] الوزير بثالث(؟). فلما عثر عليهم بليزر[2]؛ من أحواز **بجاية**[3] ــ كما مر ــ وجيءَ بهم في أسحال التنكير. قيل: من السلطان أبو **ثابت** منكم. فابتدر هذا الخليفة[4] ــ أيده الله ــ مؤثراً نجاة صنو أبيه؛ وباذلاً لفدائه مهجته، وسامحاً دونه من حياته بما لم يسمح بمثله أحد قبله؛ وقال: أنا؛ فاعتزوه[5] القوم محمولاً؛ وصاحباه يتلوانه راجلين؛ وهو يقول: أتركوهما؛ فقد ظفرتم مني

---

[1] سماه في الجزء الأول من البغية: الوزير يحيى بن داود بن علي بن مجن؛ وهو الأصح.

[2] في الجزء الأول: بليزُو. هذا ولم أتمكن من تحديد هذا المكان بالضبط.

[3] بجاية: أسمها القديم هو سالداي Saldae وكانت ــ في بداية أمرها ــ عبارة عن محطة ساحلية تجارية أسسها الفينيقيون. ثم وسعها الرومان بعد تغلبهم على قرطاج؛ وبعد ذلك اتخذها الوندال عاصمة لهم في القرن الخامس الميلادي. وفي العصر الإسلامي أضحت تسمى بجاية نسبة إلى قبيلة بجاية= =الصنهاجية التي كانت متواجدة في تلك البقاع. ثم أضحت عاصمة للدولة الحمادية. وسميت خلال الاحتلال الفرنسي بوجي Bougie، اختصاراً لكلمة بجاية. ومع هذا؛ يزعم بعضهم أنها سميت بذلك لاشتهارها بصنع الشموع؛ والشمعة باللغة الفرنسية هي بوجي. Bougie.

[4] أبو حمو.

[5] يبدو أن المقصود هنا هو: عَــزّزَهُ القوم بمركوب حملوه عليه.

بحاجتكم؛ إلى أن وصلوا معسكر **فارح**[1] ــ علج صاحب بجاية[2] يومئذ ــ **بخميس تيكلات**[3]. وكان به من عَرَفَ السلطان **أبا ثابت** ــ رحمه الله ــ فانتقلت أيدي الظنة إليه، ومالت عيون الرصد نحوه؛ وسئل: من الجائد دونك بنفسه. فقال معمياً لشأن ابن أخيه: هو من خول النعمة، وتبع الدولة؛ وأنشدكم الله إلاّ ما سرحتموه؛ فخلوا سبيله؛ وانصرف راشداً لطيته.

---

[1] هو حاجب الأمير أبي عبد الله حاكم بجاية؛ وكان مستبداً عليه. كما عرفه صاحب العبر على أنه مولى محمد بن سيد الناس (حاكم بجاية السابق). مج: 7، ص: 602.

[2] وهو أبو عبد الله محمد ابن أبي زكرياء يحيى.

[3] يبدو أن خميس تكلات تتميز بموقع هام؛ إذ اعتبر عبد الرحمن بن خلدون تيكلات ثغراً لبني عبد الواد حين قال: ((ونهضوا... إلى تيكلات ثغر بني عبد الواد؛ المجمرة بها الكتائب لحصار بجاية)). ويقول أيضاً: ((ورجع [أي قائد جيش أبي تاشفين العبد الوادي] إلى وادي بجاية؛ فاختط مدينة بتيكلات؛= =على مرحلة منها وعلى قارعة الطريق الشارع من الغرب إلى الشرق ... وسموها تيمزيزدكت؛ باسم حصنهم الأقدم بالجبل قبالة وجدة)). العبر، مج: 6، ص: 768. وفي موضع آخر يسميها خميس تيكلات؛ حيث يقول: ((واحتل الحاجب بمعسكرهم من خميس تيكلات)). وتكلات ربما تكون نسبة إلى تلكاتة ملوك القلعة وبجاية الصنهاجيين. ولكنها حرفت فكتبت (تكلاتة). راجع في هذا العبر، مج: 7، ص: 602. كما ذكرها أيام الفتنة بين الموحدين وابن غانية؛ فقال: ((ونزل السيد أبو زيد بعساكره بتيكلات من ظاهر بجاية)). العبر، مج: 6، ص: 393.

فانظر إلى شرف هذا البيت الكريم، وكرم خيَمِ هاذين الملكين، وبُعْدِ مستمى[1] فخرهما، وما أتى الله تعالى هذا الإمام الأعظم؛ من السبق إلى كل فخر، والامتياز بكل علاء، والاتسام بالشرف؛ الذي لا مبدأ قبله، ولا مرمى وراءه؛ فهل كان في الأمم الماضية، والقرون الخاليه؛ أو عدد في ممادح الملوك الغابرة نظير للتفادي بالمهج؛ ومثال للكرم بأعلاق النفوس، أو شبيه لتعاطي الحياة، والظن بالفناء؛ إن هو إلاّ الحياء المحض، والمجد الصراح، والكمال البخت، والشرف الموروث والمكتسب:

الكامل:

عن جودهم رويت أحاديث الندى
وبفضلهم نطق الكتاب المنزل
إن كنت تسأل عن تراث قديمهم
فاسألْ بهم يأيها المزمل
شرفاً بني حسن بن فاطم شاده
لكم وأعلاه النبي المرسل
ما طاولتكم في الفخار قبيلة

[1] تَسَامَى تَسامِياً القَوْم: تفاخروا. إستَمَى إستِمَاءً: توسم فيه الخير.

إلا ومجدكم أتم وأطول
أنتم مصابيح الهدى والناس في
طرق الجهالة حائر ومضلل

واستقر هذا الخليفة الأعلى[1] بحضرة تونس[2] آمن السرب، معظم القدر، مفترض الحق، مرفعاً عن النظير؛ على أكمل هيئات الإشراف؛ جمال شارة، وبهاء سمت، وكمال وقار وتؤدة؛ قد اتخذ تقوى الله شعاراً، وانتظار الفرج بالصبر دثاراً، وزيّ الجلال والكرم ظهاراً. فأنوار الخلافة تلوح بآفاق أساريره، وأزهار السعادة تفوح من خمائل شمائله، وألسنة الدهور تبوح بأسرار اصطفائه. فكم ألقي إليه من كتاب في الحدثان[3] كريم، وكم بشرى

---

[1] أبو حمو موسى بن يوسف.

[2] تونس: مدينة قديمة؛ ربما عادت نواتها الاولى إلى الفينيقيين؛ كما يعتقد حسن حسني عبد الوهاب؛ الذي يقول أنها كانت تسمى لديهم Thunes. غير أن Tunuza أو Tuniza هو الاسم القديم لمدينة القالة الجزائرية. أما الوزان فيرى أنها كانت تسمى أيام الرومان تونيوتوم. ولما قدم حسان ابن النعمان سنة 69هـ/688م، في جيش الفاتحين المسلمين؛ اتخذ من موقع تونس قاعدة عسكرية مجاورة لقرطاج. وأصبحت – مع الوقت – من أهم حواضر المغرب؛ خاصة إفريقية.

[3] الحدثان: جمع حديث؛ والحدثان هي حوادث الدهر. وقد اصطلح على إطلاق هذه الكلمة على كل عمل أو خبر له علاقة باستكشاف حوادث

همس له بها أولوا قرعة أو تنجيم، وكم رؤيا سمعها المعبر؛ فقرأ: **وَمَا يُلَقَّاهَا إلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**[1].

وَمَلِكُ المغرب السلطان **أبو عنان**[2] ــ أثناء ذلك ــ يسأل عن أخباره، ويدين بالثناء عليه، ويتطاول إلى ما أباه الله تعالى من المكروه فيه؛ علماً بما يكون ــ بعد ذلك ــ من شأنه؛ فيراسل ملك **تونس** يومئذ ــ **الأمير أبا إسحاق**[3] **إبراهيم ابن السلطان أبي يحيى ابن الأمير أبي زكرياء ابن السلطان أبي إسحاق ابن السلطان أبي زكرياء ابن عبد الواحد ابن أبي حفص**، ووزيره **أبا محمد عبد الله بن أحمد بن تيفراجين التينملي**[4] ــ في أمره، ويحض والده المولى **أبا يعقوب** رضي الله عنه ــ إذ كان مقره؛ بحافده المولى **أبي تاشفين** بعد ذهاب

الغيب؛ من أعمال الزيارجية وخط الرمل والتنجيم وغيره. وللتوسع في فهم عمل الحدثان يستحسن الرجوع إلى مقدمة عبد الرحمن بن خلدون: ((فصل في حدثان= الدول والأمم وفيه الكلام على الملاحم والكشف عن مسمى الجفر)). ج: 2، ص ص: 929 ــ 950.

[1] تقرأ الآية هكذا: ((وَمَا يُلَقَّاهَا إلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)). سورة فصلت، الآية: 35.

[2] هو فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق؛ يكنى أبا عنان. حكم دولة بني مرين من 749هـ/1348م إلى 759هـ/1358م.

[3] حكم الدولة الحفصية من سنة 750هـ/1350م إلى سنة 770هـ/1369م.

[4] توفي بتونس سنة 766هـ/1364م.

ملك أخويه **بفاس**[1] ـ على الكتب إليه، واستقدامه نحوه.

حتى إذ بلغ الكتاب أجله، وحكمت نصبة التحويل؛ باقتراب الميقات، ونظرت السعود إلى دليلها نظر مودة واتصال؛ تأذن الله بحركة ملك المغرب **أبي عنان** المذكور إلى المشرق؛ فملك **قسنطينة وبلد العناب**[2]، وصبح أسطوله حضرة **تونس**؛ فارتحل أميرها ـ **أبو إسحاق** المذكور ـ تلقاء **الجريد**[3]؛ في أواخر شعبان سنة ثمان وخمسين وسبعمائة (758) [1356م]؛ مرافقاً هذا الخليفة ـ أسماه الله ـ في الموكب والفسطاط، ومقاسمه في الحلو من أمره والمر؛

---

[1] فاس: أسسها إدريس الأول سنة 182هـ/808م. ثم اتخذها عاصمة لدولته بالمغرب الأقصى. ولما سقطت الدولة الإدريسية؛ تنافس عليها بنو يفرن ومغراوة. وعند قيام الدولة المرينية أضحت فاس عاصمة لها.

[2] هي عنابة؛ أسسها الفينيقيون في حدود القرن 12 ق. م. وهم الذين أعطوها اسم هيبو Hippo. ثم أضاف الرومان لاسمها كلمة ريجيوس Regius: أي الملكي؛ فغدا اسمها هيبو ريجيوس Hippo Regius. ثم تعددت أسماؤها مع الزمن ومختلف العهود؛ حيث سميت بـ: هيبونة، هيبون، وبونة، وبلد العناب، وبون، وعنابة.

3 منطقة في الجنوب التونسي اشتهرت بالنخيل؛ وهي تشبه منطقة الزاب في الجزائر.

إشجاءً[1] لصدر العدو[2] بإكباره، وكبحاً من جماحه بحكمة دعوته الزيانية.

وحلوا ـ بعد القفول من الجريد ـ بكورة تبسة[3] من إفريقية؛ ومعهم سُلَيْم[4] كافة؛ وملك المغرب[5] يتجسس على قيد رحلة أو اثنتين منهم؛ لا يستطيع الأقدام عليهم. ثم ولّى؛ غير متلوم[6]؛ ولا لاوٍ على متعذر[7]؛ وهم في أثره إلى أن كَعَّ[8] الموحدون[1]

---

[1] أشْجَى إشْجَاءً الرجل: أحزنهُ وهيّجهُ وأغصّهُ.

[2] وهم طبعاً بنو مرين.

[3] تبسة: مدينة أزلية قريبة من نهر مجردة؛ كانت عبارة عن تجمع سكاني لأهل البلاد الأصليين؛ ثم بناها الرومان بشكل أضحت تضاهي فيه قرطاج؛ وسموها Theveste. ويقول عنها الوزان: ((مدينة عتيقة حصينة بناها الرومان في تخوم نوميديا على بعد مائتي ميل جنوب البحر المتوسط؛ تحيط بها أسوار عالية، متينة، سميكة. مشيدة بحجر ضخم منحوت؛ شبيه بحجر الكوليزي في روما. ولم أر أسواراً من هذا الشكل؛ لا في إفريقيا كلها، ولا في أوروبا)). وصف إفريقيا، ج: 2، ص: 63.

[4] قبيلة سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان: قبيلة عربية كبيرة؛ لها تفرعات وعشائر كثيرة. كانت منازلهم بنجد. انتقلت منهم بعض العشائر إلى بلاد المغرب ـ مع بني هلال بن عامر بن صعصعة ـ حيث قاسموهم البلاد وزاحموهم في النفوذ والسلطان؛ غير أن معظمهم بقي في برقة وإفريقية.

[5] أبو عنان.

[6] المتلوم: المعترض، أو المنتظر لقضاء حاجة في نفسه.

[7] أي ولا ملتفت أو عاطف لما هو صعب. كقولهم: "تعذر عليه الأمر".

[8] كعّ كعاً: ضعف وجبن.

عـن التمـادي، وانثنـوا إلى وطنهـم. فمـر مولانـا الخليفـة[2] في اتباعـه ـ بمـن حضـره مـن قومـه، وعشائـر **زناتـة** ـ يشنـون الغـارة عـلى أطـراف ركابـه، ويذيقـون مـن تخلفـه وبـال أمـره وأصحـر.

فعـاج[3] الخليفـة ـ نصـره الله ـ بجمعـه تلقـاء **قسنطينـة**[4]؛ للتضييـق عـلى مخلـف ملـك المغـرب بهـا، وإضـرام نـار الفتنـة في قطرهـا؛ فنـازل **ميلـة**[5] ـ مـن قراهـا ـ ففتحهـا آخـر شـوال السنـة المذكـورة، واستبـد بأمرهـا وأصمـد ـ رابـع يـوم فتحهـا ـ قومـه؛ لمثاقفـة حصـة مرينيـة كانـت **بجبـل بـني ثابـت**[6]؛ ونصرهـم الله

---

[1] يقصـد بالموحديـن الحفصيين؛ لأنهـم مـن بقايـا الدولـة الموحديـة.

[2] أبـو حمـو مـوسى بـن يوسـف.

[3] عـاج عوجـاً إلى كـذا: مـال وعطـف إليـه.

[4] قسنطينـة: مدينـة أزليـة بناهـا قدمـاء المغاربـة في العصـر الفينيـقي؛ وكانـت تسـمى Cirta سيرتـا. وأضحـت ـ بعـد تشييدهـا ـ عاصمـة لمملكـة الإغليـد ماسينيسـا. وفي العصـر الرومـاني دمرهـا الثـوار المغاربـة؛ ولكـن الأمبراطـور الرومـاني قسطنطيـن أعـاد بناءهـا ـ في بدايـة القـرن الرابـع للميـلاد ـ ومنحهـا اسمـه.

[5] ميلـة: مدينـة أزليـة كانـت تسـمى أيـام الرومـان Milev . تبعـد عـن قسنطينـة بـ 50 كيلومتـر تقريبـاً. مـا زال بهـا السـور الـذي بنـاه الأمبراطـور الرومـاني جيستينيـان سنـة 548 م تقريبـاً.

[6] جبـل بـني ثابـت: هـو الجبـل المطـل عـلى القـل. وسكانـه مـن قبيلـة كتامـة. وفيهـم يقـول عبـد الرحمـن بـن خلـدون: ((ومـن بطـون كتامـة وقبائلهـم أهـل

عليها؛ فاقتلعوا الفرسان، وسلبوا الأنفس والأموال؛ وجاءوا إلى الخليفة ـ أيده الله ـ بالخيل والمتاع الكثيرة؛ فاستركب مترجلي حزبه، وقسم السعي عدلاً بين الجميع؛ ثم أخذ أيضاً **قرية بني ورا**[1]؛ من **كُوَرِ**[2] **بجاية**، واستولى على محلة قائدها **الوزجوني** بما حوته. ولم يزل هنالك؛ وقومه مضايقين لبني مرين الذين **بقسنطينة**؛ منعاً للمرافق عنهم، وسداً للمسالك دونهم؛ سنة أو دونها بأيام.

وربما استألف **رياحاً**[3]؛ فنازلهم وأخذ بمخنقهم، وشفى صدور عوامله من حربهم؛ إلى أن

الجبل المطل على القل ـ ما بينه وبين قسنطينة ـ المعروف برئاسة أولاد ثابت بن حسن ابن أبي بكر من تليلان)). العبر، مج: 6، ص: 306.

[1] بنو ورا: قبيلة من زناتة عموماً وربما مغراوة على الخصوص؛ متواجدون في أنحاء متعددة من بلاد المغرب. وبذلك ينتسب أهل هذه القرية الواقعة بين قسنطينة وبجاية إلى بني وارا هؤلاء. أنظر العبر، مج: 7، ص ص: 100 ـ 101.

[2] كُورُ: مفردها الكُورَة: وهي عبارة عن تجمع سكاني ضمن داخل معينة.

[3] رياح: قبيلة من بني هلال؛ وفيها يقول صاحب العبر: ((هذا القبيل من أعزّ قبائل هلال وأكثرهم جمعاً عند دخولهم إفريقية؛ وهم ـ فيما ذكر الكلبي ـ رياح ابن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر... والرئاسة على رياح في هذه البطون كلها لمرداس، وكانت عند دخولهم إفريقية في صُنْبُر منهم، ثم صارت للدواودة أبناء داود بن مرداس بن رياح... وامتاز الدواودة بملك ضواحي قسنطينة وبجاية ـ من التلول ـ=

قدم على ذلك القطر سليمان بن داوود بن أعراب العسكري[1] ــ وزير ملك المغرب ــ في شهر رمضان المعظم سنة تسع وخمسين وسبعمائة (759) [1357م]؛ بجنود لا قبل لهم بها؛ فارتحل مولانا الخليفة ــ أيده الله ــ من **ميلة** بقومه؛ ونازل **صولة بن يعقوب بن علي ابن أحمد بن محمد مسعود**[2]؛ شيخ **رياح**؛ وهو إذ ذاك مخالف عن القوم؛ فشرقوا أجمعين عند نزول الوزير المذكور بظاهر **قسنطينة**.

فلما انتهوا إلى **تبسة**؛ ثاب إلى الخليفة ــ نصره الله ــ رأيه؛ وأخذ الحظ بعنان عزمه، وتقدم هادي القدر بين يديه؛ فثنى الركاب مغرباً؛ ورافقه **صولة بن يعقوب بن علي** المذكور، وكافة **أولاد عثمان بن سباع بن يحيى بن مسعود**؛ من أعلام ذلك الرهط؛ فلقيه قبيل **بني عامر**[3]؛ عرب وطنه،

=ومجالات الزّاب وريغ ووراكلا وما وراءها ــ من القفار ــ في بلاد القبلة)). مج: 6، ص ص: 69 ــ 72.

[1] كانت له ــ قبل هذا ــ الولاية على جبل الفتح بالأندلس؛ ولما عاد أبو عنان من قسنطينة سنة 759هـ/1357م عينه في منصب الوزارة، وبعثه إلى إفريقة لإخضاعها.

[2] انضم ــ في البداية ــ إلى أبي حمو؛ ولكنه تراجع فيما بعد.

[3] بنو عامر: قبيلة عربية تنتمي إلى بني هلال؛ وبالتحديد إلى قبيلة زغبة منهم. مواطنهم الأولى كانت مجاورة لإخوتهم بني يزيد جنوب وطن=

وشيعة ملكه، والجار الجنب لحاضرة خلافته؛ حلفاء جلاء، وطرداء خوف؛ وشيخهم يومئذ **شيقر**[1] **بن عامر ابن إبراهيم بن يعقوب بن معروف**؛ وكان مصنوعاً له، مهاباً في قبيلته، ممدوحاً بالوفاء بين نظرائه.

فاستبشر الفريقان، واستروحوا أرج[2] الفرج، واستشعروا إدالة اليسر، وايتمروا؛ ثم نهضوا لمحاربة الوزير المذكور؛ وهو **بفحص بازر**[3] من عمل **قسنطينة**؛ فنزلوا ماء **السمارة**[4]؛ قريباً منه؛ وأصابهم مطر فيه؛ كما أجفل بين أيديهم في خفارتها الوزير؛ ولجأ إلى معقل **بني ورا**؛ من كُوَر

=حمزة (البويرة حالياً). ويقول عبد الرحمن بن خلدون: أن يغمراسن بن زيان هو الذي نقلهم إلى موطنهم الجديد؛ جنوب تلمسان: ((نقلهم يغمراسن إلى مواطنهم هذه لمحاذات تلمسان؛ ليكونوا حجزاً بين المعقل [وهم قبائل عربية دخلت المغرب مع بني هلال] وبين وطنها. استقروا هنالك يتقلبون في قفارها في المشاتي، ويظهرون إلى التلول في المرابع والمصائف. وكان فيهم ثلاثة بطون: بنو يعقوب بن عامر، وبنو حميد بن عامر، وبنو شافع بن عامر)). العبر، مج: 6، ص ص: 105 ـ 106.

[1] في العبر: صغير بن عامر. أما صاحب نظم الدر فسماه سفير بالفاء الموحدة. وكذلك الحال في زهر البستان حيث سمي بـ سفير بن عامر.

[2] الرَّوْحُ: نسيم الريح؛ واستروح: الغصن عندما يهتز بالريح. أما أرج أرجا: الرائحة الطيبة التي تفوح من الشيء.

[3] لم أتعرف على هذا الفحص. المهم أنه لا يبعد كثيراً عن قسنطينة.

[4] تسمى الآن عين أسمارة. وهي مدينة في المدخل الغربي لقسنطينة.

بجاية. فلما أصبحوا استمروا في حركتهم مغربين؛ تلقاء **جبل عياض**[1] من كُوَرِ **بجاية**؛ وصبَّحوا أهله غارين؛ فاستباحوا الأموال، واستأصلوا الحلل، وفرعوا على القوم مشمخرات[2] المعاقل. وفي أثناء ذلك؛ ورد على الخليفة ــ نصره الله ــ الملأ من **أولاد سواق**[3]؛ حامية تلك الأوطان، وشوكة الحروب فيها؛ راغبين منه الكون معهم؛ في الحركة بهم على **بني مرين**؛ لاستنقاذ بلاد الموحدين من أيديهم. فأبت ذلك عليه **بنو عامر**.

ثم جاء من **جبل عياض** الشيخ **أبو زكرياء يحيى ابن أبي بكر**؛ سبط **عبد المؤمن بن**

---

[1] جبل عياض: بجواره قلعة بني حماد؛ شمال الحضنة. سمي بذلك نسبة إلى بطن من الأثبج الهلاليين. كان ذلك الجبل ــ في السابق ــ يسمى جبل عجيسة؛ بينما أضحى في وقت متأخر يسمى جبل المعاضيد. وهو تحريف لكلمة عياض؛ هذا ما استنتجه الدكتور لقبال موسى في كتابه دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية. ص: 71. أما صاحب العبر فيقول: ((فعياض نزلوا بجبل القلعة (قلعة بني حماد)... وسكنوا ذلك الجبل بطوله من المشرق إلى المغرب ــ ما بين ثنية غنية والقصاب)). مج: 6، ص: 53.

[2] إشْمَخَرَّ اشْمِخْراراً الشيء: طال. واشمخر الجبل: ارتفع وعلا.

[3] هم رؤساء قبيلة سدويكش الكتاميين. قال فيهم عبد الرحمن بن خلدون: ((وأما البسائط؛ فأشهر من فيها منهم [أي كتامة] قبائل سدويكش؛ ورئاستهم في أولاد سواق. ولا أدري إلى من يرجعون من قبائل كتامة)). العبر، مج: 6، ص: 303.

علي[1]؛ مصطفياً إثارة حدثان[2] معينة الوقت، مؤكدة بالأمارات الراهنة والمنظرة؛ تهدر بذلك شقاشقه[3]، وتشهد بصحته صحفه؛ قد نبذ الولد والأهل بالعراء؛ واختار ملازمة الخليفة لاستثمار علمه بعمله. فارتحل مولانا الخليفة ـ نصره الله ـ بعد الفطر من السنة؛ يجر البحر الزاخر ثاغية وراغية، والخميس العرمرم[4]؛ أبطالاً عامرية ورياحية؛ في فئة صبر أنجاد من قومه. فأخذ على ثنية غنية[5]؛ بين جبلي: عياض وأوراس[6]؛ مصحراً.

---

[1] هو أبو محمد عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلى بن مروان الكومي (توفي: سنة 558هـ/1162م برباط سلا؛ بينما كان متجهاً للأندلس بغرض الجهاد). يعتبر الرفيق الوفي لابن تومرت وخليفته؛ وهو المؤسس الفعلي لدولة الموحدين؛ التى توالى أبناؤه على حكمها من بعده.

[2] سبقت الإشارة إلى موضوع الحدثان في تعليق سابق.

[3] شَقْشَقَ شَقْشَقَةُ الجَمَلُ: هَدَرَ. وشقشق الطير: صوت.

[4] ثاغية: صوت الغنم. وراغية: صوت الجمال أو النعام؛ يقولون (ما بالدار ثاغٍ ولا راغٍ) أي لا يوجد بها صوت أحد. أما الخميس: فمعناه هنا: الجيش؛ لأن الجيش آنئذ مقسم إلى خمسة أقسام هي: المقدمة والقلب والميمنة والميسرة والساقة. والخميس العرمرم: هو الجيش الشديد الكثير العدد.

[5] تقع هذه الثنية في الجانب الشرقي من جبل عياض أو المعاضيد حالياً.

[6] جبل أوراس: سلسلة جبلية وعرة بقممها الشامخة؛ اشتهرت ـ عبر التاريخ الطويل ـ بمنعتها وبالثورات التي شنها سكان هذا الجبل ضد=

فنزل الزاب[1]، ثم ريغ ورجلا، ثم غرّب إلى جبل مصاب ثم إلى وادي زرقون؛ ومنه ـ بعد

=المحتلين؛ سواء كانوا فينيقيين أو رومان أو وندال أو بيزنطيين أو مسلمين. وتقع هذه السلسلة الجبلية في الشرق الجزائري يطل بسفوحه الجنوبية على بسكرة وبلاد الزاب، أما السفوح الشمالية فتؤدي إلى قسنطينة.

[1] الزّاب: منطقة فلاحية واسعة؛ تمتد من جبال أولاد نايل شرقاً وحتى السفوح الشرقية لجبل أوراس. وينقسم الزاب حالياً إلى: زاب شرقي وقاعدته مدينة سيدي عقبة، وزاب غربي وقاعدته مدينة طولقة. وعاصمة الإثنين مدينة بسكرة. بينما كان قديماً إلى أقسام عديدة؛ تشمل المحمدية (المسيلة) وطبنة. ويقول بعضهم= =أن كلمة (زاب) بالأمازيغية تعني الواحة. ومن جهة أخرى فثمة من يرجع التسمية إلى الرومان. غير أننا نلاحظ بأن كلمة (الزاب) معروفة في العراق؛ إذ تطلق على منطقة كاملة وأحد الأنهر. وادي ريغ: نسبة إلى بني ريغة؛ وهم حي من قبيلة مغراوة الزناتية؛ سكنوا هذه المنطقة الفلاحية الممتدة من جنوب بسكرة إلى شمال وركلا أو ورقلة. وتشتمل هذه المنطقة الصحراوية الخصبة على مدن عديدة متقاربة؛ يطلق عليها اسم الواحات؛ وهي ـ في الحقيقة ـ ليست بالواحات؛ بل هي تجمعات عمرانية متلاصقة تقريباً؛ خاصة في بساتينها ذات النخيل الكثيف والمياه المتدفقة. أما وركلا فتسمى الآن ورقلة وهي مدينة كبيرة مستبحرة؛ لها تاريخ حافل بالأحداث؛ بحكم موقعها المتميز؛ الذي يربط بين مدن= =شمال المغرب الأوسط وبلاد السودان. أما الآن فهي عاصمة اقتصادية كبرى للجزائر؛ بحكم أنها مقر ولاية بترولية هامة. أما جبل مصاب أو وادي مصاب: فهي منطقة صحراوية؛ ولكنها جبلية التضاريس حجرية=

موسم الأضحى ـ نهض لاهتبال الغِرَّة في أولاد عريف؛ شيع بني مرين[1] وأنصار كلمتهم ـ يومئذ ـ ومجن حصصهم بكُورِ تلمسان. فبعد مشي عشرة أيام ولياليها؛ لم يحل بها ـ ولا قومه ـ سرجاً، ولا حطوا فيها قتباً[2]؛ صبح حيّ القوم بوادي ملال[3]؛

=التربة. تقع شمال غرب مدينة ورقلة، وجنوب مدينة لغواط. ومما قاله صاحب العبر عن مصاب: ((ومن بني واسين ـ هؤلاء ـ بقصور مصاب على خمس مراحل من جبل تيطري ـ في القبلة بما دون الرمال ـ وعلى ثلاث مراحل من قصور بني ريغة في الغرب. وهذا الاسم [يقصد مصاب] اسم للقوم الذين اختطوها ونزلوها من شعوب بني بادين ـ حسبما ذكرناهم الآن ـ ووضعها في أرض حرّة على آكام.... وسكانها ـ لهذا العهد ـ شعوب بني بادين من بني عبد الواد وبني توجين ومصاب وبني زردال؛ فيمن يضاف إليهم من شعوب زناتة؛ وإن كانت شهرتها مختصة بمصاب)). مج: 7، 123. أما وادي زرقون فلم أتوصل إلى معرفته؛ وإن كنت أعتقد أنه واد مزي في الأغواط حالياً؛ ذلك الوادي العظيم الذي يسمى في بلاد الزاب ـ حيث ينتهي مصبّه ـ واد جدي.

[1] بنو مرين: قبيلة من زناتة؛ وهم إخوة أعداء لبني عبد الواد. وجدهم مرين بن ورتاجن بن ماخوخ بن جديج بن فاتن بن يدر؛ ويصل تسلسل آبائهم إلى زحيك بن واسين؛ الجد المشترك مع بني عبد الواد. أما أولاد عريف: فهم أحد أحياء قبيلة سويد بن عامر بن مالك بن زغبة الهلاليين. من أشهر رؤسائهم ونزمار بن عريف؛ كانوا في البداية في صف بني عبد الواد؛ ثم تحولوا عنهم إلى بني مرين.

[2] القِتْبُ جمع أقتاب: الرَّحْلُ.

[3] ملال: لم نعثر على نهر أو وادٍ بهذا الاسم. إنما يوجد نهر باسم ملول؛ والراجح أنه هو المقصود؛ لأن بعض الإشارات تدل على ذلك. منها أن صاحب العبر حدد مكان الوقيعة بأولاد عريف؛ فقال أنها=

وقد عميت عليهم الأنباء؛ فاستبيح المال، وقتل **عثمان ابن ونزمار ابن عريف**[1]؛ في مشاهير كثيرين من قومه؛ كائنة مشهورة الخبر، وملحمة عظيمة الأثر؛ كانت لمولانا الخليفة ـ أيده الله ـ وحزبه باكورة الجنا[2]، وطليعة الملك، وأولى بشائر الفتح. فسبحان الفاعل لما يريد، والقادر على ما يشاء. لا إله إلاّ هو.

وألفى ـ أيده الله ـ ذلك الوادي ممرعاً[3]؛ فأراح به الظهر[4] أياماً؛ أهلّ فيها هلال شهر الله المحرم؛ فاتح سنة ستين وسبعمائة (760) [1358م]. وفي اليوم السادس منه؛ وافت البشرى بموت السلطان **أبي عنان**؛ ملك **المغرب**؛ فوضح ـ لساري

=حدثت جنوب تلمسان. (مج: 7، ص: 627). وبالمقابل نجد أن الوزان يصف نهراً يسمى ملُول ـ وهو أحد روافد نهر ملوية ـ فقال: ((ملُول نهر نابع من الأطلس في تخوم مدينتي: تازا ودبدو؛ لكنه إلى دبدو أقرب. ويسيل في سهول تيريست [أي بالأمازيغية الأرض البيضاء الشبيهة بالصلصال] وتفراطة الوعرة اليابسة، ثم يصب بعد ذلك في ملوية)). وصف إفريقيا، ج: 2، ص: 250.

1 وهو ابن شيخ قبيلة سويد ونزمار.

2 الصحيح: جنى بالألف المقصورة. ويقصد أن هذه الموقعة تعتبر باكورة ما جنى من ثمار النصر.

3 وادي ممرع: خصب وصالح للمرعى، وأرض ممرعة: خصبة بالكلأ.

4 الظهر هنا: الإبل والدواب التي تحملهم مع متاعهم.

أمل الخليفة نصره الله – الصباح، وهبت لنصر كلمته الصبا، وجاءه الفرج ما لم يكن في حساب؛ فكبر الشيخ **أبو زكرياء** المذكور؛ لظهور كبرى آياته، وسُرّ بوضوح غرة حدثانه، وابتهج أشياع الأمام – أيده الله ونصره – بنجح السعي، وامتدت أيدي آمالهم لنيل التي لا فوقها، وتيامنوا برأي مولانا الخليفة – نصره الله – وأيقنوا بنجح طلابه. ومن تسبق إليه عناية الله تتضح مراشده، وتجمع على حبه القلوب، وتسهل لمآربه السبل. وإذا أراد الله أمراً يسر أسبابه؛ فإنما يقول للشيء **كن فيكون**.

فأرهف مولانا الخليفة – أيده الله – شباة الاقدام(؟)، وشحذ – بعد استخارة الله – غرب العزم، وأجاب سؤال **رياح**؛ الذين اتبعوه؛ في الانقلاب إلى وطنهم؛ سوى **شبل بن ملوك بن عثمان بن سباع، ودغار بن عيسى بن رحاب السعيدي**؛[1] فإنهما آثرا البقاء معه، والحركة في خدمته. ثم أعمل الركاب تلقاء حضرته الكريمة؛ لانتهاز الفرصة

[1] شبل بن ملوك ودغار بن عيسى: شيخان من شيوخ قبيلة رياح.

في رد مغتصبها. **فبخضراء كبود**[1] أهَلَّ صفر السنة؛ وفي خامسه – بين **ماء الخضراء والأخضر**[2] – بايعت العرب أمير المسلمين وخليفة رب العالمين؛ **أبا حمو** أيده الله بيعة الرضوان؛ على الوفاء له في المنشط والمكره، والعسر واليسر. **وبماء شعيب**[3] وفد عليه أيده الله أشياخ بني يبقى عمرة كُورتَيْ: **يسر، والقصبات**[4] – المصاقبتين لكُورَةِ **الحضرة** – بطاعة قومهم، ثم رسل العرب أجمعين؛ يستقدمونه، ويجأجئون به نحوهم.

فقطع – أيده الله – **سبخة كبود**، وتلوم لإراحة الركاب يوماً، ثم جد السير؛ وجنود العناية الربانية تحفه، وكواكب السعد تهديه، وألوية الفتح

---

[1] سماها عبد الحميد حاجيات: سبخة كبود. أنظر كتاب (أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره)، ص: 87. كما أن يحيى بن خلدون يذكرها بهذا الاسم في الأسطر التالية.

[2] لم نتمكن من تحديد هذين الموقعين؛ حتى وإن سلمنا بأن ماء الخضراء هو سبخة كبود كما قال حاجيات؛ لأنه لم يذكر أين تقع هذه السبخة.

[3] لم أتوصل إلى معرفة هذا المكان.

[4] يسر: هو أحد روافد وادي تافنة؛ يبعد عن تلمسان – في جانبها الشرقي – بحوالي 40 كيلومتر. أما القصبات فيبدو أن موقعها صالح للحروب؛ لأنها =كانت – لمرات عديدة – ميداناً اشتبك فيه بنو عبد الواد بغيرهم. كما أن قربها من تلمسان جعلها عرضة للحملات المختلفة.

المبيـــن تظللـــه. وبمـــاء تيسبريـــن[1] ثلـــج العـــرب؛ ومـــن عادتهـــم تحـــامي التلـــول في إبانـــه؛ فمـــا هلعـــوا للقائـــه، ولا أحجمـــوا عـــن مساقطـــه، ولا جزعـــوا لـــرؤس أموالهـــم مـــن مصابـــه. ورحـــل أميـــر المسلميـــن ــ أيـــده الله ــ بعـــد إقـــلاع سمآئـــه؛ فاتبعـــوه، واجتـــاز بهـــم **ثنيـــة فرتـــون**[2]؛ كأنمـــا تطـــأ بهـــا المناســـم والأخفـــاف عـــلى منبـــت العهـــد. وخيـــم **بأوماكـــرا**[3] ــ مـــن **تـــل بـــني راشـــد**[4] ــ سبعـــة أيـــام؛ يستألـــف القبائـــل، ويستنفـــر الراكـــب والراجـــل؛ ثـــم ارتحـــل إلى **عيـــن الحجـــر**[5]؛ شـــرقي وادي يســـر؛ فهنالـــك ورد عـــلى بابـــه العـــلي أهـــل **القصبـــات** ببيعتهـــم، وكتـــاب **الفقيـــه أبي زيـــد عبـــد الرحمـــن بـــن مخلـــوف الشـــامي**[6]؛ مـــن بيوتـــات

---

[1] لـــم أعثـــر عـــلى موقـــع مـــاء تيسبريـــن هـــذا؛ ولكـــن ثمـــة موقـــع قريـــب مـــن تلمســـان ــ باتجـــاه الجنـــوب ــ يســـمى مـــاء تغاليـــن.

[2] تعـــذر التعـــرف عـــلى موقـــع ثنيـــة فرتـــون هـــذه؛ مـــع أنهـــا حســـب مـــا يفهـــم تقـــع جنـــوب تلمســـان؛ عـــلى حافـــة الصحـــراء.

[3] هـــذا المكـــان غيـــر معـــروف؛ غيـــر أن (أبو عيـــاد) يضـــع في الاحتمـــال أن يكـــون نهـــر ماكـــرو ــ الـــذي يمـــر بمدينـــة سيـــدي بلعبـــاس شـــرق تلمســـان ــ هـــو المقصـــود.

[4] يتواجـــد بنـــو راشـــد في المناطـــق الشرقيـــة لتلمســـان؛ مـــن سيـــدي بلعبـــاس إلى جبلهـــم الـــذي يعـــرف الآن بجبـــل لعمـــور حـــول مدينـــة أفلـــو.

[5] غيـــر معروفـــة؛ حـــتى وإن كـــان المؤلـــف قـــد حـــدد موضعهـــا بـــ: (شـــرق وادي يســـر).

[6] لـــولا اســـم (الشـــامي) المنســـوب إليـــه؛ لرجـــح القـــول أنـــه أحـــد أجـــداد الـــولي الصالـــح سيـــدي الحســـن بـــن مخلـــوف بـــن مسعـــود بـــن سعـــد المزيـــلي=

الحضـــرة، وأسبـــاط خدمـــة الملـــوك الأول؛ مثيـــراً عزمـــه ـــ أيـــده الله ـــ بمـــا شـــرح؛ مـــن حـــب النـــاس في مقامـــه الكريـــم، واجابتهـــم داعيـــه ودعائهـــم في ظهـــر الغيـــب؛ بنصـــره.

فارتحـــل ـــ نصـــره الله ـــ وعسكـــر ببطـــن الـــوادي؛ في رجـــل الربـــا مـــن نشـــر قومـــه[1]، وأعيـــاص **زناتـــة**؛ نسلـــوا مـــن كـــل حـــدب إليـــه، وانهالـــوا بكـــل فـــج ومعلـــم عليـــه. وكـــان **شيقـــر**[2] **بـــن عامـــر بـــن إبراهيـــم** المتقـــدم الذكـــر؛ أحـــظى العـــرب لـــدى أميـــر المسلميـــن ـــ أيـــده الله ـــ وأقربهـــم منزلـــة عنـــده؛ فأنـــف لـــه **علـــي بـــن عمـــر بـــن إبراهيـــم**[3]؛ قسيمـــه في البيـــت وقرينـــه في الشياخـــة؛ وامتـــلأ صـــدره حقـــداً، وأشـــاط الحســـد مـــن

=الراشـــدي المعـــروف بابـــن بركـــان؛ المتـــوفي بتلمســـان سنـــة 857هـ/1453م. خاصـــة أن عائلـــة هـــذا الـــولي مرتبطـــة مـــع ملـــوك بـــني زيـــان بعلاقـــات ود وولاء. المهـــم أن عبـــد الرحمـــن هـــذا ولاه أبـــو حمـــو فيمـــا بعـــد خطـــة الأشغـــال.

[1] الرَّجـــلُ: مـــن يمـــشي عـــلى رجليـــه. والربـــا: ـــ هنـــا ـــ يقصـــد بهـــا المتنـــامي والمتزايـــد. النشـــر: القـــوم المتفرقـــون. يقولـــون: (جـــاؤوا نشـــراً)؛ أي متفرقيـــن.

[2] سبـــق إظهـــار الاختـــلاف بيـــن عبـــد الرحمـــن بـــن خلـــدون وأخيـــه يحـــيى بخصـــوص هـــذا الاســـم. فالأول يسميـــه صغيـــر بـــن عامـــر أمـــا يحـــيى ـــ كمـــا تـــرى ـــ يسميـــه شقيـــر بـــن عامـــر.

[3] يبـــدو أنـــه كـــان متـــردداً في ولائـــه منـــذ البدايـــة؛ إذ أن تصرفـــه حيـــن أطلـــق ســـراح أبي بكـــر بـــن عريـــف؛ أحـــد شيـــوخ سويـــد؛ دون الرجـــوع لأبي حمـــو يـــدل عـــلى ذلـــك. أنظـــر العبـــر، مج: 6، ص: 111.

غيظه؛ فأظهر كامن نفاقه بالفرار من هنالك إلى **تلمسان**؛ مظاهراً **بني مرين** الذين بها. فوهن لذلك من قبيله العظم، وخارت له قواهم؛ وكادت ريحهم تذهب؛ لولا شهامة أمير المسلمين ـ أيده الله ـ وإقدامه وصبره عند النوازل؛ فأرسى جبال حلوفهم، وأثار زعازع حمياتهم، وأرحلهم بعد إزماعهم المقام؛ وذلك في يوم السبت الخامس والعشرين من صفر. ووعد رب الخدر السابق بإجازة الوادي إحسانه إليه ببلد فاقتحمه الناس من كل جهة؛ فخيم ـ أيده الله ـ ليلته تلك شرقي **تيزي**، **وأحجار**[1]؛ بمرأى من الحضرة.

وتقدم **الحاج موسى بن علي بن برغوث**[2] في رعلة[3] من **بني عبد الواد** ـ أعزهم الله

---

[1] **تيزي: بالأمازيغية هي الثنية. ويبدو من النص أن هذين المكانين: تيزي وأحجار؛ قريبان جداً من مدينة تلمسان.**

[2] **ولاه فيما بعد ابو حمو خطة الوزارة.**

[3] **الرَّعْلَة جمعها رِعَال وأراعيل: القطعة المتقدمة من الخيل أو الرجال. والرّعيل جمعها رعال: صف من الجنود يوضع خلف صف آخر ليدعمه عند الحاجة.**

ـ والعرب؛ بأمر الإمام أيده الله إلى وادي **الصفصيف**[1]؛ فبرزت إليه حامية البلد؛ وهم زهاء ثلاثة آلاف؛ أميرهم **محمد بن السلطان أبي عنان**؛ صغيراً، مكفولاً **ليغمراسن بن عثمان الورسيفاني**[2]؛ وأطمعتهم طيارة الخيل بانقلابها، واستمروا في طلبها؛ حتى إذا وافت المراكز؛ انعطفت عليهم معضودة منها بالأضعاف؛ فانهزموا؛ وقتل فارسهم ـ يومئذ ـ **علي ابن مسعود الونجاسي** في نفر كثير؛ سوى من أرجل، وانحجروا بالمدينة عشاء؛ يعضون الأنامل من الغيظ، وتعدهم الأماني الكواذب الكرة؛ فيقولون: **((إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ))**[3].

وراح أولياء أمير المسلمين بالغنائم المنوعة، والنصر العزيز؛ فأصبح ـ أيده الله ـ مقيماً لإجماع الجنود؛ ورحل صبيحة الإثنين؛ فخيم إزاء **تيط**،

---

[1] وادي الصفصيف: يسمى في بعض المصادر اصطفطيف. والرّاجح أن اسم الصفصيف أصح؛ لأن الوادي الصغير المجاور لتلمسان حالياً يحمل اسم الصفصيف.

[2] الوزير المستبد بحق الوصاية على السلطان الطفل.

[3] الآية هكذا: ((قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ)). سورة هود: الآية: 81.

وشقـوف[1]. ثـم ـ مـن الغـد ـ شـرقي جنـوب **جبـل الحديـد**[2]. وفي صبيحـة يـوم الأربعـاء رحـل، وسـار في كتيبتـه الخضـراء؛ تخفـق عليهـا بنـود السعـادة، وتقدمهـا جنـود ملائكـة الله وروحـه؛ آخـذاً عـلى **قنطـرة وهـران**؛ واجتـاز عـرب ميسرتـه ـ المنعقـدة عـلى **شعيـب بـن عامـر**؛ أخي الشيـخ ـ **بقنطـرة الصفصيـف**؛ فبـرز **بنـو مريـن** بقضهـم وقضيضهـم؛ فأخـذوا **بالمنيـة**[3] مصافهـم، ورتبـوا مراكزهـم، وحـمى بيـن الطائفتيـن الوطيـس، وفـار للـوغى التنـور؛ وانجلـت المعركـة عـن هزيمـة **بـني مريـن**؛ وأخـذ مـا كـان بعسكرهـم مـن: طبـل وعلـم؛ وراحـوا روحـة مذكـورة عندهـم حـتى الآن؛ فاستجنـوا أسـوار المدينـة، وخيـم أمير المسلميـن ـ أيـده الله ـ بموقفهـم مـن **المنيـة**.

وجـنّ اللّيـل ـ وقـد أهـل هـلال شـوال المبـارك ـ فبـرز تحـت خفـارة ظلمائـه **الفقيـه أبـو زيـد عبـد الرحمـن بـن مخلـوف الشّـامي** المذكـور آنفـاً،

---

[1] تعـذر تحديـد موضـع تيـط أو شقـوف في محيـط تلمسـان؛ مـع أن هذيـن الإسميـن معروفـان في مواقـع أخـرى مـن بـلاد المغـرب.

[2] لـم نتوصـل إلى معرفـة هـذا الجبـل.

[3] المنيـة: ساحـة خـارج بـاب القرمديـن بتلمسـان؛ تعـرض فيهـا الجيـوش. سميـت باسـم الشيـخ الصالـح وهّـاب بـن منيـة.

وبنو زاغوا[1]؛ نظراوه في النجدة والبيت؛ فدلوا أمير المسلمين ــ أيده الله ــ على عورات البلد، ومخادعه، وأغروه **بأجادير**[2]؛ لقرب مناله بشيع أهله؛ فأسرى ــ أيده الله ــ **بموسى بن علي بن برغوث** إليه في الجراد المنتشر من رجال **زناتة** وفرسانهم؛ فتقدم إليه بالكمون في جناته، وقرعه غداً إذا وقف هو ــ أيده الله ــ بجانب المدينة الغربي؛ فلما بدت لصباح يوم الخميس السعيد التباشير، ووضحت به من الشهر المبارك الغرة، وأشرقت بسماء السعادة شمسه؛ عبى[3] أمير المسلمين ــ أيده الله ــ عساكره الشاكية السلاح: قلباً وميمنة وميسرة ومطارده.

وسار صدرهم الهوينا؛ تلقاء **باب كشوط**[4]؛ لا يعدو الفارس منهم الفارس، ولا يسبق السنان السنان؛ كأنما وضعوا على متن خط مستقيم. وغلق

---

[1] من أسرة ابن زاغو: الفقيه أبو الحسن علي بن محمد بن زاغو والفقيه الصالح أحمد بن عبد الرحمن بن زاغو المغراوي التلمساني.

[2] تكتب أيضاً: أغادير أو أقادير. وهذا الاسم يطلق على تلمسان القديمة في فترة متقدمة؛ وبقي إلى الآن حي في شمال شرق مدينة تلمسان يعرف باسم أجادير (بالجيم المصرية) أو أكادير؛ إذ بقيت من مسجدها الذي بناه إدريس الأول مئذنة شيدها يغمراسن بن زيان.

[3] يقصد: عبأ.

[4] هو أحد أبواب مدينة تلمسان. يقع في الجهة الغربية منها.

بنو مرين الأبواب، واستلامت جمرتهم **بالمطمر**[1]، وعمروا سائر شراريف الأسوار، وتنادوا بالذل **مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَاتِ**[2]؛ يضربون في الحديد البارد[3]؛ رجاء منع ما الله معطيه. وبصر **الحاج موسى بن علي** بمكان الخليفة؛ فزحف إلى **باب العقبة**[4] بجنوده. ولم تستو عساكر أمير المسلمين بصعيد الملعب حتى فتح أهل **أجادير لموسى ابن علي** بابهم؛ فدخله على **مرين** بجموعه؛ واحترب الفريقان، وتجاولوا الطعنات؛ إلاّ أن الصبا هابة مع الداخلين، والدبور آخذة بمجن الآخرين. **((وَمَا النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ))**[5]**. يُوتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَزِيزٌ حكيمٌ**. فملك على

---

[1] المطمر: هو مكان معد لتخزين وحفظ المؤن والمواد الغذائية والسلع المختلفة؛ لكي تستعمل عند الضرورة؛ خاصة أثناء الحروب وأوقات الحصار. في تلمسان حارة أو حومة تقع في الجهة الغربية للمدينة بالقرب من باب كشوط؛ تسمى حومة المطمر.

[2] اقتبس هذا من قوله تعالى: ((إنَّ الَّذِين يُنادُونك منْ وراء الحُجُرات أكْثَرُهُمْ لا يعْقلُون)). الآية: 4، من سورة الحجرات.

[3] مثل يضرب للذي يسعى دون جدوى، أو يعمل شيئاً دون فائدة ترجى.

[4] يقع في الجهة الشرقية من تلمسان. وهو أحد أبواب أجادير (بالجيم المصرية).

[5] الآية: 10 من سورة الأنفال جاء فيها: ((وَمَا النَّصْرُ إلاّ مِنْ عِنْدِ الله إن الله عَزِيزٌ حكيمٌ)). ثم الآية: 126 من سورة آل عمران وفيها: ((وَمَا النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ العَزِيزِ الحكيم)).

القوم **أجادير** عنوة، وانحاز فل ملحمته إلى قبيلهم، وأجمعوا ـ رهبة ـ على تسليم البلد لربه؛ فاستأمنوه لأنفسهم مستسلمين لأمره؛ كما قال القائل:

الكامل:

جنحوا إلى السلم التي سلموا بها
لما انبرى ليث الشرى ليصولا
وتوهموا شهب النجوم أسنة
وتخيلوا لمع البروق نصولا
حملوا شروطا لم تكن محمولة
لكن من خاف استخف ثقيلا

ثم فتحوا له ـ أيده الله ـ باب **كشوط**؛ فدخل ـ نصره الله ـ في نفر قليلين؛ وجمهرة القوم شاكية السلاح، مصطفة حفافي طريق **المطمر**؛ فلم يرع لها جنانه، ولا هابها إقدامه؛ بل اجتاز فيما بينهم؛ رابط الجأش، قوي العارضة؛ غير مبال بآلافهم الحنقة. و لله در القائل:

الطويل:

إذا أنت أعطيت السعادة لم تبل
ولو نظرت شزرا إليك القبائل

تقتك[1] على أكتاف حاملها القنى
وهابتك في أغمادهن المناصل[2]
وإن سدد الأعداء نحوك أسهماً
نكصن على أعقابهن[3] المعابل[4]

واعترضه **محمد** ولد **السلطان أبي عنان**، وكافله **يغمراسن بن عثمان**، وأخوه **عمر**، وأعلام القوم؛ فبايعوا له بالخلافة، ودخل داره الكريمة في أيمن المطالع، وأسعد الأوقات. فللّه الحمد والشكر ملء السماوات وملء الأرض. وفي هذا الفتح المبين والوقائع الكائنة قبله؛ يقول مولانا أمير المسلمين **أبو حمو** أيده الله تعالى:

---

[1] أتقيت الشيء وتقيته: حذرته. وتقتك القنى حذرت منك وصانت نفسها من الأذى.

[2] النصل جمعها: نِصال ونُصول وأنْصل؛ وهي: حديدة الرمح، وحديدة السيف.

[3] وردت هكذا في النسخة الرئيسية التي رمز لها ألفرد بل بحرف: 'A.

[4] نكص: أحجم. المعبلة: جمعها معابل؛ وهي: نصل طويل عريض.

الطويــل:[1]

جــرت أدمــعي بيــن الرســوم الطواســم[2]

لمــا شحطتهــا[3] مــن هبــوب الرواكــم

وقفــت بهــا مستفهمــا بخطابهــــا[4]

وأي خطــاب للصــلاد الصــلادم[5]

وســرت عــلى جــون أقــب مضمــر[6]

كلمعــة بــرق أو كلمحــة صــارم

---

[1] وردت هــذه القصيــدة ــ بالإضافــة إلى بغيــة الــرواد ــ في كتــابي: زهــر البستــان وواسطــة السلــوك؛ ولكنهــا جــاءت بشكــل مخالــف في ترتيبهــا عــلى مــا هي عليــه في بغيــة الــرواد. كمــا أن نسخــة زهــر البستــان مليئــة بالأخطــاء وكتبــت بخــط رديء.

[2] الرســم جمــع رســوم وأرســم: مــا كــان لاصقــاً بالأرض مــن آثــار الــدار. وطســم طسمــاً الشــيء: طمســه وأخفــاه.

[3] الشَحْــطُ والشَحَــطُ: البعــد.

[4] كتبــت في زهــر البستــان وواسطــة السلــوك: ((لخطابهــا)). ويبــدو أنــه الأصــح. أمــا كلمــة ((مستفهمــاً)) فكتبــت في زهــر البستــان: ((مستخبــراً)). والراجــح هــي كلمــة ((مستفهمــا)) كمــا جــاء في بغيــة الــرواد وواسطــة السلــوك.

[5] حجــرٌ صلْــدٌ: صُلْــب أملــس. ويقولــون: (جبيــنٌ صلْــدٌ)، (ورأس صلــدٌ صُــلادمٌ): الــذي لا ينبــت فيــه الشعــر.

[6] في واسطــة السلــوك (مخطــوط المكتبــة الوطنيــة الجزائريــة): ((وســرت عــلى جــون أقــب مشحــب)). الجــون: يقصــد بــه الحصــان الأســود اليحمــومي، والأســود المشــرب حمــرة. والقــبُ والقبــبُ: دقــة الخصــر وضمــور البطــن. والخيــلُ القُــبُ: الضَوامــرُ. قــال هــذا البيــت في وصــف حصانــه.

و جلت بطرف الطرف في عرصاتها ،

كجولة واه أو كوقفة هائم

وصفقت ما بين الطلول خوامسي

وفاضت[1] سواقي الدمع مثل الأراقم

وقلت لصحبي لا تملوا من السرى

ولا يزدريكم في السرى لوم لائم[2]

سلوا ساكنات الحي[3] أين تحملوا

فقد عيل صبري بين تلك المعالم

ديار عهدناها بها الشمل جامع

مع الغانجات الآنسات النواعم

وكم ليلة بات السرور مساعدي

بسعدى وسلمى والمنى أم سالم

فعادت رسوم الدار بعد أنيسها

هشيما ولا تخفى بقايا المراسم

وكم نسجتها من جنوب وشمأل

وكم سجعتها[4] من لغات الحمائم

---

[1] في واسطة السلوك (مخ + مط)، وزهر البستان: ((سالت)).

[2] السرى: المروءة والسخاء. وجاء عجز هذا البيت في زهر البستان هكذا: ((ولا تزدريك اليوم لومة لائم)).

[3] كتبت في زهر البستان، وواسطة السلوك (مخ): ((وسل سامرات الحي)). أما في واسطة السلوك (مط) فكتبت كلمة ((جملات)) بدلا من ((ساكنات)).

[4] في و . س (مخ) ((شجعتها)) وهو خطأ.

كــأني بهــم والله يــوم تحملـــوا
وحـــادي النـــوى يحـــدو بـــذات المباســـم[1]

قطعـــــت الفيـــافي بالقـــــلاص[2] وإنمـــا
تجـــاب الفـــلا بالخـــف أو بالمناســـم[3]

وقـــد خلتهـــا بيـــن الريـــاح زوابعـــا
تسابـــق في البيـــدا ظليـــم النعائـــم[4]

مكحلـــة الأحـــداق فيهـــا هشاشـــة
مهملجـــة الأطـــراف ســـود المباســـم[5]

ومعهـــا أســـود الحـــرب تطـــوي بها الفـــلا[6]
يـــرون المنايـــا بعـــض تلـــك المغانـــم

وخضـــت الفيـــافي فدفـــداً بعـــد فدفـــد[7]

---

[1] جـــاء في و . س (مط) ((يحـــدو هـــوادي الرواســـم)). أمـــا في (مخ) فكتبـــت: ((وحـــادي النّـــوى يحـــذو بـــذات المبلســـم)).

[2] في زهـــر البستـــان، وواسطـــة السلـــوك (مخ): ((قطعنـــا الفيـــافي)). القلـــوص مـــن الإبـــل جمعهـــا قلائـــص وقـــلاص: الطويلـــة القوائـــم.

[3] المنْســـم جمعـــه مناســـمُ للإبـــل والنعـــام: هـــو طـــرف الخـــف، وشبيـــه بظفـــر الإنســـان.

[4] الظليـــم: ذكـــر النعـــام؛ وقـــد اشتهـــر بالسرعـــة.

[5] الهمْلجـــةُ والهمْـــلاج: حســـن سيـــر الدابـــة في سرعـــة. المبْســـم وجمعـــه مباســـم: الثغـــر.

[6] في زهـــر البستـــان، وواسطـــة السلـــوك (مخ): ((الســـرى)).

[7] الفدْفـــدُ: الفـــلاة الخاليـــة والمرتفعـــة الـــتي تتصـــف بالخشونـــة والصلابـــة.

لنيـــل[1] العـــلى والصبـــر إذ ذاك لازمي

وكـــم ليلـــة بتنـــا على الجـــدب والطـــوى[2]

نراقـــب نجـــم الصبـــح في ليـــل عاتـــم

عـــلى متـــن صهـــال أغـــر محجـــل[3]

مديد الخطـــا لم يخـــش صعـــب الصـــلادم

تسربلـــت كردوسيـــن مـــن آل عامـــــر

ومـــن آل إدريـــس الشريـــف ابـــن قاســـم

رجـــال إذا جـــاش الوطيـــس تراهــــــم[4]

أســـود الـــوغى من كـــل ليـــث ضبـــارم[5]

وجبـــت الفيـــافي بلـــدة بعـــد بلـــدة

و طوعـــت فيهـــا كـــل بـــاغ وباغـــم[6]

---

[1] في زهـــر البستـــان: ((لطلـــب العـــلى)). وفـ و . س (مخ): ((لقصـــد)).

[2] الطـــوى: الجـــوع.

[3] صهـــال أغـــر محجـــل: كلهـــا صفـــات للخيـــل. الصّهيـــل: صـــوت الخيـــل. والأغـــر: صفـــة للبيـــاض الـــذي يعلـــو جبيـــن الحصـــان أو الفـــرس. والمحجـــل: الحصـــان الـــذي يعلـــو البيـــاض قوائمـــه الأربـــع.

[4] في زهـــر البستـــان، وواسطـــة السلـــوك (مخ): ((رجـــال إذا هـــاج)). الوطيـــس: المعركـــة. يقولـــون: (حـــمي الوطيـــس)؛ أي اشتـــدت الحـــرب.

[5] أســـدٌ ضُبَـــارم: الشديـــد الخلـــق. والضبـــارم: الجـــريء عـــلى الأعـــداء.

[6] بغـــم الرجـــلُ صاحبـــه: لـــم يفصـــح عمـــا يقولـــه.

وجئــت لأرض الــزاب تــذرف أدمــعي[1]
لتذكــار أطــلال الربــوع الطواســـــم[2]
وشبكــت عشــري[3] فــوق رأسي فلم أجــد
بهـــا مخبــراً غيــر الــربى والمعالــم
وجاوزتهـــا مـــا بيـــن هـــوج هجائــــن[4]
رقـــاق الهـــوادي[5] عاليـــات القوائـــم
وجـــزت بـــأرض ريـــغ راغـــت بأهلهـــا[6]

---

[1] أرض الــزّاب: هي المنطقــة الفلاحيــة الواسعــة المحيطــة ببسكــرة. وكتــب في زهــر البستـــان، وواسطـــة السلـــوك (مخ): ((فاضــت مدامــعي))؛ بــدلاً مــن تــذرف أدمــعي.

[2] الرَّبْــعُ جمعــه الرُّبُــوع: وهــو المنــزل والــدار والوطــن. وهكــذا يقــول أبــو حمــو: أنــه لمــا وصــل إلى أرض الــزاب تذكــر أطــلال الديــار والمنـــازل المنطمســـة المندثــرة. فشبــك أصابعــه فــوق رأســه مــن الحيــرة؛ إذ لــم يجــد دليــلاً يخبــره ســوى تلــك الــربى والمعالــم الباهتـــة. وفي واسطـــة السلـــوك (مط) كتــب: ((لتذكـــار أطـــلال الرســـوم الطواســـم)) بـــدلاً مـــن ((ربـــوع)). أمـــا زهـــر البستـــان، وواسطـــة السلـــوك (مخ) فكتـــب: ((تذكـــرت أطـــلال الرســـم الطواســـم)).

[3] في زهــر البستــان: ((شبكــت شعــري)). ويبــدو أن مــا جــاء في البغيــة وواسطــة السلــوك هــو الصحيــح. لأن تشبيــك الأصابــع العشــر فــوق الــرأس ممــا يعبــر عنــه بالحيــرة.

[4] في واسطـــة السلـــوك (مخ): ((هـــوج هواجـــن)).

[5] في زهــر البستــان: ((العـــوالي)). والهـــوادي هنـــا أصـــح؛ ومعناهـــا: ذوات الأعنـــاق الطـــوال؛ وفي الحديــث: ((طلعــت هـــوادي الخيـــل))؛ إذا بـــدت أعناقهـــا.

[6] في واسطـــة السلـــوك (مخ): ((وجـــزت بـــلاد الريـــغ)). وفي زهـــر البستـــان: ((وجـــزت بـــأرض الريـــغ)). راغـــت: حـــادت ومالـــت. يقولـــون: (راغ الرجـــل عـــن الطريـــق: حـــاد عنـــه؛ مكـــراً وخديعـــة).

ببلقعة[1] قفر قفتها عزائمي
سألت ربوع الدار فيها فلم أجد[2]
بها معلما يأتي إليّ بعالم
شددت عرى للنجع من كل جانب
وصيرتها مثل الرياح الرواكم
تخيلتها مثل القطا في ميسرها
وفوق ذراها كل شهم وحازم
وحفت بنا الأبطال من كل جانب
يذكرها عهد الهوى بالصماصم[3]
وجئت لوارجلا وجزت مصابها
ولا مخبر[4] غير الصلاد الأعاجم
ومازلت أطوي سهلها وأكامها[5]

[1] في زهر البستان، وواسطة السلوك (مخ): ((قفراً قفاها))، البلقع والبلقعة، جمعها بلاقع: الأرض القفر.
[2] نفسه: ((سألت ربوع الدار يوماً فلم أجد)).
[3] سيف صمصام: قاطع لا ينثني. والسيوف صماصم.
[4] في و . س (مخ و مط): ((ولا مخبراً))
[5] في زهر البستان، وواسطة السلوك (مخ): ((وما زلت أطوي سيرها بأكامها)). أما (مط) من و . س فجاء فيه: ((سهلها بأكامها)).

قطعت الحمادى[3] والسراب غديرها
وأخْطِمُها[1] بين الربى والهضائم[2]

مكر بيوم الحرب لا يشتكي الونى[5]
على هيكل عبل الذراعين هاجم[4]

إلى أن بدا لي وادي زرقون أزرقا
مفر إذا طالت عظام الهزائم

طرقت برأسي واستفزيت[7] بالكرى
وبانت عليه شاحبات الغياهم[6]

وجددت في طلب[8] السرايا مسربلا
وكم من ليال بتها غير نائم

بسير حثيث أو سرى متداوم

---

[1] في و . س (مخ + ومط)، وزهر البستان: ((وأخطبها)). تخْطمْ: تكسر ما هو يابس. يقولون: (إبل حطمة): كثيرة تحطمُ الأرض بخفافها وأظلافها، وتخطمْ شجرها وبقلها فتأكله.

[2] الهضْمُ والهضَمُ: المطمئن من الأرض. وثمة من رأى أنه أسفل الوادي. والهضم جمعه أهضام؛ ولكن أبا حمو جمعه بـ"هضائم" للضرورة.

[3] الحمادى: اصطلح في البلدان المغرب على تسمية الصحراء الحجرية المنبسطة بالحمادى.

[4] في و . س (مخ + مط)، وزهر البستان: ((هاضم)). يقولون: ((رجل عبل الذراعين) أي ضخمهما.

[5] وني ونْياً ونَى: فتر وضعف وكلّ وأعيا.

[6] في و . س (مخ): ((الغمائم)). الغيْهم: الظلمة. والغياهم: الظلمات.

[7] استفز بالكرى: استخف بالنعاس.

[8] في و . س (مخ): ((في طي))، وفي و . س (مط): ((في قصد)).

وكم من بلاد[1] قد قطعت أكامها
وكم نسمة جادت عليها نسائمي

وبين ضلوعي زفرة مستكنة
يصعدها فيض الدموع السواجم[2]

وبتنا نسوق النجع في غيهب الدجى
وخرصاننا فيها كشهب عواتم

إلى ملل ملنا وما ملت السّرى
سرايا ركاب كالقسي السواهم

ولما بدا لي منزل[3] القوم ظاهرا
وحيهم بين الظلال الغياهم[4]

جبذنا مجابيذا وجدت جيادها [5]

---

[1] في زهر البستان وواسطة السلوك (مخ): ((وكم من فيافي)). أما (مط): فكتبت: ((وكم من فيافٍ)).

[2] سجمت العين الدمع: سالت بالدمع. والعيون سواجم بالدمع تسيل به. وهذا البيت لم يأت هكذا في زهر البستان وواسطة السلوك (مخ)؛ بل جاء كالتالي:

((وكم زفرة تعلو من القلب صاعدا
جواها وكم دمع على الخد ساجم)).

[3] في زهر البستان، وواسطة السلوك (مخ + مط): ((غيهب القوم)). أي شدة سواد الليل أو الشيء؛ يقولون: (جمل غيهب).

[4] الغيهم وجمعها غياهم: الظلمة.

[5] في واسطة السلوك (مخ + مط) كتب: ((جبدنا مجابيداً وجدت جيادنا)). جبذنا: جذبنا، يصح القول: جبذ يجبذُ جَبْذاً. أو جَذبَ يجْذِبُ جذْباً.

وجالت كما العقبان بين القشاعم[1]

وضمر عناجيج على صهواتها[2]

كرام سماح[3] بالنفوس الكرائم

نطارد فيها الخيل بالخيل مثلها

فكان على الأعداء كر الهزائم

حملنا عليهم حملة مضرية[4]

فولوا شراداً مثل جفل النعائم

فكم خلفوا ما بين بكر وبكرة

ومن غادة ملتفة بالهدائم[5]

وولت[6] سويد ثم خلت مجيرها

---

[1] في و . س (مخ + مط): ((السغاهم)). وفي زهر البستان: ((السقائم)). القشعم جمع قشاعم: الضخم المسن من كل شيء. والقشعم أيضاً: المسنُ من الرجال أو النُسور والرخم لطول عمره.

[2] العناجيجُ مفردها العُنجوجُ: الرائع من الخيل. والصهوة من الفرس: موضع اللِّبْدِ من ظهره.

[3] في واسطة السلوك (مخ): ((كرام تجود بالنفوس))، وزهر البستان: ((يجودوا)). أما و . س (مط) فهو مثل بغية الرواد؛ والوزن فيه أسلم.

[4] في زهر البستان، وواسطة السلوك (مخ): ((شددنا عليهم شدة مضربة)).

[5] جاء هذا البيت في واسطة السلوك (مخ + مظ)، وزهر البستان على غير ترتيب بغية الرواد، وكتب هكذا:

((وكم خلفوا ما نين بكر وبكرة

وكم غادة ملتفة في الهدائم)).

[6] في و . س (مخ + مط)، وزهر البستان كتب: ((فولت)).

وشيـــخ حماهـــا في الثـــرى أي جاثـــم[1]

وطاحـــت عـــلى وادي مـــلال هشائـــم

مـــن القـــوم صـــرعى للنســـور القشاعـــم[2]

فكانـــت إلى الطيـــر القشيـــم فرائســـا[3]

وكانـــت عـــلى الأعـــداء شـــؤم الذمائـــم

وهبـــت ريـــاح النصـــر من كـــل جانـــب

وجـــاءت[4] إلينـــا مبهجـــات الغنائـــم

(ولمـــا قضينـــا الأمـــر في الحـــرب منهـــم

رحلنـــا بعـــون اللـــه نحـــو المعالـــم)[5]

---

[1] جـــاء هـــذا البيـــت في و . س (مخ + مط)، وزهـــر البستـــان مباشـــرة بعـــد البيـــت الـــذي يبتـــدئ بـــ((شددنـــا عليهـــم))؛ وقبـــل البيـــت الـــذي يقـــول: ((وكـــم خلفـــوا مـــا بيـــن بكـــر وبكـــرة)). كمـــا جـــاء عجـــز هـــذا البيـــت فيهـــم كالتـــالي:

((وشيـــخ حماهـــا في لجـــوج المصـــادم)).

[2] كتبـــت قشائـــم. والصحيـــح هـــو قشاعـــم وقـــد سبـــق شـــرح الكلمـــة. مـــع أن هـــذا البيـــت كتـــب في و . س (مخ)، وزهـــر البستـــان هكـــذا:

((وطاحـــت هياشيـــم عـــلى الأرض طعمـــة بـــوادي مـــلال للنســـور القشاعـــم)). واتفقـــت و. س (مط) مـــع بغيـــة الـــرواد.

[3] في و . س (مخ + مط)، وزهـــر البستـــان ((فكانـــوا إلى الطيـــر القشيـــم فرائســـاً)).

[4] في و . س (مخ)، وزهـــر البستـــان: ((وكانـــت))

[5] لـــم يـــرد هـــذا البيـــت في بغيـــة الـــرواد؛ بينمـــا جـــاء في و . س (مخ)، وزهـــر البستـــان كمـــا سبـــق؛ أمـــا واسطـــة السلـــوك (مط) فكتـــب: ((ولمـــا قضيـــت الأمـــر)).

وخضــراء[1] كبــود تبــدت هضابهــا

وهبــت ريــاح عاطــرات النواســم

درجنــا إلــى درج ولاحــت بشائــر

بهلــك الأعــادي التاعسيــن الأشائــم[2]

(ألا أيهــا النــاعي البشيــر الــذي نــعى

أميــر مريــن حــزت أســنى المقاســم)

(لقــد قــرب اللــه البعيــد بهلكــه

فبشــراك بالخيــرات يــا خيــر قــادم)[3]

ولاح[4] لنــا فرتــون فافتــرت المُــنَى

إلينــا ابتسامــا للثغــور البواســم[5]

وصــارت أســود الغــاب تــأتي مطيعــة

وعــادت لنــا الأيــام مثــل المواســم

قطعنــا الثنايــا والخميــس مسربــل

---

[1] في و . س (مخ + مط)، وزهــر البستــان: ((وخضــرا كبــود)) بــدون الهمــزة وهــو أسلــم للــوزن الشعــري.

[2] يقصــد وصــول خبــر مــوت أبي عنــان؛ سلطــان بــني مريــن.

[3] هــذا البيــت والبيــت الــذي سبقــه موجــودان في و . س (مخ + مط)، وزهــر البستــان؛ بينمــا سقطــا في بغيــة الــرواد.

[4] في و . س (مخ + مط): ((ولاحــت)).

[5] في و . س (مخ + مط)، وزهــرالبستــان: ((بالثغــور البواســم)).

صلاصله مثل الرياح القواصم[1]

وعجنا وعرجنا على وادي يسر

وجزنا المخاض[2] كالليوث الضراغم

وفي يسر آمالنا يسرت لنا

فجددت[3] للأوطان فيه عزائمي[4]

وبتنا وبات النوم غير مساعدي

واني على جد السري جد عازم

وسرنا[5] ضحى والنصر يهفو أمامنا

برايات سعد فوقنا كالغمائم

قدمنا وكان الفتح يرجو قدومنا

وكان على الأعداء شر المقادم

وصفُّوا صفوفا ثم صفت صفوفنا

وسالت دموع القوم مثل العنادم[6]

---

[1] في و . س (مخ): ((قطعنا المنايا والخميس مسربل = صلاصله مثل الرياح النواسم)). وما جاء في بغية الرواد أفضل.

[2] في و . س (مط): ((المخاضي)).

[3] نفسه: ((وجردت)).

[4] في و . س (مط)، وفي زهر البستان جاء عجز البيت هكذا: ((فيها عزائمي)).

[5] في و . س (مخ): ((وصرنا ضحىً)).

[6] جاء عجز هذا البيت في و . س (مخ)، وزهر البستان هكذا:

((وخط بها الخطي بين الحلاقم)).

وجالــت ليــوث الحــرب بيــن صفوفهــا[1]
وخــط بهــا الخطــي بيــن الحلاقــم[2]
ولاح شعــاع الهنــد بيــن خميسهــا
كبــرق تبــدى بيــن درج الأراقــم[3]
علونــا عــلى الصفصيــف[4] واشتــد بيننــا
حــروب تشيــب الــرأس قبــل الفطائــم
كررنــا عليهــم كــرة بعــد كــرة
وقــد شعلــت[5] للحــرب نيــران جاحــم[6]

---

[1] حــدث تقديــم وتأخيــر في الأبيــات والأشطــر بيــن البغيــة وزهــر البستــان.

[2] أمــا هــذا البيــت فجــاء في زهــر البستــان كمــا يــلي:

ولاح شعــاع الهنــد بيــن صفوفهــا
كبــرق تبــدى بيــن درج الأراقــم

[3] الــدَّرَجُ جمعــه أدراج ودِراج: الطريــق. الأراقــم: مــن أخبــث الحيّــات؛ لونهــا مرقطــة بالأبيــض والأســود. وجــاء هــذا البيــت في و . س (مخ): ((ولاح شعــاع الهنــد بيــن صفوفنــا = كبــدر تبــدّى بيــن درج الأراقــم)). أمــا في زهــر البستــان كتبــت كلمــة ((بيــن صفوفهــا)) بــدلاً مــن ((بيــن خميسهــا)).

[4] في و . س (مخ): ((سمونــا إلى الصفصيــف)). وفي (مط)، وزهــر البستــان ((سمونــا إلى اصطفطيــف)). والصفصيــف اســم الــوادي الصغيــر المجــاور لتلمســان حاليــاً.

[5] في و . س (مخ + مط)، وزهــر البستــان: ((سعــرت)).

[6] جَحَــمَ جَحْمــاً النــار: أوقدهــا. والجاحِــم: الجمــر حينمــا يشتعــل بشــدة. وجاحِــم الحــرب: ضيقهــا وشدتهــا. والجاحــم مــن الحــرب: معظمهــا وشــدة القتــل في معاركهــا.

بضــــرب يزيــل الهــام[1] عـــن مستقــره

وطعــن مــضى بيــن الكــلى والحيــازم[2]

فهــذا أسيــر صفّدتــه يــد الــوغى

وهــذا قتيــل فــي عجــاج المصــادم[3]

فطــوبى لعبــد الــواد عنــد إزدحامهــم

لقــد جدلــوا فــي الحــرب كــل مزاحــم

وجالــت خيــول العامريــة عندهــــا

كأســد الشّــرَى في موجهــا المتلاطــم[4]

وعــاد شعــاع الشمــس في الجــو أصفــرا

وجــال ذبــاب السيــف بيــن الغلاصــم[5]

جعلنــا كراديســا علــى كــل ربــوة

وطالــت رقــاب الأســد تحــت العمائــــم

---

[1] مفــرد الهــام الهامــة: رأس كــل شــيء.

[2] كُــلَى وكلْيات مفردهــا كُلْيَــة: وهي أحــدى الغدتيــن في الإنســان والحيــوان؛ وضيفتهمــا تصفيــة البــول وإفــرازه مــن الــدم. وحَيــازِم وحَيازِيــم مفردهــا حَيْــزوم: وســط الصــدر. وفي حــال الكنايــة عــن الصبــر يقولــون: (شَــدُّ الحَيــازِم).

[3] الصّــدْمُ: ضــرب شــيء صلــب بمثيلــه. والتّصَــادُمُ: التزاحــم. والجيشــان يتصادمــان: يتضاربــان. والمصــادم: مواضــع التصــادم.

[4] ورد هــذا البيــت في و . س (مخ)، وزهــر البستــان هكــذا: ((وجالــت خيــول العامريــة فوقهــا = أســود الشــرى في بحرهــا المتلاطــم)). أمــا في و . س (مط)، فكتــب: ((موجهــا المتلاطــم)) بــدلاً مــن ((بحرهــاالمتلاطــم)).

[5] الغَلاصِيــم مفردهــا الغَلْصَمَــة: راس الحُلْقــوم.

شددنــا عليهــم شــدة بعــد شــــدة

فولــوا فــرارا والتجــوا للمعاصــم[1]

وداروا باســـوار المدينــة كلهــا

كــدور ســوار فــوق أبهــى المعاصــم[2]

وقــد بــرزت مــن خذرهــا كــل غــادة

درجــن علــى الأسطــاح درج الحمائــم

وقــد عــاد ذاك الجمــع منهــم مكســرا

بجمــع لنــا بيــن الكتائــب ســالــم

فرامــت مريــن الصلــح بعــد فرارهــا

وقــد ظلمــوا عمــداً ولســت بظالــم

فــلا صلــح حتى تضــرم الحــرب نارهــا

وتسَّاقــط الأبــدان تحــت الجماجـــم

وتخــلى مــن الأعــداء دار عهدتهـــا

مـــع الآنســات الناعمــات الكرائـــم[3]

دخلــت تلمســان الــتي كنــت أرتــجي

---

[1] لا يوجــد هــذا البيــت في زهــر البستــان.

[2] في و . س (مخ)، وزهــر البستــان: ((فــوق حســن المعاصــم)). ويبــدو أن بيــت بغيــة الــرواد وضــع في غيــر موضعــة؛ خاصــة إذا كــان ضــرب البيــت ينطبــق مــع سابقــه.

[3] في و . س (مخ)، وزهــر البستــان: ((مــع الغانجــات الناعمــات الكرائــم)).

كمـــا ذكـــروا في الجفـــر أهـــل الملاحـــم[1]
فخلصـــت مـــن غصابهـــا دار ملكنـــا
و طهرتهـــا مـــن كـــل بـــاغ و جـــارم[2]
لقـــد أسلموهـــا عنـــوة دون عـــــدة
لقـــد[3] طلقوهـــا بالقـــنى والصـــــوارم
ولـــم يغنهـــم مـــا شيـــدوا مـــن معاقـــل
ولـــم يجدهـــم مـــا حصنـــوا من معاصـــم
ولا كثـــرة الجيـــش اللهـــام ولا الظـــبى[4]
ولا مـــا أعـــدوا مـــن قـــسي سواهـــم
إذا لـــم يكـــن للمـــرء سعـــد مساعـــد
فمـــا يغنـــه عـــد[5] الجيـــوش الخضـــارم[6]

[1] جـاء هـذا البيـت في و . س (مخ)، وزهـر البستـان هكـذا: ((وجئـت تلمسـان الـتي كنـت أرتـجي = كمـا ذكـروه في كتـاب الملاحـم)). أمـا و . س (مط) فكتـب ((كمـا ذكـرت)) بـدلاً مـن كلمـة ((كمـا ذكـروا)).

[2] كتـب هـذا البيـت في و . س (مخ)، وزهـر البستـان: ((وخلصـت مـن غصابهـا دار ملكنـا = وطهرتهـا مـن كـل بـاغ وظالـم)). أمـا و . س (مط) فتتطابـق مـع بغيـة الـرواد مـا عـدا كلمـة: ((وخلصـت)) المكتوبـة في و . س بـدلاً مـن ((فخلصـت)).

[3] في و . س (مخ + مط)، وزهـر البستـان: ((وقـد)).

[4] نفســه: ((الجيـش اللهـام مدرعـاً)).

[5] في و . س (مخ)، وزهـر البستـان: ((فمـا تغـن تعـداد الجيـوش)). أمـا في و . س (مط) فكتـب: ((فمـا يغـني إعـداد الجيـوش)).

[6] الخضـرم خضـارمٌ: الكثيـر مـن كـل شـيء.

نظمنـــا شتيــت الملــك بعــد افتراقــه

وكــم بــات نهبــاً شملــه دون ناظـــم[1]

شددنـــا لـــه أزراً وشدنـــا بنـــاءه

بأوثـــق أركـــان وأقـــوى دعائـــم

فصـــارت[2] ملـــوك الأرض تـــأتي مطيعـــة

إلى بابنـــا تبـــغي التمـــاس المكـــارم

وجـــاءت لنـــا مـــن كـــل أوب ووجهـــة

تبايعنـــا طوعـــاً وفـــود العمائـــم

أنـــا الملـــك الـــزَّابي ولســـت بـــزابي[3]

ولكنـــني مفـــني الطغـــاة الطماطـــم[4]

(إذا مـــا أتـــت مـــن بعـــد ستيـــن سبعـــة[5]

نبيـــد مرينـــاً كـــل طـــاغ وجـــارم)

---

[1] في و . س (مط): ((غيــر ناظــم)).

[2] في و . س (مخ)، وزهــر البستــان: ((فعــادت ملــوك الأرض)).

[3] كتبــت في و . س (مط) ((زابئ)). وزَابي الأولى: نسبــة إلى منطقــة الــزَّاب الممتــدة حــول بسكــرة. أمــا زَابي الثانيــة: فتعــني الهــروب والانســلال متخفيــاً؛ لــذا فهــو ينــفي عنــه ذلــك. ومعــنى البيــت هنــا هــو: أنــه يقــول: أنــا الملــك المنتســب لمنطقــة الــزّاب؛ ولكنــني مــع هــذا لســت مــن الذيــن يهربــون وينسلــون في الخفــاء.

[4] في و . س (مخ + مط)، وزهــر البستــان كتبــت العبــارة هكــذا: ((مفــني الطغــات الأعاظــم)). أمــا كلمــة طُماطــم: فمعناهــا العُجْــم.

[5] المقصـــود هنـــا: سنـــة 760 هجريـــة.

(وإني لمفنيهم ومفني جموعهم
وهادم ما قد شيدوا من معالم)
(سطيح وشق أخبروا في جفورهم[1]
بذلك حقا تحت حسن التراجم)[2]
فقمنا بأمر الله في نصر دينه
وفي كف[3] ما قد أحدثوا من مظالم
فلله منا الحمد والشكر دائما
وصلى على المختار من آل هاشم

*****

[1] الجفر: ضرب من التنجيم؛ سبق الحديث عنه. أما سطيح: فاسمه ربيع ابن ربيعة (توفي حوالي 572م). وهو كاهن؛ اشتهر بالتنجيم مع صنوه شق؛ وتقول الأساطير أنه كان دوماً منسطحاً على الأرض؛ لا يستطيع القيام؛ ولا حتى الجلوس. وقد عمر مدة طويلة. أما شق: فقد توفي (في حدود سنة 583م). ويُعد – مع سَطيح – من أشهر الكهان أيام الجاهلية. وتقول الأساطير: أن شقاً كان بيد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة؛ وقد عمر هو الآخر طويلاً.

[2] هذا البيت والبيتان السابقان غير موجودة في بغية الرواد التي بين يدي.

[3] في زهر البستان: ((وفي فك)).

الباب الثالث

اني ذاكر في هذا الباب ما التزمته من تفصيل ما اشتملت دولته[1] من حرب وسلم وتفريق ولمّ وحكمة وحكم. ومن الله عز وجل أسئل الاعانة والتوفيق

سنة ستين وسبعمائة[2]

كان استقرار مولانا الخليفة أمير المسلمين **أبي حمو** بدار الملك لسلفه الكريم؛ بعد صلاة الظهر من يوم الخميس المبارك؛ غرة شهر ربيع الأول المشرف. فاقتعد أريكة الملك وامتطى سرير الخلافة؛ وأمر ـ لحينه ـ بالنداء على **بني مرين** بالخروج غير منظرين عن الحضرة؛ فلم يمس بها منهم أحد، ولا أصبح لدعوتهم فيها ذكر؛ وضبط ـ نصره الله ـ أمر قاعدة ملكه، ورتب مصالحها،

---

[1] دولة أبي حمو موسى الثاني.

[2] 1358م.

وجمـع للملـك الحاميـة، وأحـصى مـا غادرتـه الدولـة الذاهبـة مـن متـاع وزرع وسلـع بحريـه، ومـا حوتـه هديـة الملـك المتـوفى[1] إلى ملـك **قطـلان**[2] مـن: خيـل عتيقـة، وسـروج مفرغـة ركبهـا مـن ذوب اللجيـن، ولجـم موشيـة، وأسبـاب مختـارة. وفتـح بيـن يديـه الكريمتيـن ــ أعـلى الله مقامـه ــ صنـدوق الأوقـاف المنوعـة؛ مفعمـاً ذهبـاً وفضـة؛ فلـم تغـره صفـراؤه ولا بيضـاؤه؛ شنشنـة نعرفهـا مـن أحـزم وسُنّـة عَلَويَّـة[3] عليـه.

ثـم صـرف ــ خلـد الله ملكـه ــ وجـه العنايـة لإحيـاء رسـوم الخلافـة، وتوطيـد قواعـد الملـك، وتشييـد مصانـع[4] الدولـة؛ مضطلعـاً بتفصيـل أحكـام ذلـك وإحكـم تفاصيلـه؛ عارفـاً بتحديـد رسومـه ورسـم حـدوده. فاستـوزر **الحـاج أبـا عمـران مـوسى بـن عـلي بـن برغـوث**، وولى **الفقيـه أبـا زيـد عبـد الرحمـن بـن**

---

[1] أبـو عنـان.

[2] أي قطلونيـة: مقاطعـة في القسـم الشمـالي الشـرقي مـن بـلاد الأندلـس؛ أكبـر مدنهـا هي برشلونـة.

[3] الشَّنْشنَـةُ جمعهـا شناشـن: الخُلُـق والطبيعـة. الحَـزْمُ: ضبـط الإنسـان أمـره والأخـذ فيـه بالثقـة. السُّنّـةُ جمعهـا سُنَـنٌ: السيـرة أو الطريقـة والطبيعـة. نسبـة لعـلي بـن أبي طالـب.

[4] المصنعـة والمصانـع: الحصـون والقـرى والقصـور وأحـواض المـاء. ولكنـه يقصـد هنـا الابتكـار والتزييـن.

مخلوف الشامي الأشغال والعلامة، الفقيه أبا عبد الله محمد بن علي العصامي[1] ديوان الإنشاء والتوقيع، والفقيه أبا العباس أحمد بن الحسن المديوني[2] القضاء؛ فشرقت شمس الدولة بأفقها بعد تكويرها، وضاءت نجوم سمائها بعد الانكدار، وثبت مركز سياستها فاستقام المدار؛ فكأن العفاء لم يطرق لها ساحاً، ولا مدت الصروف لمحو جمالها يداً؛ وكل عمل فله رجال، وما من زمن إلاّ وله دولته: و((الأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا (لـ)مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)).[3]

[1] لم نتوصل إلى معرفته؛ وإن كان يحيى بن خلدون أشار إلى شخص تولى خطة الإنشاء في دولة: أبي سعيد وأبي ثابت؛ سماه ــ في النسخة المحققة ــ علي بن محمد بن سعود؛ بينما سمي في نسخة أخرى محمد؛ على أنه ذكر أنه قدم من تونس.

[2] كان قاضياً في دولة عمّيْ أبي حمو: (أبو سعيد وأبو ثابت). وسماه المؤلف في الجزء الأول من بغية الرواد: الفقيه أبو العباس أحمد بن الحسن بن سعيد. وفي كتاب البستان وردت إشارة إليه في الترجمة الخاصة بابن مرزوق الحفيد؛ فجاء على لسانه: ((وحدثتني أي عائشة بنت الفقيه العالم القاضي أحمد بن الحسن المديوني...)).؛ إذن فهو جدُّ ابن مرزوق.

[3] صحيح الآية هكذا: ((قَالَ مُوسى لقوْمِه استَعِينُوا باللّه واصْبِرُوا إنّ الأرْض للّه يُورثُها منْ يشاءُ منْ عباده والعاقبةُ للْمُتقين)). سورة الأعراف، الآية: 128.

قلت: وقد يناظر هذا الإقدام وما اشتمل عليه من سياسة وحزم بأثر **عبد الرحمن بن معاوية ابن مروان بن الحكم**[1]؛ لَمَّا جلاه سيف **بني العباس** عن الشام، وأجاز البحر إلى **الأندلس**؛ فملكها، ومَصَّرَ الأمصار، وجَنَّدَ الأجناد، ووضع الدواوين، وخلد الآثار، وأقام بها ملكاً عظيماً يضاهي ملك سلفه بشامهم؛ إلا أن **بني العباس** ـ مقارعو ذاك يومئذ ـ **ببغداد**؛ وبينها وبين **الأندلس** المدى الذي يقطع في السنين، **وبني مرين** مقارعو هذا الخليفة[2] ـ أيده الله ـ **بفاس**؛ على كثب[3] من داز ملكه، وبمرأى ومسمع من حله وترحاله. فقد بان الفرق، واتضح الحق.

رجع التاريخ: وفي الثالث أو الرابع من أيام هذا الشهر وفد على بابه الكريم أهل

---

[1] المعروف بصقر قريش؛ تمكن من تأسيس الدولة الثانية لبني أمية في بلاد الأندلس.

[2] أبو حمو.

[3] الكثب: القرب.

ندرومة[1]، وأهل وجدة[2]، وأهل هنين[3] ببيعاتهم؛ وكان أهم ما بدأ به ـ أعلى الله مقامه ـ الإحسان إلى أنصار الدعوة، ووفود الهناء على بابه من العرب العامرية والمعقليه؛ وهم زهاء ثمانية آلاف؛ فكسا كلاً منهم على قدره، ونفل خواصهم الخيل المسومة، والسروج المرفهة، والعدد المحلاة بالعسجد أو اللجين، ثم المال المتعدد؛ فصدروا فرحين بما أوتوه؛ شاكرين لله سبحانه وتعالى باظهار دعوته الزيانية، ونصر كلمته العبد الوادية؛ والتفت ـ أعلاه الله ـ إلى قبيله الأعز؛ فأخذ بضبعهم[4] وراش مهيض

---

[1] ندرومة: سميت باسم بطن من بطون قبيلة كومية البترية. ومع هذا يعتقد الوزان أنها مدينة أزلية بناها الرومان؛ بهندسة وأسلوب يشابه مدينة روما. ولكن المحققين يشككون في هذا القول؛ خاصة أنه لم يتم حتى الآن العثور على أي أثر روماني في مدينة ندرومة. المهم؛ أن هذه المدينة تقع في الشمال الغربي من تلمسان وتبعد عنها بـ 60 كيلومتر؛ في طريق مرسى هنين.

[2] مدينة وجدة: بناها زيري بن عطية المغراوي سنة 384هـ/994م. وتقع غرب تلمسان وتبعد عنها بـ 80 كيلومتر.

[3] يقول الوزان: أن هنين بناها الأفارقة؛ أي أهل المغرب. وهذه المدينة الصغيرة تقع على شاطئ البحر. وهي الميناء الذي يربط مملكة بني زيان بالعالم الخارجي. ويبعد ميناء هنين عن ندرومة بـ 35 كيلومتر.

[4] الضَبْعُ جمعه أضباع: وسط العضد؛ يقولون: (أخذ بضبعه): أي أعانه وقواه.

جناحهم؛[1] فاستركب منهم – في يوم واحد – ألف فارس؛ يكسى الرجل منهم بقدره، ويُدفع إليه فرس مسرج ملجم، ومهماز وسيف ورمح، وثلاثة من الذهب، وعشرون برشالة[2] من القمح، وثلاثون من الشعير. على هذا مضت سُنّتُهُ فيهم؛ إلى أن ركبوا من عند آخرهم؛ عطاءَ من أيقن من الله بالخلف، وآثر الفخر والشرف؛ واعتمد تشييد أركان الملك؛ أدام الله أيامه، ونصر أعلامه.

وأطلت ليلة الميلاد النبوي – على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم – فأقام لها بمشور[3] داره العلية؛ مدعى كريماً وعرساً حافلة؛ احتشدت لها الأمم، وحشر بها الأشراف والسوقة؛

---

[1] راش ريشاً السّهم: ألزق عليه الريش. وعظمٌ مهيضٌ: مكسور بعد الجُبور.

[2] برشالة أو برجالة: وحدة قياس لكيل الحبوب. والبرشالة الواحدة تقاس في تلمسان بـ: 12 رطل ونصف.

[3] المشور: دار الملك ومركز الحكم وبلاط الدولة. بناه يغمراسن بن زيان، ثم أضاف إليه أبو حمو موسى الأول بعض المرافق.

فما شئت من نمارق[1] مصفوفة وزرابي مبثوثة[2]، ومشامع كأنها الأسطوانات؛ القائمة على مراكز الصفر المموهة. والخليفة ـ أيده الله ـ صدر مجلسها؛ ممتطئاً سرير ملكه؛ يسر الناظرين رواؤه[3]، ويثلج الصدور عزه؛ وتحار في كمالات خلاله النهى؛ حفافيه ملا التجلة من قومه؛ وأعيان الطبقات ـ من أهل حضرة خلافته ـ على مقاعد عَيَّنَها الاختصاص، ورتب بعضها فوق بعض المناصب؛ تخالهم قطع الرياض النضرات؛ قد أغضى الجلال من أبصارهم، وخفضت المهابة من أصواتهم؛ فلا تبصر إلاّ جمالاً، وتسمع إلاّ همساً؛ يطوف عليهم ولدان أشعروا أقبية الخز الملون؛ وبأيديهم مباخر ومرشات؛ يغيم دخان عنبر تلك المفغم[4] للأناف الجو؛ فتمطر هذه الحفل وأبلاً من ماء الورد

---

[1] النَّمارق: مفردها نُمْرُق أو نِمْرِق: الوسادة الصغيرة؛ تستعمل للاتكاء عليها.

[2] يقتبس يحيى دوماً ـ في أسلوبه ـ من القرآن الكريم. إذ يقول سبحانه وتعالى: ((ونَمارقُ مصفوفةٌ وزرابيُّ مبثوثةٌ)). سورة الغاشية، الآيتان: 15 ـ 16.

[3] الرُّواءُ: حسن المنظر في البهاء والجمال.

[4] فَغَم فَغْماً وفُغوماً فلاناً: أي ملأ الطيب خياشيمه.

المنسوب إلى **نصيبين**[1] **وخزانة المنجانة**[2] ذات تماثيل اللجين المحكمة؛ قائمة المصنع؛ تجاهه بأعلاها أيكة تحمل طائراً؛ فرخاه تحت جناحيه، ويخاتله فيهما

---

[1] نصيبين: ثمة عدة أماكن تسمى نصيبين: الأولى هي مدينة في تركيا الحالية تقع في جزيرة ما بين النهرين؛ اشتهرت بكثرة البساتين والمناظر الجميلة؛ وهي التي ورد ذكرها في في خبر الإسراء والمعراج؛ حيث أعجبت الرسول= صلى الله عليه وسلم، وقال فيها: ((اللهم عجل فتحها واجعل فيها بركة للمسلمين)). وثمة أيضاً قرية تابعة لحلب تسمى نصيبين، وأخرى على شاطئ الفرات تسمى نصيبين الروم. واستعمل المؤلف هذا التشبيه نيجة لما تعود عليه في الكتابة؛ بحكم محفوظاته؛ خاصة وأنه يتواجد في تلمسان التي لا تقل جمالاً عن نصيبين.

[2] خزانة المنجانة؛ أو المنقانة أو الميقانة أو المنغالة أو منكلة : آلة لمعرفة الوقت؛ تقوم مقام الساعة الآن. وأصل كلمة منكالة فارسي. ويبدو ان ظهور لها كان بالأندلس؛ إذ ذكر أن عباس بن فرناس التاكرنّي هو مخترعها؛ إذ وجاء في كتاب المقتبس من أنباء أهل الأندلس لابن حيان القرطبي: ((وعمل عباس بن فرناس [ت: سنة 274هـ/887م] الآلة المسماة المنقانة لمعرفة الأوقات؛ فأحكمها ورفعها إلى الأمير محمد [بن عبد الرحمن] ونقش فيها هذه الأبيات:

ألا إنّني للدِّين خَيْرُ أداة=
=إذا غابَ عنْكُمْ وَقْتُ كُلِّ صَلاةِ
ولَمْ تُرَ شَمْسٌ بالنهار ولم تُنِرْ
كَواكِبُ لَيْلٍ حالِكِ الظُّلُماتِ
بِيُمْنِ أميرِ المُسْلِمينَ مُحَمَّدٍ
تَجَلَّتْ عن الأوْقاتِ كُلُّ صَلاَةِ)).

أنظر المقتبس، ص ص: 282 ــ 283. وذكر ابن سعيد ــ بدوره ــ أن عباس ابن فرناس التاكرني اخترع المنقانة. أنظر كتاب المُغْرِب في حُلَى المَغْرب، ج: 1، 333 ضمن الترجمة رقم: 239.

أرقم[1] خارج من كوة بجذر الأيكة صعداً؛ وبصدرها أبواب موجفة[2]؛ عدد ساعات الليل الزمانية؛ يصاقب[3] طرفيها بابان موجفان؛ أطول من الأولى وأعرض؛ فوق جميعها ـ ودُوَيْن رأس الخزانة ـ قمر أكمل؛ يسير على خط استواء سير نظيره في الفلك، ويسامت ـ أول كل ساعة ـ بابها المرتج؛ فينقضُ ـ من البابين الكبيرين ـ عقابان[4] بفي كل واحد منهما صنجة صفر[5]؛ يلقيها إلى طست من الصفر مجوف؛ بوسطه ثقب يفضي بها إلى داخل الخزانة؛ فيرن؛ وينهش الأرقم أحد الفرخين؛ فيصفر له أبوه. فهنالك يفتح باب الساعة الراهنة، وتبرز منه جارية محتزمة؛ كأظرف ما أنت راء؛ بيُمْنَاهَا أذبارة[6] فيها اسم ساعتها منظوماً؛ ويسراها موضوعة على فيها؛ كالمبايعة بالخلافة لأمير المؤمنين أيده الله.

---

[1] الأرقم: أخبث الحيات. والأرقم: الحية المرقطة بالسواد والبياض.

[2] أوجف الباب: أغلقه. وأوجف الشيء: حركه صيره يضطرب.

[3] يصاقب هنا: يقارب.

[4] العقاب: طائر من فصيلة الجوارح؛ له مخالب قوية ومنقار أعقف؛ يشبه النسر.

[5] تسمى الصنَّج جمعها صُنُوج: وهي صفيحة مدورة من النحاس الأصفر. أما الصفر: فالمقصود به هنا هو النحاس الأصفر.

[6] يقصد بكلمة أذبارة هنا: لوحة أو قطعة ما بها كتابة.

حيل أحكمت يد الهندسة وضعها، وراض تدبير الخلافة ـ أعلى الله مقامه ـ شماسها. والمسمع قائم صدر عترته؛[1] على بعد من الخليفة مقدر؛ يردد نغمات الألحان، ويرتب رنات الإيقاع، وينشد ـ خلال ذلك ـ أمداح سيد الرسل، وخاتم النبيين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. فمما أنشده ـ ليلتئذ ـ لمولانا الخليفة أمير المسلمين **أبي حمو** أيده الله قوله:

المتدارك:[2]

نام الأحبابُ ولم تَنَمِ
عيني بمصارعة الندمِ
والدَّمعُ تحدَّر كالدِّيَمِ
جرح الخدَّين فوا ألم[3]

---

[1] يقولون: راض روضاً ورياضة المهر: أي ذلله ووطوعه وعلمه السير. وتراوض القوم في الأمر: تناظروا فيه. وشمس شُموساً: امتنع وأبَى. والمسمع هنا: المغني أو المطرب. ففي القاموس المُسْمِعة: المغنية؛ يقال: (غنّتهُمْ مسمِعة). والعِتْرَة: ذرية الرجل أو عشيرته.

[2] هذه القصيدة موجودة أيضاً في واسطة السلوك ولكن حدث فيها تقديم وتأخير لبعض الأبيات.

[3] في و . س (مط): ((فيا ألمي)).

وزجرت النفس فما ازدجرت[1]

ونهيت القلب فلم يرم

ونذير الشيب لقد وافى

وحلول الشيب من الهرم[2]

والعمر تولى منصرما

آه للعمر المنصرم

وكذا الأيام لها دول[3]

وليالي الدهر كما الحلم

والدار تغر بساكنها

ويح المغرور بها النهم

يا نفس خدعت بزخرفها

كم ذا تغتر بها وكم[4]

يا رب ذنوبي قد عظمت

فامنن بالعفو لمجترم[5]

فالعفو إلهي منك وإن

الذنب وحقك من شيمي

---

[1] في و . س (مخ + مط): ((فما انزجرت)).

[2] نفسه: ((مع الهرم)).

[3] نفسه: ((لها عبر)).

[4] في و . س (مط): ((كم تغترين بها وكم)).

[5] في و . س (مخ): ((المحترم)).

شأن المملوك الذنب وشأ
ن المولى العفو عن الخدم
إني بذنوبي معترف
والخوف أشد من الألم
يا رب إذا لم تعصمني
ما لي بذنوبي من عِصَم
كم أجني الذنب وتمهلني[1]
وتقابل ذلك بالنعم
ولكم أعصيك وتسترني
يا ذا الأفضال وذا الكرم
ما زلت بفضلك ترحمني
وتجود عليّ على القدم[2]
والعبد ببابك ملتزم
وبغير جنابك لم يحم[3]

[1] هذا الشطر في و . س (مخ) مختل الوزن؛ إذ جاء هكذا: ((كم أجني الذنب وكم تمهلني)).

[2] في و . س (مط): ((من القدم)). أما مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية فيتوافق مع ما جاء في هذه النسخة من بغية الرواد.

[3] سقط هذا البيت بالكامل من النسخة المطبوعة لواسطة السلوك. وثبت البيت في مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية؛ ولكن الوزن اختل حين جاء العجز هكذا: ((وبغير حماك لم يحم)).

ورضى المحبوب له أرب
ورضاك الفوز لمغتنم[1]
يا رب سألتك تغفر لي
بشفيع الخلق من الأمم[2]
أدعوك إلهي معتذرا
في ضوء الصبح وفي الظلم[3]
حط العشاق ركائبهم
بين العلمين وبالحرم[4]
وصروف الدهر تعارضني
عما أبغيه من القسم
ساروا وذنوبي تقعدني[5]
فقرعت السن من الندم
وبكيت الدمع على زللي[6]
ومزجت الدمع بفيض دم

---

[1] في و . س (مط): ((يا رب أنلني منك رضى + فرضاك الفوز لمغتنم)).
[2] نفسه: ((بشفيع الخلق وكهفهم)).
[3] في و . س (مخ + مط): ((في جنح الليل وفي الظلم)).
[4] اختلف ترتيب الأبيات ــ هنا ــ بين ما جاء في بغية الرواد وما جاء في واسطة السلوك (مخ + مط)؛ إذ ورد هذا البيت والأبيات التي تليه إلى ((وبكيت= =الدمع..إلخ)) بعد ((قلبي انفطرا... إلى... حملوا خلدي...)). وقد تكرر هذا الخلط في الترتيب في هذه النسخ.
[5] في و . س (مخ + مط): ((ساروا والذنب قد اقعدني)).
[6] نفسه: ((على زلل)).

قلبي انفطرا والدمع جرى
والركب سرى نحو الخيم[1]
قلبي بهواهُ أسيرُ هواهُ
فيا شوقاه إلى العلم[2]
سرت الإبل لما ارتحلوا
قلبي حملوا في ركبهم
حملوا خلدي أفنوا جلدي
تركوا جسدي رهن السقم
بدت الأنوار على الزوار[3]
من الأقمار بذي سلم
زاروا الهادي بهوى باد[4]
وحدا الحادي عزما بهم
شدوا عزموا فازوا غنموا
لما قدموا لحمى الحرم
طافوا بالبيت وقد وقفوا
ودعوا إذ ذاك لربهم

---

1 نفسه: ((نحو العلم)).

2 نفسه: ((قلب بنواه أسير هواه + فيا شوقاه إلى الخيم)).

3 نفسه: ((على السمار)).

4 نفسه: ((بهوى بادي)).

غفـــرت بالبيـــــت ذنوبهــــــم

عنـــد الإقـــــرار بذنبهـــــم

وغـــدا المشتـــاق بزفــرتـــــه

في مغربـــه يبكـــي بــــدم[1]

جسمـــي بتلمســـــان دنـــــف

والقلـــب رهيـــــن الحـــــرم

قـــــد قيـــدني مـــا قلـــدني

مـــن أمـــر حكيـــم ذي حكـــم[2]

ولأنـــي أمـــر الخلـــق فلـــم

أسطـــع سيـــرا مـــن أجلهـــــم[3]

فاقمـــت أصلـــح مـــا خرقـــت[4]

بالغـــرب يـــد الفتـــن الدهـــم

وبعثـــت رسالـــــة مكتئـــب

لشفيـــع العـــرب مـــع العجـــــم

---

[1] هـــذا البيـــت تغيـــر ترتيبـــه في واسطـــة السلـــوك؛ كمـــا كتبـــت الكلمـــة الأولى في الحشـــو هكـــذا: ((بـــقى وبقـــا)) بـــدلاً مـــن ((غـــدا)).

[2] في و . س (مخ + مط): ((مـــن حكـــم حكيـــم ذي حكـــم)). أمـــا ترتيـــب البيـــت فمختلـــف.

[3] كتـــب البيـــت في واسطـــة السلـــوك (مخ + مط) هكـــذا: ((ولأني أميـــر الخلـــق فلـــم = أسطـــع سفـــراً مـــن أجلهـــم)). وهـــذا أسلـــم للـــوزن.

[4] في و . س (مخ): ((لأصلـــح مـــا فســـدا)). أمـــا (مط) فكتـــب فيـــه: ((أصلـــح مـــا أفســـدت)).

أرجو في الحشر جوائزها
من خير وفيّ الذمم[1]
ندمي إن لم أعمل قدمي
عوض القرطاس أو القلم[2]
بدعا عيسى وبإدريسا
يرجو موسى كشف الألم
ويخصك[3] يا أسنى قمر
بصلاة فائقة العظم
وسلام يفضح كل شذى
ما دار لسان بالكلم[4]

ولمحمد بن يوسف القيسي الأندلسي[5] لطف الله به بمنه قوله:

---

[1] يوجد خلل في الوزن هنا؛ وما جاء في واسطة السلوك (مخ + مط) صحيح وهو: ((وفيّ بالذمم)).

[2] في و . س (مخ + مط) ((ندمي إذ لم أعمل قدمي = عوض القرطاس مع القلم)).

[3] في و . س (مط): ((ونخصك)).

[4] جاء عجز هذا البيت في واسطة السلوك (مخ + مط) هكذا: ((يزري بالزهر المبتسم)).

[5] سماه المقري في نفح الطيب – من قول لسان الدين بن الخطيب – : ((الفقيه الكاتب أبو عبد الله محمد بن يوسف القيسي الثغري)). وسماه في أزهار الرياض: ((الفقيه العلامة الناظم الناثر أبو عبد الله=

الكامل:

ذكر الحمى فتضاعفت أشجانه
شوقا وضاق بسره كتمانه
دنف تذكر من عهود ودادِهِ
ما لم يكن من شأنه نسيانه
يهفو لبرق الأبرقين تعللا
والقلب منه دائم خفقانه
ويسايل الركبان عن ذاك الحمى
فتثير كامن وجده ركبانه
ويروم سلوان الهوى فيجيبه
أن المحب محرم سلوانه
ويشوقه مر النسيم إذا سرى
من نحو طيبة طيباً أردانه[1]
أترى أرى وادي العقيق ورامة[2]

=محمد بن يوسف الثغري)). وجاء في بغية الرواد: ((وللفقيه أبي عبد الله بن يوسف الثغري الأندلسي أحد شهود الدخل والخرج ببابه الكريم)). أي باب السلطان أبي= حمو. وكما هو واضح؛ فقد عاصر زمن أبي حمو موسى؛ غير أن سنة وفاته غير معروفة. ويعتبر محمد الثغري من الشعراء المجيدين، وقد استشهد المقري ببعض قصائده في نفح الطيب وفي أزهار الرياض.

[1] طيبة: هي المدينة المنورة. والرَّدن؛ جمعه أرْدان: الغزل والخز. والرُّدْن: جمع أردان: أصلُ الكُم.

[2] العقيق: وادي مجاور للمدينة المنورة. ورامة: موضع بوادي العقيق.

ويلوح لي رند الحجاز وبانه[1]

وأعاين الحرم الشريف وتنجلي

عن قلب صب مذنف أشجانه

وأطوف بالبيت العتيق ويعتلي

بي لاستلام الركن شاذروانه(؟)

وفدت عليه ركاب أرباب التقى

والمذنب الخطاء كف عنانه

من لي بزورة روضة الهادي الذي

رحم الوجود ببعثه رحمانه

المصطفى خير البرية كلها

وأجلها قدراً تعاظم شأنه

هو خاتم الرسل المكين مكانه

وهو المقدم والأخير زمانه

وهو الذي سد النبوءة والهدى

شرف حواه فؤاده ولسانه

عنوان طرس الأنبياء ختامه

والطرس يكمل حسنه عنوانه

---

[1] الرند: شجر من الغاريات، له رائحة طيبة يصلح للتزيين ويستعمل في الطبيخ. والبان: شجر من فصيلة البانيات، معتدل الطول، له ورق لين؛ غالبا ما يشبه به الشعراء قد المرأة.

لــولاه مــا وجــد الوجــود سمــآؤه(؟)
أو أرضــه أو إنســه أو جانـــــه
فجميــع مــا في الكــون كــان لأجلــه
شــرف الوجــود بــان فيــه كيانــه
فالدهــر أفــق أحمــد أمباحـــــة(؟)
والخلــق جفــن أحمـــد انسانـــه(؟)
بعلــوه فــوق السمــاوات العــلى
وبقــاب قوسيــن استبــان ركانــه
مــاذا عــسى يثــني عليــه مــادح[1]
وبمدحــه نصــاً أتــى فرقانـــه
عجــز النظــام عــن الوفــاء بمدحــه
إذ لا يصــح لناظــم إمكانـــه
فأعــد عــلى المشتــاق ذكــر محمــد
يــزدد بــه إيمانــه وأمانـــه
يــا حــادي الركبــان نحــو محلــه
تلــوي إلى علــم اللــوى أظعانــه
إن جئــت أرض مــنى وبلغــت المــنى
وحلــت ربعــاً شرفــت سكانــه

[1] ربمــا تكــون ((المــادح)) أسلــم للــوزن.

أبلـــغ عن المــولى أبي حمــو الــرضى
المعتـــلي في كـــل فضـــل شأنـــه
أزكى ســـلام للنـــبي محمـــــد
كالـــروض صافـــح روحـــه ريحانـــه
فهـــو الـــذي حـــب النـــبي وآلـــه
مـــا زال منطويـــا عليـــه جنانـــــه
كـــم قـــام معتنيـــا بمولـــده وكـــــم
سهـــرت بـــه شوقـــاً لـــه أجفانـــه
يرجـــو شفاعتـــه وســـوف ينالهـــــا
وينالـــه مـــن ربـــــه رضوانـــه
زان الخلافـــة بالمكـــارم والنـــــدى
ملـــك نمـــاه إلى العـــلى زيانـــه
وحـــمى حماهـــا بالصـــوارم والقـــنى
يـــوم الكفـــاح إذا التقـــت فرسانـــه
مـــوسى بن يوســـف لا نظيـــر لمجـــده
مجـــد يزيـــن حسنـــه إحسانـــــه
مـــن آل زيـــان الألـــى زانـــوا العـــلى
فالملـــك ارثهـــم وهـــم تيجانـــه
ملـــك يســـوس برأيـــه كـــل الـــورى
فكأنـــه روح وهـــم جثمانـــــــه
ملـــك أعـــاد الملـــك بعـــد دثـــوره

لــولاه لــم يثبــت لهــم أركانــه

ملــك وحيــد في المعــالي مــا لــه

إلاَّ المكـــارم والتـــقى خلانـــه

مهمــا يجــد فالغيــث دون عطائــه

مــا أن يعــارض جــوده هتانــه[1]

والجــود ينفــع في الوجــود دوامــه

والغيــث ليــس بنافـــع إدمانـــه

ملــك تخــاف الأســد سطوتــه إذا

حــمي الوطيــس وضمهــم ميدانــه

وخــفى النهــار بليــل نقــع أغبــر[2]

وبــدت كمثــل نجومــه خرصانــه[3]

تلــقى الخليفــة عنــد ذلــك باسمــا

يــفي الطغـــاة ضرابــه وطعانــه

وحسامــه ينهـــــل بالــدم كلمــا

أضــحى يضاحــك دره عقيانـــه[4]

[1] هتــن هتْنــاً وهُتونــاً وتهاتنــت السمــاء: تتابــع مطرهــا وانصــب وتَهَاتَــنَ الدمــع: قطــر. وغيــث هتَــان: متدفــق.

[2] النقــع جمعــه نقــاع ونقــوع: الغبــار.

[3] الخِــرْصُ والخُــرْصُ جمعــه خرصــان: حلقــة الذهــب أو الفضــة.

[4] الــدُّرُّ واحدهــا دُرَّة: اللؤلــؤة العظيمــة. العِقْيَــانُ: الذهــب الخالــص.

فكأنـــه روض تفتـــح زهـــره
ودم العـــدى في صفحـــه نعمانـــه[1]
سيـــف شعـــاع الشمـــس دون فرنـــده[2]
مهمـــا تألـــق ساطعـــاً لمعانـــه
أمنـــت تلمســـان مخاوفهـــا بـــه
فلقـــد حماهـــا سيفـــه وسنانـــه
ملـــك سعيـــد لا يعانـــد ملكـــه
إلاَّ شـــقيّ قـــد دنـــا خسرانـــه
ملـــك تقـــر لـــه الملـــوك بأنـــه
مولاهـــم الأســـنى وهـــم عبدانـــه
متوكـــل أبـــداً عـــلى مـــولاه في
عليـــاه وافـــق ســـره إعلانـــه
حكمـــت لـــه الكتـــب القديمـــة أنـــه
سيشيـــد ملكـــاً شامخـــاً بنيانـــه
مـــن نحـــو أرض الـــزاب يقـــدم طالبـــاً
ثـــاراً ومـــن أنصـــاره عربانـــه
فيمهـــد الدنيـــا ويتمهـــن العـــدى
وجميـــع ذلـــك قـــد بـــدا برهانـــه

---

[1] إشـــارة إلى زهـــور شقائـــق النعمـــان الـــتي تنتشـــر في الحقـــول في فصـــل الربيـــع.
[2] الفرنـــد: جوهـــر السيـــف ووشيـــه.

أدنى البــلاد إليــه عــزم صــادق
فالنجــح موقــوف عليــه ضمانــه
لا زال في العــز المكيــن مرفعــاً
والنجــم عنــه كليلــة أجفانـــــه
وإليــك يــا خيــر الملــوك قصيــدة
كالسلــك فصــل درّه مرجانـــــه[1]
مــن ناظــم سحــر البيــان بدايعــاً
لكــن يقصــر في حــلاك بيانــه
لا يستــوي حــر الكــلام وعبــده
يومـــاً ولا حصبــاؤه جمانـــه[2]
والعبــد مــن مــولاه يلتمــس الــرضى
أن الخليفــة شامــل إحسانـــــه
لا زال مولانــا أبــو حمــو حــمى
للملــك دام مؤيــداً سلطانـــــه

وللحــاج أبي عبــد الله محمــد بــن أبي جمعــة التــلاسي طبيــب الحضــرة العليــة قولــه:[3]

.

[1] الــدُر سبــق شرحــه. والمرْجــان والواحــدة مرْجانــة: اللؤلــؤة الصغيــرة.
[2] الجُمــان واحدتهــا جُمانــة: لؤلــؤة. يبــدو أن البيــت مختــل الــوزن.
[3] سمــاه المقــري في نفــح الطيــب وفي أزهــار الريــاض: ((الحــاج الطبيــب أبــو عبــد اللــه محمــد بــن أبي جمعــة الشهيــر بالتــلاسي)). كمــا استشهــد في

المتقـــارب:

تـــرى هـــل يـــرد الصبـــا بالوســائـــل
فدمـــعي مـــذ بـــان هـــام وسائـــلْ

وهـــل لـــزمـــان مـــضى رجعـــة
كعهـــدي بـــه أتـــرى الدهـــر فاعـــلْ

بـــدا الشيـــب في مفـــرقي قادمـــا
فقـــال السلـــو أنـــا عنـــك راحـــلْ

فهـــا أنـــا أبـــكي لفقـــد الشبـــاب
وعصـــر التصـــابي بكـــاءَ الثواكـــلْ

وليـــس البكـــاءُ عـــلى فقـــده
ولكـــن لتضييـــع عمـــري باطـــلْ

مـــضى ضائعـــاً في عـــسى ولعـــل
وحـــتى وســـوف اعتـــذار المماطـــلْ

أطـــاوعُ نفـــسي في غيّهـــا
وأمـــسى عـــن الرشـــد لاهٍ وغافـــلْ

فيـــا ويـــح نفـــسي كـــم ذا تـــرَى
تطيـــع الغـــواة وتعـــصي العـــوادلْ

وكـــم ذا اغتـــرار بطـــول البقـــا
ولـــم يتبـــقَّ مـــن العمـــر طائـــلْ

المصدريـــن ببعـــض قصائـــده. عاصـــر زمـــن أبي حمـــو مـــوسى؛ إذ كـــان طبيبـــاً لحضرتـــه؛ وبقيـــت سنـــة وفاتـــه غيـــر معروفـــة. يجيـــد نظـــم الشعـــر والموشحـــات.

فمَـــنْ مُنصـــفي أو لِمَـــن أشتـــكي
ودهـــري غـــدا ليَّ حربـــاً مقاتـــلْ
وهــل مــن دواءٍ وهــل مــن شفــاء
ولســتُ لــشيءٍ مــن النصــح قابــلْ
شَكَــوْتُ إليــك إلــهي عَــسَى
تُمــن وتسمــحُ بالتــوب عاجــلْ
وتَصفـــحُ عــن زلـــتي إنَّـــني
أتيــتُ ذليــلاً بابــك سائــلْ
فمــا لي ســواك وأنــت الإلــه
الــذي لا تخيــب لديــه الوسائــلْ
تَوَسَّــلْــتُ بالهاشــمي الـــذي
بعثــت رســولاً فــأدى الرسائــلْ
نــبي الهــدى خاتــم الأنبيــاء
شفيــع العصــاة وزيــن المحافــلْ
عظيــم الجــلال كثيــر النــوال
كريــم الفعــال وبالحــق قائــلْ
أتانــا ربيــع بشيــراً بــه
فحــقَّ ربيــع عــلى كــل عاقــلْ
فَحُيِّيــتَ يــا شهــر مــن قــادم
ســرور قدومــك للخلــق شامــلْ

أتيتَ بمن جاءنا بالهدَى
وبالمعجزات أتَى والدلائلْ
له المعجزات التي ليس تُحصَى
ومن قال تُحْصَى فدعواه باطلْ
تَخَيَّرَه الله من أمَّة
تخيَّرها من جميع القبائلْ
فيا حادي الركب أن جئت أرضاً
بها سيد الخلق ثاوٍ ونازلْ
وأبصرت نجداً وعاينت سلعاً[1]
وتلك المغاني بها والخمائلْ
فقف عند باب السلام[2] ترى
ضريح نبي الهدى دون حائلْ
فبلغ سلامي وبح ثم باسمي
ولا يشغلنك عن ذاك شاغلْ
لعلي أكون له زائراً
بعامي هذا أو العام قابلْ
أعفر خدي في يثرب
وأذري هناك الدموع الهواملْ

[1] نجد: هي الهضبة الممتدة شمال شرق المدينة؛ وهي بعيدة عنها. أما سلع: فهو جبل بالمدينة المنورة.

[2] باب السلام: أحد أبواب المسجد النبوي بالمدينة المنورة.

وأستغفـــر الله مـــن كـــل ذنـــب

ندمـــت لـــه وعضضـــت الأنامـــلْ

وأدعـــو بنصـــر إمـــام الهـــدى

حمي المستجيـــر وقطـــب الفضائـــلْ

مبيـــد الطغـــاة ومفـــنى العـــــداة

وكنـــز العفـــاة وكهـــف الأرامـــلْ

فذلـــك مـــوسى الإمـــام الـــــذي

محـــا عـــن رعيتـــه كـــل باطـــلْ

تحـــلى بـــه الملـــك درًّا نفيســـاً

ومـــازال مـــذ كـــان للخيـــر فاعـــلْ

أنـــاف وأربى عـــلى مـــن ســـواه

فمـــا في الملـــوك لـــه مـــن مماثـــلْ

وإن الكـــــرام إذا جمعـــــوا

فكانـــوا حيـــا كـــان جـــدواه وابـــلْ

وفي طبعـــه مـــن بديـــع الصفـــات

عفـــاف وحلـــم وبـــأس ونائـــــلْ

وسبحـــــان لـــــو رآه لانثـــني

يعيـــره بالفهاهـــة باقـــــــلْ

فـــوفى الخلافـــــة أشراطهـــــا

وعـــدل مـــن أمرهـــا كـــل مائـــلْ

فبشراه بالنصر والفتح حتى
تدين البلاد له والقبائلْ
حللت من الملك أسنى محل
رحمت يتيما وأغنيت عائلْ
وجئت تلمسان والمشتري
تبدى وكيوان بالغرب آفلْ[1]
قد افتخرت حين ملكتها
وحصنتها بالقنى والقنابلْ[2]
دع المعتدين فما ظفرت
يداهم بما قد حوته بطائلْ
فلا زال أمركم نافذاً
وملككم ثابتاً غير زائلْ

[1] كوكب المشتري: هو زيوس (Zeus) بالإغريقية وجوبيتير (Jupiter) عند الرومان. وهو أكبر الكواكب وألمعها. يمكن مشاهدته في الجهة الجنوبية الشرقية. أما كوكب كيوان: فهو كوكب زحل. وكيوان تسمية فارسية؛ أما الإغريق والرومان فسموه: فرونس؛ بينما يسمى لد الهنود: شنشر. وفي علم البروج يتم صلاحه بالمشتري؛ إذ يحول طبيعته إلى الخير، ويحل ما يعقد من الشر. ولهاذا ربط الشاعر بين الكوكبين.

[2] القنابل: هنا مفردها القَنْبَل والقَنْبَلَة: وهي الطائفة من الناس أو الخيل.

وجئ آخر الليل بالخرس[1] الشهي الملاذ الحافل الملامح والمشام المتعدد الخوانات[2] مما أرحبت ساحته وحبرت بروده[3] وناء بالعصبة أولي القوة محمله. ثم الفواكه فالحلواء. وطعم الناس بين يدي الخليفة وشكروا الله سبحانه، ودعوه لجابر صدعهم، ولم شعثهم. ولم يفارق الخليفة ـ نصره الله ـ مجلسه أول الليل؛ إلى أن صلى الصبح في الجماعة؛ ثم غدا على داره السعيدة؛ ولسان الحال ينشده:

يا حسنها ليلة تولت
لو مد في باعها النهار
ولم تكن تبتلي لتبلى
بنهر فجر له انفجار

وعلى هذا الأسلوب مرت المواليد النبوية ـ بعد هذا ـ في مدته السعيدة؛ طالت أيامه، وانتشرت في هضاب المعالي أعلامه.

---

[1] الخُرْس والخِراس: طعام الميلاد.

[2] الخُوان والخِوان جمعه أخوِنة وخُون: وهو (السفرة)؛ أي ما يوضع عليه الطعام بغرض الأكل. أما المشَّام: فتعني كل ما يشم من الروائح الطيبة.

[3] حبر حبراً الشيء: زينه. والبُرود: ثياب مزدانة بالخطوط الجميلة.

وفي الرابع والعشرين – من أيام هذا الشهر – وصلت بيعات **مستغانم**، **وتمزغران**، **والبطحا**[1]؛ من حواضر القطر. وبعده بأيام أربعة أنهض – أيده الله – وزيره **الحاج موسى بن علي بن برغوث** لحصار **وهران**[2] والأخذ بمخنق مرين فيها؛ فسار إليها في الجنود المتعددة، ونازلها مكتباً إليها الجوار؛ فبرزت يوماً حاميتها المرؤوسة **بعامر ابن إبراهيم بن ماساي**[3]؛ من قواد **بني مرين**. واقتتل الفريقان ملياً؛ فخذل الوزير **موسى بن علي** أشياعه، وفرت عنه حشوده، وولى – بعد البلاء الحسن – فكبا به فرسه؛ وقبض عليه ثامن شهر ربيع الثاني؛ فحمل أسيراً في البحر للمغرب؛ و((اللّه

---

[1] مستغانم: مدينة ساحلية يقول الوزان أن من بناها هم الأفارقة؛ ويقصد بهذا أهل البلاد الأصليين. وتبعد مستغانم – نحوالشرق – من وهران بـ =80 =كيلومتر تقريباً. ومزغران أو تمزغران: مدينة صغيرة تقع غرب مستغانم؛ ولا بعد عنها سوى بـ 4 كيلومترات. ويقول الوزان أن الأفارقة هم الذين بنوها. أما البطحا أو البطحاء: فهي مدينة قديمة اندثرت الآن. يمكن أن يكون موقعها في منطقة غيليزان الحالية.

[2] وهران: مدينة أمازيغية قديمة كان اسمها إفري (أي الكهف). وفي عام 290هـ/902م قام جمع من الأندلسيين بتجديدها وإعادة بنائها؛ وأصبحت تعرف باسم وهران.

[3] ابن عم الوزيرين المستبدين في الدولة: الحسن بن عمر الفودودي ومسعود ابن رحو بن ماساي الفودودي.

الأمْرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ))[1] وفي هذا الشهر؛ غرب إلى بني مرين أولاد عريف بن يحيى[2] ـ شيعهم إذ ذاك ـ بقبيلهم كافة عن الصحراء؛ خوف سطوة أمير المسلمين ـ أيده الله تعالى ـ وقصداً لاستنهاض بني مرين نحوه. ((يُرِيدُونَ أنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بَأفْوَاهِهِمْ))[3] ((وَاللهُ مُتِمٌّ نُورِهِ))[4] فوصلوا إلى فاس؛ وأميرها يومئذ السعيد ابن سلطان أبي عنان[5]؛ يفعة محجوراً لقاتل أبيه الحسن بن عمر الفودودي؛ فبسطوا آمال القوم، زخرفوا لهم الأحاديث الواهية، ووعدوهم الأماني الضالة؛ فتحرك معهم مسعود بن رحو بن علي بن ماساي الفودودي بأعلام بني مرين وجمرتهم. وجاء إلى الخليفة ـ أيده الله ـ بالخبر عيونه المبثوثة بالمغرب ـ عادة لا يضلها حزمه، ولا

[1] من الآية: 4 من سورة الروم. والآية بالكامل تقول: ((في بضْعِ سنين لله الأمْرُ من قبْلُ ومن بعْدُ ويومئذٍ يفرحُ المُؤْمِنُون)).

[2] من بني سويد.

[3] الآية كاملة هكذا: ((يُريدُون أنْ يُطفئُوا نُور الله بأفواههِمْ ويأبى اللهُ إلاّ أنْ يُتِمَّ نُورهُ ولوْ كره الكافرُون)). الآية32 من سورة التوبة.

[4] من الآية: 8 من سورة الصف. وجاءت كاملة هكذا: ((يُريدُون ليُطفئُوا نُور الله بأفواههِمْ واللهُ مُتِمُّ نُوره ولوْ كره الكافرُون)). الاية: 8 من سورة الصف.

[5] هو أبو بكر ابن أبي عنان فارس ابن أبي الحسن علي. حكم بعد مقتل أخيه محمد لمدة سبعة أشهر تقريباً.

تنساها سياسته ـ فأمر أولياءه بالإستعداد للقاء عدوهم، أو الإصحار عنه ـ إن كثرهم ـ فامتثلوا. ولم يفارق ـ نصره الله ـ حضرته العلية حتى نزل القوم **بوادي الزيتون**[1]؛ فأجمع الرأي المبارك على الإفراج عن البلد؛ حتى تذبل شوكة العدو، وتهن سورته؛ ثم يناجز الحرب. فخرج أمير المسلمين ـ نصره الله ـ يوم الإثنين ثاني جمادى الأولى، وخيم **بعيون يسر**؛ وأطلّ العدو من ربى **الحنايا**[2]؛ يتراءون ألويته المظفرة **بعين المجادم**[3]؛ وتحجم آلافهم العديدة عن الدنو منه؛ بل انحجروا مرتابين في المدينة؛ فارتحل هو ـ نصره الله ـ وخيم على **ماء مرسيط**؛ ثم من الغد **بعيون النشاب**، وبعده قرب **الجديدة**؛ وتلوم هنالك يوماً ثم ارتحل إلى **درج**[4]؛ فوافى به **بني عامر**؛ فتلقته أرهاطهم وعشائرهم بالحميات

---

[1] تعذر علينا معرفة موقع هذا الوادي.

[2] الحنايا: مدينة شمال تلمسان تقع في الطريق الرابط بينها وبين ندرومة ومرسى بني صاف. والراجح أنها نسبت إلى تلك الأقواس الحاملة لمجرى المياه التي تجلب من أماكن بعيدة.

[3] يمكن أن تكون قريبة من الحنايا.

[4] تعذر ـ للأسف ـ معرفة هذه الأماكن كلها (ماء مرسيط وعيون النشاب والجديدة ودرج)؛ ولكنها ـ على ما يبدو ـ تقع كلها جنوب تلمسان.

المحضـــات،[1] والأهـــوا المؤتلفـــة، والعزائـــم المطـــرورة؛ فانزلـــوا خبـــاءه السعيـــد مُطافَـــة بِقَمَـــرِهِ هالـــة حللهـــم. ولحينـــه أرســـل ــ أيـــده الله ــ مـــن أعيـــان قبيلـــه رســـلاً إلى **المعقـــل**؛ شيعـــة أمـــره العزيـــز؛ وكانـــوا **بـــرأس العيـــن**[2]؛ مـــن قبلـــة **دبـــدو**[3]؛ يقـــول انهضـــوا والموعـــد **وجـــدة**؛ ثـــم عـــرج إليهـــا؛ فسبقـــه للحلـــول بساحهـــا **المعقـــل** ورسلـــه. فأنهـــض إليهـــم **مسعـــود ابـــن رحـــو** ــ رئيـــس **بـــني مريـــن** ــ ابـــن عمـــه **عامـــر بـــن إبراهيـــم بـــن ماســـاي** بالعساكـــر؛ مـــن عنـــد آخرهـــا يـــوم السبـــت الحـــادي والعشريـــن مـــن ذلـــك الشهـــر؛ ليناجزوهـــم القتـــال. والتـــقى الفريقـــان بظاهـــر **وجـــدة**؛ فهـــزم الله **مريـــن** هزيمـــة استرجـــل فيهـــا كثيرهـــم؛ وقتـــل القائـــد **عامـــر** المذكـــور، وحمـــل إلى أميـــر المسلميـــن ــ أيـــده الله ــ رأســـه. وطـــار خبـــر هـــذه الوقيعـــة إليـــه ــ أيـــده الله ــ **بتاملحـــت**[4]؛ فجـــد السيـــر إلى حضرتـــه الكريمـــة،

---

[1] الحميـــة مفـــرد حميـــات: مـــا حـــمي مـــن الـــشيء. والحميـــة: الأنفـــة والإبـــاء. أمـــا المحـــض: فهـــو الخالـــص.

[2] رأس العيـــن: هي عيـــن بـــني مطهـــر الآن؛ وهي تابعـــة لبركـــان المغربيـــة.

[3] دبـــدو: مدينـــة مغربيـــة؛ تقـــع بالقـــرب مـــن الحـــدود الجزائريـــة المغربيـــة؛ تبعـــد عـــن عـــن تاوريـــرت بخمســـن كيلومتـــر تقريبـــاً.

[4] توجـــد ــ في الواقـــع ــ بلـــدة تســـمى تاملحـــت؛ تقـــع جنـــوب مدينـــة توقـــرت بحـــوالي 15 كيلومتـــر. وتبعـــد عـــن تيماسيـــن بـــ 2 كيلومتـــر تقريبـــاً. ولا نـــدري=

وراح إلى **مسعود بن رحو** فله، واضطرب أمره، وماج عسكره، ونكثوا بيعة **السعيد** ملكهم، ثم اختلفوا؛ فبايع منهم رهط **يعيش ابن أبي زيان بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق**[1]، وبايع الوزير **مسعود بن رحو** والجم الغفير من **بني مرين منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد ابن يعقوب بن عبد الحق**[2]؛ فتابعوهم الآخرون، وفرّ **يعيش** المذكور على وجهه، وارتحل القوم مغربين على طريق الساحل؛ والعرب تَحَيَّفوهم؛ بعد إرسالهم أبيا[3] زكرياء **يحي بن موسى الجمي**[4] إلى الخليفة ـ نصره الله ـ بعقد مشهود؛ إلتزموا فيه

=إن كان المؤلف يقصدها؛ لأننا لم نعثر على تاملحت أخرى قريبة من تلمسان.

[1] في العبر، مج: 6، ص: يعيش بن علي ابن أبي زيان بن السلطان أبي يعقوب. هذا ولم يرد ذكره في كتاب روضة النسرين في دولة بني مرين.

[2] سماه صاحب العبر: منصور بن سليمان ابن أبي مالك ابن يعقوب بن عبد الحق. وتجاهل ذكره أيضاً صاحب روضة النسرين.

[3] أبي زكرياء.

[4] ذكر يحيى بن خلدون في الجزء الأول من بغية الرواد أنه تولى ـ في البداية ـ الوزارة لأبي زيان ابن عثمان بن يغمراسن الذي حكم من سنة= 703هـ/1303م إلى سنة 707هـ/1307م). وفي عهد أبي تاشفين الأول (حكم من: 718هـ/1318م إلى: 737هـ/1336م) نراه قائداً في الجيش. المهم أنه أصبح في سن متقدمة.

الصلح؛ فلحق به ـ خلد الله ملكه ـ ظاهر **وجدة**؛ والعرب العامرية والمعقلية تعرض أبطالها العديدة بين يديه الكريمتين. فارتحل ـ أيده الله ـ من حينه إلى دار ملكه العزيز. فخيم ليلتئذ بأحد **بني زيد**، ثم من الغد **بتافنا**، ثم **بعين الحجر**[1] شمال الحضرة. ودخل داره العلية صبيحة يوم الاثنين الغرة من جمادى الأخرى؛ لانقضاء ثمان وعشرين ليلة من خروجه. وبلغ خبره **أحمد بن أجانا**[2] المتخلف قائداً **بوهران**؛ فأسلمها وفر خائفاً؛ يترقب بمال جباه أيام الفترة؛ فأخذ بما معه، وجئ به مأسوراً إلى الخليفة ـ أيده الله ـ فأعتقه، وصرف عليه المال برمته، وسرحه إلى **المغرب**. وقد كان ـ أيده الله ـ بعث **شعيب ابن إبراهيم المعطاوي** ـ من كبار قبيله ـ

---

[1] لا أدري إن كان لعين لحجر هذه علاقة بحمام بوحجر المتواجد هو أيضا شمال تلمسان. أما تافنة: فهو نهر يصفه الوزان بقوله: ((التافنة نهر يميل إلى الصغر؛ وينبع من جبال تقع في تخوم نوميديا، ثم يسيل نحو الشمال ـ= =عبر قفر أنكاد ـ إلى أن يصب في البحر المتوسط؛ ماراً على بعد نحو خمسة عشر ميلا من تلمسان)). وصف إفريقيا، ج: 2، ص ص: 250 ـ 251.

[2] أحد قواد بني مرين.

بجيش لمنازلة مدينة **تنس**[1]؛ ففتحها الله عليه، وسبق قائدها **ابن أحشمي**[2] إلى بابه الكريم معتقلاً بماله وأسبابه؛ فاعتقه أيضاً، ولم يعرض لشيء من دنياه العريضة. خليفة كرم وفعال، ماجد، سري الهمة: الطويل:

كريم يغض الطرف فضل حياته
ويدنو وأطراف الرماح دوان
وكالسيف إن لاينته لان متنه
وحداه إن خاشنته خشنان

قلت: ولهذه الأفعال الشريفة مثل متقدم؛ فلنأت به على جهة الإطراف والإحماض[3]. قال **الواقدي**: كان **إبراهيم بن المهدي** قد ادّعى الخلافة

---

[1] تنس: كانت إحدى المحطات التجارية الساحلية للفينيقيين. ثم أعاد الرومان بناءها؛ وسموها (كارتيناس) Cartennas ، وفي العهد الإسلامي قام بعض الأندلسيين بتجديدها، واحتفظوا بالجزء الأخير من الإسم الروماني فأضحت منذئذ تسمى تنس.

[2] أحد فواد بني مرين.

[3] الإطراف: هنا يقصد به: الإتيان بالأحاديث والملح الحسان. الإحماض: الإفاضة في ما يؤنس من حديث.

وأسبابه؛ فاعتقه أيضاً، ولم يعرض لشيء من دنياه العريضة. خليفة كرم وفعال، ماجد، سري الهمة:

الطويل:

كريم يغض الطرف فضل حياته
ويدنو وأطراف الرماح دوان
وكالسيف إن لاينته لان متنه
وحداه إن خاشنته خشنان

قلت: ولهذه الأفعال الشريفة مثل متقدم؛ فلنأت به على جهة الإطراف والإحماض[1]. قال **الواقدي**: كان **إبراهيم بن المهدي** قد ادّعَى الخلافة لنفسه **بالرَّيِّ**[2]؛ وملكها نحو سنتين؛ ثم لم يتم له الأمر؛ فحدثني عن نفسه قال: لمّا دخل **المأمون الرّي**؛ طلبني أشد طلب، وجعل لمن يدله عليّ مئة ألف درهم؛ وخفت على نفسي؛ فخرجت من منزل كنت فيه ومضيت على وجهي؛ حتى بلغت سكة غير نافدة؛ فقلت إن رجعت على أثري فربما

---

[1] الإطراف: هنا يقصد به: الإتيان بالأحاديث والملح الحسان. الإحماض: الإفاضة في ما يؤنس من حديث.

[2] الرّيُ: كورة قريبة من خراسان؛ تنسب مجازا إلى جبل الرّي على أنها ليست منه.

يستراب في؛ ورأيت عبداً أسود واقفاً بباب دارٍ؛ فدنوت منه وقلت له: أعندك موضع أستريح فيه ساعة من نهار. فقال: نعم؛ وفتح لي الباب؛ فدخلت إلى بيت نظيف؛ فقعدت فيه؛ وخرج وأغلق علي الباب؛ فتوهمت أنه سمع بالجُعْلِ الذي عمل **المأمون** فيَّ لمن يدله عليَّ؛ وظننت أنه خرج ليدل عليَّ؛ فخفت خوفاً شديداً؛ وبقيت على مثل الجمر؛ وأني لكذلك؛ إذ أقبل ومعه حمال بكلِّ ما يُحتاج إليه من الطعام والشراب وجميع الفواكه؛ وقال لي: يا سيدي أنا أسود ــ كما ترى ــ وأنا مع ذلك حجام؛ ولا محالة أنك تستقذرني؛ فشأنك بما لم تقع عليه يد؛ فاصنع لنفسك ما شئت؛ فطبخت لنفسي طعاماً ــ وكانت بي إليه حاجة ــ فأكلت، ثم قال: يا سيدي هل لك في شيء من الشراب؛ فإنه يسلي الهم، ويسري الغم؛ فقلت إن شئت؛ فجاءني بإناء فيه شراب؛ وقال: روق لنفسك؛ ثم فتح خزانة له؛ فأخرج عوداً ظريفاً؛ ثم قال: يا مولاي؛ ليس من قدري أن أسألك أن تغني؛ ولكن قد أوجبت مرؤتك لي حرمة؛ فإن رأيت أن تشرف عبدك بغنائك لنفسك فافعل. فقلت ومن أين لي أن أحسن الغناء. فقال: سبحان الله؛ أنت أشهر من أن تجهل؛ ألست إبراهيم

ابن المهدي؛ خليفتنا بالأمس؛ الذي جعل **المأمون** لمن دلَّ عليك ماية ألف درهم. قال: فلما ذكر ذلك؛ عظمت عندي منته؛ وجلت مرؤته، فأخذت العود؛ وقد مرَّ بي فراق أهلي وولدي؛ فغنيت:

الكامل:

وعسى الذي أهدى ليوسف أهله
وأعزه في السجن وهو أسير
أن يستجيب لنا فيجمع شملنا
إن الإله إذا أراد قدير

فقال: يا سيدي؛ اجعل ما تغنيه ما أقتضيك إياه؛ قلت: نعم. فقال لي:

الكامل:

إن الذي انعقدت به وبأمره
عقد المكاره فيك يحسن حلها
فاصبر فإن الصبر يعقد راحة
ولعلها أن تنجلي ولعلها

فغنيته؛ وحسن عندي أيراده، وشربنا ساعة، ثم قال: يا سيدي وإن رأيت أن تغني:

الطويـــل:

شكونـــا إلى أحبابنـــا طـــــول ليلنـــا
فقالـــوا لنـــا مـــا أقصـــر الليـــل عندنـــا

وذاك لأن النـــــوم يغـــشى عيونـهـــم
سريعـــا ولا يغـــشى لنـــا النـــوم أعينـــا

إذا ما دنا الليـــل المضـــر بـــذي الهـــوى
جزعنـــا وهـــم يستبشـــرون إذا دنـــا

فلـــو أنهـــم كانـــوا يلاقـــون مثـــل مـــا
نـــلاقي لكانـــوا في المضاجـــع مثلنـــا

فـــو الله؛ لقـــد أحسســـت البيـــت كأنـــه قـــد طـــار بي؛ وذهـــب عـــني مـــا كـــان مـــن الهلـــع، وأنســـت وعاجلـــني ـــ وإيـــاه ـــ السكـــر؛ فمـــا أفقـــت إلاّ بعـــد المغـــرب؛ فأيقضتـــه؛ وقلـــت لـــه: إني مـــاضٍ؛ فخـــذْ هـــذه الدنانيـــر؛ تستعيـــن بهـــا عـــلى شأنـــك؛ وأخرجـــت خريطـــة[1] كانـــت عنـــدي بدنانيـــر؛ فأعادهـــا متنكـــراً؛ وقـــال لي: يـــا سيـــدي؛ إن الصعلـــوك لا قـــدر لـــه عندكـــم يـــا ذوي الرياســـات؛ أعـــلى مـــا وهـــب لي الزمـــان مـــن البغيـــة برؤيتـــك آخـــذ ثمنـــاً؛ فعزمـــت عليـــه؛ فقـــال: والله لئـــن

[1] الخريطـــة هنـــا: وعـــاء مـــن الجلـــد أو غيـــره.

راجعتني لأقتلن نفسي؛ فتركته؛ فلما انتهيت إلى باب الدّار قال: يا سيدي سألتك الله إلاّ رجعت فأقمت عندي؛ فو الله ما في ذلك علي كبير مؤنة؛ وهذا الموضع أخفى لك من غيره؛ فرجعت وسالته أن تكون النفقة من عندي؛ فأبى وجعل يستمر في بره كيوم دخولي؛ فتذممت من المقام عنده على ذلك الحال، وتركته حتى خرج؛ فلبست زي النساء وخرجت من داره؛ فانتهيت إلى الجسر؛ فعرفني جندي ممن كان يخدمني؛ فصاح بي: هذه حاجة أمير المؤمنين؛ فحملني الخوف على نفسي، ومحبة الحياة، عَلَى أنْ دفعته دفعة سقط منها ــ هو وفرسه ــ في زلق كان هنالك؛ واشتغل الناس به؛ فعبرت الجسر، ونجوت حتى انتهيت إلى زقاق؛ فإذا امرأة في دهليز دار؛ فقلت لها: استريني لله؛ فأدخلتني إلى غرفة، وبادرت إلّ بفرش وطعام؛ وقالت لي: لا تخف؛ فلن يعلم بك خلق غيري، ولم يكن إلاً قليل حتى أقبل زوجها يسيل وجهه دماً؛ فإذا به الجندي؛ قالت له: ما شانك؛ فقال لها: ــ وأنا أسمع ــ ظفرت بالغنى وأفلت من يدي؛ لقيت **إبراهيم بن المهدي**؛ الذي جعل أمير المؤمنين لمن دله عليه مائة ألف درهم؛ فتعلقت به؛ فدفعني وأفلت من يدي؛

فأصابني ما ترين؛ فقالت: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم؛ ثم غسلت وجهه من الدم، وعصبت رأسه، وفرشت له فاضطجع ونام؛ فجاءتني وقالت لي: أنت صاحب القصة؛ قلت: نعم؛ وذلك محبة في الروح؛ قالت: لا عليك؛ ثم جددت في الكرامة؛ فلما انقضت ثلاثة أيام؛ قالت: يا سيدي؛ إني خائفة عليك من هذا الرجل؛ فانظر لنفسك؛ فلبست زي النساء، وخرجت من عندها ليلاً؛ إلى منزل مولاة كانت لنا؛ فلما رأتني بكت، وقبلت يدي؛ وقالت: الحمد لله على سلامتك، ثم تركتني وخرجت. فظننت أنها مشت إلى السوق لشراء شيء تتكفله بسببي؛ فما كان إلاَّ أنْ جاءت بإبراهيم الموصلي – في خيله ورجله – فقبض علي؛ فأدخلني على المأمون – كما كنت في زي النساء – فلما دخلت سلمت عليه بالخلافة؛ فقال: لا سلم الله عليك، ولا حياك؛ فقلت: يا أمير المومنين ولي الثأر محكم في القصاص، ومن تناوله الاغترار بما مد له من أسباب الرضى أمن عادية الدهر؛ وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب؛ كما جعل كل ذي ذنب دونك؛ فإن تأخذ فبحقك، وإن تعف فبفضلك:

المجتث:

ذنبي إليك عظيم
وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أو لا
فاصفح بفضلك عنه
إن لم أكن في فعالي
من الكرام فكنه

فقال **المأمون**: القدرة تمنع الحفيظة، والندم توبة، وعفو الله بينهما وهو أكبر مما نحاول يا **إبراهيم**. لقد حبب إليّ العفو حتى خفت ألاّ أوجر عليه. **لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكَ يَغْفِرُ اللهُ لَكَ.**[1] وعفا عنّي، وأمر لي بردّ مالي وضياعي؛ فقلت:

البسيط:

رددت مالي ولم تبخل علي به
وقبل ردك مالي قد حقنت دمي
فابت منك وما كفاتها بيد
هي الحياتان من موت ومن عدم

[1] اقتبسها من الآية الكريمة: ((قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)). سورة يوسف، الآية: 92.

وقام علمك بي فاحتج عندك لي
مقام شاهد عدل غير متهم
فلو بذلت دمي أبغي رضاك به
والمال حتى أسَلَّ النعل من قدمي
ما كان ذاك سرى عارية رجعت
إليك لو لم تهبها كنت لم تلم

ثم سألني عن قصتي؛ فأخبرته بما كان من الحجام، والجندي، والمرأة، والمولاة؛ فأما المولاة فقال لها: ما حلمك على ما فعلت **بإبراهيم**. فقالت: حب المال. قال: ألك ولد أو زوج. قالت: لا. فأمر بأن تجلد مائتي سوط، وتخلد في السجن. وأما الجندي فقال له: أنت أولى بأن تكون حجاماً من أن تكون جندياً؛ ووكل به من يلزمه الجلوس في دكان الحجام؛ حتى يتعلم. وأما امرأته فصيرها قهرمانة في قصره. وأما الأسود فوصله، وأخلع عليه، ورتبه في الجند بألف دينار في السنة.

رجع التاريخ: ولما نزل **منصور بن سليمان**[1]؛ مبايع **مرين**؛ **بلدهم الجديد**؛ ألفى **بفاس**

[1] هو منصور بن سليمان ابن أبي مالك ابن يعقوب بن عبد الحق. حكم بضعة أشهر فقط. المهم أنه تولى الحكم في السنة ذاتها التي=

لمولانا الخليفة أمير المسلمين **أبي حمو** ـ أيده الله ـ والده مولانا المقدس المرحوم **أبا يعقوب**، وولده المولى الكبير الأعلى **أبا تاشفين**؛ لاستقرارهما ـ بعد كائنة عميه المرحومين ـ فيهما كما مر؛ فتقمن[1] مسرته ـ نصره الله ـ بصرفهما مكرمين مبرورين. وقدما؛ فخرج ـ نصره الله ـ للقائهما في يوم أغر محجل؛ وترجل ـ في سبيل البرّ المفترض ـ فقبل قدمي والده، وعقد ساقته خلفه، وتقدم هو بين يديه إلى دار الخلافة، ثم ترجل قبله، وأمسك بركابه العلي؛ حتى نزل عن فرسه، ودخلا معاً للقصر السعيد؛ والمولى **أبو تاشفين** بينهما؛ كوكب بين قمرين، وهلال متصل بسعدين؛ وذلك في اليوم السابع من رجب.

قلت: وأذكر ـ هنا ـ كل من ولي خلافة المسلمين وأبوه في الحياة؛ ليكون الخليفة هذا أسماه الله منهم ومعدوداً في ضمنهم العالي. فأولهم **أبو بكر الصديق** ـ رضي الله عنه ـ ورثه أبوه **أبو قحافة**

:

=قتل فيها؛ وهي سنة 760هـ/1358م. ويقول صاحب العبر أنه أفرج عن السجناء ممن أسرهم أبو عنان؛ من بينهم سجناء بجاية وقسنطينة وغيرها.العبر، مج: 7، ص: 631.

[1] تقمن الأمر: قصده وتوخاه دون سواه.

عثمان. ثم عبد الكريم الطايع بن الفضل المطيع ابن جعفر المقتدر بن أحمد المعتضد بن طلحة الموفق بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب؛ انخلع له أبوه من الخلافة؛ وعاش ــ بعد ذلك ــ أربعين يوماً. ثم عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن مروان ابن الحكم؛ بويع له بالخلافة وأبوه مريض؛ وعاش ــ بعد ذلك ــ أياماً عالماً به. ثم سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر لدين الله بن محمد ابن عبد الله ابن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ابن هشام ابن عبد الرحمن الداخل بن معاوية؛ ورثه أبوه؛ وقتل بعده بساعة. ثم أبو الوليد إسماعيل ابن الرئيس أبي سعيد فرح بن إسماعيل بن نصر. ثم أبو عنان ابن السلطان أبي الحسن بن عثمان بن يعقوب ابن عبد الحق؛ بما هو معروف. ثم أمير المسلمين مولانا أبو حمو أيده الله تعالى. وإذا قايسنا بينه ــ نصره الله في ذلك ــ وبين من عدا

أمير المؤمنين **أبي بكر الصديق** رضي الله عنه ــ ممن سميناه ــ الفيناه خلد الله ملكه؛ أفضل ــ بكل اعتبار ــ وفاء ببر والده، واعتمالاً في مرضاته، **وخفضاً لجناح الذلّ من الرحمة.**[1] دامت أيامه، ونصرت أعلامه.

رجع التاريخ: وكانت الفتنة ــ يومئذ ــ تغلي مراجلها بالقطر، والأهواء تخبط في صدور أهله العشواء؛ فمن مصعد، ومصوب، ومشرق، ومغرب، صال أو مهند؛ فتفاوضنا ــ بعد ــ في مصالح الملك، واتفقا على أن لا كسل ولا تلوم؛ بل يتداولان الحركات غرباً وشرقاً، ويتعاقبان الظعن والإقامة، ويواصلان مقارعة العدى عجماً وعرباً.

فنهض المقدس **أبو يعقوب** ــ برد الله ضريحه ــ مشرقاً؛ لحرب **يحيى بن علي البطيوي** ــ أحد القواد المرينية ــ ولفه من **سويد، وتوجين**[2]، في جيش لُهام؛[3] يوم الاثنين رابع شعبان المكرم؛

---

[1] اقتبس هذا من الآية الكريمة: ((واخْفِضْ لهُما جناحَ الذُّلِّ من الرَّحْمة وقُلْ رَبِّ ارْحمْهُما كما ربّياني صغيراً)). سورة الإسراء، الآية: 24.

[2] قبيلة سويد من بني مالك بن زغبة الهلاليين. أما قبيلة توجين فهي من زناتة؛ وبالتحديد من بني بادين؛ وهم إخوة بني عبد الواد؛ حتى وإن كانوا معادين لبعضهم بعضاً.

[3] اللهام: الجيش العظيم. تخيله الواصف؛ كأنه يلتهم كل شيء في طريقه.

وأحسوا به فرجعوا القهقرى إلى جبل وانشريس[1]؛ متذممين بمعقله؛ وفرعه إقدامه ـ رحمة الله ـ عليه؛ فأخذوا به أخذاً وبيلاً؛ وفر يحيى بن علي المذكور إلى مليانة[2]؛ مستعصماً بها؛ وجأجأ[3] بحصة الجزائر[4] المرينية فأتته. وسار المولى أبو يعقوب في أثره؛ قبلة الجبال؛ إلى أن دخل التل ـ على خناق

---

[1] وانشريس: سلسلة جبلية من الأطلس التلي؛ تمتد جنوباً من جهات مليانة إلى الشلف.

[2] اختلفت الآراء حول اسم وتاريخ مليانة. فبينما نرى بعضهم يعطيها اسماً قديماً هو Zucchabar؛ نجد أن بعض المترجمين والشارحين للحسن الوزان وكتابه؛ مثل المؤرخ الإسباني مرمول الذي يسميها Miliane (مليان)؛ ويذكر أن اسمها القديم هو Magnana (منيانة). ويسميها ـ من جهة أخرى ـ الأنجليزي شاو Maniana (منيانة). غير أن الترجمة التي بين يدي؛ يقول فيها الوزان واصفاً مليانة: ((مدينة كبيرة جدا وقديمة؛ بناها الرومان،= =وأطلقوا عليها اسم ماچنانة "بالجيم المصرية")). أما الشيخ عبد الرحمن الجيلالي؛ فقد أشار إلى استنتاج R. Basset الذي يفيد باحتمال رجوع اسم مليانة إلى كونها بنيت في منطقة يسكنها بطن من بطون صنهاجة يسمى مليانة. خاصة وأن مشيد المدينة وباعثها من جديد هو بلكين بن زيري ملك صنهاجة.

[3] جاجأ: يقولون: (جاجأ بالإبل: أي دعاها للشرب بقوله: جئ جئ). والمقصود هنا أنه استنجد بالحامية المرينية المتواجدة في الجزائر.

[4] الجزائر: مدينة أزلية كانت عبارة عن محطة تجارية ساحلية للفينيقيين اسمها إيكوسيم؛ ثم أعاد الرومان بناءها. وسموها بدورهم Icosium . ثم أعاد بلكين بن زيري بناء المدينة ؛ حيث عرفت منذئذ بـ جزائر بني مزغنة. نسبة إلى قبيلة من صنهاجة تسمى بهذا الاسم.

وادي **شلف** من **بلاد حصين**[1] ـ فافتتح **المدية**[2]، وأسر من كان بها من العدو؛ في غرة ذي القعدة.

وفي أثناء ذلك؛ صار ملك المغرب للسلطان **أبي سالم ابن السلطان أبي الحسن**؛ فأرسل إلى مولانا الخليفة ـ أيده الله أول شهر شوال في شأن الصلح ـ **ابن روجي**؛ من كبار خدامه؛ فأجيبت فيه خطبته، وصرف رسوله بخير. ثم جاء عنه أيضاً **ابن مساهل**؛ بريداً بكتاب يقتضي من الخليفة ـ لحصصه الشرقية ـ سلماً؛ يكف يد المولى المقدس **أبي يعقوب** عنهم حتى يقع التراوض في شأنهم.

وفي أواسط شوال ومرأى منه؛ كان وصول الشيخ **أبي محمد عبد الله بن مسلم الزردالي**[3]

---

[1] حصين: بطن من زغبة الهلاليين.

[2] المدية أو لمدية: مدينة قديمة سميت باسم قبيلة من زناتة اسمها لمدية. سماها الرومان الذين بنوها **Lambdia**.

[3] يقول فيه عبد الرحمن بن خلدون: ((كان عبد الله بن مسلم هذا؛ من وجوه بني زردال، ومن بني بادين إخوة بني عبد الواد وتوجين ومصاب؛ إلاّ أن بني زردال اندرجوا في بني عبد الواد لقلتهم، واختلطوا بنسبهم. ونشأ عبد الله بن مسلم في كفالة موسى بن علي ـ لعهد السلطان أبي تاشفين ـ مشهوراً بالبسالة والإقدام؛ طار له ذكر، وحسن بلاؤه في حصار تلمسان. ولما تغلب السلطان أبو الحسن على بني عبد الواد... ومرّ به عبد الله هذا؛ ذكر له شأنه، ونعت ببأسه؛ فبعثه=

إلى باب مولانا الخليفة ـ أيده الله ـ فاراً من **درعة** ـ محل ولايته ـ ايثاراً لخدمة مولاه بالحقيقة، ونعرة لقبيله؛ إذ **عبد الواد وزردال** ـ فيما يقال ـ أخوان في **زناتة**. فاستوزره أمير المؤمنين ـ أيده الله ـ من حينه؛ لخلال فيه اقتضت ذلك؛ وأزعجه بعسكر لجب؛[1] لمظاهرة **أبي يعقوب** ـ رضي الله عنه ـ على تمهيد البلاد الشرقية، وتطهيرها من الأعداء. ثم أجاب ملك المغرب: بأنا قد أرسلنا الوزير **عبد الله بن مسلم** لاقتضاء السلم؛ الذي سألتموه لحصصكم من والدنا؛ إذ لم تجد المكاتبة في ذلك شيئاً. وصرف بريده؛ ومضى الوزير مغلغلاً إلى طيته؛[2] وقدم التعريف إلى المولى **أبي يعقوب** ـ قدسه الله ـ بوصوله؛ فاعترضه جرآة[3] **يحيى بن علي** المذكور بقومه في غور **مليانة**؛ فهزمهم الوزير، وأخذ

=إلى درعة، واستوصى عاملها به)). انظر أخباره في العبر، مج: 7، ص ص: 258 ـ 260.

[1] أزعجه: قلعه من مكانه. لجبٌ: هائج. يقولون: (جيْشٌ لجِبٌ): في وصف الجيش الذي تصدر عنه جلبة كبيرة.

[2] مغلغلاً: مسرعاً في سيره. الطِّيّة: الحاجة والوطر، والضمير والنية؛ يقولون: (مضى لطيّته)؛ أي حسب نيته التي نواها.

[3] عبر الكاتب ـ بهذه الطريقة ـ عن أولئك الذين يتميزون بالإقدام والجرأة من أتباع القائد المريني يحيى بن علي البطيوي.

بمخنقهم في البلد. وارتحل المولى أبو **يعقوب** عن **المدية** نحوه؛ واجتمعا بوصيد[1] **مليانة**؛ فيا سرعان ما دخلتها ـ عنوة ـ سيوفهم؛ في سابع ذي القعدة. وأسر **يحيى بن علي** وحاميته، وبعث بهم ـ وبأسرى **المدية** ـ مسلسلين إلى الباب العلي؛ سوى **يحيى بن علي** المذكور.

فكان وصولهم إلى **تلمسان** يوم الخميس الثاني والعشرين لذي القعدة؛ ينيفون على خمسمائة نفر. ثم ارتحل المولى أبو **يعقوب** والوزير **عبد الله بن مسلم** تلقاء **الجزائر**؛ وفيها **شعيب بن ميمون بن وادرار**، **وشعيب بن الحسن الوجديجي**؛ في كثيبة[2] وافرة من **مرين** وحلفائهم؛ فأخذا بمخنقهم أياماً قلائل؛ قتلاً فيها **يحيى بن علي** ـ المذكور ـ بمرأى من قومه. واعتاص أمرها[3] فرجعا إلى **مليانة**؛ فلقيَ الوزيرَ أمرٌ كريمٌ باستقدامه على الباب العلي؛ فتمادى[4] ودخل الحضرة في عواشر موسم الأضحى.

---

[1] الوَصيدُ؛ جمعه وُصُد: الشيء الضيِّقُ والمطبق، والجبل.

[2] يقولون: (كثب القومُ)؛ إذا اجتمعوا.

[3] اعتاص: تعصّى تعصِّياً عليه. والمقصود هنا هو أن الجزائر تعصت عليهما.

[4] يقولون: (تمادى في الأمر)؛ أي بلغ فيه المدى. و(وتمادى بنا السفر)، أي طال.

وجـــدد مولانـــا المقـــدس **أبـــو يعقـــوب** الحركـــة إلى المشـــرق، وحشـــد الأمـــم واستشـــار العـــزم؛ وعـــاد إلى حصـــار **الجزائـــر** آخـــر السنـــة. **والأمـــر لله مـــن قبـــل ومـــن بعـــد.**[1]

* * * * *

[1] اقتبـس هــذا مـن قولــه تعـالى: ((في بضْـع سنيـن لِلّـه لأمْـرُ مـنْ قبْـلُ ومـنْ بَعْـدُ ويومئـذ يفـرح المؤمنـون)). سـورة الـروم؛ الآيـة: 4.

سنة إحدى وستين وسبعمائة[1]

في أول هذه السنة؛ راسل ملك المغرب ــ السلطان **أبو سالم**[2] ــ مولانا أمير المسلمين وخليفة ربّ العالمين ــ **أبا حمو** أيده الله ــ في سراح أسرى قومه؛ فراجعه بأنهم أكفاء **عبد الواد** المثقفين عندكم من كائنة **أنجاد**[3]؛ فإن رضيتم فداء اثنين من قبيلكم بواحد من قبيلنا فعلناه؛ فوجم لذلك، وشمخ بأنفه عنه البأو[4]؛ فانحلت عرى السلم، وقامت على قدمها سوق الحرب، وجلبت إليها سماسرة الفتن

---

[1] 1359م.

[2] هو أبو سالم إبراهيم بن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق. حكم من 760هـ/1358م إلى 762هـ/1360م.

[3] أنجاد أو أنكاد (بجيم مصرية): وهو عبارة عن سهل كبير يقع غرب تلمسان؛ وبالتحديد بين مدينة وجدة ونهر ملوية. ويخترق هذا السهل نهر إسلي. ويصف الوزان سهل أنجاد بقوله: ((تبتدئ مملكة تلمسان غرباً في سهل قفر وعر يابس لا ماء فيه ولا شجر. وتمتد على مسافة نحو ثمانين ميلاً طولاً وما يقرب من خمسين ميلاً عرضاً)). وصف إفريقيا، ج: 2، ص: 11. أما أسرى أنجاد؛ الذين اشترطهم أبو حمو؛ فهم الأسرى الذين وقعوا في قبضة جيش أبي عنان؛ في المعركة التي دارت في أنجاد بين المرينيين وبني عبد الواد؛ في عهد السلطان أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن عم أبي حمو الثاني.

[4] بأى بأوا عليهم: فخر وتكبّر.

بضائع الزور، وأقبل ليل الشتاء؛ فأصحر ملك المغرب فيه إلى تاوريرت[1] ـ بطليعة حرب على عادة سلفه أيام الفتن ـ وفيها **محمد[2] بن عثمان ابن السلطان المرحوم أبي تاشفين ابن السلطان أبي حمو ابن السلطان أبي سعيد ابن أمير المسلمين أبي يحيى يغمراسن بن زيان**؛ بُـو فِتْنَـةٍ،[3] وحُبَـاب بَـغْيٍ؛[4] في هواء بأو؛ فقام بدعوة ـ المذكور شرقاً ـ

---

[1] تاوْريـرْتْ أو توْرِيـرْتْ: مدينة قديمة؛ يقول الوزان أن الأفارقة هم الذين بنوها. وتقع في الحد الغربي لمملكة تلمسان؛ بحيث كانت أحياناً تابعة لبني عبد الواد وأحياناً أخرى تتبع لبني مرين؛ وظلت هكذا بين مد وجزر حتى خربت نهائياً؛ وفيها يقول الوزان: ((فقد رغب المرينيون في أن تتبع توريرت مملكة فاس؛ بينما أراد بنو زيان ملوك تلمسان أن يضموها إلى مملكتهم؛ فأدى ذلك إلى أن احتلها بنو مرين ودمروا قسماً كبيراً منها كان يسكنه أعداؤهم... وثب عليها ملك تلمسان فاستردها وخربها ونهب الجانب الذي كان يسكنه أعداؤه منها... وهكذا استبدلت توريرت رؤساءها عشر مرات في ظرف خمسين سنة؛ تارة تخضع لملك فاس وتارة لملك تلمسان؛ إلى أن دمرت أخيراً وهجرت)). وصف إفريقيا، ج: 1، ص: 349.

[2] يكنى بأبي زيان، ويعرف بالقبي؛ أي عظيم الرأس. أنظر العبر، مج: 7، ص: 261.

[3] بُـوْ فتنة: مساوياً ومعادلاً لها؛ يقولون: (دمٌ بواءُ دمٍ)؛ أي مساوٍ له. و(بُـوْ به)؛ أي كن ممن يقتل به.

[4] الحُبَابُ: الحية، والحُبَابُ في الحديث: الشيطان.

مغرور الأمل؛ زيان ابن أبي يحيى الراشدي[1] في قومه؛ فخرج إليهم ولد الخليفة ــ نصره الله تعالى ــ المولى الأمير الأعلى أبو تاشفين أعزه الله، والشيخ أبو موسى عمران بن موسى بن فارس بن حريز اللؤلؤي[2]؛ غرة شهر ربيع الأول؛ بما لا قبل لهم به من شرقية[3] عبد الواد أعزهم الله؛ فأجفلوا بين يديه إجفال اليعافير؛[4] وتركوا المال والدار؛ وأولياء الإمام في أثرهم؛ إلى معقل وشيلاس[5]. فامتلأت الأيدي سبياً، والصدور شفاءً.

وفرَّ زيان بن أبي يحيى المذكور إلى أولاد عريف بن يحيى السويدي؛ وفي أثناء ذلك اجتمع إلى محمد بن عثمان المذكور الطَّغام من المعقل[6]،

---

[1] أحد شيوخ قبيلة بني راشد. أما بنو راشد فهم من زناتة وأبناء عم لبني عبد الواد. مثلهم مثل بني مرين وتوجين ومغراوة... وغيرهم.

[2] أحد وزراء دولة بني عبد الواد في عهد أبي حمو موسى الثاني. غير أن عبد الرحمن بن خلدون سماه عمران بن موسى بن يوسف.

[3] يقصد قوات الدولة العبد الوادية التي تعمل في المناطق الشرقية للدولة.

[4] جَفَلَ: نفر وشرد؛ يقولون: (انجفل القوم)؛ أي هربوا مسرعين. واليَعْفُورُ جمعها يعافير: الغزال.

[5] تعذر معرفة هذا الموقع.

[6] الطَّغامُ: مفردها طَغَامَة؛ وهم حمقى الناس وأوغادهم. والمعقل: قبيلة عربية دخلت بلاد المغرب مع بني هلال وسليم. ولكنهم اختاروا ــ أو اضطروا ــ إلى الاستيطان بقفار المغرب الأقصى ــ المجاورة لمواطن بني=

وبني يزناسن[1]؛ ودلوه بالغرور؛ فضايق الجبل؛ فنهض الوزير أبو محمد عبد الله بن مسلم ليلة الميلاد الشريف؛ بغربية[2] عبد الواد والعرب؛ ووافقه؛ فهزمه الوزير هزيمة استيصال؛ قلع فيها أخوه علي. ووردت على الخليفة ــ أيده الله ــ بشارتا الظفرين في اليوم الخامس عشر من ربيع المذكور؛ وكان هذا المولد الشريف النبوي[3] سعيد الغرة، ميمون الطالع. واحتفل الخليفة ــ أيده الله ــ ليلته كل

=عامر ــ التي تقع جنوب تلمسان. وينقسمون إلى ثلاثة بطون: ذوي عبيد الله، وذوي حسان، وذوي منصور؛ ومن هؤلاء الأخيرين فخذ يسمون المنبات؛ كانوا أحلافاً لبني عبد الواد؛ أما البقية فهم حلفاء لبني مرين. ويقول عبد الرحمن بن خلدون ــ في قبيلة المعقل ــ : ((هذا القبيل ــ لهذا العهد ــ من أوفر قبائل العرب... كان دخولهم إلى المغرب ــ مع الهلاليين ــ في عدد قليل؛ يقال أنهم لم يبلغوا المائتين. واعترضهم بنو سليم؛ فأعجزوهم. وتحيزوا إلى الهلاليين؛ منذ عهد قديم... وأما أنسابهم ــ عند الجمهور ــ فخفية ومجهولة؛ ونسابة العرب ــ من هلال ــ يعدونهم من بطون هلال؛ وهو غير صحيح. والأنسب أن يكونوا من... مُذحج؛ كان اسمه ربيعة؛ وقد عده الإخباريون في بطون هلال الداخلين إلى إفريقية)). العبر، مج: 6، ص ص: 118 ــ 121.

[1] بنو يزناسن: قبيلة بترية تجمعهم مع زناتة قرابة شبيهة بقرابتهم مع قبيلة كومية. ومواطن بني يزناسن في محيط وجدة؛ خاصة في الجبل المطل عليها؛ كما قال صاحب العبر. أنظر مج: 6، ص: 124.

[2] يبدو من هذا القول؛ أن أبا حمو قسم جيشه إلى فرقة تعمل في الجهات الغربية، وفرقة تهتم بالجهات الشرقية.

[3] الأفضل هو: المولد لنبوي الشريف.

الاحتفال؛ فمما أنشده المسمع بها ـ من نظمه أعلى الله مقامه ـ قوله:[1]

الطويل:

قفا بين أرجاء القباب وبالحيِّ
وحيِّ دياراً للحبيب بها حَيِّ

وعرج على نجد وسَلْعٍ ورامة
وسائل فدتك النّفس في الحي عن مَيِّ[2]

وقل ذلك المضنى المعذّب بالهوى
يموت ويحيى فارث[3] للميّت الحَيِّ

وبُثَّ لهم وجدي وفرط صبابتي
وارْوِ[4] حديثي فهو أغرب مرْوِيِّ

يعذّبني شوقي ويضعفني الهوى
وقلبي على جمر من الشّوق مَحْمِيِّ

لبست ثياب السّقم في دوحة الهوى
وقد صبغت في حبّهم لون عودِيِّ

---

[1] أي قول أبي حمو. وهذه القصيدة توجد في بغية الرواد، ونظم الدر .

[2] مي، ومية: اسم لامرأة.

[3] الفَرْثُ: تفتيت الكبد بالغم والأذى.

[4] في نظم الدر: ((وروّ)) وهو أسلم للوزن.

تحلَّيت في أهل الهوى بهواهم
فما لي سوى زَيٍّ المحبة من زَيٍّ
وصرت إذا هبت نسيمة[1] أرضهم
على شجرات البان أو قضب نسريٍّ[2]
أميل بها شوقاً إليهم وأنثني
كما ينثني قدّ الحسام الفرنديٍّ
وأصبو إلى أرض الحبيب ومن بها
متى ما سرى عرف النسيم الحجازيٍّ
رعى الله داراً بالحمى قد عهدتها
وسقى ثراها صوب مزن سماويٍّ
وكم[3] نفحة تحيي الفؤاد بنشرها
أتت بنسيم عاطر النّشر مِسْكيٍّ
أعلّل نفسي بالنّسيم إذا سرى
وبالبرق إذ يسري وسجع القماريٍّ[4]
أحبّة قلبي ما أمرَّ فراقكم
على قلب صبٍّ لا يطيق على شيٍّ

[1] في نظم الدَر: ((نسيمات)).
[2] نِسْرِيٌ: نسبة إلى النَّسْرِين؛ وهو ورد أبيض له رائحة عطرية.
[3] في نظم الدر: ((فكم)).
[4] القَمَارِيّ والقُمْرِيّ: أحد أنواع الحمام؛ يمتاز بصوت شجي حسن.

حيــاتي ومــوتي في هواكــم وإنّــني
أعلّــل نفــسي فيكــمُ بالأمـــانيٍّ
لقــد أقعدتــني عــن حماكــم قلائــد
وليــس عنــاني عــن هواكــم بمثــنيٍّ
فيــا أهــل نجــد أنجــدوني عــلى الهــوى
فــإنيَ في بحــرٍ مــن الشــوق لــجيٍّ
مقيــم بأقصى الغــرب يشكــو به الجــوى
وحـــالي على حكــم النّــوى غيــر مخــفيٍّ
ويــا حاديــاً يحــدو الرّكــاب إليهــم
أنــخ بــربيَ نجــد وسلــم عــلى طيٍّ
وأخبرهــمُ أنّي أراعي ذمامهـــم
فمــا لذمــامي عندهــم غيــر مــرعيٍّ؟
تناسيتهــمُ عهــدي وطــول مــودتي[1]
وحبكــم في القلــب ليــس بمنــسيٍّ
فيــا ليــت شعــري والدّيــار قصيّـــة
مــتى تسمــح الأيّــام لي بلقــا الــحيٍّ
عــسى الدّهــرِ يدنيــني ويسمـــح باللقــا
فيشــفي غليــل القلــب مــن ذلــك الــريٍّ

[1] في نظــم الــدّر: ((حفــظ مــودتي)).

فقـد طــال هجــراني وأعيــا تعلّيــلي

وأدنى[1] أوار الشــوق لاعــج جمــريٍّ

وقـد قطعـت قلـبي القطيعـة والنّــوى

بأبيـض هنـديّ وأسمـر خــطيٍّ

وتــالله مــا لي غيركـم إن هجرتـم

فهجركـم يـردي ووصلكـم يحـيي

سـلام عـلى الدنيــا إذا لــم أراكـم

فمرآكـمُ في الحســن أبـدع مـرئيٍّ

ويــا أسـفي يـوم الحســاب ويــا أسى

إذا كــان سـعي عندكـم غيـر مـرضيٍّ

ومــا أرتـجي إلاّ شفاعــة خيـر مـن

أتى بالهـدى يهـدي لديـن حنيـفيٍّ

بـه يرتـجي العاصـون غفـران ذنبهـم

ومــا عملـوا في الدّهـر مـن عمـل سيٍّ

فمولـده[2] قـد أشـرق الكـون كلّـه

وكـل سـنى شمـس وبـدر ودريٍّ

سـلام عـلى مـن بالبقيـع وبالحـمى

سـلام عـلى البـدر المنيـر التّهـاميٍّ

---

[1] في نظـم الـدّر: ((وأذكى)).

[2] نفســه: ((بمولــده)).

سلام من المشتاق موسى بن يوسف
على خير خلق الله هاد ومهديٍّ
سلام مشوق أثقلته ذنوبه
وأخِّر عن سير وقُيِّد عن سعيٍّ
بيثرب قلبي والحجاز مودّتي
وإن عاقني عن كلّ رشد به غيٍّ
بنفسي وروحي أهل طيبة إنها
شفاءٌ من الآثام والزيغ والبغيّ
فياليت شعري هل أزور محمداً
وأمنح ما أهواه من منزل الوحيِ
لئن أخّرتني عن زيارة أحمد
قلائد أمر قيّدتني عن السّعي
فربيَ أرجو أن يمن بقربه
قريباً وشوقي لا يقابل بالنّأي
عليه سلام الله ما حنّ شيِّق
إلى قبره يطوي الفلا أيّما طيٍّ

ولمحمد بن يوسف القيسي الأندلسي لطف الله به بمنه قوله:[1]

[1] سبق الكلام عنه. ويسميه أحياناً: أبو عبد الله محمد بن يوسف الثغري.

الطويـــل:

أسايـــل عـــن نجـــدٍ ودمـــعيَ سائـــلُ
وبيـــن صَبـــا نجـــدٍ وشـــوقي رسائـــلُ
ولي عندهـــم مـــن صـــدق ودّي وسائـــل
وحاشـــا لديهـــم أن تخيـــبَ الوسائـــلُ
نعـــمْ لي ذنـــوبٌ كلّمـــا رمـــت عزمـــة
يشاغلـــني فيهـــا عـــن السّيـــر شاغـــل
ألاَ إنّمـــا كفّـــت خطـــايَ عَـــنِ السّـــرى
أكـــف الخطايـــا والزمـــان المماطـــل
ولـلـــه قـــومٌ أيقظـــو ا عزماتهـــــم
كـــأنَّ سناهـــا في الظّـــلام المشاعـــلُ
إلى عرفـــاتٍ يمّمـــوا فتعرّفـــــتْ
بهـــم نكـــرات للفـــلا ومجاهـــل
وأنّى لمثـــلي باللحـــاق بمثلهـــم
وقلـــبيَ في غيٍّ عـــن الرّشـــد غافـــلُ
ســـقَى ربعهـــم بالجـــزع منهمـــل الحيـــا
فـــإن لـــم يصبـــه منـــه طـــلٌّ فوابـــلُ

ومالي أستسقى الغمام لربعهم
وواكف[1] دمعي للغمام مساجل
عهدت به سرباً من الأنس حالياً
فعاد به سرب من الوحش عاطل
بمسحب أذيال وملعب صبوة
ومطمح آمال لمن هو آمل
ومسرح غزلان ومسرى أهلّة
تمنى سناهنّ البدور الكوامل
ومربض آساد وملهى جآدر[2]
تصيد بها الأسدُ الظّباء الخواذل
فكم عبثت تلك المها بذوي النّهى
وكم لعبت بالعقل تلك العقائل[3]
تولّوا فحالت حالة الرّبع بعدهم
فما هو إلاّ مثل جسميَ ناحلُ
خليلَيَّ ما قلبي لديَّ وإنّما
أقَلْنَ به تلك البدور الأوافلُ

---

[1] الواكف: المطر الساقط قليلاً قليلاً. ووكف يكفُ الدَّمْعُ: سال قليلاً قليلاً

[2] الصحيح جآذر. لأنالجُوْذُر: هو ولد بقر الوحش وجمعه: جآذر (بالذال المنقوطة).

[3] العقل: جمعه عقول: نور روحاني به تدرك النفس ما لا تدركه بالحواس. أما العقائل: فمفردها عقيلة: وهي المرأة الكريمة.

ويا صاحبيْ نجواي عهديَ لم يحل
ألاَ كل عهد غير عهديَ حائل
وقد أكثر العذّال عذليَ في الهوى
ولا حجّة فيما ادّعته العواذل
وما هاج كربي غير ركب تحملوا
بقلبي فمن كل قد أقوت منازل
فلم أدر ما أبكيه بعد فراقهم
أقلبيَ أم ذاك الخليط المزائل
فيا ليل أشجاني أما لك آخر
ويا بحر أشواقي أما لك ساحلُ
ومما شجاني أنّني بعد بعدهم
مقيم على التّقصير والعمر راحل
تقلّص ظلّ للشيبة[1] إذْ أتى
مشيبٌ به ظل الشبيبة زائل
عفاء عن الدّنيا وإنْ لَذَّ عيشها
فما في نعيم بعده الموت طايل
لعمرك ما الأعمار إلاَّ مراحل
تقضّى وأيّام الشّباب قلائلُ

[1] ربما تكون كلمة (شبيبة) أصح.

ألـمْ يـأن بعـد الشّيـب أن ينبـذ الهـوى
وتطـوى إلى أرض الحجـاز المراحـل
ولي كلّمـا هبّـت نواسـم طيبـة
شمائـل تبديهـا الصَّبـا والشّمائـل[1]
يدافعـني عنهـا عظيـم جرائـمي
كمـا دفـع الدّيـن الغريـم المماطـل
فيـا مـن رآني فـوق ظهـر شِمِلَّـةٍ[2]
تخـبّ برحـلى تـارة وتناقـل
لخيـر محـلٍ حلّـه خيـر مرسـل
محـلّ مُحَـلًّى بالفضائـل آهـل
فيـا ليـت شعـري هـل أراني بربعـه
أقبـل مـن آثـاره مـا أقابـل
رسـول كريـم خاتـم الرسـل كلهـم
وأعظـم مـن تلـقى إليـه الرسائـل
وأفضـلِ مبعـوث وأكـرم شافـع
تنـال بـه يـوم الحسـاب الوسائـل

[1] شمائـل الأولى: مفردهـا: الشِّمـال والشَّميلـة: أي الطَّبْـع. الصَّبـا جمعهـا صبـوات وأصبـاء: وهي ريـح تهـب مـن ناحيـة الشـرق. والشمائـل الثانيـة لا تجمـع هكـذا والصحيـح هـو: أشْمُـال ومفردهـا: الشَّمـل والشّمْـأل والشّميـل والشَّوْمَـل: وهي ريـح الشمـال.

[2] شمِلّـةٌ: وصـف للناقـة؛ يقولـون: (ناقـة شملّـةٌ)؛ أي سريعـة.

بـــدا فانجــلى ليــل الضلالـــة بالهــدى

وزاح بـــه مـــا زخرفتـــه الأباطـــــل

وعـــم جميـــع الخلـــق علمـــا وحكمـــة

فلـــم يبـــق في عصـــر الجهالـــة جاهـــل

ألـــم يـــأت بالآيـــات تتـــلى عليهـــم

يشابـــه بعضـــاً بعضهـــا ويشاكـــــل

صحائـــف آيٍ أيـــدت بصحائـــــــف

تجادلهـــم هـــذي وهـــذي تجـــــادل

وأجـــرى لهـــم من كفـــه المـــاء فأعجبـــوا

لينبـــوع مـــاء أنبطتـــه الأنامـــــل

ومـــا صـــدروا حـــتى أرتـــووا وتوضـــأوا

عـــن آخرهـــم والمـــاء هـــام وهامـــل

تجـــود لهـــم بالمـــاء والمـــال كفـــــه

فتعـــذب للـــوراد منهـــا المناهـــل

كمـــا در ضـــرع الشـــاة وقـــت جفوفـــه

لـــه لبنـــاً رغـــداً بـــه الضـــرع حافـــل

وحـــن إليـــه الجـــذع عنـــد فراقـــه

حنينـــاً كمـــا حنـــت مـــن الفقـــد ثاكـــل

إذا الله رد الشمـــس بعـــد غروبهـــا

إليـــه وشـــق البـــدر والبـــدر كامـــل

فكل جلال دونه متقاصر
وكل جمال عنده متضائل
وما خص بالإسراء إلاّ محمد
وما جال فوق العرش إلاه جائل
هو اخترق السبع الطباق لربه
فأولاه إسعافاً بما هو سائل
وكم معجزات للنبي محمد
ظواهر لا تبغي عليها دلائل
لنا الفخر إذ كنا به خير أمة
نفاخر من شئنا به ونطاول
بمولده الأيام راق جمالها
فطابت لنا أسحارها والأصائل
أشهر ربيع حزت كل فضيلة
بأفضل من تمت لديه الفضائل
وليلة ثنتي عشرة منه أشرقت
ففيها بدا بدر الهدى وهو كامل
بها لأمير المومنين مشاهد
لنا منه فيها أنعم وفواضل
عوائد إحسان وحسنى عوائد
تنال بها منه هبات جلائل

فمـــا مثلهـــا في الدهـــر ليلـــة موســـم
ولا مثلـــه للديـــن كـــاف وكافـــل
هو الملــك المنصــور مــوسى بن يوســف
إذا احتفلــت يــوم الفخـــار المحافــل
إمـــام الهدى ســـاقي العدى أكــؤُس الـــردى
غمـــام الجـــدى[1] غيـــث النـــدى المتراســـل
أذلــت لـــه الصعـــب الأبي سياســـة
أرتـــه وجـــوه الـــرأي فيمـــا يحـــاول
فمـــا كحجـــاه[2] عقـــل مـــن ســـاس أمـــة
إذا اشتبهـــت يومـــاً عليـــك المسائـــل
ينظـــم شمـــلاً للعـــلى بشمائـــل
ثمـــان فيـــا لله تلـــك الشمائـــــــل:
حيـــاء وأفضـــال وعـــدل وعفـــــة
وحـــــزم وإقـــــدام وحلـــــم ونائـــــل
أيـــا ملكـــاً دانـــت بطاعـــة أمـــــره
جميـــع الـــورى حـــتى الملـــوك القبائـــل

[1] غمـــام الجـــدى: غمـــام المنافـــع والسخـــاء.

[2] الحـــجى: العقـــل والفطنـــة.

وحاز تراث المجد لا عن كلالة[1]
وجاء بما لم تستطعه الأوائل
بعثت بجيش النصر كالبحر للعدى
تدافع كالأمواج فيه الجحافل
وكالسحب لكن البروق صوارم
به منتضاة والرعود صواهل
وكالروض إلا أن مشتجر القنى
له شجر والمرهفات جداول
أبو تاشفين بدره ونجومه
قبائل عبد الواد نعم القبائل
وسعدك بعد الله ردء لجيشه
ويا حبذا جيش من السعد حافل
به أمنت سبل وكانت مخوفة
ودانت بلاد واستكانت معاقل
وأدبرت الأعداء لما تواردت
عليهم من الجيش القنا والقنابل
عدوك مقهور وسعدك ظاهر
وجيشك منصور وسيفك ناصل

[1] الكلالة: صفة لمن لا ولد له ولا والد. ويقصد بهذا القول أن أبا حمو تولى الملك مع أنه ليس وحيداً؛ بل ثمة في أسرته رجال أكفاء؛ ولكنه كان هو الأصلح فيهم والأجدر بالملك.

ونجلك ميمون النقيبة ماجد
وللعرف بذال وفي الحرب باسل
بهديكم استهدى بمجدكم اقتدى
فلاحت عليه من سناكم دلائل
وفي البدر نور من سنى الشمس ظاهر
وللشبل من ليث العرين مخائل
جنيت ثمار النصر خضراً نواعها
بما أثمرت في الحرب سمر ذوابل
فدونك أبكار المعاني لباسها
برود حلاكم هن فيها روافل
قوافي جرت بالمجرة ذيلها
فقصر عن إدراكها المتناول
ومذ سحبت ذيل البيان تبينوا
بأني سحبان وغيري باقل[1]
فدامت بك الأيام تظهر حسنها
وتحسد آخراهن فيك الأوائل

---

[1] سحبان: رجل من قبيلة وائل؛ اشتهر بالبلاغة وطلاقة اللسان؛ يضرب به المثل في البيان وفصاحة اللسان؛ فيقولون (أفصح من سحبان وائل). وباقل: اسم رجل من ربيعة اشتهر بالعيّ؛ فيضرب به المثل فيقولون: (إنه لأعيا من باقل).

ولا زال صرف الدهر طوعك كلما

أمرت بأمر قائلاً فهو فاعل

وللحاج الطبيب أبي عبد الله محمد بن أبي جمعة التلالسي قوله:

البسيط:

أصبح رأسي من الشوائبْ

وهو من الجانبين شائبْ

يا لهف نفسي على زمان

كنت لثوب الشباب ساحبْ

أرفل في حلة التصابي

بين حبيب وبين صاحب

حتى بدا الشيب في قذالي[1]

بادرته بالسواد خاضب

استره كل حين حتى

عم من الرأس كل جانب

وأقبلت منه لي جيوش

سهامها للصبا[2] صوائب

---

[1] القَذالُ جمعه قُذُل وأقذِلَة: ما بين الأذنين من مؤخرة الرأس.

[2] الصِّبَا هنا: الصغر.

فصـــال شيـــبي عـــلى شبـــابي
صولـــة ذي نجـــدة محـــارب
وســـل في العارضيـــن سيفـــاً
أضـــحى بـــه للشبـــاب ضـــارب
مـــا زال يسطـــو عليـــه حـــتى
ظـــل لمـــا قـــد دهـــاه هـــارب
وقـــد مـــضى معهـــد التصـــابي
وأقبـــل الشيـــــب في كتائـــب
واحْـــدَوْدَبَ الظهـــــرُ واعتِـــراني
مـــا ذاد عـــن وصـــلي الكواعـــب[1]
وملـــني الصاحــــب المصـــافي
والعـــرس والأهـــــل والأقـــارب
هـــذا ونفـــــسي لكـــل شي
ممـــا يشيـــق الفـــتى تراقـــب
مـــن قبـــح قـــول وســـوء فعـــل
وتـــرك حـــق عـــلي واجـــب
فقلـــت يـــا نفـــسي ليـــس إلاّ
أن تنظـــري الآن في العواقـــب

[1] ذاد ذَوْداً: دفـــع وطـــرد. كواعـــب مفردهـــا كاعـــب: الجـــواري.

ولتستعـــدِّي لهـــول يـــوم
تشيـــب مـــن بعضـــه الدوائـــب
يومـــاً يكـــون الإلـــه فيـــــه
عـــلى جميـــع العصـــاة غاضـــب
يـــا نفـــس بـــادر دَعِ التـــأني
فعيشـــك عـــن قريـــب ذاهـــب
ارجـــع لمـــولاك بانكســــــار
ولترســـل الأدمـــع السواكـــب
وقـــل أيـــا مالـــكي ويـــا مـــن
إليـــه كـــل الأنـــام آئـــب[1]
يـــا رب إني أســـأت جهـــلاً
يـــا رب إني أتيـــت تائـــب
يـــا غافـــر الذنـــب والخطايـــا
حاشـــاك أنيِّ أرَدُّ خائـــب
يـــا رب يســـر ولا تعســـر
يـــا رب سامـــح ولا تعاقـــب
إني توسلـــت يـــا إلـــهي
بسيـــد العجـــم والأعـــارب

[1] آيـب : راجـع وتائـب.

وخاتـــم الأنبيـــــاء طـــراً[1]

وخيــر مـــاش وخيــر راكــب

الهاشــمي الــذي بـــه قـــد

سمـــا قـــصي وســـاد غالـــب

أخبـــــرت الأنبيـــــاء عنـــه

وقالــــه كاهـــن وراهـــــب

قــــام بديـــــن الإلــــه حـــتى

أبطـــل مـــا قالـــه الكـــواذب

دعـــا إلي الرشـــد والهـــدى مـــن

أمتــــه شاهــــد وغائــــــب

أتى ربيـــع بـــه بشيــــــراً

كـــل ربيـــع للخيـــر جالـــــــب

ســـرى إلى عـــرش ذي المعـــالي

والليـــل محلـــولـــك الغياهـــب

فكـــان في القـــرب والتـــداني

كقـــاب قوسيـــن في المراتـــب

شرفـــه وارتضـــاه مـــــولى

أوحى إليـــه مـــن غيـــر حاجـــب

---

[1] طـــراً: أي جميعـــاً.

ومعجـــزات النــبي منهـــا
مــا صـــح في سائـــر المذاهـــب
نُطْـــقُ حَـصَى وانشقــاقُ بـدرٍ
وغيـــر هـــذا مـــن العجائـــب
يقصـــر عـــن حصرهـــا يقينـــاً
كـــل لبيـــب وكـــل حاســـب
أمداحـــه جنـــتي وذخـــري
وذاك مـــن أعظـــم المكاســـب
يـــا ليتـــني زائـــر إليـــه
أطـــوي لـــه البيـــد والسباســـب
أعَفِّـــرُ الخَـــدَّ في ثـــراه
وأرســـل الأدمـــع الأساكـــب
وأســـأل الله حســـن عـــون
للملـــك المعتـــلي المناصـــب
مـــن لم يـــزل منـــذ كـــان طفـــلاً
ذا همـــة تـــدرك الكواكـــب
كـــرات عينيـــه في الأعـــادي
تغـــني عـــن السمـــر والقواضـــب
إن باشـــر الحـــرب في قتـــال
هيبتـــه تهـــزم المواكـــب

وجيشه لا يمر إلا
كان على المارقين غالب
بلاده قد حمى حماها
فلا عدو لها يقارب
كنا سمعنا به وكانت
أبصارنا نحوه تراقب
فجاء والسعد في صعود
والغير تحت الشفاع غائب
والمشتري مشرق منير
وزحل ساقط وغارب
عاد به الملك في قرار
وابتزه من يد الغواصب
له تدين البلاد طراً
فلا مناص ولا مناصب
والغرب لو أمه لأضحى
فيمن به تندب النوادي
لكنه عف عنه حلما
إذ كل من فيه عنه نائب
معتدل الحكم في القضايا
ليس يحاشي ولا يجانب

طـود وقـار وبحـر علـم
صعب الـذرى صافـح الجوانـب
من يـرو عنـه الحديـث يقطـع
كـل بليـغ وكـل طالـب
وحولـه مـن بنيـه جمـع
شواهـن[1] صيـد صوائـب
دلائـل الملـك قـد تبـدت
فيـه رآهـا أولـو التجـارب
منهـم أبـو تاشفيـن شهـم
للضـرب والطعـن غير هائـب
في الحـزم والعـزم لا يبـاري
والمـال للمجتديـن واهـب
وكلهـم ضَيْـغَـمٌ[2] مهـاب
يا ويحـه مـن لهـم يحـارب
كأنهـم والإمـام مـوسى
بـدر دجى حولـه كواكـب

---

[1] شَواهيـن وشياهيـن: مفردهـا شاهيـن: طائـر مـن فصيلـة الصقـور؛ لـه جناحـان طويـلان.

[2] الضَّيْغَـمُ: الأسـد.

وافى تلمسان وهي محل[1]

فجادها صيب السحائب

فهي به الآن ذات حسن

منظرها للعقول سالب

عادت به جنة وصارت

في الغرب تحدو لها الركائب

طاب لعمري الهواء فيها

لمن في طول[2] الإمام راغب

شيد بنيانها فأضحت

تلحق بالأنجم الثواقب

لا زال يسمو وفي يديه

مشارق الأرض والمغارب

وأمر الخليفة – أيده الله – أولياءه بالاستعداد للقاء عدوهم، والإصحار؛ ان كثرهم عادة(؟) حزمه الماضي الشباة، وسياسته المحمودة العقبى. ثم استقدم والده مولانا أبا يعقوب – قدسه الله – من

---

[1] المَحْلُ: الشدة والجدب والجوع الشديد وانقطاع المطر.

[2] الطَّوْلُ: القدرة والغنى والفضل والعطاء.

متيجة[1]. وفي أول رجب تحرك **ملك المغرب** محتشداً محتشراً. فضم مولانا أمير المسلمين ـ أيده الله ـ قبيله الأعز، وأحلافهم من **زناتة**، وجميع عشائر العرب الغربية والشرقية؛ فمن **المعقل**: **أولاد حسين**، **والعمارنة**[2]، **وأولاد هداج**، **وأولاد خراج**.[3] **ومن بني عثمان**: **حميد**، **وبني يعقوب**[4]. وآخى بين الجميع.

---

[1] متيجة: هي السهل الممتد شمال الأطلس التلي؛ إذ يبدأ بمنحدراته وسفوحه الشمالية إلى ساحل البحر. كما يبدأ من الشرق بمدينة الجزائر وينتهي غرباً بحدود مليانة.

[2] أولاد حسين: ينتمون إلى ذوي منصور من المعقل؛ فصاحب العبر يقول: ((وكان عرب المعقل من ذوي منصور فريقين: الأحلاف وأولاد حسين)). مج: 7، ص: 664. ((وأما أولاد حسين فهم جمهور ذوي منصور ولهم العزة عليهم ورئاستهم أيام بني مرين في أولاد خالد بن جرمون بن... حسين بن منصور)). العبر، مج: 6، ص: 131. أما العمارنة: فهم من الأحلاف من ذوي منصور أيضاً وإخوتهم المنبات؛ ومواطنهم مجاورة لأولاد حسين في الجهة الشرقية. وينتجعون قفر سجلماسة (تافيلات). وفي المناطق التلية يستوطنون جهات ملوية وقصور وطاط وتازي وبطوية وغساسة. تحدث بينهم وبين أولاد حسين فتن وخصومات؛ ولكنها سرعان ما تنطفئ عندما يظهر عدو غريب عنهم؛ وذلك بحكم العصبية ورئاسة العمارنة في أولاد مظفر بن ثابت.

[3] أولاد هداج: ينتمون إل المعقل؛ وهم من أبناء مهدي بن عمر أو (محمد) بن عبيد الله. وتوجد ـ إلى الآن ـ بلدة في ولاية بومرداس بالجزائر تسمى أولاد هداج. أما أولاد خراج: فهم بطن من ذوي عبيد الله أيضاً. ولهم بطون عديدة مثل: الجعاونة، والمطارفة، والمهايا.

[4] بنو حميد وبنو يعقوب من بني عامر بن زغبة.

فنزلوا حلة واحدة **بامبسون**.[1] وأصمد لمنازلتهم فيه وزيره **أبا محمد عبد الله بن مسلم**؛ في يوم الأحد الرابع من جمادى الثانية. وفي التاسع والعشرين منه؛ قدم المولى **أبو يعقوب** ــ رحمه الله ــ على الحضرة؛ واستمر لمنزلة العرب مع الوزير المذكور؛ بما اقتضته المناظرة في الرأي. وأعاد ــ أثناء هذا **زيان بن أبي يحيى الراشدي** إلى وطنه ــ بدعوة **ملك المغرب**؛ فأنهض ــ نصره الله ــ إليه الشيخ **أبا موسى عمران بن موسى** بالجيش المنصور؛ فهزمه هزيمة أكبر من الأولى، وجلاه عن الوطن. ولم يزل أمير المسلمين ــ أيده الله ــ بالحضرة العلية إلى أن حلّ ملك المغرب **بتاوريرت**.[2]

---

[1] ربما يقصد (فحص مسون) جنوب تلمسان. وهو الفحص الذي أوقع فيها بنو عبد الواد ببني مرين أيام حليفهم عبد المؤمن بن علي؛ حيث أنقذوا ذخائره منهم.

[2] ذكرها البكري ضمن الطريق الواصل بين وجدة وفاس؛ وسماها (الكدية المعروفة بتاوررت). المغرب، ص: 90. أما الوزان فقد خصص لها فصلاً كاملاً. وهذه البلدة قديمة ــ كما قال الوزان ــ إذ بناها قدماء الأفارقة؛ على تلة قريبة من الواد المسمى بزاغ. وتعتبر هذه البلدة بمثابة الحدود الافتراضية الفاصلة بين دولتي: بني عبد الواد وبني مرين. أنظر بخصوصها كتاب وصف إفريقيا، ج: 1، ص ص: 349 ــ 350.

فخرج – نصره الله – في اليوم التاسع والعشرين بعزيمته الوقادة الشهاب، وحزمه المرهف الشباة، ومضائه المطرور الغَرْب.[1] وأسرى **بني مرين** – المتقدمو – الذكر يسحبون في السلاسل والأغلال، ويذبح من تكاسل دون معذرة. وفي ليلة تعريسه[2] بأوليائه الكرام **بأميسون**. بات ملك المغرب **بوادي إيسلي**[3]. وهَزَمت طليعةُ أمير المسلمين – ليلتئذ – عَسَسَ محلة صاحب المغرب، وأتبعوهم إلى الأبنية.

قال المؤلف عفا الله عنه: شهدت هذه الليلة بمعسكر مرين – وأنا به من كتاب ديوان

[1] المطرور: الحاد. يقولون: (سهمٌ مطْرُورٌ، وطريرٌ، وطرَرْتُ السِّنان)؛ أي حدَّدْتُهُ. والغَرْبُ جمعه غُرُوب: أول كل شيء وحده.

[2] التَّعْرِيسُ: النزول في آخر الليل. يقولون: (عرس المسافر)؛ أي نزل في وجه السَحر.

[3] وادي إسلي: ينسب إلى قصر إسلي المندثر؛ الذي كان يجاور هذا الوادي؛ والذي يقع جنوب غربي وجدة بمسافة تقدر بـ 18 كلم. ويرى فيه الوزان: عبارة عن جدول ماء. وفي هذا الموقع بالذات – كما يبدو – عسكر أيضاً سلطان الموحدين السعيد؛ أثناء زحفه إلى تلمسان أيام يغمراسن بن زيان. كما وقعت في هذا المكان نفسه معركة بين سلطان بني مرين يعقوب بن عبد الحق وبين يغمراسن بن زيان.

الإنشاء ــ روحة العسس.[1] فأشهد أنه لم يبت فيه بها أحد؛ إلاّ ولجام فرسه بيده؛ يبغي الفرار بنفسه. وملك **المغرب** بفسطاطه الجمهوري، وفرسه قائم تجاهه؛ وأهل الدخلات محدقون به ــ عن يمينه وشماله ــ إلى الصبح. فلم أرتب ليلي كله في أنها الهزيمة. والأمر كله لله وحده. وارتحلت الطائفتان سحراً فانتحى ملك المغرب **تلمسان**؛ فدخلها يوم الأحد سادس شعبان.

وغرب أمير المسلمين ــ أيده الله ــ ثم دخل التل على **ثنية بلزوز**؛ وخيم إزاء **أجرسيف**[2] من قُرَى **ملوية**. فأخذتها ــ من الغد ــ عنوة سيفه،

[1] العسَس مفرده العَاسُ: من يطوف بالليل لحراسة الناس ويحميهم من أهل الريبة. روْحة العسس: المكان الذي يرتاحون فيه بعد الجهد.

[2] تعذر معرفة موقع ثنية بلزوز؛ ومع ذلك فهي ــ كما يبدو ــ ليست بعيدة عن أجرسيف. وأجرسيفْ أو كرَسيفْ (بالجيم المصرية): قرية عامرة تجاور نهر ملوية. وتقع في الطريق الرابط بين سلجماسة ومليلة. ويقول فيها البكري: ((وهي قرية عامرة على نهر ملوية؛ يأتيها من جانب مطغرة؛ والمخاضة إليها من جهة القبيلة)). المغرب، ص: 88. أما الوزان فيقول فيها: ((هو قصر قديم جداً مشيد فوق صخرة قرب نهر ملوية. على بعد خمسة عشر ميلاً من توريرت. وكان هذا القصر قصبة قبيلة بني مرين ؛ تخزن فيه حبوبها عندما كانت تسكن الصحراء؛ ثم تحول إلى مقر إمارة على يد أبي عنان)). وصف إفريقيا، ج: 1، ص: 350.

واجتاح الناس ما كان بها من كراع،[1] سيفه، ومتاع، وزروع. ثم أحرقوها[2] فأمست رميماً، وأدلج[3] ـ نصره الله ـ مع الوادي صعداً، ومرّ بقرى: **أرجو ووطاط وتامنصرت**[4]؛ فأغرى بها العفاء[5]، وتركها حصيداً؛ كأن لم تغن بالأمس. وأم **ثنية تاغروطت**[6]؛ المفضية إلى **مدينة فاس**؛ مصمماً لحصارها. وتنادى أهل تلك القرى بالثبور حاشرين؛ وطاروا إلى ملكهم في **تلمسان** بالخبر؛ فلم يسعه إلاّ حماية دار ملكه؛

---

[1] عنا عَنْوة: أخذ الشيء قهراً وقسراً. وأجاحَ أو اجتاح: معناها استأصل وأهلك. أما الكُراع: فهو اسم يطلق مجازاً على الخيل والبغال والحمير.

[2] أي أجرسيف.

[3] أدلَج: سار الليل كله، أو في آخره.

[4] لم أتوصل إلى معرفة أرجو هذه؛ كما أنها لا يمكن أن تكون ذلك المعقل المطل على تنس؛ المسمى أجرواو. وربما تكون هي مدينة أزجن؛الواقعة 'تلى الجبل القريب من نهر اللوكس. أنظر وصف إفريقيا، ج' 1، ص: 307. أما وطاط: فتقع في جهات ملوية نحو الجنوب. وتامنصرت:

[5] العفاء هنا: الهلاك واندثار الديار. يقولون: (عفت الريح الأثر أو المنزل): أي محته ودرسته.

[6] ثنية تاغروطت: ربما تكون هي التي سماها عبد الرحمن بن خلدون (تاعزوطت) بالعين بالزاي. عندما وصف زحف الوزير المريني عمر بن عبد الله بن علي إلى سجلماسة فقال: ((ولما تراءت الفئتان بتاعزوطت؛ عند فرج الجبل المفضي من تلول المغرب إلى الصحراء)). العبر مج: 7، ص: 663.

فصرف الأمير **محمد بن يحي ابن السلطان أبي يحي الحفصي** وابن عمه **الأمير أبا العباس أحمد بن محمد** إلى بلديهما **بجاية وقسنطينة**؛ فهما عتقاء مولانا أمير المسلمين **أبي حمو** أيده الله؛ عند اعتبار الحق. ثم وقف **بتلمسان** يوم الثلاثاء ــ ثالث يوم دخوله إليها ــ **محمد ابن عثمان ابن السلطان أبي تاشفين**؛ ضداً لأمير المسلمين؛ واستضاف إليه من كان بمحلته من شرقية **زناتة**. فكان كمن قابل بسقط زنده الشمس المنيرة، أو ناظر بحصبائه الدر، أو هدى كريمته إلى غير كفوها. وفي مثلها يقول الشاعر[1]؛ مفضلاً بين **يزيد بن حاتم ابن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة** ويزيد بن سليم[2] **السلمي الغساني**؛ عاملي **إفريقية** في أيام **بني العباس** ودولتهم.

الطويل:

حلفت يمينا غير ذي مثنوية
يمين امرئ آلى وليس بآثم

[1] هو ربيعة بن ثابت الرَّقّي من بني أسد.
[2] يزيد بن أسيد السلمي.

لشتان ما بين اليزيدين في الندى
يزيد سليم والأغر بن حاتم
يزيد سليم سالم المال والفتى
أخو الأزد للأموال غير مسالم
فهم الفتى الأزدي إتلاف ماله
وهم الفتى القيسي جمع الدراهم

ورحل عن الحضرة العلية يوم السبت الثاني عشر؛ من الشهر الخامس ـ ليال من دخوله ـ يطوي المراحل ـ غير لاوٍ على من تعذر ـ إلى وطنه[1]؛ وبلغ خبره أمير المسلمين ـ أيده الله ـ فانثنى يجد السير لاعتراضه. وفاتَه متذمماً **بتازا**[2]؛ فغلغل[3] ـ أيده الله ـ إلى حضرته. فبازاء **وطاط** اشتجر **بنو عامر** في قسم الغنائم، وحجزهم **شيقر** شيخهم؛ فبقر جوفه سنان رجل منهم ـ خطأ ـ

---

[1] المقصود هنا هو أبو سالم المريني ملك المغرب.

[2] لاعتراضه: أي ليتصدى له. فاتَهُ: أي ذهب ولم يدركه. متذمِّماً: محتمياً. أما تازا: فهي مدينة قال الوزان أنها بنيت من قبل من سماهم بالأفارقة؛ يقصد بهم أهل البلاد. وهي كما قال مدينة كبيرة؛ إذ تحتل المرتبة الثالثة بين مدن المملكة المغربية آنئذ. وتبعد عن مدينة فاس بـ 80 ميلاً.

[3] غلغل: أسرع في سيره. يقصد أبا حمو.

فمات. وذلك من سعادة الخليفة أعلى الله مقامه؛ فقد كان شايع ـ سراً ـ ملك المغرب ((وَاللهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الحِسَابِ)).[1] لكنّه نصره الله؛ احتفل في كفنه، وأمر باحتماله في ركابه، ودفنه بالعباد[2].

ثم مر بتاوريرت؛ ففرّ من كان بها من العساكر المرينية. فتركها ـ أيده الله ـ خاوية على عروشها؛ وقدم منها وزيره عبد الله بن مسلم في أرْعال[3] من الجيش؛ للقبض على محمد بن عثمان بالحضرة؛ فسبقهم إليه النذير العريان؛ فخرج منها خائفاً؛ يترقب يوم الأحد رابع رمضان؛ وقد رضي الخلاص لا له، ولا عليه[4]؛ وأسرع اللحاق بأولاد عريف ابن يحيى مستجيراً بهم؛ فأجاروه. واستألفوا أولاد هداج وتوجين وبني راشد وأبعاضاً من شرقيه بني عبد الواد. ودخل مولانا أمير المسلمين أبو

---

[1] الآية كاملة هكذا: ((أوَلَمْ يَروْا أنّا نأتي الأرْض ننْقُصُها مِنْ أطْرافها واللهُ يحْكُمُ لاَ مُعَقِّب لِحُكْمه وهُوَ سَرِيعُ الحسَاب)). سورة الرعد، الآية: 41..

[2] العباد: قرية تبعد عن تلمسان بـ 2 كيلومتر. أضحت الآن من أحياء تلمسان الحديثة. فيها قبر الشيخ الصوفي أبي مدين شعيب؛ وعدد آخر من العلماء والصالحين..

[3] أرْعال: القطعة المتقدمة من الخيل.

[4] أي لا يطمع في مكسب ولا يخاف من ضرر.

حمو – أعلى الله كلمته وأدام عزته – حضرة ملكه الأعز؛ يوم الخميس ثامن شهر رمضان المعظم؛ لأربعين يوماً من خروجه كما قيل:

فتح الفتوح وآب أوبة ظافر
في الله كان رحيله وإيابه
يلقى العداة ولا يمل لقاءها
فكأنما أعداؤه أحبابه

ولحين دخوله – نصره الله – حضرته؛ أنهض الشيخ **أبا موسى عمران بن موسى بن فارس** لحصار **وهران**؛ وترك بالحضرة العلية والده المولى **أبا يعقوب** رضي الله عنه، وخرج بكافة قبيله الأعز؛ لتشريد **محمد بن عثمان** عن الوطن؛ يوم الأحد ثامن عشر رمضان. وأخذ موسم الفطر **بتالسّالة**[1]؛ وسار إلى **البطحا**؛ فرجع المغرورون القهقرى مصحرين. فاستجاش أيده الله **بني عامر**

[1] تاسْلَة أو تاسْالا: قرية تسمى باسم الجبل الذي تقع فيه. وهما قريبان من مدينة سيدي بلعباس الحالية؛ إذ يبعدان عنها بحوالي 30 كيلومتر؛ في الجهة الشمالية الشرقية منها.

وبـنـي يعقـوب[1] وأولاد حسيـن المعقـل. ونـزل منداسـاً[2]؛ فأصحـر أبـو بكر بـن عريـف بظعـون قومـه سويـد وأولاد هـداج مـن المعقـل ونـزل السرسـو[3] وأعتصـم محمـد بـن عثمـان بزناتـة، ومحمـد بـن عريـف بزمـل[4] مـن قبيلـه بمعقـل وانشريـس؛ مـن بـلاد توجيـن. فصمـد أميـر المسلميـن ـ أيـده الله ـ صمـد الجبـل؛ فنّـزل غـوره، وأخـذ بمخنقـه؛ فتراسـل ولـدا عريـف؛ في أن تحـرك كـل واحـد منهمـا بلفـه مـن جانبـه؛ نحـو معسكـره المنصـور؛ في يـوم عينـاه. وبلـغ خبرهمـا أميـر المسلميـن أيـده الله؛ فأرسـل ـ يومئـذ ـ مـن أعتـرض أبـا بكـر بـن عريـف بالسرسـو؛ فهزمـه، وركـب هـو ـ نصـره الله ـ في أوليائـه؛ صاعـداً إلى الجبـل؛ ففرعتـه

---

[1] بنـو يعقـوب بـن عامـر: هـم أخـد بطـون بـلي عامـر.

[2] منـداس: بلـدة تتواجـد الآن بيـن مدينـتي: غليـزان وتيـارت. أمـا في عهـد أبي حمـو الثـاني فكانـت عبـارة عـن قلعـة نسبـت إلى قبيلـة أمازيغيـة اسمهـا منـداس. وهـم الذيـن قـال فيهـم صاحـب العبـر: ((منـداس جيرانـاً للواتـة هـؤلاء، والتخـم بينهمـا وادي مينـاس وتاهـرت)). مج: 6، ص: 238. ((وكانـوا [أي لماية] بـأرض السرسـو قبلـة منـداس وزواغـة. وكانـوا في ناحيـة الغـرب عنهـم في سفـح جبـل كـزول؛ السيـاج عـلى تلـول منـداس)). مج: 6، ص: 246.

[3] السرسـو:. وهـو السهـل الممـد حـول تيـارت؛ شمـال الجبـل المسمـى كريكـرة؛ وجنـوب جبـل وانشريـس. والسرسـو يجـري بـه هـو مـا يعـرف بنهـر واصـل.

[4] أي الرفقـة والجماعـة.

عنوة سيفه، واستباح حلل المنافقين به، وفر **محمد بن عثمان** و**محمد بن عريف** برأس طمرة ولجام؛ إلى ظعن **سويد**. فلما وصلوهم أجفلوا إجفال الظلمان؛ متعمدين القفر اليباب.

وكل ذلك في أوائل ذي القعدة. ووصل الخبر لمولانا أيده الله؛ أن ملك المغرب جهز إلى **تلمسان** جيشاً؛ لاهتبال غرتها. فصرف ــ أيده الله ــ وزيره **عبد الله بن مسلم** في كتيبة؛ فدخلها يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ذي القعدة. واستمر هو ــ نصره الله ــ في حركته؛ لاستنقاذ **المدية** و**مليانة** من أيدي **مرين**؛ الذين تخلف بها ملك المغرب ــ آنفاً ــ فمن **منزل يغود**[1] صرف **العرب** إلى مشاتيها. و**بتاجزرت**[2] من وادي **شلف**؛ بلغه الخبر بفرار **مرين** عن **مليانة** و**المدية**. فجد ــ أيده الله ــ السير إلى أن حل بظاهر **مليانة**؛ فوجه **للمدية** قائدها، وأسرى بقومه نحو **منصور بن الخلوف الياباني** **بمتيجة**؛ فصبحوه غاراً؛ يوم العشرين من الشهر؛ فقتل في

---

[1] في العبر جبل يعود بالعين المهملة: بالوانشريس كان تابعاً لبني يرناتن من توجين قبل أن تتغلب عليه قبائل بني هلال.

[2] ثمة قلعة لبني يدلتن التوجينيين بوانشريس تسمى تاوغزوت. ربما تكون هي التي يقصدها المؤلف.

عدد من حزبه، وحُزّ رأسه، وبُعِثَ إلى الحضرة. ونهض بعد ذلك لمنازلة **تنس**؛ وبها من قواد مرين **ابن أبي تجلى** أحد الحذاق بالرماية؛ فأخذ بمخنقها. وكان من مهيأ السعادة أن أوتر المذكور قوسه، وأسند إليها السهم، ثم أدارها مظهراً فراهته في اللعب بها، فافلت عقالها، وخرج السهم إلى نَحْوه؛ فمات. وملك مولانا أمير المسلمين البلد أوائل ذي الحجة؛ وغيظ لذلك **مغراوة** المرتزقون – حينئذ – بعسكر الخليفة أيده الله؛ فانتبذوا إلى **جبل زاتيمة**[1] مجاهرين بالنفاق؛ فناجزهم به الحرب، وفرع عليهم شماريخه؛ فافترقوا، ونزل – أيده الله – بمجمع من وادي **شلف**؛ فجاءه فيه الخبر بأنّ **محمد بن عثمان** وغوغاءه نزلوا **القطفة** من **بلاد حصين**[2]؛ فرحل مشرقاً إليهم، ونزل **ملياتة**؛ وأنذروا به فأجفلوا أمام طالعة رعبه. وهنالك نفدت السنة. والبقاء لله وحده.

*****

[1] جبل زاتيمة: تعذر تحديد هذا الجبل بالضبط؛ ومع هذا فإنه لا يعدو أن يكون ضمن سلسلة جبال الظهرة.

[2] القطفة: غير معروفة. وحصين: قبيلة عربية من زغبة الهلالية. وبلاد حصين: هي المناطق المحيطة بالمدية.

سنة اثنتين وستين وسبعمائة[1]

أهل محرم هذه السنة؛ ومولانا أمير المسلمين بظاهر مليانة؛ عالي اليد، ماضي الحد؛ فثنى العنان معتمداً حضرته الكريمة. وكان بجيشه المنصور – من بغايا[2] **مغراوة** – جمع وافر؛ قد غض أجفان البيض[3] عنهم الحيا، ووهبهم أعلاق[4] نفوسهم الصفح؛ فأظهروا الطاعة والاستكانة، وأبطنوا النفاق والخديعة. فلما حل ركابه العلي بظاهر **البطحا**؛ سألوا منه – أيده الله – صرفهم إلى **شلف**؛ ففطن لما أبطنوه من كفر النعمة، وإزماع الثورة عند انصرافه – أيده الله – إلى حضرته؛ فعلقت برقابهم أشراك السلاسل، واستركبوا – بعد أداهِم الخيل – أداهم القيود[5]. ورحل نصره الله إلى **وادي**

---

[1] 1360 م.

[2] يبدو أنه يقصد البقايا بالقاف.

[3] أجفان البيض: أغماد أو غُمود السيوف.

[4] أعلاق مفردها العِلْق: النفيس من كل شيء.

[5] أداهم الخيل: الخيل ذات اللون الضارب إلى السواد. أما أداهم القيود: فهي القيود الحديدية السوداء.

يلل[1] فبلغه فيه أن فل **مغراوة** المذممين قد ثار **بشلف**؛ فقتل قاضيه، ودخل **تنس** غيلة. فتجرد لحينه في الخيل والرجل، وجد السير إلى **تنس**؛ ففروا أمامه كاليعافير؛[2] لا يلوي أولهم على الآخر، وراحوا إلى **الجزائر**؛ متذممين بحاميتهم من **مرين**. وبات الخليفة نصره الله ليلة واحدة **بتنس**، ثم قفل إلى ركابه وطوى المراحيل إلى دار ملكه؛ فدخلها ثاني صفر منصور الأعلام، مبلغ الأوطار، عزيز النصر؛ قد دوخ الأمصار، وشرد الأعداء، وافتتح الأقطار، وخلف الآثار، واستجد السلطان.

الكامل:

ومتى يحارب كانت العقبى له
والحرب أحياناً تكون سجالا
خذلت عداه روعة أشياعها
وتفقدوا عزم النفوس محالا

---

[1] وادي يلل: هي الآن مدينة بالقرب من غليزان الحالية. ذكرها البكري عند حديثه عن الطريق بين مدينة فاس والقيروان؛ حيث قال: ((ثم إلى قصر ابن سنان الإزداجي؛ حوله بساتين كثيرة على نهر كدال إلى مدينة يلل وهي كبيرة آهلة كثيرة الأشجار يسكنها هوارة؛ وبها مسجد جامع؛ إلى مدينة الغزة يسكنها مكناسة وهي مدينة شريفة على نهر شلف)). المغرب، ص: 143.

[2] اليعافير مفردها اليعفور: أي الغزال.

وتبـرأت منهـم ظلالهـم فـإن
عاينـت لم تـر للشخـوص مثـالا
تلقـاه أعظـم مـا يكـون تواضعـاً
إذ تبصـر الإعظـام والإجـلالا
وتـراه أخشـع ما ترى ملكـاً وقـد
قهـر الملـوك وذلـل الأقيـالا
أرضى الخلافـة نهضـة وسياسـة
ووفى لهـا بشروطهـا استقـلالا

فأرحـل - أيـده الله - والـده مولانـا **أبـا يعقـوب** رضي الله عنـه بالجيـش الضخـم؛ لاستفتـاح **الجزائـر**؛ بمـا اقتضـاه تدبيرهـم أولاً؛ فسـار إليهـا في الثـاني والعشريـن مـن صفـر المذكـور. وكـان **محمـد بـن عثمـان** - بعـد إجفالـه عـن **القطفـة** رهبـاً مـن أميـر المسلميـن أيـده الله - غـرب إلى **عبيـد** الله مـن **المعقـل عـرب أنجـاد** مستجيـراً بهـم؛ فأجـاروه. فنهـض إليهـم **الوزيـر عبـد الله بـن مسلـم** بالجنـود المتكاثفـة، وهزمهـم، وجلاهـم عـن القطـر كلـه. وأظلـت ليلـة المولـد الشريـف؛ فاحتفـل - أعـلى الله مقامـه - لتبييتهـا

كل الاحتفال، على سننه المعتادة فيها؛ فكان مما أنشده مسمعها من نظمه نصره الله:[1]

البسيط:

نَزَلتُمْ من فؤادي منْزِلاً حسنَا
وكلُّ ما ساءني في حُبِّكُمْ حَسُنَا
قُلتُمْ[2] فلم أتَّخِذْ من بَعْدِكُمْ سكنَا
وحُبُّكُمْ في صَمِيمِ القلبِ قد سكنَا
وبُعْدُكمْ صار عندي ساعة بسنَهْ

*****

سِرْتُمْ ولم تعلموا بالبَيْنِ ما فَعَلاَ
بِهائِمٍ مُدْنِفٍ[3] لا يبتغي بدلاَ
هَلاَّ رَحمتُمْ مُحِباً بالنَّوَى قُتِلاَ
مُتَيَّماً صار في أهْلِ الهوَى مَثَلاَ
لم يَتَّخِذْ بَعْدَكمْ خِلاً ولاَ وطنَا

*****

يا راحلين وللتَّوْديعِ ما عَطفوا
وسائلين وبالمشتاق ما عَرفوا

---

[1] هذه القصيدة موجودة في بغية الرواد فقط.

[2] قلت: تخلص. وقلتم: تخلصتم.

[3] مُدنِف ودَنِف: مريض شارف على الموت.

قِفوا قليلاً على مُضْنَى الغــرام قِفــوا
خُذوا فُــؤادَ المُعَنَّى الصَّبّ وانْصَرِفــوا
لاَ أبْتَغي منكمْ رَهْناً ولاَ ثَمَنَا

*****

هجَرتُــمْ دون ذنــبٍ لاَ ولاَ سبــبِ
قَطَعْتُــمُ القلــبَ بالتَّبْريــحِ والوَصَــبِ[1]
فظلتُ[2] من حرٍّ نار الشَّــوْق في لهَــبِ
أعاتــب الدَّهْــرَ فيما جَــرَّ من نُــوَبِ
يا دَهَرُ أفْجَعْتَ قلبي بالنَّوَى زَمَنَا

*****

لوْ أنصــفَ الدَّهرُ ما فارَقْتكُــمْ أبــدَا
ولاَ رضيتُ سِواكُمْ في الهَوَى أحَــدَا
لم يَبْــقَ لي بَعْدَكُــمْ صَبْراً ولاَ جَلَــدَا[3]
والنَّوْمُ عن مُقْلَــتي من بُعْدِكُــمْ شَــرَدَسا
وقدْ حُرِمْتُ لذيذَ العَيْشِ والوَسَنَا[4]

*****

[1] التبريــح: الشــدة والأذى. الوصــب جمعــه أوْصــاب: المــرض والوجــع الدائــم.

[2] يقصــد: فضللــتُ.

[3] الجلــدُ والجــلادة: القــوة والشِّــدة والصَلابــة.

[4] الوســن: النــوم العميــق والثقيــل.

هَلاَّ كَفَــوْني أُهَيْــلُ الحُــبِّ هَجْرَهُــمُ[1]
ما ضَــرَّ لَوْ أَنَّهُــمْ جــادوا بِوَصْلِهِــمُ
ما كنتُ أدْري الهَــوَى حتَّى عَرَفْتُهُــمُ
وعَبْــرَتي ما رقَّــت من بَعْدِ بُعْدِهِــمُ
والقلبُ في حُبِّهِمْ مازال مُرْتَهَنَا

*****

يا حــادِيَيْ ظَعْنِهِــمْ نَحْوَ الدِّيــارِ قِفَــا
نُنَشِّــدْ[2] فُــؤاداً بِــذاكَ الــحَيِّ قد تَلَفَــا
وسائــلاً بِــرُبَى نَجْــدٍ لمَــنْ عَرَفَــا
قُــولاَ لَهُمْ ذَلِــكَ المُشْتــاقُ قَدْ شُغِفَــا
وقلبُــهُ بِأليــمِ الشَّوْقِ قَدْ طُعِنَا

*****

هَلْ مُخْبِرٍ كَيْفَ أحْبابي وما صَنَعــوا
أبِالْحِــمَى خَيَّمُــوا أمْ عَنْهُ قَدْ رَجَعُــوا
ساروا بقلــبي وشَمْلي بالنَّوَى صَدَعوا
يا لَيْتَ شِعْري بِذاك القَلْــبِ هَلْ قَنَعــوا
أمْ هل أبَشِّــرُفي نَجْــدٍ بِأُلْفَتِنَــا

*****

[1] أهيْــل الحـــب: تصغيــر لأهــل الحـــب.
[2] نشــد نشــداً الضالـــة: نـــادى وســأل عنهـــا.

يا هاجِريـــنَ وهَجْــرُ الصَّبِّ ما وَجَبَـــا
أبْعَدْتُمُـــوني ولـــم أدْرِ لِذَا سَبَبَـــا
وصِرْتُ في حَيِّكُـــمْ مِن جُمْلَةِ الغُرَبَـــا
وقلتُ يا دَهْـــرُ جُدْ لي بالرِّضَى فَـــأبَى
يا دَهْرُ هَلاَّ كَفَتْكَ اليَوْمَ فُرْقَتُنَـــا

*****

شَـــدُّوا عَشِيَّـــةَ يَوْمِ البيـــن[1] وارتحلـــوا
ولاَ دَرَى الصَّبُّ بَعْدَ البَيْـــنِ ما فَعَلـــوا
هَلْ بِالنَّقَـــا خَيَّمـــوا أم بالحِمَى نَزَلـــوا
نادَيْـــتُ من شِدَّةِ الأشْـــواق يا رَجُـــلُ
رُدُّوا الرِّكابَ فإنَّ القلبَ قد ظَعَنَا

*****

أنـــا المُشَـــوَّقُ فَهَـــلْ خِـــلٌّ يُساعِـــدُنِي
علَى البُكـــاءِ مَـــدَى الأيَّـــامِ والزَّمَـــنِ
قَدْ خانَـــنِي فيكُـــمُ مَن كـــانَ يَألَفُـــنِي
لَعَـــلَّ دَهْـــرِي بِكُـــمْ حيناً سَيَجْمَعُـــنِي
فَيَشْتَـــفِي قَلْبُ صَبٍّ بالغَرامِ فَنَى

*****

[1] الشـــدّ: يقولـــون: (شـــدُّ الرِّحـــال)؛ كنايـــة عـــن السفـــر. يـــوم البَيْـــن: يـــوم الفـــراق.

لقــدْ أضَــرَّ بقلــبي لاَعِــجُ الوَهــجِ[1]
وقَدْ مَزجــتُ بدمْــعي كــلَّ مُمْتَــزِجِ
والشَّــوقُ أثَّرَ في الأحْشــاءِ والمُهَــجِ
فاللــهُ يَعقِــبُ بعــدَ العُسْــرِ بالفَــرَجِ
فيَسْعِــدُ السَّعْــدُ والأيامُ تَجمعنَا

*****

ما كان أحْسَــنَ عَهْــدٍ بالحِــمَى سَلَفَــا
وطِيــبِ عَيْــشٍ حَلاَ لي وَرْدُهُ وصَفَــا
ضَيَّعْتُ عُمْرِيَ في التَّسْويفِ وَا أسَفَــا
فَهــا أنا بَعْــدَ شَمْــلٍ كــان مُؤْتَلِفَــا
أبْكي الرُّبوعَ وَطَوْراً أنْدُبُ الدِّمَنَا

*****

كــمْ ذا أكابِــدُ حَرَّ الشَّوْق في كَبِــدِي
وكُــلُّ شَيْءٍ بِعَيْــنِ الواحِــدِ الصَّمَــدِ
يا نَفْــسُ لا تَــرْجِ غَيرَ الله من أحَــدِ
يُغْنيــكِ عنْ عَدَدٍ في الحَربِ أو عُــدَدِ
فلمْ يَزَلْ بجَميلِ اللطْفِ ينصرُنا

*****

[1] لاعــج الوهــج: شــدة الحرقــة.

رُحْمَـــاكَ يا رَبُّ إنَّ الذَّنْبَ مِنْ قِبَـــلي
فَوُفِّـــقَ العَبْــدُ للإخْــلاصِ في العَمَــلِ
وهَــبْ لهُ فَرَجــاً يَــأتي على عَجَــلِ
بِحَــقِّ أحْمَـدَ خَيْرِ الخَلْــقِ والرُسُــلِ
مَنْ في غَدٍ مِنْ عَظيمِ الذَّنْبِ يُنْقِذُنَا

*****

يا نَفْسُ لا تَقْنَطِي يا نَفْسُ واصْطَبِــري
ولاَزِمي الجَــدَّ في وِرْدٍ وفي صَــدْرِ[1]
لِزَوْرَةِ المصطفَى المُختَــارِ من مُضَــرِ
فَــإنْ خَتَمْــتُ بهــذا مُنتَــهَى عُمْــري
فقدْ ظَفِــرْتُ بعِــزٍ دائمٍ وهَنَـــا

*****

وهَبــتُ نفْــسِيَ لِلحــادي إذا قَبِـــلاَ
كَيْ أبْلِغَ القلبَ من ذاكَ الحِــمَى أمَــلاَ
وأبْصِــرِ البيــتَ والأرْكــان والحلَــلاَ
أطــوف سبعَــةَ أشْــواطٍ بِــهِ رَمَــلاَ[2]
وأنْثَني لِمنًى قَدْ حُزْتُ كُلَّ مُنَى

---

[1] الــورد هنـــا: خــلاف الصــدر، وهــو الحضــور والمــجيء. أمــا الصــدر والصــدور: فهــو الرجــوع؛ فيقولــون: (صــدر عــن المكــان، وصــدر عــن المــاء)؛ أي رجـــع عنـــه.

[2] رمــلا: الجــري مهــرولاً.

*****

يـــا أكْــرَمَ الخَلْــق عِنــدَ اللهِ مَنْزِلَــةً

كَــمْ لي أرُومُ إلى مَغْنــاكَ مَرْحَلَـــــةً[1]

لكنْ أمُــور عَدَتْــني عَنْــكَ مُعْظِلَــة

منها ذنــوبٌ غــدتْ للظهــرِ مُثقلــةً

ومَا مِنَ الحُكْمِ رَبُّ العرشِ قلدنَا

*****

يا رَبّ عَبــدُكَ مــوسَى ذَنبُــهُ عَظُمَــا

فَهَبْ لَهُ العَفْوَ جوداً والــرِّضَى كَرَمَــا

وأرْحَمْ ضَراعَتَــهُ يا خَيْرَ من رَحِمَــا

يا رَبّ لا تُبْعِدِ الجــاني بما اجْتَرَمَــا

أنتَ الغَنِيُّ وما لِلخَلق عَنكَ غِنَى

*****

أهْلاً بمَوْلــدِ خَيْرِ الخَلْــق حيــنَ بَــدَا

وفــاضَ مِنهُ على الآفــاق نورُ هُــدَى

أرْجــو شَفاعَتَــهُ يومَ الحســابِ غَــدَا

يـــا رَبّ صِــلْ عليــهِ دائمــاً أبَــدَا

ما صافَحَ الرِّيحُ رَوْضاً أوْ ثَنَى غُصنَا

---

[1] المغْــنى جمعــه مغــان: المنــزل.

*****

وللطبيب أبي عبد الله محمد بن أبي جمعة التلالسي موشحة وهي هذه:

يا وَيْحَ صبٍّ بان عنه الشبابْ *وأوْدَعَ * لهيبَ وَجْدٍ عِندَما وَدَّعوا
أوْدَى بـه الوَجْـدُ وفـرْطُ الجَـوَى
وهَـدَّ منـه الشَّيْـبُ كـلَّ القِـوَى
ولاَ لَـهُ ممـا اعْـتَـراهُ دَوَا
مَنْ فَقَدَ الخِلاَّنَ مِثْلي وشَابْ * مَا يَنْفَعُ * إلاَّ لَيالي الوَصْلِ لَوْ يَرْجِعُ
آهٍ لأيـامِ الصِّبَـا لَـوْ تَعُـودْ
كَـأنَّ بِهـا قَـدْ لاَحَ بَـدْرُ السُّعُـودْ
تَـرَى بِهَـا رَيْـبَ الزَّمَـانِ يَعُـودْ
لَهْفِي عَلَيْهَا ما لَها مِنْ إيَابْ * فالأدْمُعُ * تَنْهَل والأجْفانُ لاَ تَهْجَـعُ
ذِكْـرِي لأيَّـامِ الصِّبَـا لاَ يُفِيـدْ
فَمَـدْحُ مَوْلاَنَـا الإمَـامِ السَّعِيـدْ
أوْلَى وَأحْـرَى فَهـوَ بيـتُ القَصِيـدْ
لهُ مُلوكُ الأرْضِ طُرًّا تَهَابْ * وتَخْضَعُ * منْ مِثْله حَقٌّ لها تَجْـزَعُ
إنْ ذُكِـرَ الأجْـوادُ فَهـوَ الغَمـامْ
أو عُـدِّدَ الأبْطَـالُ فهـو الهُمَـامْ
أو سَألـوني قُلْـتُ مُـوسَى الإمَـامْ
المَاجِدُ الأسْمَى المَنيعُ الجَنابْ * الأمْنَعُ * عَنْ مُلْكِهِ الثَّابِتِ لاَ يُدْفَـعُ
أهْـلُ تِلِمْسَـانَ بِـهِ آمِنِيـنْ

أكْــلٌ وشُــرْبٌ وقــرارٌ مَعيــنْ
قَــالَ بِهــا شخْــصٌ مِــنَ التَّائبيــنْ
لاشْ يَحْسِدوني ويْقُولْ لي تابْ * إشْ يطْمعْ * أنّي كنتْرُكْ عُشْقي أوْ نقْطعْ

وكــان **محمــد بــن عثمــان** المذكــور ــ بعــد كائنــة **أنجــاد** ورجــوع **عبيــد الله** إلى طاعــة أميــر المسلميــن ــ فــر بذمامــه إلى **تاوريــرت** متذممــاً بمــن فيهــا مــن الجنــود المرينيــة؛ فاستبــان لسلطــان المغــرب ــ مــن عنايــة الله تعــالى بهــذا الخليفــة ــ الصبــاح، وتحقــق ألاَّ جــدوى لمكابرتــه، ولا ثمــرة تجــنى مــن محاربتــه؛ واتضحــت لديــه براهيــن فضلــه عــن سايــر عترتــه؛ كمــال خــلال، ووفــاء عهــد، وجمــال سيــرة.

وليــس يصــح في الأفهــام شيء
إذا احتــاج النهــار إلى دليــل

فثقــف **محمــد بــن عثمــان بتاوريــرت** وأمــر الشيــخ **ونزمــار بــن عريــف** بــأن أوغــر إلى خليفــة الله **أبي حمــو** ــ أيــد الله ــ ببعــث ولــده؛ لاستقضــاء الصلــح منــه؛ رغبــة مــن بــأوه في الطهــارة، و جنوحــاً إلى السلــم ولــم تــاب ذلــك سياســة أميــر المسلميــن أيــده الله فتوجــه المــولى الأميــر **أبــو تاشفيــن** ــ أعــزه الله ــ إلى المغــرب

في أواخر شهر ربيع الأول؛ مرفقاً بالشيخ **أبي موسى عمران بن موسى**، وأعلام ذوي تجلة من **عبد الواد**؛ بهدية من عتاق الخيل المسومة. وأعد ملك المغرب السلطان **أبو سالم** لإنزالهم الدور الرحبة، والفرش المرفهة، والقرى الجزيل؛ وأركب للقائهم ــ يوم الوصول ــ أعلام دولته، وكبار قبيله؛ واحتفل للسلام عليهم كل احتفاله، ومهد للأمير ــ أعزه الله ــ أريكة بإزاء سريره؛ ودخلوا فتلقاهم بالترحيب والبشر، وبالغ لهم في الإكرام والإكبار، وأظهر بهم الفرح، وبسط الآمال؛ وانقضى المجلس الجمهوري؛ فدخل بالأمير ــ أعزه الله ــ إلى قصره، وأطافه على مقاصيره؛ إغياءً في بره[1] واستجلاباً لأنسه، وحلا لحبى ترفيعه، وتقمناً لمسرة مولانا أمير المسلمين أبيه فيه.

فلما انتهى أمد القرى، وانعقد الصلح على الحدود القديمة، والشروط المألوفة؛ كافأ السلطان **أبو سالم** ــ عن الخيل المهداة إليه ــ بأضعافها من الأعلاق النفيسة، والبغال الفارهة. وأرسل بذلك الشيخ **أبا يعقوب ونزمار بن عريف ومحمد بن النوار**

[1] إغياءً في بره: بلوغ الغاية في الإحسان إليه وملاطفته.

مع المولى الأمير **أبي تاشفين**؛ فانصرفوا عنه بملء صدورهم حبوراً، ووفر اقتدامهم حباءً؛ لولاَ ضنه على الأمير ــ أعزه الله ــ **بوهران**؛ بعد سؤاله إياها منه. فقدموا على مولانا أمير المسلمين ــ أيده الله ــ في أوائل جمادى؛ وبالصدور لها؛ فكتب إليه الخليفة أيده الله شاكراً فعله، ومعيداً القول في شأن **وهران** المذكورة؛ إضاقة العدو فيها كورة الحضرة، وإطلاله بها على دار الملك، وإشجائها صدر الدولة. فأرسل إليه بمنعها **عمر ابن عبد الله بن علي الياباني**؛ فاحتفى أمير المسلمين أيده الله به، وبالغ في كرامته، ونصب لصيد هواه شرك المكائد؛ إلى أن استألفه؛ فأعطى المقادة في مباطنة الخليفة ــ أيده الله ــ بأعمال الحيلة في غدر مرسله. وكان شهماً جرئ الجنان، مقداماً؛ فأجزل ــ أيده الله ــ إحسانه، وصرفه معيداً الكتب معه في شأن **وهران**؛ وقد تكدر صفو السلم بسببها.

فواصل الخليفة ــ أُيده الله ــ الأمير **محمد بن إسماعيل بن محمد بن فرج ابن اسماعيل بن نصر**؛ المتغلب ــ حينئذُ ــ على ملك **بني نصر بغرناطة**؛ ولاطفه في صرف **الأمير عبد الحليم ابن الأمير أبي علي ابن السلطان أبي سعيد ابن السلطان**

أبي يوسف ابن عبد الحق إليه؛ كي يعينه على تملك **المغرب**؛ فأجابه إلى ذلك. ثم ظهرت لأمير المسلمين – أيده الله – في **وهران** غرة؛ فلم يبال في اهتبالها بما يكون؛ ورحل نحوها في الخامس من شوال؛ فنازلها ثلاثة أيام، ودخلها عنوة سيفه في يوم الاثنين ثالث عشر شوال؛ وأمسك قائدها **علي بن أجانا** قصبتها يوماً وليلة، ثم أسلمها من الغد؛ مستأمنا لنفسه؛ فهدم أمير المسلمين أسوارها، وقفل إلى دار ملكه؛ فدخلها يوم الاثنين تاسع عشر شوال؛ وفيه ورد على بابه الكريم – أسماه الله – **الشيخ ونزمار بن عريف وسليمان بن عامر بن فتح الله**؛ رسولين من قبل ملك **المغرب** بتسليم **الجزائر** له؛ فتأزر النصر وعز، وتسنى الفتح وبان؛ المنة لله؛ لا لغيره. ومضى **سليمان بن عامر** – المذكور – بكتاب ملك المغرب إلى قومه **بالجزائر**؛ المرؤسين **بعلي بن يعلى وشعيب بن وادرار**؛ بأن يخرجوا عنها لأمير المسلمين أيده الله ووصلهم؛ فتسلم البلد من أيديهم المولى المقدس **أبو يعقوب** رضوان الله عليه؛ وفي اليوم الثامن لذي القعدة. وانصرف **بنو مرين** – الذين كانوا بها – إلى باب أمير المسلمين

أيـــده الله. وفي ليلـــة تعريسهـــم **بتيـــط وشقـــوف**[1] آخـــر ذي القعـــدة؛ راح الخبـــر إلى الخليفـــة ــ أيـــده الله ــ بثـــورة **عمـــر بـــن عبـــد الله**[2] ــ المتقـــدم الذكـــر ــ عـــلى سلطانـــه **أبي سالـــم**؛ بدعـــوة أخيـــه المعتـــوه **أبي عمـــر** وقتلـــه؛ ومـــن الغـــد دخلـــوا الحضـــرة الكريمـــة؛ وفي الغـــرة مـــن ذي الحجـــة؛ ورد عـــلى الحضـــرة الكريمـــة الأميـــر **عبـــد الحليـــم ابـــن الأميـــر عبـــد الحليـــم ابـــن أبي عـــلي** المستقـــدم مـــن **غرناطـــة**؛ كمـــا ذكرنـــاه آنفـــاً. فلـــقي الجميـــع بالبـــاب العـــلي مـــن البـــر والإكـــرام، وخفـــض الجنـــاح، وإرحـــاب المنـــازل والقـــرى، ومـــا لـــم يكونـــوا يحتسبـــون. ثـــم قـــدم ــ عـــلى بـــاب الخليفـــة أيـــده الله ــ **محمـــد السبيـــع بـــن مـــوسى بـــن إبراهيـــم اليرنيـــاتي**؛ مـــن خـــواص خدمـــة ملـــك المغـــرب؛ طريـــدَ خـــوفٍ؛ فمدحـــه بقصيـــدة طويلـــة؛ أولهـــا:

الطويـــل:

تَطـــاولَ ليـــلي فاستفـــزَّ منـــامي
وطـــالَ سُهـــادي فاستطـــالَ سقـــامي

وحرَّمَ سبعـــاً ليس للنّفـــسِ بَعْدهـــا
مقـــامٌ فطيـــبُ العيـــشِ جد حَـــرامي:

---

[1] لم نتمكـــن مـــن معرفـــة هذيـــن المكانيـــن.

[2] وزيـــر أبي سالـــم المريـــني.

مَنَامي وعَقْلي والفُؤادُ وسَلْوَتي
وصَبْري ولُبِّي والْتِذاذُ طَعامي

ومنها يخاطب بريده:

وَجُزْ بالفَيافي فَدْفَداً بَعْدَ فَدْفَدِ
وحاذِرْ ولاَ لاَ تَرْعَوى[1] لمنامِ
فإنْ جِئْتَ مولانا فرحلكَ حُطَّهُ
ببابِهِمُ الأعْلَى وبُثَّ سَلامي
ونادِ بأعْلَى الصَّوْتِ منْ بعدِ ما تَرَى
مُحَيّا إمامٍ فَوْقَ كلِّ إمامِ
لموسَى تَخاضَعَتْ رِقابٌ لِعِزِّهِ
فكان لدين الله خيرَ إمامِ

فأجابه مولانا أمير المسلمين أيده الله بقوله:[2]

[1] إرعوى: رجع عن الشيء عموماً؛ ورجع عن الجهل بالخصوص.
[2] هذه القصيدة موجودة أيضاً في: واسطة السلوك (مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية)، وزهر البستان. وكتاب الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين ابن الخطيب.

الطويـــل:

تَذكَّـرْتُ أطــلالَ الرُّبـوعِ الطَّواسـمِ
وما قد مَضَى مـن عَهْدهـا المُتقـادمِ

وقفْـتُ بهـا من بَعْـدِ بُعْـدِ أنيسهـا
بصبـرٍ منـافٍ[1] أو بشوقٍ مُـلازمِ

أهيـم[2] بِمَغْناهُـمْ وأنْـدُبُ رَبْعَهُـمْ[3]
وأيّ فـؤادٍ بعدَهـمْ غيـر هائِـمِ

[تحِـنُّ إلى سَلْـمَى ومَنْ سَكنَ الحِـمَى
ومـا حُـبُّ سلْـمَى للفَـتَى بمُسالِـمِ][4]

---

[1] أي بصبـر زائـد وطويـل.

[2] في واسطـة السلـوك، وزهـر البستـان، والإحاطـة: ((تهيـم)).

[3] نفسـه: ((تهيـم...وتنـدب)). ومعـنى البيـت هـو: أعشـق منازلكـم، وأسـرع وأحـث نفـسي إلى داركـم ومـا حولهـا.

[4] هـذا البيـت غيـر موجـود في هـذه النسخـة مـن بغيـة الـرواد؛ بينمـا هـو موجـود في مخطـوط واسطـة السلـوك الخـاص بالمكتبـة الوطنيـة الجزائريـة، ومخطـوط زهـر البستـان، والإحاطـة. وأنـدب ربعهـم: أسـرع وأحـث نفـسي إلى ربعهـم.

فَلاَ تَنْدِبِ الأطلال واسْألْ عنِ الهَــوَى[1]

ولا تَغْــلُ[2] في تِذْكَــارِ تِلْــكَ المَعالِــمِ

فإنَّ الهَــوَى لا يَسْتَفِــزُّ ذَوِي النُّــهَي

ولا يَسْتَــبِي إلاّ ضَعيــفَ العَزائِــمِ[3]

وكُــلُّ فَــتًى أعْــطَى الغَــرامَ قِيــادَهُ

وبــاتَ عــلى ضَيْــمٍ فَلَيْــسَ بِحــازِمِ

وما[4] فــازَ بالعَلْيــا سِــوَى كُلِّ ماجِــدٍ

مُشَمَّــرِ ساقِ العِزِّ[5] مــاضِي العَزائِــمِ[6]

صَبورٍ على البَلْوَى طَهُورٍ مِنَ الهَــوَى

قَريــبٍ مِــنَ التَّقْــوَى بَعيــدِ المَآثِــمِ

---

[1] في الإحاطــة: ((واسْــلُ عــن الهــوى)). وتنــدب هنــا ليســت مثــل ((أنــدب)) السابقــة. إذ أن معناهــا الآن هــو: البكــاء. وعليــه فهــذا الشطــر يعــني: لا تبــك عــلى الأطــلال والآثــار وابحــث عــن العشــق والهــوى.

[2] في الإحاطــة: ((تَقُــلْ)).

[3] في: و. س (مخ)، والإحاطــة: ((إلاّ الضعيــف العزائــم)).

[4] في و. س . (مخ)، وزهــر البستــان: ((فمــا))

[5] نفســه: ((الجــد)).

[6] هــذا البيــت والبيــت الــذي قبلــه سقطــا في الإحاطــة.

ومَـــنْ يَبْـــغِ إدْراكَ المَعَـــالي ونَيْلَهـــا[1]
يُســـاوِي بِحُلْـــوِ الشَّهْـــدِ مُرَّ العَلاقِـــمِ[2]

ولائِمَـــةٍ لمّـــا ركِبْنـــا إلى العُـــلَى
بِحـــارَ الـــرَّدَى في لُجَّـــةِ المُتَلاطِـــمِ[3]

تَقولُ بإشْفـــاقٍ أتَنْـــسَى هَوَى الـــدُّمَى[4]
وتَنْـــثُـــرُ دُراً مِـــنْ دُمـــوعٍ سَواجِـــمِ

إليْـــكَ فإنّـــا لا تَـــرُدُّ اعْتِزامَنَـــا
مَقالَـــةُ بـــاكٍ أو مَلامَـــةُ لائِـــمِ

ألَـــمْ تَـــدْرِ أنَّ اللَّـــوْمَ لُـــؤْمٌ وإنَّنـــا
لَنَجْتَنِـــبُ اللُّـــؤْمَ اجْتِنـــابَ المَحـــارِمِ

فَمـــا بِسِـــوَى العَلْيـــاءِ هِمْنـــا جَلالَـــةً
إذا هـــامَ قَـــوْمٌ بِالْحِســـانِ النَّواعِـــمِ

---

[1] في و . س , وزهـر البستـان، والإحاطـة: ((ومـن يبـغِ دَرْكَ المُعْلَـوَاتِ ونَيْلَهـا)).

[2] في الإحاطـة: ((يُسـاقُ بِخَلْـقِ الشَّهْـدِ)). الشهـد: العسـل في شمعـه. والعلقـم: هـو الحـدج والحنظـل أو كـل مـا هـو شديـد المـرارة.

[3] في و , س، والإحاطـة: ((في لجهـا المتلاطـم)).

[4] في و . س . ((هـوى الدنـا)). ومعـنى الـدمى: الصـورة الجميلـة.

بُروقُ السُّيُــوفِ المَشْرَفِيَّــاتِ والقَنَــا[1]

أحَــبُّ إليْنــا منْ بُــروقِ المَباسِــمِ

وأحْسَــنُ مِــنْ قَــدِّ الفتَــاةِ وخَدِّهــا

قُــدودُ العَوالي أو خُــدودُ الصَّــوارِمِ[2]

وأمَّا صَهيلُ السَّابِحــاتِ[3] لَدَى الــوَغَى

فأشْــجَى لَدَيْنــا مِنْ غِنَــاءِ الحَمَائِــمِ

[إذا نَحْنُ جَرَّدْنَــا الصَّــوارِمَ لمْ تَعُــدْ

لأغْمادِهَــا إلاّ بِجَــزِّ الغَلاصِــمِ[4]

نُواصِلُ بينَ (.....)[5] والهامِ والطُّــلَى[6]

بِتَفْريــقِ ما بَيْنَ الطُّــلَى والجَماجِــمِ]

---

[1] المشرفيــات: هي السيــوف المنسوبــة إلى بعــض القــرى الــتي أطلــق عليهــا اسـم مشــارف الشــام. وقــال بعضهــم أن تلــك السيــوف منسوبــة على موضــع باليمــن. والقنــا مفردهــا قنــاء: الرمــح.

[2] لا يوجــد هــذا البيــت في زهــر البستــان؛ بينمــا يوجــد في هــذه النسخــة مــن بغيــة الــرواد، وواسطــة السلــك (مخطــوط المكتبــة الوطنيــة الجزائريــة)، والإحاطــة. ولكــن في غيــر الترتيــب المتبــع في بغيــة الــرواد.

[3] في الإحاطــة: ((وأمــا صميــل السابحــات)). السابحــات: الخيــل السريعــة.

[4] هــذا البيــت والبيــت الــذي يليــه غيــر موجوديــن إلا في واسطــة السلــوك، والإحاطــة؛ غيــر أن عجــز البيــت كتبــت في الإحاطــة هكــذا: ((إلاّ غمادهــا الأبْحُــرُ الغلاصــم)). الغلاصــم مفردهــا الغلْصمــة: اللحــم بيــن الــرأس والعنــق.

[5] هنــا كلمــة غيــر مفهومــة في مخطــوط واسطــة السلــوك. بينمــا كتبــت في الإحاطــة: ((الهنــد)). وقــد سايــر حاجيــات هــذا.

[6] الطُّــلى مفردهــا طُــلاة: العنــق.

[فَيرْغَــبُ مِنَّــا السِّلْــمَ كُلُّ مُحــارِبِ
وَيَرْهَــبُ مِنــا الحَــرْبَ كُــلُّ مُسالِــمِ][1]
نَقــودُ[2] إلى الهَيْجَــاءِ كَلَّ مُضَمَّـــــرٍ[3]
ونُقْــدِمُ أَقْــدامَ الأســودِ الضَّراغِــمِ[4]
وما كُلُّ مَنْ قاد الجُيُــوشَ إلى العِــدَى
يَعــــودُ إلى أَوْطانِــهِ بالغَنائِــــمِ
ونَنْصُــرُ مَظْلومــاً ونَمْنَــعُ ظالمــاً
إذا شِيــكَ[5] مَظْلُــومٌ بِشَوْكَــةِ ظالِــمِ
ويَــأوي إلَيْنــا المُسْتَجيــرُ ويَلْتَــجي
فَيَحْميــهِ مِنَّــا كُــلُّ لَيْــثٍ ضبــارِم[6]
أَلَــمْ تَــرَ إذْ جــاءَ السُّبَيْــعُ[7] قاصِــداً
إلى بابِنَــا يَبْــغي الْتِمــاسَ المَكَــارِمِ

[1] هــذا البيــت غيــر موجــود في نسخــة بغيــة الــرواد الــتي بيــن أيدينــا؛ بينمــا يوجــد في مخطــوط واسطــة السلــوك، وزهــر البستــان، والإحاطــة.
[2] في مخطــوط واسطــة السلــوك: ((نعــد)).
[3] الهيجــاء والهيجــا: الحــرب. المضمــر: كــل فــرس أو هجيــن يكــون لطيــف الجســم دقيــق الخصــر.
[4] الضّراغــمُ مفردهــا الضِّرْغــم: هــو الأســد.
[5] كتــب في زهــر البستــان ((شــك)).
[6] في الإحاطــة: ((صيــارم))؛ والصحيــح هــو مــا جــاء في بغيــة الــرواد. يقولــون: ((أســد ضبــارم))؛ أي وثــاب.
[7] في الإحاطــة: ((السُّبَيْــعِيُّ)). وهــذا أسلــم للــوزن.

وذَلِـــك لَمَّـــا أنْ جَفَــاهُ صِحابُـــــهُ

وكُـــلُّ خَلِيـــلٍ وُدُّهُ غَيْـــرُ دائِـــــمِ

وأزْمَـــعَ إرْسَـــالاً إلَيْنـــا رِسالَـــــةً

بِـــودٍّ جَدِيـــدٍ[1] واجِـــبٍ غَيْـــرِ واجِـــمِ

وكَـــانَ رَأى أنَّ المهَامَـــةَ بَيْنَنـــــا

فَخَـــلَّى لِـــذاتِ[2] الخُـــفِّ ذاتِ المَناسِـــمِ[3]

وقَـــالَ ألاَ هَـــلْ مِـــنْ عَليـــمٍ مُجَـــرِّبٍ[4]

أبُـــثُّ لَـــهُ مـــا تَحْـــتَ طَيِّ الحَيـــازِمِ[5]

فَيُبَلِّـــغُ عَـــنِّي[6] الآنَ خَيْـــرَ رِسالَـــةٍ

إلى خَيْـــرِ أعْـــلاَمِ المُلُـــوكِ الأعاظِـــمِ[7]

---

[1] في و. س، وزهـــر البستـــان، والإحاطـــة: ((بإخــــلاص ود)).

[2] كتـــب في واسطـــة السلـــوك: ((بـــذات)).

[3] المَنْسِـــمُ جمعهـــا مناســـم: طـــرف خـــف البعيـــر؛ وهي كالظفـــر للإنســـان.

[4] كتـــب في واسطـــة السلـــوك: ((وقـــال لأمـــري مـــن حليـــم مجـــرب))، وفي الإحاطـــة: ((ألا ســـل مـــن عليـــم مجـــرب)).

[5] الحيـــازم أو الحيازيـــم: وســـط الصـــدر. يقولـــون كنايـــة عـــن الصبـــر: ((شـــدّ الحيـــازم)).

[6] في الإحاطـــة: ((عنـــه)).

[7] كتـــب عجـــز البيـــت في واسطـــة السلـــك، وزهـــر البستـــان، والإحاطـــة هكـــذا: ((تـــؤدى إلى خيـــر الملـــوك الأعاظـــم)).

على ناقـــةٍ وَجْنـــاءَ[1] كالحَرْفِ ضامِــرِ
تَخَيَّرْتُهـــا بَيْـــنَ القِـــلاصِ الرَّواسِـــمِ[2]
من الـــلاَّءِ يظْلِمْـــنَ الظَّلِيـــمَ إذا عَـــدَا[3]
ويُشْبِهْنَـــهُ في جيـــدِهِ[4] والقَوائِـــــمِ
[إذا أتْلَعَـتْ[5] فَـوْقَ السَّحابِ جِرانُهَـا[6]
تَخَيَّلْتُهـا[7] بَعْـضَ السَّحـابِ الرَّواكِـمِ
وإنْ هَمْلَجَتْ بالسَّيْرِ في وَسْطِ مَهْمَـهٍ[8]
تَـراءَتْ[9] كَمِثْـلِ البَـرْقِ لاحَ لِشائِـمِ

[1] ناقـــة وجنـــاء: أي شديـــدة.

[2] في الإحاطـــة: ((تخيّرهـــا بيـــن القـــلاص)). القـــلاص مـــن الإبـــل: الشابـــة؛ ذات القوائـــم الطويلـــة. الرواســـم: الـــتي ترســـم في الأرض أثـــر سيرهـــا.

[3] الظليـــم: ذكـــر النعـــام. والظليـــم أيضـــا: فـــرس فضالـــة بـــن هنـــد بـــن شريـــك الأســـدي؛ وهـــو مـــن مشاهيـــر الخيـــل.

[4] كتـــب في واسطـــة السلـــوك: ((في جريـــه)). والأصـــح ـ كمـــا يقتضيـــه الحـــال ـ هـــو مـــا كتـــب في بغيـــة الـــرواد وزهـــر البستـــان.

[5] هكـــذا في زهـــر البستـــان؛ أمـــا واسطـــة السلـــوك فكتـــب فيهـــا: ((أتعلـــت)).

[6] في الإحاطـــة: ((فـــوق السحـــاب جوابهـــا)). أتلعـــت: طلعـــت. والجـــران مـــن البعيـــر: مقـــدم عنقـــه.

[7] كتبـــت في واسطـــة كلمـــة أخـــرى غيـــر مفهومـــة. اعتقـــد حاجيـــات أنهـــا ((تجـــلى))؛ مـــع أن مـــا هـــو ظاهـــر لا يفهـــم منـــه ذلـــك.

[8] هملـــج بالسيـــر: مـــشى بسهولـــة وسرعـــة حسنـــة. المهمـــه والمهمهـــة جمعهـــا مهامـــه: المفـــازة البعيـــدة المقفـــرة.

[9] في: و. س (مخ): ((تضـــاءت)). وفي: الإحاطـــة: ((نزلـــت)).

ولَـمْ يَأمَـنِ الخِـلاَّنَ بَعْـدَ اخْتِلالِهِـمْ
فأمْـسَى وفي أكْبـادِهِ أيِ جاحِـمِ][1]
فَقالـوا[2] فَحَمِّلْهـا الحَمائِـم قـالَ لاَ
لِبُعْدِ المَـدَى أوْ خَوْفِ صَيْـدِ الحَمائِـمِ
وما القَصْدُ إلاّ في الوُصـولِ بسُرْعَـةٍ
فَقالـوا فَحَمِّلْهـا أكُـفَّ النَّواسِـمِ[3]
فَقـالَ لَنِعْـمَ المُرْسِـلاَتِ وإنَّمـا
لَهـا ألْسُـنٌ مَشْهـورَةَ بالنَّمائِـمِ
وَكَتْـبِيَ[4] زَهْـرٌ في كَمائِـمِ طِرْسِـهِ
وبِالرِّيـحِ يُفْشَى سِـرُّ زَهْـرِ الكَمائِـمِ
فَلَـمْ يلْـفَ فيهـا لِلأمانَـةِ مَوْضِعـاً
وكُـلُّ امْـرِئٍ لِلسِّـرِّ لَيْـسَ بِكاتِـمِ

---

1 هـذا البيـت ـ والبيتـان السابقـان ـ لا توجـد في نسخـة بغيـة الـرواد الـتي بيـن أيدينـا؛ بينمـا هي موجـودة في واسطـة السلـوك وفي زهـر البستـان. والجاحـم: الجمـر المشتعـل بشـدة.

2 في واسطـة السلـوك: ((وقالـوا)).

3 هـذا البيـت والبيـت الـذي سبقـه غيـر موجوديـن في زهـر البستـان؛ بينمـا يوجـدان في بغيـة الـرواد وواسطـة السلـوك.

4 في واسطـة السلـوك وزهـر البستـان: ((كتـابي)). بين/تا سقـط هـذا البيـت بالكامـل في الإحاطـة.

فَحينَئِـــذٍ وافَى إليْنـــــا بِنَفْسِـــــــهِ
فَكـــانَ لَدَيْنـــا خَيْـــرَ وَافٍ وقـــادِمِ
عَــلَى سَلْهَـــبٍ ذي صهوتيــن مطهـــم[1]
من الصافنـــات المقربـــات الصـــلادم[2]
إذا شـــاء أيّ الوَحْـــشِ أدْرَكَـــهُ بِـــهِ
فتَحْسِبُـــهُ في البيـــدِ بَعْـضَ النّعائِــــمِ[3]
يَجــوبُ لَنا البَيْـداءَ طَوْعــاً[4] وَبشْرُنَـــا
يُــضيءُ لَهُ الظَّلْمــاءَ مِنْ كُــلِّ عاتِــمِ[5]

[1] في: الإحاطـــة: ((ذي صوتيـــن مُطْعَـــم)). السَّلْهَـــبُ: الطويـــل. الصَّهْـــوة: مقعـــد الفـــارس مـــن الفـــرس. المطهـــم: تـــام الحُسْـــن.

[2] في وزهـــر البستـــان: ((مـــن النقربـــات الصافنـــات)). وفي: الإحاطـــة: ((مـــن المُغْربـــات الصّافنـــات)). وهـــذا البيـــت لـــم يـــأت في واسطـــة السلـــوك؛ أمـــا في زهـــر البستـــان، والإحاطـــة فجـــاء في غيـــر هـــذا الموضـــع. الصافنـــات: صفـــة جميلـــة لوقـــوف النبيـــل مـــن الخيـــل؛ إذ تقـــف عـــلى قوائمهـــا الثـــلاث مـــع طـــرف مـــن حافـــر الرابعـــة. المقربـــات مـــن الخيـــل: هي الـــتي تكـــون مرابطهـــا قريبـــة مـــن مكـــان إقامـــة صاحبهـــا؛ لكرامتهـــا ونبلهـــا. الصـــلادم: الصلبـــة، ذات الحوافـــر الشديـــدة.

[3] سقـــط هـــذا البيـــت في زهـــر البستـــان. وورد في واسطـــة السلـــوك مباشـــرة بعـــد البيـــت الآتي؛ الـــذي يبـــدأ بـــ: ((طـــلاب العـــلى)).

[4] في واسطـــة السلـــوك وزهـــر البستـــان: ((قصـــداً)).

[5] يـــأتي هـــذا البيـــت في واسطـــة السلـــوك وزهـــر البستـــان في ترتيـــب متقـــدم عـــن هـــذا الموضـــع ببيتيـــن؛ أي بعـــد البيـــت الـــذي يبـــدأ بـــ((فحينئـــذ وافى)).

[طِلابُ العُلَى يَسْرِي[1] مَعَ الوَحْشِ في الفَــلاَ
ويصْحَــبُ مِنْهــا كُلّ بــاغٍ وباغِــمِ][2]
ويُقْدِمـــــهُ حُبًّــا[3] إلَيْنــا رَجـــــاؤُهُ
حِمايَتُنَــا إيَّــاهُ مِــنْ كُــلِّ ظالِـــــمِ
ألاَ أيُّهَــــا الآتي لِظِــــلِّ جَنابِنــــــا[4]
نَزَلْتَ بِرَحْــبٍ في عِــراضِ المَكــارِمِ[5]
وقوبِلْــتَ مِنَّــا بالَّــذي أنْــتَ أهْلُــهُ
وفاضَ عَليكَ الجــودُ فَيْــضَ الغَمائِــمِ
كَــذا دَأْبُنــــا لِلْقاصِدِيــنَ[6] مَحَلّنَـــا
حِــمًى ونَدًى يُنْــسَى بِهِ جُــودُ حاتِــمِ
[وهَــذا جَــوابٌ عَــنْ نِظامِــكَ إنَّنــا
بَعَثْنــا بِــهِ كَاللُّــؤلُــؤِ المُتَناظِــمِ][7]

[1] في الإحاطــة: ((تســري)).
[2] لــم يــرد هــذا البيــت في بغيــة الــرواد. وورد في واسطــة السلــوك، وزهــر البستــان، والإحاطــة في ترتيــب آخــر؛ أي بعــد البيــت الــذي يبــدأ بــ: ((يجــوب لنــا)).
[3] في و. س، وزهــر البستــان، والإحاطــة: ((طوعــاً)).
[4] في: الإحاطــة: ((حنانــنــا)).
[5] نفســه: ((في عــراص المكــارم)).
[6] في الإحاطــة: ((للقادميــن)).
[7] هــذا البيــت غيــر موجــود في بغيــة الــرواد.

وَنَحْنُ ذَوُو التِّيجَانِ مِنْ آلِ هاشِمٍ[1]
لَعَمْرِكَ ما التِّيجَانُ غَيْرُ العَمَائِمِ
بِهِمَّتِنا العُلْيا سَمَوْنا إلى العُلَى
وكَمْ دونَ إدْراكِ العُلَى مِنْ مَلاحِمِ
نَظَمْنا شَتِيتَ المُلْكِ[2] بَعْدَ افْتِراقِهِ
وكَمْ باتَ نَهْباً شَمْلُهُ دَونَ ناظِمٍ[3]
شَدَدْنا لَهُ[4] أزْراً وَشِدْنا بِناءَهُ[5]،
بِأَوْثَقِ أرْكانٍ وأقْوَى دَعائِمٍ[6]
[وَرِضْنَا جِيادَ[7] المُلْكِ بَعْدَ جِماحِها
فَذَلَّتْ وقَدْ كانَتْ صِعابَ الشَّكائِمِ][8]

---

[1] جاء في واسطة السلوك، والإحاطة: ((من آل حمير)).

[2] في: زهر البستان، والإحاطة: ((المجد)).

[3] جاء هذا البيت في واسطة السلوك وزهر البستان مباشرة بعد البيت الذي يبدأ بـ: ((شددنا)).

[4] في و. س: ((بها))؛ وفي زهر البستان: ((لها)).

[5] نفسه ((بناءها)).

[6] جاء هذا البيت في غير هذا الموضع في واسطة السلوك وفي زهر البستان. كما جاء عجز البيت هكذا: ((وكم مكثت دهراً بغير دعائم)).

[7] في واسطة السلوك: ((رضنا عياد الملك)). وفي زهر البستان؛ لم تكن الكلمة واضحة؛ فاقترح حاجيات كلمة: ((جياد))؛ غير أننا نعتقد أن العبار هي: ((رضنا جماح الملك)).

[8] هذا البيت غير موجود في بغية الرواد.

مَناقِـــبُ زَيَّانِيَّــــــةٌ مُوسَوِيَّـــــــةٌ
يُـذَلُّ لَهَـا عِـزُّ المُلُـوكِ القَماقِـمِ[1]
[يقصـرُ عَـنْ إدْراكِها كُـلُّ مُبْتَـغٍ
وَيَعْجَـزُ عَنْ إحْصائِهـا كُـلُّ ناظِـمِ][2]
فَلِلَّهِ مِنَّـا الحَمْـدُ والشُّكْـرُ دائمـاً
وَصَلَّى على المُخْتَـارِ مِنْ آلِ هاشِـمِ
ويَخْتَصُّكُـمْ مِنَّـا السَّـلاَمُ الأثيـرِ مَا
تَضاحَـكَ رَوْضٌ عَنْ[3] بُكاءِ الغَمائِـمِ

وبعـد موسـم الأضـحى؛ انتبـذ[4] كافـة مريـن عـن عمـر بـن عبـد الله[5] المتملـك المغـرب؛ قائميـن بدعـوة الأميـر عبـد الحليـم، وبعثـوا رسلهـم لاستقدامـه مـن تلمسـان؛ فكسـاه مولانـا أميـر المسلميـن ـ أيـده الله ـ شـارة الملـك، وأمـر بـني مريـن الواصليـن مـن الجزائـر ببيعتـه، وقـدم محمـد السبيـع لوزارتـه، وأحسـن إليـه وإليهـم بالمـال العديـد، والكسـي المفخمـة، والمراكـب

[1] أي الملـك ذوو الخبـرة. وهـذه الكلمـة غيـر صالحـة عمومـاً.
[2] هـذا البيـت غيـر موجـود في بغيـة الـرواد؛ بينمـا هـو موجـود في واسطـة السلـوك وزهـر البستـان، والإحاطـة.
[3] في واسطـة السلـوك: ((مـن)).
[4] أي تنـحّى.
[5] وزيـر الدولـة المرينيـة المستبـد بالحكـم.

الفارهــة، والعــدد المحــلات. وركــب ـ نصــره الله ـ لوداعهــم خــارج البلــد. فانصرفــوا عــن بابــه العــلي يــوم السبــت الثــاني والعشريــن لــذي الحجــة؛ مصحوبيــن بحصــة وافــرة مــن قبيــل **عبــد الــواد** أعزهــم الله؛ أجازتهــم وادي **ملويــة** وانثنــت[1]؛ فراحــوا إلى مغربهــم. وكملــت السنــة؛ ولله در القائــل:

وعاجــوا فاثنــوا بالــذي أنــت أهلــه
ولو صمتــوا أثنــت عليــك الجنائــب

*****

[1] أي أوصلوهــم إلى مــا بعــد وادي ملويــة، ثــم عــادوا.

سنة ثلاث وستين وسبعمائة[1]

في هذه السنة المباركة؛ اجتمعت لهذه الدولة العلية أسباب الخير، وتأسست قواعد الملك، وارتفعت بجدها أعلام الظهور، وامتطيت فيها صهوات العز بتوطدة الخلافة، ودنا من أمانيها المنال، وبعد للفخر الصيت ولَمَّ القبيل شعثه، وجبر الله تعالى صدعه؛ كل ذلك بسعادة أمير المؤمنين وخليفة رب العامين **أبي حمو** ـ أيده الله ـ وفضل سياسته، ويمن آرايه، ونفوذ عزماته:

الطويل:

إمامٌ يخافُ الله سراً وجهرة
ويُضْمِرُ تقْوَى الله في الحلِّ والعقدِ
يُفَرِّقُ ما بينَ الجماجمِ والطُّلَى
ويَجمَعُ بينَ الشَّاة والأسَدِ الوَرْدِ[2]
وتَعْرِفُ أطْرافُ الرِّماحِ بَلاءَهُ
مشيحاً وأطرافُ المُطهَّمَة الجُرْدِ

---

[1] 1361م.

[2] الوَرْدُ جمعه وُرْدٌ ووِرادٌ وأوْرادٌ: الأسد. والشجاع. والجريء.

يَعُدُّ لأطراف العِدَى كُلَّ لَيِّنِ الْـ
مِهَزِّ قَويمِ المَتْنِ مُعْتَدِلِ القَدِّ
وذي شَطَبٍ كالماءِ يَجْري منالُهُ
وسابِحَةٍ شَمْطاءَ كالحَجَرِ الصَّلْدِ
فَيفْري بها قبلَ اللقاءِ مهابةً
ومنْ عَجبٍ أن يَقطَعَ السَّيفُ في الغُمْدِ
فآلَ إلى تَدبيرِهِ الأمْرِ وادعَ الْـ
عَزيمةِ من غَيرِ اعْتراضٍ ولاَ كَدِّ
وحَلَّ بِدارِ الأمْنِ والخِصْبِ يَرْتَعي
رياضَ الهُدَى والجود في مَسْرحِ المجدِ

وفي الحادي عشر من شهر ربيع الأول المبارك؛ وصل إلى بابه العلي؛ **أبو يشو بن عبد الله ابن الناصر وإدريس بن بزو** – في جمع وافر من قبيلهما بني عسكر – فارين من **المغرب**. وأظلت ليلة ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فكان الاحتفال لمدعاها المبارك عظيماً. فمما أنشد مسمعها لمولانا الخليفة أيده الله؛ قوله:[1]

[1] هذه القصيدة موجودة في بغية الرواد فقط.

الطويـــل:

مُشَـــوَّقٌ تَرَيَّــا بالغَــرامِ وشاحَــا

مَتَى ما جَــرَى ذِكْرُ الأحِبَّـــةِ صَاحَــا[1]

تُعَذِّبُـــهُ أَشْجانُـــهُ[2] وهـــوَ صابِـــرٌ

ويُبْــدي اشْتِياقــاً زَفْــرَةً ونُوَاحَــا

مُحِـــبٌ مُشَـــوَّقٌ قَيَّدَتْـــهُ يَــدُ الهَــوَى

أسيـــــرٌ لَدَيْكُــمْ لاَ يُرِيــدُ سَرَاحَــا

عَــذابي صَلاحٌ في رِضاكُــمْ فَإِنَّكُــمْ

رَأَيْتُمْ صُـــدودي في الغَــرامِ صَلاحَــا

رَمَيْتُـــمْ بِأَكْبـــادي سِهـــامَ نَواكُـــم

وَأَوْدَعْتُـــمُ قَلْـــبي أَسًى وجِراحَــا

فَتَكْتُـــمْ بِألْحـــاظٍ مـــراضٍ فَواتِـــرٍ[3]

لَقَـــدْ خِلْتُهـــا يَـــوْمَ الصُّـــدودِ رِماحَــا

تَقَطّـــع مـــا بَيـــنَ الحَشـــا وبِمُقْلَـــتي

دُمـــوعٌ جَـــرتْ فَوقَ الخُـــدودِ سِفاحَــا

رَكِبْتُ إِلَيْكُمْ مَوْكِـــبَ الشَّوْقِ رائِضـــاً[4]

كَمـــا قَـــدْ رَكِبْتُـــمْ لِلصُّـــدودِ جِماحَــا

---

[1] كتـب في نسخـة أخـرى مـن بغيـة الـرواد: ((باحـا))؛

[2] الشُّجَـنُ جمعـه شُجـونٌ: وهـو الحـزن.

[3] أي بمآخـر عينيـن ذابلتيـن لينتيـن.

[4] المهـر المـروض والمذلـل.

مَزَحْتُمْ بِهَجْرِي يَومَ جَدَّتْ بِيَ النَّــوَى[1]
فَعــادَ النَّــوَى جِــدًّا وَكــانَ مِزاحَــا
وَسُلَّــتْ سُيــوفُ البَيْنِ[2] بَيْنِي وبَيْنِكــمْ
فَلَمْ يُغْــنِ عَــنِّي ما اتَّخَــذْتُ سِلاحَــا
أهيــمُ بِمَغْناكُــمْ وأنْــدُبُ رَبْعَكُــمْ
ويَشْتاقُكــمْ قَلْــبي مَســاءَ صَبَاحَــا
أكافِــحُ دَهْــرِي بالتَّجَلُّــدِ فيكُــــمُ
وأفْــنِي زَمــانِي بالغَــرامِ كِفاحَــــا
فَلا تُنْكِــروا مِنِّي التَّنَهُّــدَ في الهَــوَى
فَــلَمْ يَــرَ أهْــلُ الحُــبِّ فيــهِ جُناحًــا
لِكُــلِّ مُحِــبٍّ في التَّــأَوُّهِ راحَــــةٌ
إذا أنَّ مِــنْ فَــرْطِ الغَــرامِ وناحَــا
فَكَمْ زَفْــرَةَ في القَلْبِ أحْرَقَــتِ الحَشَــا
كَنــارٍ تُــلاقِي في الهُبــوبِ رِياحَــا
أبَحْتُمْ صُدودي في الغَــرامِ ولم تَــرَوا
وِصــالِيَ في شَــرْعِ الغَــرامِ مُباحَــا
وحَرَّمْتُ وَجْــدِي لاَ سَلَــوْتُ هَواكُــمُ
ولاَ رُمْــتُ عَنْــهُ ما حَيِيــتُ بَراحَــا

[1] النــوى: البعــد.
[2] البيــن: الفرقــة.

أجــودُ بِنَفْــسي في رِضاكُــمْ صبابَــةً[1]
فَهَــلاَّ مَنَنْتُــمْ بِالوِصــالِ سَماحَـــا
يَخُطُّ كِتَــابَ الشَّوْقِ دَمْــعي بِوَجْنَــتي
ويَــرْوِي أحاديــثَ الغَــرامِ صِحاحَــا
جُفُــوني بِماءِ الدَّمْعِ جادَتْ وأضْلُــعي
بِنَــارِ غَــرامي لَــمْ يَزَلْــنَ شِحاحَــا
وكَمْ قدْ شَجَــاني بَــارِقٌ مِنْ جَنابِكُــمْ
يُذَكِّــرُ دَهْــراً بالأحِبَّــةِ راحَـــا
ألاَ لَيْــتَ شِعْــرِي هَلْ أزورُ بِطَيْبَــةٍ
رُبوعَــاً بِهــا حَــلَّ الهُــدَى وبِطاحَــا
أُسَكِّــنُ أشْــواقي بِقُــرْبِ لِقائِهِــمْ
وأُنْشِــدُ قَلْبــاً بِالأبيطــح[2] طاحَــا
لَعُمْري لَقَدْ قَضَيْتُ عُمْرِي في الصِّبَــا
وأجْرَيْــتُ خَيْــلَ اللَّهْــوِ فيهِ مِراحَــا
ووَلَّى شَبَــابي في التَّصــابي وَلاَحَ لي .
مَشيــبٌ بِهِ عــادَ المَســاءُ صَبَاحَــا[3]

[1] صُبابــة: بقيــة. يقــال: ((لــم أدرك مــن العيــش إلا صُبابــة)).

[2] لعلــه تصغيــر لاســم موضــع بيــن مكــة ومِــنىً يســمى الأبطــح. كمــا يوجــد موضــع قديــم بــوادي حنيفــة؛ قــرب الريــاض الحاليــة يســمى الأبيطــح.

[3] أي بــه أصبــح الشعــر أســوداً بعــد البيــاض.

فَيــا حادِيــاً يَحْــدو الرّكــابَ لِطَيْبَــةٍ
يَجــوبُ بِهــا بَحْــرَ الفَــلاَةِ طِلاَحَــا[1]
إذا جِئْــتَ نَجْــداً أوْ نَشقْــتَ نَسيمَهــا
وشمــت عَــراراً رَبْــوَة وبِطاحَــا[2]
فَصَرِّحْ بذكــري في الخيــام وأهلهــا
ونَاشِدْهُــمُ شــوقي هنــاك صراحــا
وبَلِّــغْ إلى خَيْــرِ الأنــامِ تَحِيَّــتي
كَمــا نَمَّ زَهْــرٌ في الرِّيــاضِ وفاحَــا
نَــبِيٌّ لَــهُ فَضْــلٌ على كُــلِّ مُرْسَــلٍ
أتَتْ ألْسُــنٌ الذِّكْــرَى بِــذاكَ فِصاحَــا
سَــرَى فَسَمَــا بالقُــرْبِ مِنْ رَبِّــهِ إلى
مَقــامٍ رَأى الأمْــلاكَ عَنْــهُ نِزاحَــا
وَشُــقَّ لَهُ البَــدْرُ المُنيــرُ وقدْ غَــدَوْا
لَــهُ لاَ إلَى البَــدْرِ المُنيــرِ طِماحَــا
إذا ظَــمِئَ الأقْــوامُ يَوْمــاً سَقاهُــمُ
بِمــاءٍ مَعيــنٍ بِالأنامِــلِ ساحَــا

---

[1] طلاحــا: متعبــة مــن السفــر.

[2] العَــرارُ: نبــت لــه رائحــة طيبــة. ومعــنى هــذا الشطــر هــو: وشممــت رائحــة العــرار في بطــاح نجــد ورباهــا. وفي نبــت العــرار يقــول أحــد الشعــراء:

((تَمَتَّــعْ مــن شَميــمِ عَــرارِ نَجْــدٍ فمــا بَعْــدَ العَشِيَّــةِ مِــنْ عَــرارِ))

بِمَوْلِـدِهِ صُبْـحُ الهِدايَـةِ قَـدْ بَـدَا
فَـزالَ بِـهِ لَيْـلُ الضَّـلالِ وزاحَـا
وأشْرَقَـتْ آفـاقٌ بِالنُّـورِ عِنْدَمَـا
بَـدَا وَجْـهُ خَيْـرِ المُرْسَلِيـنَ ولاَحَـا
ألاَ يـا رَسـولَ الله دَعْـوَةَ شَيِّـقٍ
يُؤَمِّـلُ آمـالاً لَدَيْـكَ فساحَـا
مُقِيـمٌ بِغَـرْبٍ كـادَ مِنْ فَـرْطِ حُبِّـهِ
يَطيـرُ اشْتِياقـاً لَـوْ أعيـرَ جَناحَـا
وَما لي سِـوَى حُـبِّي إلَيْـكَ وَسيلَـةٌ
أمُـدُّ بِهـا نَحْـوَ الشَّفاعَـةِ راحَـا
عُبَيْـدُكَ[1] موسَى مِنْكَ يَرْجـو شَفاعَـةً
يَنـالُ بِهـا يَـوْمَ الحِسـابِ نَجاحَـا
عَلَيْـكَ سَلامٌ طَيِّـبُ النَّشْـرِ عاطِـرٌ
يَـروحُ وَيَغْـدو بُكْـرَةً وَرَواحَـا

وللطبيـب الأعـرف أبي عبـد الله محمـد التلالسـي موشحـة سَلِسَـة وهي:

سخي أيا مُقلتي وأنْهَـلي * بدَمْعكِ الواكِفِ المنْهَـلِ

[1] عبيـدك: تصغيـر لكلمـة عبـد؛ بغـرض التواضـع والخضـوع للـه.

عَلَى شَبَــابي الــذي قــدْ وَلَّى
آهٍ لَقــدْ بــانَ واضْمَحَــلاَّ
فَهلْ لِقَلْبي الشَّــجِيِّ أنْ يُسَــلَّى
ما في الذي نالَني ما يُسْئلُ * فَقْدُ الشَّبابِ وفَقْـدُ الأهْــلِ
بــانَ الحَبيــبُ ووافَى الشَّيْــب
فَكَيْــفَ يَسْلــو بِهــذا القَلْــب
تُــرَى لِمــا قَــدْ دَهــاني طِــب
ما لي وَحَقِّ الهَوَى مِنْ مِثْلِ * لاَ في انْتِحابي ولاَ في شَكْلِ
تَرْكي لِذِكْــرِ الصِّبــا أوْلَى لي
ومَدْحُ موسَى الــرِّضى أسْما لي
مِنْ خُــصَّ بالفَضْلِ والأفْضــالِ
شَهْمٌ جَــوادٌ كَثيرُ البَــذْلِ * بِهِ اعْتِصامُ الوَرَى في المَحْلِ
بِــهِ تِلِمْســانُ ذاتُ الحُسْــنِ
فيمــا اشْتَهَتْ مِنْ مُنَى وَأمَــنِ
بَغْــدادُ شَوْقــاً لَهــا تُغَــنِّي
أجْزَتْ لَنا مِنْ دِيارِ الخِــلِّ * رِيحُ الصَّبا عافِراتُ النَّيْــلِ
يــا أيُّهــا المَلِــكُ المَنْصــورُ
يــا مَنْ لَــهُ الأمْــرُ والتَّأميــرُ
بِنَصْرِكُــمْ قَدْ جَــرَى المَقْــدورُ
في مَدْحِكُمْ يا زَكِيَّ الأصْلِ * يَدي تَخُــطُّ وقَلْبي يُمْــلي

وفي سادس عشر هذا الشهر؛ وصل إلى باب الخليفة **الشيخ أبو يعقوب ونزمار بن عريف، ومحمد ابن النوار**؛ رسولين من قبل الدائل **بالمغرب ــ محمد ابن أبي عبد الرحمن ابن السلطان أبي الحسن** ووزيره المتغلب عليه **عمر بن عبد الله بن علي اليابانى** ــ خاطبين صلح أمير المسلمين أيده الله؛ فأجيبت رغبتهما على شروط منها: سراح **بني عبد الواد** المثقفين **بالمغرب**؛ من كائنة **أنجاد**؛ وانصرفا لثمانية أيام من وصولهما. وفي أواخر جمادى الأخرى؛ قدم أيضاً على الباب الكريم **عمر بن مسعود التيريعي**، والقاضي **أبو القاسم بن يحيى البرجي**؛ رسولين من **المغرب**؛ باقتراح أمير المسلمين ــ أيده الله ــ في قبيله؛ فتم عقد الصلح منه ــ نصره الله ــ وانصرف المذكوران؛ بما سألاه أيضاً؛ وتوجه معهما الفقيه العالم **أبو عبد الله محمد ابن أحمد الشريف، ووادفل ابن الوزير أبي محمد عبد الله بن مسلم**؛ لاقتضاء الشروط في آخر ذلك الشهر. وفي عاشر رجب ــ بعده ــ وصل **بنو عبد الواد** المثقفون **بالمغرب** إلى باب مولاهم؛ الذي أولاهم من الفضل ما أولاهم في زهاء أربعمائة؛ قد أخذت يد

السياسة بحجزهم عن مهاوي الهلاك، وأنقدتهم[1] كف الهيبة من أشْراك[2] الارتباك. وكان يوماً للفخار مشهوداً، وأثار في فذالك[3] حسبانات المعالي معدوداً، وسمطاً نظم بعد الإياس والداً منهم ومولوداً:

البسيط:

ما أقدر الله أن يدني على شحط[4]
من داره الحَزْن ممن داره صول[5]

وبعدهم بخمسة أيام؛ وصل الرسولان المذكوران بانعقاد الصلح؛ على أكمل الشروط، واقتضاء نقدها بثقاف **محمد ابن السلطان المرحوم أبي سعيد**؛ عم أمير المسلمين ــ أيده الله ــ ديناً رضي له. فهنالك انجبر صدع القبيل، والتأم شعبه، واشتد ــ في عضد الخلافة ــ ساعده. فاعتز الملك، وعلت مطامحه، وتهللت أسارير الدولة، وعلت ــ في أوج

---

[1] من الأفضل: وأنقذتهم.

[2] أشراك: حبائل الصيد.

[3] يقصد فَذْلَكَة: وهو خلاصة ومجمل ما فصل من حساب وغيره.

[4] أي على بعد.

[5] الحَزْنُ: الأرض المرتفعة الغليظة. ويقصد بصول: الكلس المخلوط بالماء.

الكمال – كلمتها، وحصر النصر من أغصان الدوائل؛ فتساقط رطب الفتح حيناً، وقرع الحزم أبواب الظهور؛ فقال التأييد الرباني: ((**ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ**))[1]. وحذق السعد – من نحو الزمان – باب أعرابه؛ فرفع أيام الدولة بالابتداء، وخفض عيش لياليها بالإضافة.

وكان الأمير **إبراهيم ابن السلطان الحفصي** – ملك **تونس** يومئذ ومرافق أمير المسلمين أيده الله إلى **جريد** بلاده أيام حركة سلطان **المغرب** إلى **إفريقية** كما مر – قد اهتبل الغرة في **بجاية**؛ فأخذها من يد **مرين**؛ مستجناً لها بالخليفة أيده الله، واستوطنها مستذرياً كِنّ[2] أذمته المرعية لدى أمير المسلمين أيده الله، متوخياً مراضيه؛ فأفاءته ظلالها سعادته، ومدت عليه طنبها دولته؛ فنام بها البطان؛ لا يهاج صيد حزمه، ولا يخضد شجره؛ إلى أن صارت **الجزائر** لأمير المسلمين أيده الله؛ وفَرَّ فُلُّ **مغراوة**؛ الذين كانوا بها إليه؛ فآواهم؛ غير مراع عهداً، ولا حافظاً لذمام؛ فأعذر إليه الخليفة – مولانا

---

[1] الآية: 46 من سورة الحجر.

[2] تذرّى بالشيء: استتر به. يقولون: ((تذرّى من برد الشمال بصخرة)). والكِنّ: هو البيت أو السقيفة.

أبو حمو نصره الله ـ في شأنهم؛ فتصامم هواه سمعاً، وأساء عذره إجابة؛ فأمر مولانا أمير المسلمين ـ أيده الله ـ قواده الشرقية بتحيف وطنه[1].

ففي أوائل جمادى الأولى؛ أخذ **عمر بن موسى المطهري**[2] بلد **تدلس**[3] من يده عنوة؛ فأضافها الملك إلى محصوله.

وفي الحادي والعشرين من رجب؛ نهض الوزير **أبو محمد عبد الله ابن مسلم** رحمه الله مشرقاً؛ إلى وطن المذكور ـ بجنود لا تحصى، وعزائم تسابق المدى ـ فاستضاف لإيالة الخليفة نصره الله وطني: **حمزة وبني حسن**[4]، وجاس خلال

---

[1] تحيف الشيء: اقتطاعه وإنقاصه بأخذه من أطرافه.

[2] أحد القادة في جيش أبي حمو موسى الثاني؛ وينتمي لبطن من بطون بني القاسم؛ وهم إخوة بني عبد الواد.

[3] تسمى بعدة أسماء منها: دلّس، تدلس، أوتدلس. أسسها في بداية الأمر الفينيقيون؛ حيث اتخذوها كمحطة ساحلية تجارية. ثم طور مرافقها الرومان؛ وسموها روسوكورو (Rusuccuru) . وتقع في الشريط الساحلي ما بين الجزائر وبجاية. كان لها في عهد الحماديين أثر وذكر. ويقول فيها الوزان عن سكانها: ((وهؤلاء السكان ذوو بشاشة ومرح؛ يحسنون تقريباً كلهم العزف على العود والقيثار... ويرتدون لباساً حسناً)). وصف إفريقيا، ج: 2، ص: 42.

[4] وطن حمزة: هي البويرة الحالية. سميت بذلك نسبة إلى حمزة بن الحسن ابن سليمان بن سليمان بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. ذكره ابن حزم فقال أنه: ((ملك هاز في أرض=

الوادي الكبير[1]؛ ثم عرج ذات اليسار آخذاً على ثنية تاغزوت، وبيطار؛ فاستضاف أيضا زواوة[2]، وما إليها؛ وقبض على شيع الموحدين، ثم أخذ في تمهيد الأرجاء، وتوطيد الأحكام، وتأمين السبل. وفي أوائل شعبان[3] توفي ـ بمدينة الجزائر ـ والد الخليفة نصره الله المولى أبو يعقوب ـ رضوان الله عليه ـ أعكف ما كان على عبادة، وأزهد ما رئي في

=المغرب؛ وملك قطيعا من صنهاجة؛ وإليه ينسب سوق حمزة؛ وولده بها كثيرٌ. وكذلك أيضا ولد إخوته في تلك الجهة)). جمهرة أنساب العرب، ص: 55. ويقول البكري عن مدينة حمزة: ((مدينة تسمى حمزة؛ نزلها وبناها حمزة بن الحسن بن سليمان بن الحسين بن علي ابن أبي طالب. والحسن بن سليمان هو الذي دخل المغرب؛ وكان له من البنين حمزة هذا، وعبد الله وإبراهيم وأحمد ومحمد والقاسم؛ وكلهم أعقب وعقبهم هناك)). المغرب. ص ص: 64 ـ 65. أما وطن بني الحسن فهو متاخم لوطن حمزة؛ ومركز إمارتهم هي مدينة هاز التي كانت متواجدة بالقرب من المسيلة.. وبنو حسن هم أولاد الحسن بن سليمان المذكور.

[1] الوادي الكبير: هو وادي الصومام حالياً.

[2] ثنية تاغزوت: تقع في ولاية البويرة حالياً. وعن بيطار؛ فقد تعذر علينا معرفتها. أما زواوة: فهي قبيلة أمازيغية كبيرة؛ جعلها ابن خلدون ـ مرة ـ من بين القبائل البترية، بينما نسبها ـ مرة أخرى ـ إلى القبائل البرنسية. أنظر العبر، مج: 6، ص ص: 262 ـ 264. 308 ـ 309. وتقع مواطنها غرب وادي الصومام؛ ضمن الجبال الشامخة التي تعرف الآن ببلاد القبائل.

[3] 763هـ/1361م.

زخرف الدنيا؛ ولقي الله مالئ الصحف من الحسنات، راجح الميزان بالعبادات؛ نضر الله وجهه؛ فحملت جنازته إلى الحضرة الكريمة، واحتفل الإمام أعلاه الله للقائها آخر الشهر المذكور، ومشى فيها راجلاً؛ ودفنه برياض كانت بباب إيلان[1]؛ استدناء لقبره منه؛ ثم نقل ـ إلى جواره ـ أخويه السلطانين: **أبي سعيد** و**أبي ثابت** رحمهما الله؛ من مدفنهما **بالعباد**[2].

وشرع ـ نصره الله لحينه ـ في بناء مدرسة، وزاوية على قبورهم، وتعين الأوقاف والجرايات بها؛ من العقار المنوع حاضراً وبادياً؛ حسبما هي الآن. ووصل من **المغرب** ـ بالعزاء فيه ـ **موسى بن سيد الناس الونجاسني**؛ فشكر الخليفة نصره الله قصدهم؛ وصرف إليهم رسولهم بخير. وفي رثاء المولى **أبي يعقوب** رحمه الله يقول ولده مولانا أمير المسلمين أيده الله قصيدة هي:[3]

---

[1] يقع باب إيلان في وسط مدينة تلمسان؛ الأمر الذي جعل بعضهم يرى فيه مجرد باب لأحد أحياء المدينة. والواضح أن هذا الباب ما زال موجوداً؛ غير أن المستعمرين الفرنسيين حرفوا الاسم إلى بابليون.

[2] العباد: أحد أحياء تلمسان الآن. وكان قديماً عبارة عن قرية بها قبر الولي الصوفي سيدي أبي مدين شعيب بن الحسين.

[3] وردت هذه القصيدة في بغية الرواد فقط.

الكامـــل:

دَنــفٌ[1] تَذَكَّــرَ حَسْــرَةَ التَّوْديـــعِ
وَهَــنِيٌّ وَصْــلِ بالنَّــوَى مَقْطــوعِ
ولِمَــا عَــرَاَ[2] من فَقْــدِ خَيْرِ أحِبَّــتي
ومَــرارَةِ التَّوْديـــــعِ والتَّشْييـــــعِ
فَبَكَيْــتُ من أسَــفٍ لِــذاكَ كَما بَكَــتْ
حُزْنــاً عَلَيْــهِ مَنــازِلي ورُبُــوعي
وَجَزِعْــتُ من أَلَمِ الفَــراقِ ولَمْ أكُــنْ
يَــوْمَ الكَريهَــةِ في الــوَغَى بِجَــزوعِ
لَــمْ تَنْصِــفِ الأيَّــامُ حَــرَّ فَراقِــهِ
لَكِنَّـــهُ قَـــدْ أنْصَفَتْـــهُ دُمــــوعي
عَجَبــاً لأجْفــاني سَخَــتْ بِدُموعِهــا
والقَلْــبُ مُحْتَــرِقٌ بِنــارِ ضُلُــوعي
هَــذي تَجــودُ وَذا يَشُــحُّ بِنــارِهِ
فَعَنيــتُ بالمَمْنُـــــوحِ والمَمْنُـــــوعِ
والبَيْــنُ فــوَّقَ سَهْمَــهُ ورَمَى بِــهِ
عَمْــداً إلى قَلْــبِ الشَّــجي المَوْجــوعِ
آهٍ لِوَصْــلِ قَطَّعَتْــهُ يَــدُ النَّــوَى
ولِحَسْــرَةِ المَوْصــولِ والمَقْطــوعِ

---

[1] دنِــفٌ: المصــاب بمــرض ثقيــل.

[2] عــرا: اي ألــمَّ وأصــاب.

الدَّهْــرُ أفْجَعَــني وَغيَّــرَ باطِــني
حَــتَّى أضَـــرَّ بِقَلْــبِيَ المَفْجــوعِ
فعدمْــتُ سلْــواني وبــانَ تَصَبُّــري
وفقَــدْتُ خِــلاَّني فَــزادَ نُـــزوعي
ولَكَــمْ خَشيــتُ الفَقْــدَ قَبْــلَ وُقوعِــهِ
ولَكَــمْ حَــذَرْتُ مَــرارَةَ التَّوْديــعِ
يا مُسْعِدي أبصَــرْتَ ما فَعَــلَ النَّــوَى
بِكَريــمِ قَــوْمٍ في التُّــرابِ صَريــعِ
في طَيِّ لَحْــدٍ بالثَّـــرَى فَكَأَنَّــهُ
مــا كــانَ في عِــزٍّ وفي تَرْفيــعِ
والقَصْــرُ أمْــسَى ماحِــلاً منْ بَعْــدِهِ[1]
ومَنــازِلٌ تَــزْهَى بِكُــلِّ صَنيـــعِ
ونَمــارِقٌ مَصْفوفَــةٌ قَــدْ زُيِّنَـــتْ
مِــنْ دُرِّهــا المَنْظــومِ بالتَّرْصيــعِ
ومَقاصِيــرٌ لَــمْ يُبْــنَ قَــطٌّ مِثالُهــا
مِــنْ قَبْــلِ لِلْمَأمــونِ والمَخْلــوعِ[2]

---

[1] أمْــسَى ماحِــلاً: أي أمــسى أجْدَبــاً

[2] المأمــون: هــو الخليفــة العبــاسي المأمــون بــن هــارون الرشيــد. والمقصــود بــ: المخلــوع: هــو الأميــن بــن الرشيــد الــذي خلعــه أخــوه المأمــون عــن ســدة الخلافــة.

والأسـدُ تَخْضَـعُ والمُلـوكُ تَهابُـهُ
فَلَكَـمْ لـهُ مِـن سامِـعٍ ومُطيـعِ
ولَكَـمْ تَزاحَفَـتِ الْكَتائِـبُ خَلْفَـهُ
فَيَـروعُ بَأسـاً وَهـوَ غَيْـرُ مَـروعِ
ولَكَـمْ عَساكِـرَ قادَهـا يَومَ الـوَغَى
مِـنْ كُـلِّ صِنْديـدٍ بِكُـلِّ نجُـوعِ
مِنْ خَيـرِ قَـومٍ مِنْ أجَـلِّ عَشيـرَةٍ
وأعَـزِّ مُنْتَسِـبٍ إلَيْـهِ رَفيـعِ
سِبْـطُ الحُسَيْـنِ ابْنِ البَتـولِ وَجَـدُّهُ
خَيْـرُ الأنـامِ أجَـلُّ كُـلِّ شَفيـعِ
مَـنْ كـانَ هَـذا أصلُـهُ أوْ فَصلُـه
فَلَـهُ العُـلَى في مَنْـزِلِ التَّرْفيـعِ
قَدْ حـازَ أشْتـاتَ المَحاسِـنِ كُلِّهـا
فَاعْجَـبْ لِحُسْـنِ ثَنائـهِ المَجْمـوعِ
جُـودٌ ومَجْـدٌ والشَّجاعَـةُ والنَّـدَى
والجُـودُ في طَبْـعٍ لَـهُ مَطْبـوعِ
فَبِكَفِّـهِ بَـأسٌ وفيـهِ رَحْمَـةٌ
قِسْمـانِ بَيْـنَ مُعانِـدٍ ومُطيـعِ
عَـدْلٌ إذا يَقْـضي وَغَيْـثٌ إنْ يَجِـدْ
وحُسامُـهُ نـارٌ لِكُـلِّ قَريـعِ

قَـــدْ كَـــانَ كَهفـــاً لِلأنـــامِ وعـــــدَّةً
وجِـمًى لِمَــنْ يرْجُــوه جِــدٌ مَنيــعِ
حَــتَّى دَنَــا منـــهُ الحِمــامُ فَصابَــه
سَهْــمُ الــرَّدَى وانْبَــتْ كُــلّ جميــعِ
تَــركَ الجميــعَ وصَــارَ عنْ أحبابِــهِ
لمْ يُغْــنِ ما قَــدْ ضَــمَّ من مَجمــوعِ
لَــوْ كَــانَ يُعْــرَضُ لِلفِــداءِ فَديتُـــهُ
بالـــدُّرِّ ثُــمّ بِعَسْجَـــــدٍ مَطْبـــــوعِ
وبِمـــا مَلَكْــتُ وناظِــري وحَشاشَــتي
وبِمُهْجَـتي وبِقَلْـبيَ المَصْــــدوعِ
قَدْ كَــانَ مِنـــهُ لَنـــا أبـــاً ذا رأفَـــةٍ
كُنَّـــا لَـــهُ في البِّـــرِّ جِــدّ مُطيــعِ
حتى رَمَىَ الدَّهْــرُ المُشَــتِّ بسَهْمِــه[1]
في شَمْلِنـــا المَنْظـــومِ والمَجْمـــوعِ
فاحْـــذِرْ زَمانَـــكَ لا يَغُـــرّكَ أنَّـــهُ
في شَهْــدِهِ يَــأتي بِكُــلِّ فَظيــــعِ
وكَذلِــكَ الدُّنْيــا فَــلاَ تَأمَــنْ لَهــا
فَلَكَــمْ تَغُــرُّ بِوَصْلِهــا المَقْطــوعِ

[1] المشــتي بسهمــه: المفــرق بسهمــه. يقــال: ((أشــتَّ بي قــومي)): أي فرقــوا أمــري.

ولَكَـمْ غَـدا في أسْرِهـا مـن ماجِـد
ولَكَم لَهـا من ضَيْغَـمٍ مَصْـروعِ
أيْـنَ المُلـوك وأيْـنَ ما قـدْ جَمَعـوا
مـن كُـلِّ ذُخْـرٍ في الحَيـاةِ رَفيـعِ
سـاروا فلمْ تَسْمَـع لهمْ خَبـراً ولـمْ
تَـرَ منهـمُ أثَـراً يَلـوحُ بِريـعِ
وأبادَهُـمْ صَـرْفُ الزَّمـانِ وخَلَّفـوا
مـا جَمَعـوا مـنْ جنَّـةٍ وَزُروعِ
لمْ يَبْـقَ مِنْهـا غَيـر فِعـلٍ صالِـحٍ
يَمـلاَ الصَّحيفَـةَ أوْ ثَنَـا مَسْمـوعِ[1]
أو حُـبٌّ خَيْـرِ المُرسليـنَ مُحمـدٍ
شَـرَفِ البَرِيَّـةِ دُرَّةِ التَّرْصيـعِ
صَـلَّى عَلَيْـه الله مـا لاَحَ الضِّيَـا[2]
أوْ حَطَّـتِ الرُّكْبـانُ بِاليَنْبـوعِ
ثـم السَّـلام عليـهِ مـنْ مُستَعْصِـمٍ
بِحِمـاه خَيْـر حِـمًى بِخَيـر شَفيـعِ
موسَى بن يوسُـف مُرتَجيـهِ في غَـدٍ
لِلفَـوْزِ منْ هَـوْلٍ هُنـاكَ فَظيـعِ

[1] يمـلا وثنـا: بـدون همـزة للضـرورة.
[2] الضيـا: بـدون همـزة للضـرورة.

وفي ذلك يقول محمد بن يوسف القيسي الأندلسي قصيدة هي:

الكامل:

المرء في الدنيا رهين خطوب
والدهر أفصح من خطاب خطيبِ
من صاحَبَ الدنيا الدنية لم تزل
تأتيه بالمكروه في المحبوبِ
ومؤمل الأيام ليس بحاصل
إلاّ على أمل بها مكذوبِ
دنيايَ مثل الحلم في التجريب
ولغاية مجهولة تجري بي
يا نفسي خلي الصبر وادرعي الأسى
وإذا دعيت فبالوجيب أجيبي
نادي بنادي المجد صرخة نادب
أسفاً على المولى أبي يعقوب
فعليه يا نفسي الكئيبة فاندبي
وعليه يا كبدي القريحة ذوبي
أسفاً لمن فاق الملوك جلالة
وديانة وبكل فضل حوبي

جمع الفضائل باختلاف ضروبها
فغدا بها فرداً بغير ضريب
أعظم به من زاهد ومجاهد
ومنيل رفد تارة ومنيب
من دأبه الدين المتين ولم يزل
من كل فضل آخذاً بنصيب
من كان جيش الموت يخدم سيفه
أودى بجيش للمنون عصيب
أودى فلم نملك له من حيلة
أعيى دواءُ الموت كل طبيب
وأصيب من كان الزمان مطيعه
أبداً بسهم للزمان مصيب
هوت النجوم الزهرات لفقده
وذوى من الأزهار كل رطيب
وتغيرت شمس النهار له أسى
وتبدلت من نورها بشحوب
وبكت سيوف الهند في أغمادها
بدم بماء فرندها مخضوب
ولقد بكته جياده بصهيلها
وغدت تحن له حنين النيب

وبكــت محاربــه لــه وحروبــه

مــن بعــده لمحــارب وحــروب

وعلــت على وجــه الزمــان كآبــة

والبشــر بــدل منــه بالتقطيــب

جفــت ينابيــع النــدى مــن بعــده

والجــود أجــدب منــه كل خصيــب

مــن للوفــود إذا أوت لجنابــه

يلقاهــمُ بالبشــــر والترحيـــب

أو مَــن يجيــر المستجيــر بظلــه

ويجيــب صوت الصــارخ المكــروب

مــا زال يغلــب كل خطــب غالــب

حــتى أتى مــا ليــس بالمغلــوب

رزءٌ رمى بيــن الضلــوع شواظــه

فأثــار كــل أسى وكــل نحيــب

وتفطــرت كمــداً عليــه قلوبنــا

فأنظــر لأشبــاح بغيــر قلــوب

وإذا مصــاب جــل قــل لمثلــه

شــق القلــوب فكيــف شــق جيــوب

والحــزن وصــف قائــم بالقلــب لا

بالثــوب يصبــغ كالــدجى الغربيــب

ولــرب مكتئــب قليــل دمعــه
وكثيــر دمــع وهــو غيــر كئيــب
والحــال من ذي الحــال قد تنبي على
ما في الجوانــح من جــوى مشبــوب
قــد يستــدل بشاهــد عــن غائــــب
وبظاهــر عــن باطــن محجـــوب
يا نازحــاً رامــوا اقتــرب محلــه
فغــدا عــلى التقريــب غيــر قريــب
إني لأعجــبُ مــن دنــو لــم يفــد
إلا نزوحــاً زاد في تعذيـــب
حملــوه من شــرق لغــرب فاغتــدى
كطلــوع شمــس بــادرت لغــروب
حفــت ملائكــة السمــاء بنعشــه
والخلــق حــول سريــره المنصــوب
ومشــوا عــلى أقدامهــم قدامــه
يدعــون بالترغيــب والترهيــب
لو أمكــن الخلــق الفــدا بنفوسهــم
لفــدوه طــراً مــن لقــاء شعــوب
فتعزيــا مــولاي عنــه فإنــه
قــد فــاز مــن مــولاه بالمرغــوب

ومضى لرحمة ربه مستبشراً
بثوابه والله خير مثيب
واختار دار الخلد من دار الفنا
بدلاً كذلك فعل كل لبيب
ولقد أطاب النفس إن وفاته
في العز تحت رواقه المضروب
ومضى وخلف منك خير خليفة
للخلق مرغوب الندى مرهوب
ما مات من أضحى لمثلك منجباً
يا خير نجل في الملوك نجيب
وجب الرضى لكم ببركم له
إذ لم تخلّ لبره بوجوب
فأسلم أمير المسلمين مؤيداً
تجري من العليا على أسلوب
وبقيت يا مولاي منصور اللوى
في ظل ملك في الزمان رحيب
وعلى علاك تحية كالروض من
عبد مطيل للثناء مطيب

وفيه يقول الطبيب أبو عبد الله محمد التلاسي كلمة هي:

الكامـــل:

كـــأس الحِمـــام عـــلى الأنـــام تـــدور
مـــا ان لهـــا إلاّ القضـــاء مديـــرُ
وكـــذا الليـــالي لا وفـــاء لعهدهـــا
إنْ أقسطـــت يومـــاً فســـوف تجـــورُ
كم شتّـــتْ من جمـــع شمـــل لم يكـــن
يخـــشى الشتـــات وكل ذا مشهـــور
إن أضحكـــت في يومها أبكـــت غـــداً
فالخيـــر منهـــا إنْ أتـــاك غـــرورُ
فجعـــت بمولانـــا الأميـــر وخلّفـــتْ
في الدمـــع آمـــاق الجفـــون تغـــور
كنـــا نؤمـــل أن تـــدوم حياتـــه
لكنـــه ثـــوب الحيـــاة قصيـــر
رزءٌ ألَـــمَّ فمـــا لـــه مـــن دافـــع
أيُـــرَدُّ رزءٌ ساقـــه المقـــدورُ
مولاي يوســـف والـــد الخلفـــا الـــذي
منعـــاه خطـــب في الوجـــود كبيـــر
ضـجّت لمصرعـــه الخلائـــق ضجـــة
كـــادت بهـــا منـــا القلـــوب تطيـــر

كـــادت تـــزول الراسيـــات لفقـــده
والشمـــس تكســـف والسمـــاء تمـــور
قبـــل الممـــات نظمـــت فيـــه مدائحـــاً
يقـــف الحُطيئـــة دونهـــا وجَريـــرُ
والآن أرثيـــــه وأبكيـــــه بمـــا
يبـــدو وللخَنْســـــاء فيـــه قصـــور
يـــا حامليـــه قفـــوا علينـــا وقفـــة
تُشـــفَى بهـــا قبـــل الممـــات صـــدور
ردوا الـــذي حـــاز المكـــارم والعُـــلَى
بحـــر النـــدى يـــحي بـــه المعمـــور
بكـــت الأرامـــل واليتـــامى بعـــده
إذ مـــا لـــه بيـــن الكـــرام نظيـــر
لقدومـــه جنـــات عـــدن زُخْرِفَـــتْ
وتَشوَّفـــتْ ولدانهـــــا والحـــــور
مـــولاي يا مـــوسى الـــذي بسعـــوده
قهـــر الطغـــاة وجيشـــه موفـــــور
أصبـــر إذا جـــاء الزمـــان بحـــادث
إن التصبـــر سعيـــه مشكـــور
هـــون عليـــك أذى الخطـــوب فإنمـــا
أنـــت الأميـــر ودهـــرك المأمـــور

لا تأخُـذِ الزَّمَـنَ المـسيء بفعلــه
وأصفــح فإنــك بالأمــور خبيـــر
إن كان صــرف الدهــر فيــه مذنبــاً
فبقــاء مثلــك بعــده تكفيـــر
من أنــت تخلفــه فَــحَيٌّ لــم يمــتْ
حقــاً بقينــاً أيُّهــا النَّحْريـــرُ
وفَيْــتَ حَــقَّ أبيــك بعــد وفاتــه
إن القيــام بحقــه لبـــرور
يــا أيهــا الملــك الــذي أيامــه
قــد أقبلــت ولـــواؤه منصــورُ
هنّــاكَ رب العــرش مــا خولتــه
في المغربَيْــنِ الأمــر والتأميــر
مــا للزمــان فضيلــة إلاّ بكـــم
إن الزمــان إليكــمُ لفقيـــر
وبقيــت لا تفــنَى ولا تخــشَى رَدَى
وجميعنــا ببقائكـــم مســـرور
أبقــاك رب العــرش فينــا دائمــاً
تَحْــمي البــلاد وسعــدك الموفـــور
ثــم الســلام عليــك يــا من ذِكْــره
بيــن الملــوك معظــم مشهــور

ووقفت على ضريحه الكريم؛ فاعتبرت، واستعبرت؛ ثم حوقلت ثلاثاً[1]؛ و أنشدت قوله:

الطويل:

أيا جدثا فيه العُلَى والمكارم
أتبكيك أمْ تسقيك هذي الغمائمُ
لئن بردت ذاك الثرى نفحة التقى
لقد لفحت بين القلوب السمائمُ
وإن أصبحت تلك الصفائح روضة
فأعيننا سُحْبٌ عليها سواجم
لقد صار شخص الحلم والجود رمة
وأبقَى حبال الدين وهي رمائم
وردد فيه نوحة كل ناطق
كان جميع العالمين حمائم
تباشرتِ الحورُ الحسان بقربه
ففيهنّ أعراس وفينا مآتم
فصلى عليه الله خير صلاته
وكان له منه مثيب وراحم

[1] الحوقلة: هي أن تقول: ((لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)).

وفي أثناء هذا – مع غيبة الوزير أبي محمد عبد الله بن مسلم – فر محمد ابن عم مولانا أمير المسلمين؛ نجل السلطان المرحوم أبي سعيد من محل اعتقاله؛ بالذي ذكرناه آنفاً بالمغرب، ولجأ إلى الأمير عبد الحليم؛ صنيعة أمير المسلمين أيده الله بسجلماسة؛ فتقفه المذكور أيضاً؛ أرضاءً فيه الخليفة نصره الله؛ ففر ثانية، وأوى إلى خالد بن عامر بن إبراهيم؛ وكان يومئذ منحرفاً عن طاعة مولانا أمير المسلمين؛ لإيثاره أخاه شعيباً؛ بشياخة قبيله دونه؛ فآواه، ونصره؛ واعتمد به الحضرة العلية؛ من جانبها القبلي؛ مغتنماً غيبة الوزير بالجيش المظفر عنها. فصدر الأمر الكريم باستقدام الوزير، وعاجل المغرورون القدوم؛ فلما حلو بيني ورنيد؛ أنهض الخليفة – نصره الله – لحربهم ولده المولى الأمير الأعلى أبا تاشفين – أسعده الله – والشيخ عمران بن موسى؛ بجيش الحضرة؛ في الرابع عشر لشوال؛ فهزم الله المخالفين، ومنح أولياء الإمام – خلد الله ملكه أكتافهم؛ فأصحروا مشرقين دون تلوم. ورجع المولى الأمير إلى دار الملك؛ يوم عشرين من الشهر بالظفر والعلاء.

وبعد ذلك – بيومين – وصل الوزير أبو **محمد عبد الله بن مسلم**؛ بجميع العساكر المظفرة؛ فلم تثبت **لخالد بن عامر** وصاحبه قدم، ولا عطفت عليهما – من القبيل – رحم؛ بل رماهما القطر وأهله؛ عن قوس واحدة. وأرسل مولانا أمير المسلمين – أيده الله – الشيخين: **عثمان بن موسى؛ من بني أطاع الله، ووادفل بن عبو بن حمادن**، وصاحب أشغاله الفقيه **أبا زيد عبد الرحمن بن مخلوف الشامي**؛ بالمال العديد إلى العرب العامرية؛ فاستألفوا جميعاً؛ دون **خالد** المذكور؛ فخرج – هو وصاحبه – من القبيل؛ وشرقا إلى **رياح** برأسيهما؛ فأسلم **خالد** صاحبه المذكور إلى **يعقوب بن علي بن أحمد**، وأوصله إلى الأمير **إبراهيم الموحد ببجاية**؛ وقفل **خالد** إلى وطنه وقبيله.

وفي هذه السنة[1]؛ وصل إلى الباب العلي؛ الفقيه الكاتب **إبراهيم بن الحاج**[2]؛ رسولاً من

---

[1] جاء في كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة أن سفارة ابن الحاج حدثت في سنة 768هـ. وليس كما وضعها يحيى بن خلدون في سنة 763هـ.

[2] هو إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم بن أسد النميري؛ عرف بلقب ابن الحاج. ولد بغرناطة سنة 713هـ/1313م. ولي كتابة الإنشاء في الدولة النصرية. من مؤلفاته ((فيض العباب، وإجالة قداح الآداب، في الحركة إلى

الأندلس؛ يطلب من أمير المسلمين ــ أيده الله ــ إرفاد المسلمين **بالأندلس**، وإعانتهم على مجاورة عدو الله ورسوله؛ حسبما جرت عادته بذلك؛ فوجه معه إليهم: **خمسين ألف قدح من الزرع، وثلاثة الآف دينار من ذهب**؛[1] للكراء عليه في البحر. وكان ممن وصل معه الفقيه **أبو محمد عبد العزيز بن علي بن يشت**؛[2] فرفع لولانا أمير المسلمين ــ أيده الله ــ قصيدتين غراوين؛ وهما قوله:

البسيط:

عرجْ على الدارِ من سلمَى نُحَيِّيها

واستوقِفِ العيسَ في أطلال ناديها

قسنطينة والزّاب)). أنظر ترجمته في الإحاطة في أخبار غرناطة، ج: 1. ص ص: 342 ــ 363.

[1] قدرها ابن الخطيب في الإحاطة بـ: ((المال الذي ينيف عن سبعة آلاف من العَيْن)). ج: 1، ص: 363.

[2] هو من أهل غرناطة. يلقب بأبي سلطان. وورد اسمه في الإحاطة وفي نفح الطيب هكذا: عبد العزيز بن علي بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد ابن عبد العزيز بن يست (بالسين)؛ ولكن؛ يتفق المقري مع يحيى بن خلدون على اسم (يشت) (بالشين). أنظر ج: 3 ، ص ص: 572 ــ 574، من الإحاطة، ونفح الطيب، ج: 6، ص ص: 113 ــ 118.

وناد يا دارها بالجزع من كثب
حييت من دمنة رافت مغانيها
يا دارها والهوى يدني تألفنا
ويافع العمر يدنيني ويدنيها
إذ قد تباعد هجراً من يقاربها
ولا تداني بوصل من يدانيها
كم بتُ من شغف مضنى ومن أسف
أبدي الصبابة أحياناً وأخفيها
أسامر البدر من شوقي لرؤيتها
فالبدر في الأفق تحكيه ويحكيها
واسئل الريح من تلقاء تلعتها
إذا حدى من ربى البطحاء حاديها
فكم طرقت حمى سلمى بذي سلم
ولذة الحب تصبيني وتصبيها
وخضت هول السرى من همه قذف
يقودني نحو سلمى فرط حبيها
إذ الشباب رداء والصبا أنف
وحاكم الوصل لا يصغى لواشيها
وجنة الأنس قد حفّت بزخرفها
وأكؤس الوصل قد دارت بما فيها

وربَ داجيـةٍ درعـاءَ دامسـةٍ
ولجـتُ مـن شغـفي أثنـا دياجهـا
وما سميـري فيهـا غيـرُ منصلـتٍ
كصـرحِ بلقيـسَ تمثيـلاً وتشبيهـا
وأجـردٍ سابـحٍ من نسـلِ أعـوجَ لا
يشكو الـوجى حين تشكوه مذاكيهـا
يعـارضُ البـرقَ إذ يعـدو براكبـه
ويسبـقُ الريـحَ إذ تعـدو عواديهـا
وإذ تقـولُ رعـاكَ اللهُ كيـفَ بنـا
إذا تنبهـتِ الجرعـا بمـن فيهـا
وبادرتـكَ حمـاةُ الـحي مـن كثـبٍ
وجمعـتْ لـكَ دانيهـا وقاصيهـا
فاسـرتي الأزدُ أسدٌ في الوغى صبـرٌ
عنـد الهيـاجِ إذا ما اهتـاجَ داعيهـا
فقلـتُ حسبـكِ لسنـا مـن تروّعـه
كمـاةُ قومـكِ أو من قـد يضاهيهـا
ولستُ أحجـمُ إن ثـارَ العجـاجُ ولا
يـزالُ بـأسي لنـارِ الحربِ يذكيهـا
فـذو الهوى لا تروعُ الحربُ حوزتـه
وإن داهتْـه مـن الهيجـا دواهيهـا

فاسمــر الخــط قد تخــطي مواقعــه
وأسمــر اللحــظ منهــا حيــن لاقيهــا
فيــا ليــال مضــت عنــا ببهجتهــا
هل عطفــة منك في المحيــا نرجيهــا
لا عيــش يعدل عندي عيش ذي سلــم
ولا مــودة سلــمى الدهــر أسلوهــا
فكم طويت السرى طيّ السجــل وكــم
منيــت نفــسي منى راقــت أمانيهــا
وقد نظمت ضروب الشعــر ممتدحــاً
نظــم الفرائــد تجلــو الخــط قاريهــا
وكــم عملــت على أعمــال يعملــتي
وعزمــة لي أبديهــا وأخفيهــا
إلى مقــام أمــام واحــد علــم
كالشمــس عــزاً وترفيعــاً وتشبيهــا
إلى جــواد إذا مــا مــد أنملــة
حــكى الغمــام إذا جــادت عزاليهــا
فــلا فضيلــة ألا وهــو مالكهــا
ولا رعيــة ألا وهــو راعيهــا
ولا مآثــر ألا وهــو لابسهــا
ولا مفاخــر ألا هــو يحويهــا

ولا مجـادة ألا وهـو موجدهـــا
ولا مكـــارم ألا وهـــو بانيهـــا
فمن كموسى أبي حمـو بن يوسف أم
من قـد يجاريـه في العليـاء يبغيهـا
ومـن كمـوسى إذا تتـلى مناقبـه
قد حـاز مجـداً على الأيـام تاليهـا
لم يرض بالدون من دنياه مذ سطعـت
آيـات سـؤدده تتـلى معاليهـــا
كـم خلـة إن رآهـا ظـل يسترهـا
ومنـة في الـورى مـا زال يسديهـا
ونعمـة في الدنـا قـد راح ينشرهـا
وزلـة عن عيـون الخلـق يطويهـا
سمـت به عن حضيـض الذل همتـه
لمـا غـدا لرسـوم الملـك يحيهـا
لـم تلهـه لـذة مـن دون مطلبـه
ولا تنعـم بالدنيـا ومـا فيهـا
حـتى تسنـم في الأمـلاك منزلـة
وحـل مـن رتـب العليـا أعاليهـا
وشـاد ملـك بـني زيـان ثانيـة
وردهـا دولـة غـرا لأهليهـا

أتى بهـــا دولـــة قـــل النظيـــر لهـــا
كأنمـــا لـــم تدلْهـــا كــفّ شانيهـــا
فكـــم شكـــت وصبـــا مما ألَـــمَّ بهـــا
حـــتى شفاهـــا من التبريـــج شافيهـــا
جرى فـــأدرك ما قد شـــاء من وطـــر
جَرْيَ الجياد جرت في شـــاو بحريهـــا
فـــإن تكن حلبـــة الأقـــدام قد سبقـــت
فهـــا هـــو اليـــوم سبـــاق مجليهـــا
فلـــم يلـــد مثـــل مـــوسى أو كوالـــده
يرى العواقـــب للحســـنى مساعيهـــا
هـــم الألى جـــددوا آثـــار دولتهـــم
واستنقذوهـــا ولكـــن مـــن أعاديهـــا
يَا بْنَ الملـــوك الألى جلـــت مآثرهـــم
لـــك الأمـــارة تعليهـــــا وتسميهـــا
ظهرت بالـــزّابِ والزابيّ قد صدعـــت
بأمـــره الكتـــب تصريحـــاً وتنبيهـــا
فَصُلْ على الدهر يَا بْنَ الأكرمين فقـــد
حويـــت مملكـــة جلّـــت معانيهـــا
مـــولاي حبكـــم قـــد حـــل في خلـــدي
فأنـــت للنفـــس مـــن أســـنى أمانيهـــا

إن غاب وجهك عن عيني مشاهدة
فالذكر للنفس يحيها ويبقيها
أو عاقني الدهر عن تقبل كفكم
ولم أزل لاقتناء المجد أبغيها
فقد بعثت كتابي كي يقبلها
يهديه من نفحات الشوق هاديها
فها كها بنت فكري قد بعث بها
وليس إلا إلى علياك أهديها
أصحبتها محض ودي عند وجهتها
فالحب يجنبها والشوق يزجيها
فقلت للنفس كفي عن معاتبتي
فقد حويت الدنيا طراً بما فيها
أليس مولاي ذو الإحسان وجهني
حتى بلغت مُنَى مازلت تبغيها
وظلت أنشر شعري في بساطكم
فالنفس قد بلغت أسنَى تمنّيها
ونلت غاية ما أملت من وطر
فَظلْتُ أسحب ذيلي في الذّرا تيها
ومن يصل بأبي حمو حبائله
جادت دناه وكفت من تجنيها

فَلْيَغْـضُ مولاي عن تقصير مادحـه
فالنفـس رهـن صبابـات تقاسيهـا
والقلـب مشتعـل والفكـر مشتغـل
لأجـل أندلـس ضاقـت مناحيهـا
جئنـاك والفتنـة العمياءُ تخبـط في
أرجائهـا وعـدو الله راجيهـا
ضاقـت مسالكهـا ممـا ألَـمَّ بهـا
فالديـن من حـزن قد ظـل يبكيهـا
ما بين بحر خضم واعتـداء عـدى
وفتنـة أعضلـت سحقـاً لبانيهـا
وقـد تطـاول أعنـاق العـداة لهـا
يبغونهـا لأذى تبـاً لباغيهـا
تبـكي لها أعين الإسـلام حين تـرى
ما حـل بالديـن فيهـا من أعاديهـا
هل ناصـر يرتـجى بعد الإلـه لهـا
أم عاضـد لرسـوم الديـن يحيهـا
هل مشفـق راحـم يـرثي لغربتهـا
أم هل مجيـر من الأعـداء يحميهـا
هل منقـذ من أكف الكفـر حوزتهـا
أم كاشـف ضرهـا المؤذي بأهليهـا

أم هل معين على من سامها ضرراً
فقد جنى الحرب فيها كف جانيها
واهاً لغربتها بين البقاع فمن
لجبر صدعتها إن راح يجريها
تلك الرزية إن سدت مسالكها
وصادف الغرض المقصود راميها
إن كنت قصرت في مدحي فعذريَ قد
شرحته لك تفصيلاً وتمويها
أقبل عليها وقابلها بفضلكم
فقد حوت بك تشريفاً وتنويها
لا زلت في أفق العلياء مرتقياً
تمضي الأوامر في الدنيا وتجريها

وقوله:

الخفيف:

عج بتلك الربُى وتلك المغاني
وأسأل الركب أين تلك الغواني
ألنَجْدٍ تَرحّلوا أم لسلع
أو أناخوا رحالهم بعمانِ
فلعل الديار تُنْبِئُ عنهم
أين حلّوا بظبي تلك المغاني

فلقــد أقفــرت خيــام لسلــمى
ونــأى الــحي بعدمــا كــان داني
ونــأى بــدر حسنهــا عــن جفــوني
لهــف نفــسي لريــب هــذا الزمــان
كنــت أرجو الزمــان يجمــع شمــلي
وأهــاب النــوى وهجــر الحسـان
وأخــاف الفــراق منهــا كمــا قــد
خافتهــا منــه نخلتــا حلــوان
فــإذا الدهــر قــد سَقَــانيَّ كاســاً
مــن تنــائي أحبــتي قــد سقــاني
كيــف لي بالسلــو عــن حــب رود
صيرتــني في ربقــة الحــب عــاني
وبرتــني بأسهــم مــن لحــاظ
تركتــني صريــع مــا قــد بــراني
لو عرفنــا اللحــاظ تملــك فتكــاً
لثنينــا أعنــة اللحظــان
ويــحَ مــن بالجفــون يشكــو هيامــاً
قــد عــراه من النــوى مــا عــراني
فسهــام اللحــاظ يا عمــر أمــضى
مــن سهــام القــسي يــوم الرهــان

فصريـع الغـواني أودى صريعـاً
ونجـا في الهيـاج زيـد الطعـان
لا تـزدني مـع الغـرام عتابـاً
خلِّـني فالعتـاب مـا قـد شجـاني
لـك في النـاس راحـة فاطرحـني
يـا عـذولي فلسـت تعـرف شـاني
بعـد بعـد الحبيب أرجوا سـروراً
ونـواه قـد جـنّ منـه جنـاني
أضحـك العاذليـن بعـدك عـني
ولقـد سـر للوشـاة هـواني
بلـغ الحاسـدون مـا أملـوه
ورثى الشامتـون ممـا دهـاني
لهـف نفـسي على زمـان تـولى
طيـب ذكـراه في فـمي ولسـاني
كنت أسطـو على النـوى باقتـرابي
وأبـاهي بساميـات الأمـاني
فتـودّ الشعـرى العبـور دنـوي
ويـودّ السـهى رفيـع مكـاني
ومصـلى الوصـال يقصـر عـني
ومجلّيـه عـن لحـافي وإن

وريــاض الوصـــال غــض جناهــا

ونسيــم الــــرضى بهــا متــــوان

فـــإذا الدهـــر قـــد عـــدا بنـــواه

وسطـــا بي ولـــج في عصيـــاني

هـــدّ ركـــن الوصـــال منـــه بصـــدّ

بعـــد مـــا كـــان للتوصـــل بـــان

ليـــس عتـــب عـــلى تقلـــب دهـــر

قـــد عرفنـــا انقـــلاب هـــذا الزمـــان

فاتـــرك اللهـــو قد مضى فيـــه دهـــر

فالهـــوى بالمشيـــب عيـــن الهـــوان

واصـــرف النفـــس نحو مـــدح إمـــام

أوحـــد في الذكـــاء والإحســـان

ماجـــد يمـــلأ البسيطـــة عـــدلاً

وجـــواد بـــه تنـــال الأمـــاني

عـــم إحسانـــه البرايـــا فأحيـــا

يمـــن يمنـــاه كـــل قـــاص ودان

يتلـــقى العفـــاة منـــه بجـــدوى

دونهـــا البحـــر وانسكـــاب العنـــان

يصـــل المنـــح والعطـــاء ببشْـــرٍ

يهتـــدي مـــن سنائـــه القمـــران

فأياديـــه في الـــورى ليـــس تحـــصى

أوَ تحـــصى الأنفـــاس بالحسبـــان

بيـــت ملـــك قـــد أسستـــه كـــرام

وبنتـــه عـــلى رضى الرحمـــــان

مـــن يضـــاهي لآل زيـــان يومـــاً

وهُـــمُ الصـــدر والملـــوك ثـــوان

يـــا سنـــاء الملـــوك حبـــك فـــرض

واجـــب في الـــورى على الأعيـــان

يا إمـــام القريـــض والحـــرب والجـــو

دِ والحـــــجى والرهـــــان

قـــد دعـــاني إلى امتداحـــك حـــبّي

غيـــر أني مقصـّـــر في البيـــان

فامـــرؤ القيـــس لـــو أتـــاك بمـــدح

كـــان عن دركـ بعـــض عليـــاك وان

فـــارض بالـــوزن والـــروي ودَعْـــني

لا تؤاخـــذ بضعـــف هـــذي المعـــاني

فَلَوآنْ قد ظهـــرت في عصـــر وحي

لـــوصفتـــم في محكـــم القـــرآن

إن تأخـــرت في الزمـــان فرشـــد

قـــد تجـــلى لأهـــل هـــذا الزمـــان

من يطـــل مجـده البريــة طـــــراً
كيــف تحـصى أوصافــه باللســـــان
غيــر أن البشيــر وافى بقــــــرب
منـــك فارتـــاح خاطــري وجنـــاني
وأتى بالوصـــال رائـــد بشـــــرى
فخررنـــا شكـــراً عـــلى الأذقـــــان
واصطحبنـــا من الســـرور عقـــاراً
تعقــر الهــمّ لا عقـــار الدنـــــان
فهنيئـــــاً لِيَ اللقـــــاءُ هنيئــــــاً
قـــد بلغنـــا بـــه المـــنى والأمـــاني
فمحيـــاك مـــذ تـــراءى لعيـــني
لـــم أخـــف من مصـــارف الحدثـــان
واهنـــإ السلـــم يـــا إمـــام البرايـــا
وســـراج الـــــورى وقطـــب الأوان
فملـــوك الزمـــــان جاءتـــك طوعـــاً
تبتـــغي السلـــم جُنَّحـــاً للأمـــــــــان
رغبـــوا منـــك في الأمـــان فأنعـــمـــ
ـــت عليهـــم في الســـر والإعـــلان
وتصدقـــــت منعمـــــاً بأمـــــان
فلـــك السبـــق واعتـــلاء المكـــان

ولـك الأمـر فَاقْـضِ مَا أنْتَ قَـاضٍ
وتحكـم في الملـك والسلطـان

فلـك الفضـل مـذ أجبـت نداهـم
وتبعتـم وصيـة الرحمـان

فَتَحَكَّمْ علـى الملـوك فكـلٌّ
قـد أتاكـم بالعفـو والأذعـان

يـا مـلاذ الـورى وكهـف البرايـا
وعمـاد الدنـا وفخـر الزمـان

أبتـغي مـن نـداك طرفـاً كريمـاً
ليـس يعـزى إلى الخيـول الهجـان

فخديـم المقـام قد ضـاق ذرعـاً
بامتطـاء النعـال ذات الحـران

فأرحـني مـن امتطـاء نعـال
واجبـر العبـد موليـاً بحصـان

كيـف أبقى أمشي على الأرض هونـاً
أشتـكي بـرح شـدة الدميـان

أو أرى في الـورى ومربـع عـزي
مجـدب أو أخـاف داء الهـوان

وإمـام الملـوك مـوسى المعـلى
غيـر نـاء ولا عطـاه بـوان

من يرد حــوض جوده كيف يخــشى

في دنـــاه اعوجـــاج هـــذا الزمــــان

حـــاش للـــه أن أرى ومحــــلي

منـــك فـــاض ومطلـــبي غيـــر دان

فـــودادي يقـــضي بأنـــك ركـــني

ومــــلاذي وعاضـــدي وأمـــــاني

فابـــق يـــا أوحـــد الملـــوك رفيعـــاً

في العـــلى مـــا تصاحـــب الفرقـــدان

فأحســـن إليـــه الخليفـــة ــ أيـــده الله ــ بحصـــان مـــن عتـــاق الخيـــل أشهـــب، وثلاثيـــن مـــن الذهـــب العيـــن، وكســـوة حسنـــة.

*****

سنة أربع و ستين و سبعمائة[1]

أطلت هذه السنة المباركة؛ ويد الخلافة الكريمة عالية، ودولة إقبالها دائلة، وسرب القطر وأهله آمن، وجسد الوطن من داء الفتن معافى، ونور السعادة بآفاقه واضح. وجاءت ليلة مولد خير الأنام صلى الله عليه وسلم؛ فكان الاحتفال ببيتتها، وإقامة رسوم عرسها مربي الجمال عن مثله في سواها.

قال المؤلف: ـ عفا الله عنه ـ كنت ممن ضمني السلطان **أبو سالم ابن السلطان أبي الحسن**؛ في زمرة الأمير **أبي عبد الله محمد بن الأمير أبي زكرياء ابن السلطان أبي يحي الموحد**؛ عند صرفه إياه من **تلمسان إلى بجايته**؛ معيناً بحجابته؛ لسابقة آبائي في خدمة سلفه؛ واعتاص عليه فتحها؛ لمكان عمه الأمير **أبي إسحاق** فيها؛ فأوى إلى **رياح؛ عرب** قطرها؛ مستنصراً بهم؛ واضطرني الوفاء لملازمته؛ فحصرتها معه مرات ثلاث؛ واستغلق علينا أمرها، وطال علينا الأمد، وأعيت الحيل، وعيل الاصطبار،

---

[1] **1362م.**

ولم يبق في سوى استصراخ أمير المسلمين هذا ـ أيده الله ـ أمل؛ فأرسلني مخدومي ـ الأمير **عبد الله** ـ نحوه في صفر هذه السنة؛ فمضيت مجتازاً بطول بلاده أول قدماتي عليه؛ فرأيت أمر الله من وطن أفيح، وقطر مزمل في بجاد أسيح، ومساكن مكثبة الأسفار، وسبل آمنة، ذمم العافية بها من الاخفار، وعدل مرسل الأعنة، وأحكام ماضية الأسنة، ومصر ما شككت يوم دخوله بالجنة؛ ما شئت من جنات وعيون، ونعيم عطاؤه فيه غير ممنون، وحدائق غلب، وفاكهة وأب، وأنهار تجري بذوب اللجين غير الآسن، ومتعدد من الكمالات والمحاسن، ثم قصور زاهرات، وأنوار من الدين والدنيا باهرات، وآيات من السياسات والحكم ظاهرات؛ فالعلم يقذف بحره بالدر، والملك تباي آفاق أسرته بالكواكب الغر؛ والإسلام بذراه متهلل الجبين، والخلافة تبجبح من هاشميته في قرارها المكين؛ وفتح الباب، ورفع دوني الأمن والإجلال والمهابة الحجاب؛ فلم أرتب في كسرى المدائن والإيوان، أو طور الحجى محتفاً بنور الإيمان، أو شمس الضحى حلت من بروج سمائها منزلة الشرف، أو صديق تبوأ من الخلد أرفع الغرف؛ فأنشدته:

المنسـرح:

يا بـدر تـم بـالأوج قـد ظهـرا
فضـاء بالخافقيـن واشتهـرًا
ويـا مليكـاً لـه العـلى خلـق
فـفي العـلى ما نـهى وما أمـرًا
ويـا إمامـاً لـه الـورى خـول
يعتـق إن شـاء أو يشـا حصـرًا
ما الفخـر ألاّ الـذي أوتيـت بـه
بأسـاً وحلمـاً ونائـلاً خمـرًا
لـولاك لـم تلـف كفؤهـا أبـداً
خلافـة المصطـفى بغيـر مـرا
بواتهـا مـن قريـش رتبتهـا
وكم غـدت في سواهـم عصـرا
فليـس للعالميـن مـن ملـك
يـرجى ويخـشى سـواك مقتـدرا
وإن عرا الخطـب أو نبـا زمـن
بالنـاس كنـت الثمـال والـوزرا
ومرسـلي أولـع الزمـان بـه
فانشـب النـاب فيـه والظفـرا
ولـم يجـد ناصـراً سـواك وقـد
أرسـل يـحي إليـك وانتظـرا

وكنـــت خجـــلاً مـــن قرفـــة مرســـلي في السلطـــان أبي ثابـــت ــ عـــم أميـــر المسلميـــن ــ متوقعـــاً رد مسألـــتي؛ فمـــا شاهـــدت ــ والله ــ عينـــاي، ولا سمعـــت ــ في خبـــر ــ أذنـــاي؛ كمثـــل حيائـــه ــ أيـــده الله ــ وإغضائـــه، وبشـــره، وإرضائـــه. وحضـــرت ليلـــة هـــذا الميـــلاد المبـــارك؛ فكـــان ممـــا أنشـــد مسمعهـــا؛ مـــن نظـــم الخليفـــة أيـــده الله؛ قولـــه: الكامـــل:[1]

ذرفـــت لتذكار العقيـــق دمـــوعي
وازداد شـــوقي للحـــمى وولـــوعي
والحـــب شـــب أواره بضلـــوعي
من لي بشمـــل بالحـــمى مجمـــوعِ[2]
وبجبر قلب بالنوى مصدوع[3]

*****

هَبَّ النَّسيمُ مِنَ ارْضِ نَجْدٍ شَاقَنِي
والبـــرق أرقـــني سنـــاه وراقـــني[4]

---

[1] وردت هـــذه القصيـــدة في بغيـــة الـــرواد، وفي واسطـــة السلـــوك؛ مخطـــوط المكتبـــة الوطنيـــة الجزائريـــة.

[2] في: و . س (مخ): ((بالهـــوى مجمـــوع)).

[3] نفســـه: ((وبجبـــر قلـــبي بالهـــوى مصـــدوع)).

[4] هـــذا البيـــت في: و. س. (مخ): غيـــر سليـــم؛ وجـــاء هكـــذا: ((والحـــب أرقـــلي سنـــاه وأراقـــني)).

والذنب عن وصل الأحبة عاقــني

وجرت دموعي كالعقيــق وخانــني

صبري وكان الشوق أصل خضوعي[1]

*****

حــبي شفيع للحبيب إنَ اعْرَضَــا

والحــب باب للشفاعــة والرضــا

لكنــني ضيعــت فيما قد مــضى

رمت المسير فلم يساعــدني القضــا[2]

ولكم نشرت إلى الرحيل قلوعي

*****

قضيت عمري في لعل وفي عسى

والعبد يرغب في الصباح وفي المســا

في زورة تمحو له مــا قــد أســا[3]

والقلــب منفطــر يــذوب له أسى

والدمع منحدر كما الينبــوع[4]

*****

[1] في: و. س. (مخ): ((بــاب خضــوعي)).

[2] نفســه: ((فلــم يوفاقــني القضــا)).

[3] هــذا الشطــر سقــط تمامــاً مــن مخطوط واسطــة السلــوك.

[4] في: و. س. (مخ) ((والدمــع منسكــب كمــاء ينبــوع)).

شـــأن المحب على زيـــادة حبـــه

عـــزم المسيـــر إلى زيـــارة حبـــه

لو كان ساعدني الزمـــان بقربـــه

لحططت رحلي في مقـــدس تربـــه

وهجرت خلاني له وربوعي

*****

أخطأت مرباي وغيري ما خطـــا

وتبعت غـــيي في الذنوب وفي الخطا

والشيـــب وافى والشباب تفرطـــا

يا سعد ساعـــدني على زمن سطـــا[1]

هل للزمان مساعـــد برجـــوع

*****

أسقي[2] الثرى من مدمعي لما همى

والقلب هـــام ونار شـــوقي ضرّمـــا[3]

شوقا لمحبوبي منـــامي قد حـــمى

ولقد شغفت بحب من سكن الحـــمى

وحُرِمت لذاتي به[4] وهجوعي

---

[1] نفســه: ((زمـــان سطـــا)). وهـــذا يخـــل بالـــوزن.

[2] نفســه: ((سُـــقِي)).

[3] نفســه: ((أضرمـــا)).

[4] نفســه: ((معـــاً)).

*****

قد زاد شـــوقي للعقيــق وللصفــا

ولروضة الهادي النبي[1] المصطــفى

يا أهــل ودي أنتــم أهــل الوفــا

وأنا المحـــب لكــم وقد برح الخفــا

وإليكم دون الأنام رجـــوعي

صبٌ سبى[2] قلبي ودمعي قد جرى

وهجرت سلواني ولــذات الكــرى

وبحالتي من شـــوق نجد ما ترى

شوقا[3] لمن ركب البراق وقد ســرى

لمقــام عزٍ[4] في السماء رفيــع

*****

يا ليلـــة الاثنيــن نورك قد سمـــا

وانجابت الظلماء[5] عن أفــق السمـــا

وانهــدّ إيــوان لكســرى عندمــا

خلــق النــبي الهاشــمي معظمــا[6]

---

[1] نفســه: ((الشفيــع)).

[2] نفســه: ((صبــا)).

[3] نفســه: ((وجــدي)).

[4] نفســه: ((بمقــام عقــلي)).

[5] نفســه: ((الظلمــات)).

[6] نفســه: ((ولــد النــبي الهاشــمي الأكرمــا)).

في ليلة غرا بشهــر ربيـــع

*****

والبدر شق بغيــر إفــك[1] يفتــرى

لمحمد المختــار من خير الــورى

والجذع حن إليه من غير امتِــرا

والمـــاء نَبْعــاً من أناملـــه جــرى

من غير ممنون ولا ممنـــوع

*****

سعد الزمان[2] بخير من وطئ الثرى

في ليلـــة الاثنيـــن لاح وأقمـــرا

يا حاديا يطوي الفلا بيد الســـرى

رفقـــا علي فمـــا أطيـــق تبصـــرا

عمن تحكــم حبه بضلــوعي

*****

بهـــدى رسول الله أمتـــه اهتـــدت

بظهوره الأصنام خـــرت وارتـــدت

وبنـــوره نيـــران فارس أخمـــدت

ودلائـــــل[3] بانـــت وآيـــات بـــدت

---

[1] نفســـه: ((شـــك)).

[2] نفســه: ((الأنـــام)).

[3] نفســـه: ((وعجائـــب)).

وشفاعة[1] جاءت لكل مطيـــع[2]

*****

يا رب كـــم لي بالذنــوب أنوســـا

ولكم أطـــلت مع العصـــاة جلوســـا

وسقيـــت من فقد الحبيب كؤوســـا

يا رب يرجو منك عبـــدك مـــوسى

عفـــوا يبلغ منـــزل الترفيـــع[3]

*****

أدعـــوك دعـــوة مستهـــام وَالِـــهِ

أوليتـــني الإحســـان منـــك فوالـــه[4]

واسمـــح لعبدك عن قبيح فعالـــه

فوسيلـــتي حـــب النـــبي وآلـــه

خير البرية وهو خير شفيـــع

*****

[1] نفســـه: ((وبشـــارة)).

[2] ورد هـــذا المقطـــع بأجزائـــه الخمســـة في: و. س. في غيـــر هـــذا المكـــان؛ بـــل قبـــل المقطـــع الـــذي يبـــدأ بـــ: ((والبـــدر شـــق بغيـــر...)).

[3] هـــذا الشطـــر مختـــل في: و. س.

[4] هـــذاالشطـــر مضطـــرب في: و. س.

ولمحمد بن يوسف القيسي الأندلسي تخميس أيضاً وهو قوله:

المتدارك:

يا ليلة الاثنين افتخر * بالبدر الطالع من مضر * في ليلة يوم اثني عشر

من شهر ربيع المشتهر * بالمولد فهو به علم

*****

كالشمس سناه وكالقمر * وبدت كالزهر وكالزهر * أنوار هدى خير البشر

ونبي الرحمة والبشر * فجميع الخلق به رُحِمُوا

*****

يا شهر بك افتخر الدهر * يا شهر جمالك مشتهر * يا شهر كمالك منتشر

يا شهر قدومك يا شهر * تحيى بمواسمه النسم

*****

يا شهر ربع فيك بدا * ومن الأنوار قد انفردا * والخير بمولده أطردا

وأتى للخلق بكل هدى * فبطلعته سعد الأمم

*****

صبح الإرشاد به انصدعا * وبأمر الله لقد صدعا * والخلق لنجح الحق دعا

وأزال بسنته البدعا * فبسنته الخلق اعتصموا

*****

ظهرت بنبوته العبر * شهدت برسالته الشجر * والذيب وكلمه الحجر

وانشقّ بدعوته القمر * وانجاب بغرته الظلم

*****

والجذع شكا وله ولَة* لفراق رسول الله له* لما بالمنبـــر بدَّلَـــه

فلذلك أنَّ وحَنَّ له* شوقـــاً وألَـــمَّ بـــه الألـــم

*****

ومعاد بتفلته لصقـــا* يده بالمرفق إذ فرقا* وقتادة رد له الحدقـــا

وسقى الأحياء حيا غدقا* عمت للقوم به النعم

*****

بهرت أنوار شرائعه* ولكم ظهرت بمنازعه* مـــن معجـــزة لمنازعـــه

والماء خلال أصابعه* أضحى ينهل وينسجم

*****

قام القرآن بحجته* وإمام دليل محجته* وتسامى الصدق بلهجتـــه

وتناهى الحسن ببهجته* فالعقل يهيم ولا يهم

*****

معلي الإسلام ومعلمه* بهداه تشيد معلَمه* ومبيد الكفر ومعدمـــه

بظباه أريق له دمه* فوجود الشرك به عدم

*****

زين الإرسال وخاتمهم*وشفيع الخلق وراحمهم* هو منجيهم هو عاصمهم

في يوم تبين جرائمهم* وتزل بهم فيه القدم

*****

ورسول الله كما وردا* يروي بالكوثر من وردا* لا يضمـــأ وأراده أبـــدا

ولواء الحمد له عُقِـــدَا* وشفاعته ترجو الأمم

*****

يا رب انفع بمحبته* مشتاقا اسنى رغبته* تقبيل مقــدس تربتــه

وقبول منــك لتوبته* عما يجنيه ويجترم

*****

وأنصــر من قام بموسمه* يبدي الأفراح بمقدمه* ويفيض عوائـد أنعمه

ملك أمسى بتكرُمِه* للأجر يحوز ويغتنم

*****

ملك قد عم تفضله* وملوك الأرض تؤمّله* برســول الله توسلــه

وعلى مولاه توكله* وحلاه العفة والكرم

*****

ملك يتخيل كالملك* كالشمس تحل ذرَى الفَلك* كالبدر يــضئ بمحتلــك

كالليث يصول بمعترك* تلقاه الأسد فتنهــزم

*****

بدر العلياء إذا انتسبا* أسد الهيجاء إذا ركبا* يعــطي الآلاف إذا وهبــا

ويخاف الله إذا غضبا* لا هجر لديه ولا برم

*****

ملك قد لاحت أسعده* يحميه الله ويعضده* هو ينصره ويؤيــده

وعلى الأملاك علت يده* وبعز علاه جرى القلم

*****

أمعزّ الدين وناصره* ومعيد الملك وجابره* لا زلت تشيّد عامره

أبداً وتجدد غامره* ما أنهل بكفك منسجم

*****

من عاند فضلك أو جحدا* فالسيف يقرب ما بَعُدَا* ويقيم لأمرك من قعدا

فأمدد للواء الملك يدا* من مواهبهـا الديـم

*****

فالنصر أمامك والظفر* والسعد يساعده القدر* وعودك واه محتقر

بشراك فإنك منتصر* بالله عليك ومعتصـم

*****

والدهر ببأسك ينتصف* والبحر بجودك يتصف* ماذا أثنيه وما أصـف

أغمام بنانك إذ يكف* أم نور سناك أم الهمم

*****

فبمثل علائك يفتخر* ونفيس ثنائك يدخر* وبعصـرك تفتخـر العصـر

فلقد حسنت لكمُ سيَرُ* ولقد كرمت لكم شيَمُ

*****

من رأى مرآك من البشر* دلته حلاك على البشر* كالنور يدل على القمر

ضربت بظباك يد القدر* تفني الأعداء وتحتكم

*****

سيف السلطان أبي حمو* يبدو لعداه به نجم* فيه لشياطينهم رجم

لازال بسطوته يسمو* يعفو ويعفّ وينتقم

*****

فتلمسانٌ بك في خدل* مذ لاذت منك بخير ولِ* وأعدت لها أسنى الدول

عادت لعوايدها الأول*ونأى عن ساحتها العدم

*****

يا حسن مقام منك سما* ولعبد الوادي همى كرما* فكأنك فيهـمُ مبتسمـا

قمر حفّته نجوم سما* لا ظلم لديه ولا ظلـم

*****

أمليكا جاوز كل مدى* وأنال القصد لمن قصدا* وأفاد ندى وأباد عـدى

من نال رضاك لقد سعدا* ونأى عن ساحته العدم

*****

ثـم انصرفـت؛ لسـوق مخـدومي إلى بابـه الكريـم.

رجـع الحديـث: لمـا رأت **العـرب**؛ مـا وهـب الله لأميـر المسلميـن مـن عـز السلطـان، وتمهيـد الأوطـان، وبلـوغ الأوطـار، ومضـاء المشـرفي بسعادتـه والخطـار، وتيقنـوا جنـوح عـدوه الأكبـر إلى السلـم، وذهـاب كـل خيـال طـارق حـتى في الحلـم؛ تقمنـوا مسـرة مقامـه الكريـم؛ بإعطـاء رهائنهـم؛ عـلى سننهـا المتعـارف لسلفـه الكريـم؛ مـن آبائهـم؛ فخـرج لقبضهـا منهـم ولـده؛ المـولى الأميـر الأعـلى **أبـو تاشفيـن** ــ أعـزه الله ــ يـوم الأحـد العشريـن مـن شهـر ربيـع الآخـر؛ فنـزل **البطحـاء**؛ مطيـلاً المقـام بهـا لذلـك. وعلـم ذلـك سلطـان **المغـرب** ــ حينئـذ ــ **أبـو زيـان ابـن أبي**

عبد الرحمان ابن السلطان أبي الحسن[1]، ووزيره **عمر بن عبد الله بن علي**؛ فصانعاه بتوجيه هدية؛ مشتملة على عشرين فرساً؛ مسرجة ملجمة؛ وصل بها إلى بابه العلي؛ **يوسف**؛ عم الوزير المذكور، و**عبد الرحمان بن محمد بن الإمام**[2]؛ في الثاني والعشرين من جمادى الأولى؛ فألفيا ـ ببابه العلي ـ الأمير **أبا زيد عبد الرحمان ابن أبي يفلوسن علي ابن الأمير أبي علي عمر ابن السلطان أبي سعيد بن يعقوب بن عبد الحق**؛ رسولاً عن عمه **عبد الحليم**؛ متملك **سجلماسة** ـ يومئذ ـ في طلب المؤازرة من أمير المسلمين أيده الله.

وفي خامس جمادى الأخرى؛ وفد على باب مولانا أمير المسلمين؛ **محمد بن يوسف بن أومازير الموحد، ومحمد بن يعقوب بن علي الرياحي**؛ من **بجاية**؛ رسولين عن صاحبها ـ حينئذ ـ **الأمير أبي إسحاق ابن السلطان أبي يحيى**؛ في

[1] هو المتوكل على الله أبو زيان محمد ابن الأمير عبد الرحمن ابن أبي الحسن. حكم من: (763هـ/1361م؛ إلى767هـ/1365م).

[2] هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ابن الإمام التلمساني التنسي البرشكي؛ عالم عصره ـ مع أخيه ـ أبي موسى عيسى. توفي سنة 743هـ/1342م بتلمسان.

طلب الصلح؛ على أن يكبح ـ مرسلهما ـ **أبا زيان**؛ ابن عم أمير المسلمين؛ نجل السلطان **أبي سعيد** المذكور قبل مستقراً عنده؛ عما يرومه من الفساد بأقطار أمير المسلمين؛ قولاً وفعلاً. كل ذلك بقية من صرختة نصره الله؛ الأمير **أبا عبد الله محمد بن يحي**؛ على طلب ملك **بجاية**.

قال المؤلف: ـ عفا الله عنه ـ ولحقت أثناء هذا؛ بمرسلي الأمير **أبي عبد الله** المذكور رحمه الله؛ وجئت به؛ قاصدين باب مولانا أمير المسلمين ـ نصره الله ـ فلقينا وزيره المرحوم **أبو محمد عبد الله ابن مسلم**؛ **بسيرات**[1]؛ ورحنا في رفقته إلى الحضرة العلية؛ فدخلنا ثامن جمادى الأخرى؛ وأتينا قصر الخلافة المنيف؛ وقد جلس أمير المسلمين ـ أيده الله ـ بمشواره الأعلى؛ من رحبة

---

[1] يقول البكري عن سيرات: ((قلعة هوارة ويسمونها تاسقدالت؛ وهي قلعة في جبل لها ثمار ومزارع؛ وتحت هذه القلعة يجري نهر سيرات؛ وهو النهر الذي يسقى به فحص سيرات؛ وطول الفحص نحو أربعين ميلاً؛ ليس منه شيء إلا يناله ماء هذا النهر؛ إلاّ أنه اليوم غامر غير عامر؛ ولا آهل؛ لأن الخوف أجلى أهله. وفي ساحل هذا الفحص مدينة أرزو؛ وهي مدينة رومية خالية؛ فيها آثار عظيمة للأول)). المغرب، ص ص: 69 ـ 70. أما الآن فتوجد مدينة تقع جنوب شرق مستغانم؛ تسمى سيرات؛ ويمر بقربها النهر المذكر.

داره الكبرى؛ كأنما هو ـ بسرير ملكه ـ قمر السماء؛ بمنزل شرفه؛ تحف به الأسرة الأعلوان من قومه، **وعرب** قطره: **معقلية وعامرية**، وأعيان الطبقات من أهل حضرته؛ كواكب سعد اتصلت بـرب الطالع؛ يروق جمالها الأبصار، وتقف دون كنه جلالها البصائر. واشتمل مجلسه السعيد هذا على ملكين: **حفصي ومريني**، ورسولين ـ كذلك ـ كل يخنع ـ في قصده ـ لأمير المسلمين؛ رهبة أو رغبة.

فلما انقضى السلام؛ أنزلنا بدار يومن؛ من قصور الإمارة؛ على الفرش الحافلة، والقرى الجزيل، والبر العديم النظير. فتأمل ـ أعزك الله ـ مقابلة هذا الخليفة ـ أعلى الله مقامه، وشرفه وجزاءه ـ الإساءة بالإحسان، وغفره عظائم الزلات، واحتقاره كبائر الجنايات؛ فلا أعظم وزراً مما أسلفه هذا الأمير **أبو عبد** الله فيه، وفي عمه رحمه الله. ثم لم يكفه الاحتمال، وسعة الصدر؛ حتى شفع ذلك بالكرامة والبر والاحتفاء بالقصد والنصر؛ على طلب الملك؛ خلد الله فخره، وأجزل من الحسنات ذخره، وأطال أثناءه وشكره، وأطاب في ألسنة الأقلام وأفواه الأيام ذكره.

قلت: هذا ـ والله ـ اعتراف بالحق، وتسليم لأهل الفضل في الفضل؛ ولكل علي يد ونعمة. رحم الله ذلك، وأطال مدة هذا، وأعانني على مفترض حقه.

رجع التاريخ: ثم إن الخليفة ـ أيده الله ـ صرف رسل **المغرب** بالخير، وبعث مع رسل الموحدين؛ الفقيه العالم المرحوم **أبا عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني**[1] وثبط الأمير **أبا عبد الله**؛ إلى أن يصل سياسة أعتمدها في ملكه؛ يعود نفعها على المستنصر به. ولأيام قليلة؛ وصل الخبر بفرار **محمد ابن السلطان أبي سعيد**؛ عم أمير المسلمين ـ أيده الله ـ من **بجاية**، واستقراره **بفحص حمزة**؛ عند شيخ **عربها**؛ **أبي الليل ابن موسى بن أبي الفضل اليزيدي**؛ قادحاً بأذيال الوطن نار الفتنة؛ فاتبع ـ أيده الله ـ الرسل المذكورين من استرد الفقيه **أبا عبد الله الشريف**، وثقف **بالمدية** الآخرين.

---

[1] هو الفقيه الإمام محمد بن أحمد بن علي بن يحيى الشريف الحسني التلمساني. تزود بالعلم من مختلف الأقطار التي زارها. أصهر له أبو حمو في ابنته، وأسند إليه التدريس في المدرسة التي بناها من أجله. وسيأتي خبرها. وتوفي في تلمسان سنة 771هـ/1369م. ويقول عبد الرحمن بن خلدون في (التعريف بابن خلدون): أنه ولد في سنة 710هـ/1310م؛ حسب ما قال له بنفسه.

قلت: ويا بردها ـ يومئذ ـ على كبدي، وكبد مخدومي الأمير **أبي عبد** الله رحمه الله؛ لما كنّا وجدنا من ألم الفراق للوطن، والبعد عن مقارعة العدو. و((**لِكُلِّ أجَلٍ كِتَابٌ**))[1].

رجع: ثم أنهض أمير المسلمين ـ أيده الله ـ وزيره **عبد الله بن مسلم**؛ في عساكر لا تحصى؛ لأخذ ابن عمه وطرده؛ ثم إحساب أمل الأمير **أبي عبد الله الموحد**؛ فيما أم له؛ من مصارخته على ملك وطنه؛ فارتحل عن الحضرة الكريمة، وارتحلنا معه يوم الجمعة ثالث عشر شهر رجب الفرد، ورحل أيضاً الخليفة ـ أيده الله ـ من الغد؛ فنزل بمحلته المنصورة؛ في قنة **جبل تيزي**[2]؛ المطل على الحضرة من قبلتها؛ فأقام هناك شهراً كاملاً؛ ثم انتقل إلى **المنية** يوم الأحد الرابع عشر لشعبان

---

[1] نزلت الآية بالكامل هكذا: ((وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ)). سورة الرعد، الآية: 38.

[2] سماه البكري (جبل تارني)؛ فيقول: ((في الجنوب من تلمسان قلعة ابن الجاهل ؛ وهي قلعة منيعة كثيرة الثمار والأنهار؛ ويتصل بها جبل تارني؛ وهو وما يليه جبال معمورة؛ إلى مدينة تيزل)). المغرب؛ ص: 77. وقد أشار أيضاً إلى هذا الجبل ـ وسماه (جبل تيرني) ـ يحيى بن خلدون؛ في الجزء الأول من بغية الرواد. أنظر: ص: 205.

المكرم. ومن الغد ورد عليه الخبر بأن **خالد بن عامر** قتل أخاه **شعيباً** غيلة؛ لا لسبب؛ سوى انقطاعه لخدمة مولانا أمير المسلمين أيده الله؛ ونصحه إياه.

ولم يزل الوزير **عبد الله بن مسلم** يطوي بنا المراحل، ويستألف **العربان** – من **زغبة ورياح** – ونظم الحشود فارساً وراجلاً؛ إلى أن حل **بفحص حمزة** المذكور – في إبان حصاد الزرع – في أمم تكاثر الشهبان، وظعن لا يحويها العد. وتذمم **أبو الليل** المذكور وصاحبه **بمعقل جرجرة**[1]؛ ذي الحصانة المعروفة، والأنافة المشهورة؛ فأخذ بمخنقهم، واجتاح الناس ما أَلْفَوْهُ **بحمزة**؛ من الزرع قايمة، والحصيد؛ وانتهبوا ما أدركوه من الأمتعة، والضروع. ثم أخذ الوزير من **العرب** المراهين؛ على العادة؛ واستعد لإطالة حصار القوم بما يجب؛ فبادر **أبو الليل ابن موسى** بالخدمة؛ ملتزماً صرف **أبي زيان** المذكور إلى الشرق، وأعطى الوزير ولده

---

[1] هي سلسلة جبلية في المنطقة المسماة بالقبائل؛ تمتاز بغطائها النباتي الكثيف؛ وأعلى قمة بها هي قمة لا لا خديجة؛ (2308 م)؛ وهي ثالث قمة في الجزائر= =من حيث الارتفاع؛ بعد قمة أتاكور بالهقار (3000 م)، وقمة شيليا بالأوراس (2328 م).

رهناً بذلك؛ فانصرف **أبو زيان** إلى **تونس**، وأراح الله البلاد والعباد من فتنته.

واستقدم أمير المسلمين ـ خلد الله ملكه ـ وزيره لسياسية اقتضت ذلك؛ فامتنع الأمير **أبو عبد الله محمد الموحد** من الرجوع صحبته؛ فودعه وانصرف إلى وطن **رياح**، وقفل الوزير **أبو محمد عبد الله بن مسلم** رحمه الله إلى باب الخليفة ـ أيده الله ـ غانماً؛ فوصله ثاني يوم دخوله ـ نصره الله ـ إلى حضرته الكريمة من **المنية**؛ وذلك يوم الاثنين رابع شوال؛ فألفى بالباب الكريم **الشيخ أبا يعقوب ونزمار بن عريف**[1]؛ مزمعاً المقام تحت إيالة الخليفة ـ نصره الله ـ والانضواء إلى حرمته؛ **وخالد بن عامر**؛ قاتل أخيه بالأمس، والناسي ذنبه فيه بما سول له من أمله.

وفي آخر هذا الشهر؛ استشعر الشيخ **أبو يعقوب ابن عريف بن يحي** المذكور المخافة؛ من **بني عامر** عدو طبيعته؛ فخرج عن الحضرة العلية؛ يبغي أهله **بصيدور**؛ فأرحلهم، وطوى المراحل والساعات؛ إلى أن حل **وادي ملوية**؛ ناجياً بنفسه. وفي

---

[1] شيخ قبيلة سويد الهلالية.

هـذه الأيـام أمـر الخليفـة ــ أيـده الله ــ بثقـاف **خالـد بـن عامـر**؛ جـزاء بمـا كسبتـه يـده. وفي يـوم الخميـس السـادس والعشريـن لـذي الحجـة سافـر الأميـر الأعـلى والأعـز؛ المـولى **أبـو تاشفيـن** ابـن مولانـا الخليفـة ــ نصـره الله ــ لاستيطـان **الجزائـر** والاستقـلال بأمرهـا؛ عوضـاً مـن جـده المرحـوم.

*****

سنة خمس وستين وسبعماية[1]

مرّ صدر هذه السنة في هدنة؛ انسدلت منها الأستار، وسلم اضطجع بمهاده الأملد والبتار، وظهور حطت بيده عن قسي الفتن الأوتار. وفيه صرف مولانا أمير المسلمين ـ أيده الله ـ وجه العناية والاهتمام؛ إلى المدرسة الموضوعة على ضريح والده؛ المولى المقدس **أبي يعقوب** ـ رضوان الله عليه ـ فولى شطرها بصر الاختبار، ومدّ إليها يد الإنفاق؛ فضاعف بها الفعلة، وأحمد المغارس، وأسمك المصانع، وأرحب الأبنية، وحبر العروش، واستجلب الأمياه، وأجزل الأوقاف، وعين الجرايات، ورسم فيها الخطط، واصطفى لتدريس العلم بها؛ الفقيه، الأعرف، الأعلم، العلامة المرحوم **أبا عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني**؛ فتم ذلك؛ حسب اقتراح، وعلى أفضل الأماني. وفي خامس شهر صفر؛ كان ابتداء الإقراء فيها، وحضر هو ـ أيده الله ـ لذلك؛ فكان يوماً مشهوداً؛ أجزل الله ثوابه،

---

[1] 1363م.

ومـــلأ بـــآي الحسنـــات كتابـــه، وبلّـــغ في الدنيـــا والآخـــرة أوطـــاره وآرابـــه.

وحضـــرت ليلـــة الميـــلاد النبـــوي عـــلى صاحبـــه أفضـــل الصـــلاة والتسليـــم؛ فكـــان الاحتفـــال لمدعاهـــا عجيبـــاً. وممـــا أنشـــده مسمعهـــا؛ مـــن نظـــم مولانـــا الخليفـــة ــ أيـــده الله ــ مدحـــاً في شفيعـــه؛ خيـــر المرسليـــن؛ صـــلى الله عليـــه وسلـــم؛ قولـــه:[1]

المتقـــارب:

هَوَيْنـــا الظِّبَـــا وألفنْـــا الظِّبَـــا[2]
وكـــمْ مـــنْ فُـــؤادٍ إليهـــا صَبَـــا

إلى أنْ بَدَا الشَّيبُ في مَفـــرقي
وأجْريـــتُ مـــن خَيلـــهِ أشْهَبَـــا

فأيقظَـــني الشيـــب من غَفلـــتي
فـــفي لِمَّـــتِي[3] منْ حَديـــثي نَبَـــا

وقدْ عادَ غَـــضَ شَبَـــابي بـــه
محيلاً ولـــوْني غَـــدا مذْهبـــا

---

[1] وردت هـــذه القصيـــدة في بغيـــة الـــرواد فقـــط.

[2] في الأولى: الظِّبـــاء؛ مفردهـــا الظَّـــبْيُ: الغـــزال. أمـــا الثانيـــة؛ فمفردهـــا؛ الظُّبَـــة، وقـــد جمعهـــا بهـــذا الشكـــل للضـــرورة؛ وتعـــني: طـــرف السيـــف وحـــدّه.

[3] اللِّمَـــة؛ جمعهـــا لِمـــم ولِمـــام: الشعـــر المجـــاوز لشحمـــة الأذن.

فــوا أسَفي منْ ذُنوبٍ مضــتْ
تقضَّيتها في زَمـانِ الصِّبا

وكم لُمْــتُ نفْــسي فَما أقلعــتْ
وعاتَبْــتُ قلــبي فَمـا أعْتَبا

وكمْ قدْ بكيــتُ لذنْــبٍ جنيــتُ
وقلْــبي نَهيــتُ ولَكِـنْ أبَى

مُـسيءٌ قَسـا قلبُــهُ إذْ أسَــا
فَــذابَ أسًى عِنْدَمـــا أذْنَبا

لقَــدْ حِــقّ أبْــكي على زلَّــتي
فَذَنْــبي لِحجْــرِيَ قَــدْ أوجَبا

ولَيسَ لِخَطْبي وتَمْحيــصِ ذَنْــبي
سِــوَى فرْطِ حُــبّي لأهْلِ العبا

فَيــا أهلَ ودّي لقدْ زادَ وَجْــدي
إلى أهْــلِ نَجــدٍ وأهْــلِ قُبَا

فَذِكْرهُــمُ عـــادَ لي عـــادَةَ
وحُبُّهُــمُ صــارَ لي مَذْهَبـا

وحُسْنُهُــمُ كَـمْ مُحِــبٌّ صبَـا
إليْــهِ وكــمْ مــنْ فُــؤادٍ سَــبَى

فإنْ يَرْحَمــوني فَمِــنْ فَضْلِهِــمْ
وإنْ يَهْجُــروني فَيــا مَرْحَبــا

وإنْ هُمْ يَجـودونَ لي بالـرِّضَى
فَيـا مـا ألَـذَّ ومـا أعْذَبـا
فَيا حادِيَ الرَّكْـبِ نَحْوَ الحِـمَى
إذا جِئْـتَ نَجْداً وتِلْـكَ الـرُّبَى
فَأبْلِـغْ سـلامي لِسُكّانِهـا
ذَكِيُّ الشَّـذا عاطِـراً طَيِّبـا
وقُـلْ لَهُـمُ يَرْحَمـونَ المُحِـبَّ
فَمـا اخْتـارَ غَيْرَهُـمُ مَطْلَبـا
فَرِقُّـوا لِقَلْـبٍ غَـدا مشْرِقـاً
وَحنُّـوا لِصَـبٍّ ثَـوَى مغْرِبـا
فَواكِـفُ أجْفانِـهُ مـا رَقَى
ولاَعِـجُ أشْواقِـهِ مـا خَبـا
حَـمَى النَّومَ عَنِّيَ بَرْقُ الحِـمَى
وَشَـاقَ فُـؤادي نَسِيـمُ الصَّبَـا
فَجِـدُّوا السَّرَى لِشَفيعِ الـوَرَى
عَـسَى أنْ تَرَى مُقْلَـتي يَثْرِبَـا
فالتَمِـعِ النّـورَ مِـنْ أرْضِهـا
واسْتَنْشِـقِ المِسْـكَ بلْ أطْيَبـا
بِـلادٌ مُقَدَّسَـةٌ حَلَّهـا
نَبيّ الهُدَى المُصطفَى المُجْتَـبَى

فشهـرُ ربيـــعٍ أتَى بِرَفيـــع
نَـبيٌّ شَفيــعٍ لِمـــنْ أذْنَبـــا
فأهْــلاً وسَهْــلاً بِمَــولى أحَــلاَّ
وبَــدْرٍ تَجَــلَّى جَــلاَ غَيهَبـــا
نـــبيٌّ أتَى رَحمَـــة للعبــادِ
وأظهــرَ للحــقِّ نــوراً خَبـا
ونيــرانُ فــارسَ قــدْ أخْمِــدَتْ
فلِلَّــهِ ذلـــكَ مـــا أعْجَبـــا
وكِســرَى تَساقَـــطَ إيوانُــــهُ
وذاقَ مِنَ الرُّعْبِ كَــاسَ الظُّبَـا
وخَــــرَّتْ قَواعِـــدُ إيوانِـــهِ
وصـــارَتْ رَميماً كَمِثْــلِ الهَبَـا
وكلّمَــت الوَحْــش للمُصطــفَى
ونُطْــق الــذِّراع لــهُ أعْجَبـــا
وحَــنَّ لــهُ الجِــذْعُ مُستَوْحِشــاً
وكَلَّمَــهُ الظَّــبْيُ مُستَغرِبـــا
وشُــقَّ لهُ البَــدرُ عنــدَ التَّمــامِ
وردَّتْ لــهُ الشَّمْــسُ أنْ تَغْربــا
وأسْــرَى بِــهِ لَيلَــةَ الإرْتِقـــا
إلى قــابَ قَوْسَيْــنِ أوْ أقْرَبــا

وكمْ مُعْجِـزاتٍ لخيرِ الـورَى
تجـلُّ عنِ الوَصفِ انْ تحْسبَـا
فَيـا سَيِّـداً قـدْ حَبـاهُ الإلَـهُ
على الخَلق طُـراً بمـا قدْ حَبـا
ويـا منْ سَمـا قَدرُهُ رِفْعَـةً
ويـا منْ عَلاَ في العُلَى مَنْصِبـا
يَخُصـّكَ موسَى بأزْكَى سَـلاَمٍ
يَـروقُ النُفُـوسَ كَنَشْـرِ الكِبَـا[1]
ومِسْـكٍ فَتيـقٍ وزَهْـرٍ أنيـقٍ
بِـرَوْضٍ شَرِيقٍ حَوَتْـهُ الـرُبَى
فَـرَبِّيَ حَسْبي لِوَجْدي وكَـرْبي
وما لي لِذَنْـبي سِوَى المُجْتَـبَى

للحـاج الطبيـب أبي عبـد الله بـن أبي جمعـة التلالـسي
قولـه:

الطويـل:
أأصْبُـو ورأسي بالمشيبِ غدا حال
وحال لذاك الشيب لما بدا حـالِي

[1] الكبَـاءُ جمعـه كُـبَى: عـود البخـور.

وكيف لمثلي بالتصابي وبالهـوى
وهل للتّصابي أن يمر على بـالِي
وعنّي شبابي قد تولّى وقد مضَى
فقلـبِيَ منه لاَ هَـنِيءٌ ولاَ سـالي
علا مفرقي جيش المشيب فها أنـا
جديـد شبـابي مذْ ألَمَّ به بـالي
نفـائس أنفاس الشباب قد انقضـت
وما لِيَ من بعد الشبيبة من مـالِ
ونادَى لسان الحال شمّر إلى متى
تُرَى غير ناس للتصابي ولا قالي
فحرّمت سلـواني وحزني أبحتـه
وقلت لنفسي قد دنا عنك ترحـالي
فجدّي بحزم في نجاتك وانظـري
بعزم لما فيه الصـلاح لأحـوالي
ألا فارحلي قصدا لطيبـة وانـزلي
بها قبل أن أقضى وترفع أعمـالي
تقـدم أقـوام لتقبيـل تربهـا
وأصبحت تسعى في عناء وتضلال
أمن بعد أنـس كان لي بجوارهـا
فأبلسـت يا وَيْحي لسَيِّء أفعـالي

ترفــق خليــلي إن إنســا فقدتــه
جدير بأن أبكي عليه ويبــكي لي
أشيِّــع ركبا بعد ركــب لطيبــة
ويقعــدني غَيِّي وكثرة آمــالي
بقرب رسول الله طاب ترابهــا
وأضــحى لها جيد بأنواره حــالي
نَــبيٌّ كريــم شــرف الله قــدره
وفضله في القبل والبعد والحــال
نَــبيٌّ به سُدْنَــا على كــل أمــة
فــلا أمــة إلا لنــا تحــت إذلال
سمــا لإلهِ العرش واللَّيْــلُ ألْيَــل
من المسجد الأقصى إلى المُرتقَى العــالي
لمولده نور على الأرض قد بــدا
غدا دونه بدر الدجى دون إكمــال
نجونا به من كل خطب يروعنــا
وأنقذنــا من كل خوف وأوجــال
هو المصطفى ساد الأنام وقــدره
على كل مخلوق نطقت به عــالي
حليــم رحيــم مؤثــر متفضــل
رؤف عطوف مانح دون تسئــال

ربيـــع بشيـــرا للأنـــام أتى بــه

فكــل ربيـــع فيه راحـــة إعـــلال

وهل من شفيـــع غيـــره يرتـــجى إذا

عرى الناس سكر من عذاب وأهـــوال

بأمداحـــه يا نفـــس لوذي فإنهـــا

شفائيَ من وعك الذنوب وإبـــلالي

فمن رام أن يحصي فضائل أحمد

فذلـــك شئ لا يمـــر على بـــالي

عليه صلاة تملأ الأرض والسمـــا

يحط بها وزري تخفـــف أثقـــالي

وبعد الرضى عنه وعن آل بيتـــه

وأصحابـــه أهل الفضائـــل والآل

أقـــوم وأدعـــو للخليفـــــة إنـــه

لخير إمام في ذرى شرف عـــال

عـــلى الله في أحوالـــه متوكـــل

وما إن له إلاّ التوكّـــل من حـــال

يشيِّـــد أمر الملك طـــول نهـــاره

وإن جنَّه الليـــل البهيم يُرَى تـــال

فكل امرئ يأتيـــه يطلـــب نائـــلاً

يعـــود غنيـــا مثريـــا بعد إقـــلال

وصارِمُــهُ أسدُ الكفـــاح تخافــه
فهـــا هـــو قتّـــال به كـــل قتّـــال
أنـــارت معاليه وأشـــرق فضلـــه
كبـــدر تبدّى للورى بعد إهـــلال
وأوجـــد عبد الـــواد بعد دثورهـــا
وأظهـــر رسما دارسا بعد إمحـــال
تلمساننـــا أضحـــت بـــه وبيمنـــه
تتيه على فاس الجديدة والبـــالي
فنحن به في طيب عيش وغبطـــة
وتجديـــد أفـــراح وفسحـــة آمـــال
قبائـــل عبد الـــواد سعدكـــم بـــدا
ودولتكم عادت إلى أشرف الحـــال
ولست أراها تنقـــضي عنكـــمُ ولا
تزالـــون فيها في نعيم وإفضـــال
ومـــوسى أميـــر المؤمنين مؤيّـــد
بنصـــر وتمكيـــن ويمن وإقبـــال
فهـــا أنـــا مذ بايعتـــه وخَدَمْتُـــه
أجُرُّ على أهل البسيطـــة أذيـــالي
فـــإن نالـــني منه قليـــل عنايـــة
فما هـــذه الدنيـــا وحقـــك إلاّ لي

وكان ملك **المغرب** ووزيره المذكوران – وإن أظهرا صداقة أمير المسلمين، وصانعاه بما تقدم ذكره – منطويين له على حقد محظر، وحرب منظر؛ لمظاهرته – أيده الله – أولاد **الأمير أبي علي ابن السلطان أبي سعيد**؛ الذين **بسجلماسة**؛ وأخذه بضبعهم. وفي هذه السنة؛ حج كبيرهم **عبد الحليم**؛ حليف جلاء؛ فسارعا يبعث **محمد بن عثمان ابن السلطان أبي تاشفين**؛ ملبساً شارة الإمارة أيضاً؛ وأوزروه **بموسى بن علي ابن برغوث** المذكور؛ مأسوراً عندهم، **وعمر بن محمد ابن مجن، وسعيد بن موسى بن علي الغزي**، وحاشية، وأتباع، ثم حصة **مرينية**، وغوغاء **عرب معقلية**؛ وأوقعا سقطه بهشيم المنافقين عن أمير المسلمين؛ من أهل وطنه؛ مرسلين عليه ريح الإغراء. فثار بالجانب الغربي إعصار الحرب؛ فتوجه الوزير المرحوم **عبد الله بن مسلم**؛ أول جمادى الأولى لحشر أمم الشرق؛ وعاد يجر خميسهم العرمرم؛ فوصل إلى الباب العلي سابع رجب؛ وقد نزل القوم **بعين الصفاء**[1]؛ من **جبل**

---

[1] تقع الآن في إقليم بركان بالمملكة المغربية.

بني يزناسن[1]؛ فخرج أمير المسلمين أيده الله إلى ركابه العزيز يوم الجمعة الثالث والعشرين منه، ورحل مغرباً نحوهم؛ في جيوش أضاقيت الفضاء، وفاتت الإحصاء، وسبق إليهم رعبُه؛ فولوا الأدبار؛ ذات اليسار؛ فتبعهم إلى **منزل رأس العين** من قبلة **جبل دبدو**[2] فمن هنالك غَرَّبَتْ ـ عن المخالفين ـ حصة **مرين**، وشرق الآخرون مصحرين؛ فثنى أيده الله العنان، ودخل حضرته الكريمة يوم السبت ثامن شعبان المكرم؛ فأنشده **محمد بن صالح شقرون**؛ أحد كتاب دولته الكريمة.

البسيط:

حدّثْ عن الملك المنصور ما شيتا

تجد ألذ حديث يشبه القوتَا

---

[1] يصف التوزان هذا الجبل بقوله: ((يقع هذا الجبل على بعد نحو خمسين ميلاً غربي تلمسان. ويتاخم؛ من جهة قفر كَرْطْ، وقفر أنْكَادْ من جهة أخرى؛ ممتداً على طول خمسة وعشرين ميلاً، وعلى عرض نحو خمسة عشر ميلاً. وهو شديد الوعورة والارتفاع؛ صعب المسالك، تكسوه غابات كثيرة. وصف إفريقيا، ج: 2، ص: 43.

[2] وهو جبل شاهق تتساقط منه عدد كبير من مجاري المياه. تقع على سفحه مدينة دبدو.

وذع غرائــب فتح كلها عجــب

غــدا النظــام بهــا دراً وياقوتَــا

واقــرع بها كل أذن فهي واعيــة

فقد أذاعت له في العالــم الصيتــا

إقطع بحسك قطعاً دون ما ريــبٍ

فإنــه ملــك مــا شــاءه يــوتى

ولا يريبــك شــك أن نصرتــه

من السمــاء وما ينفــك مبخوتــا

لا يستطيــع عدو قــرب ساحتــه

من رامــه بعنــاد عــاد مكبوتــا

جرت على أفقــه الأقدار حاميــة

لــه فــزاد بهــا عــزاً وتثبيتــا

كم من عرمرم قد أرْدَتْ كتائبُــهُ

وخَلَّفَتْــهُ بطعن الرمــح منكوتــا

تنبيــك همتــه عن ســر مدتــه

فمــن رآه بديهــا عــاد مبهوتــا

لا تستفــزّ به الأهــواء جملتهــا

ولا الرقى لا ولا أسحار هاروتــا

مواقــف الحرب لا تعدو أوامــره

إن قال كــفّي لها لم تُبْــدِ تعنيتــا

وإن أشار بإغراءٍ لهــا قصمــت
ظهــر العدو ونالت منـــه تشتيتــا
أنظر إشارته في الغرب ما صنعت
لما أتاهم ثنوا نحو العـــرى ليتــا
وأصبحوا شُرَّداً في البيد قد جفلوا
مثل الظليــم غدا بالحبل مسوتــا
وأسلمــوا جزعاً للحين جامعهــم
وخلفــوه حليــف الذعــر مقليتــا
ونافــر البعض بعضا بعد ألفتهــم
حتى لقد خِلْتُ ذا ضَبًّا وذا حوتــا
وعاد ما جمعوا أيدي سبا بــدداً
بضعف رأي وقد جاءوا مصاليتـــا
لو أنهم سئلوا عن أصل جفلتهــم
لقـــال أثبتـــم خلـــت العفاريتـــا
قل للأعـــارب والأعداء جاءكــم
حامي الذمار فربع الموت مبغوتــا
دينـــوا ببيعة موسى دون ما نكــر
فإنـــه سيف ملك جـــاء أصليتــا
لا يرفع السيف عنكم غير طاعته
فاستمثلـــوا أمره لا تبدوا جبروتــا

كم منة نلتـمُ من جـود راحتـه

إذ كان أعظمكـم عارًّا ومسنوتـا

أمدّكـم بنعيـم مـن مواهبـه

ومـد أيديكـمُ خيـراً وسبروتـا

فما رضيتم سوى كفـران نعمتـه

تبًّـا لكـم جئتـمُ نكـراً وتبهيتـا

سيخلع السيف عنكم طوق منتـه

وذاك أجـدر بالكفـار تشميتـا

لا غرو أن الإمام العدل يرهقكـم

عـلى البهديـة إيجافـاً وتبييتـا

وذاك فرض علينا كالصلاة فقـد

مـضى عليكم كتاب كان موقوتـا

من ينصر الله ينصـر في بريتـه

ومن به يعتصـم لم يُلْفَ مكبوتـا

من ذا كموسى أمير المسلميـن إذا

تـدعى نزال ويغدو الشهم هرّيتـا

ودارت الحرب دوراً كالرحى وسطت

على بنيهـا ولمـا تـرْع تربيتـا

هنـاك تعرفـه عرفـان منتقـد

تحت العجاجة يستقري الطواغيتا

ورمحـــه كشهـــاب أثر مستـــرق

يردي العداة به صميا وتصميتـــا

يديـــر في أدهم الهيجـــاء أدهمـــه

كـــر الحمايـــة قد أبدى المخافيتـــا

مولى أعاد رسوم الملك ظاهـــرة

بعـــد الدثـــور وقـــد لَمَّ الأشاتيتـــا

وأمســـد الحبل منهم يمن طلعتـــه

إذا كان من قبلُ واهي المسد مبتوتـــا

ورد من عـــدم قومـــا إلى نعـــم

وانهال من كرم لا يختـــشى ليتـــا

فرض على كل عبد الواد طاعتـــه

ومن سواه يـــروم الملـــك ملفوتـــا

لولاه لم تعرف الأعـــدَا معانـــدة

ولا أقاموا ولو كان ابن صابوتـــا

فإن يكـــن جده دينـــا يبـــوءُ بـــه

فجامـــع الكـــل زيـــان لما شيتـــا

وفضل موسى على كل بســـؤدَدِهِ

فقد أتى في بني زيـــان منعوتـــــا

به استقام قسطاس الملك دون مرًا

ومن به الملك يسمو راح كبريتـــا

مولاى يهنيك نصر الله يا أملي
وللانام بما في الفتح أعطيتا
خذها إليك بقيت الدهر في دعة
من نظم ذي لسن ما زال سكيتا
لا زلت في نعم شتى مجددة
لا تدع في غرض إلاّ ولبيتا
مني عليك سلام نشره عطر
ما حمل لله جرم الأرض بهموتا

ثم أمر مولانا أمير المسلمين ـ أيده الله ـ وزيره **عبد الله بن مسلم** رحمه الله؛ بالجنود الوافرة مشرقاً؛ لاعتراض القوم، ولم يشعروا بذلك؛ فدخلوا التل على **ثنية لتات**[1]؛ وتصادف الفريقان **بتالحني**[2]؛ من **بلاد منداس**؛ فلم يلبث المخالفون لمصادمة **الوزير**، ولا قاربوه؛ بل أجفلوا ـ رأي العين ـ مشرقين؛ فتلاهم يجد السير في أثرهم؛ إلى أن ألجأهم للتذمم **برياح**[3]؛ فنزلوا **المسيلة**[1]، وخيم هو بوادي

[1] تعذر علينا معرفتها.
[2] لم نتوصل إلى معرفتها.
[3] أي قبيلة رياح الهلالية.

الجنان؛ تجاههم. ولقد كادت رياح تستأصلهم؛ برأي الوزير؛ لولا إمهال الله تعالى لهم؛ بما قضاه من موت الوزير أبي محمد عبد الله ابن مسلم رحمه الله هناك؛ آخر ذي القعدة فانثنت أعنة العساكر بعده؛ حافة بجنازته وانخزل العرب أجمعون عنهم، وظاهروا العدو؛ فاستتسر بغاته، وتجنح ذره، وطمح أمله، فغلغل مغرباً.

ووافى الخبر بذلك أمير المسلمين أيده الله؛ فأزعج لحينه الشيخ عثمان بن مسلم؛ أخا الوزير للقاء العساكر، والربط على جأشها، وإسكان هيج بحرها في الرابع لذي الحجة؛ ثم أردفه ـ نصره الله ـ ثامن ذي الحجة بولده المولى الأمير أبي تاشفين أعزه الله، ثم خرج أعلى الله أمره بركابه العلي يوم الاثنين الحادي عشر منه؛ فجد السير لحرب الأعداء؛ بعد أن استوزر الشيخ أبا موسى عمران بن موسى بن فارس بن حريز اللؤلؤي؛ فلقيته

---

[1] يقول فيها الوزان: ((مدينة عتيقة بناها الرومان في تخوم صحراء نوميديا)). وصف إفريقيا، ج: 2، 52. وتلك المدينة الرمانية تسمى (زابي). وهي قريبة من المدينة الحالية التي بنيت في عهد أبي القاسم إسماعيل بن عبد الله المهدي الفاطمي؛ وذلك بواسطة عامل الدولة الفاطمية علي بن حمدون الأندلسي؛ وسميت آنئذ (المحمدية).

الجيوش دوين البطحاء؛ فثناها ونزل **البطحاء**؛ وقد طانبها **باغيل يزان**[1] العدو وفي يوم الثلاثاء الخامس والعشرين لذي الحجة ــ المذكور ــ تصارفت الطائفتان الحرب؛ بحداء **وادي مينة**؛ نهارهم كله وأمير المسلمين خلد الله ملكه؛ مطل فوق رابية إزاء محلته، ومعه شوكة قومه، وكان فيهم من أبطن النفاق والخذلان؛ فباطن العدو؛ فلم يشعر أمير المسلمين ــ وقد جن الليل ــ إلاّ والناس قد انفضت عنه؛ سوى مقتنب فئة صبر أوفياء لا يعتد بنزرهم؛ فاعتمد ــ نصره الله ــ أبنيته، واستركب حرمه، ورفع أحمال أمواله العديدة، وأدلج صمد حضرته الكريمة. ففي **وادي سيق**[2] أظله النهار؛ والعدو خلفه؛ كأنهم الجراد المنتشر؛ قد ملئوا الفجاج، وأطنبوا العجاج، وفرعوا الرّبى، وحلوا للحرب الحبى؛ فثاقفهم به ملياً؛ إلى أن كبح من جماحهم؛ ثم كثروه فراح يسير الهوينا؛ والحرم والمال بين يديه؛ وساقة

---

[1] أي الهضبة الحارة، أو هضبة الذئاب بالأمازيغية. وكانت تعرف في عصور قديمة (بمينا)؛ نسبة إلى (وادي مينا) الذي يمر بها. أما الآن فهي مقر ولاية وتسمى الآن غيليزان.

[2] سيف أو سيق أو سيك. هي الآن مقر دائرة تابعة لولاية معسكر في غرب الجمهورية الجزائرية. سميت في العهد الروماني (تاساكورا)؛ أي مجرى نهر (مكررة). وفي العهد الإسلامي سميت (سيق)؛ بحكم سواقيها الكثيرة.

أوليائه منعقدة خلفه، ونار الحرب تضطرم من ورائهم؛ إلى أن علا ـ نصره الله ـ ثنية تيقن بريد وقد تكالب الأعداء خلفه، فهنالك صابر القوم وصادمهم أولياؤه الأوفياء مستميتين؛ فاحتدم المراس، واشتد على أفئدة فئة الهدى البأس، وارتفع الوغى وعظم الشفا؛ فهنالك صلي أمير المسلمين أيده الله بنفسه الكريمة لظى الحرب، وشهد معمعة الطعن والضرب؛ منشداً لسان حاله قول أبي فراس:

ونحن أناس لا توسط عندنا
لنا الصدر دون العالمين أو القبر
تهون علينا في المعالي نفوسنا
ومن خطب الحسناء لم يغله المهر

ومتمثلا بقول امرئ القيس:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه
وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما
تحاول ملكا أو نموت فنعذرا

فكان من ألطاف الله الخفية، وعنايته الحفية؛ أن تحاول عقيد أوليك الأحزاب الطعنات مع أحد أولياء أمير المسلمين أيده الله؛ فأسقطه ريح ولي أمير المسلمين عن فرسه،[1] ونهض ليركب؛ فصكه الفرس بين عينيه؛ فقضى أولياء الإمام نصره الله عليه، وقطع للحين رأسه ورمى به أصحابه؛ فانكفؤا من عند آخرهم؛ مدبرين لا يلوي متقدمهم على متأخر؛ كما انحدر إلى صبوبه السيل:

وعاقبة الصبر الجميل جميلة

وأفضل أخلاق الرجال التصبر

وتمادى أمير المسلمين – أيده الله – إلى حضرته؛ فعرس ليلته تلك **بتاسالة**[2] وصار من الغد؛ إلى **تيط، وشقوف**؛ ومنها دخل حضرته العلية يوم الخميس الثامن والعشرين من شهر ذي الحجة؛ قوي العارضة جميل الصبر، راضياً بالقضاء، متأسيا بالسلف الغابر رضي الله عن مقامه؛ وواصل يد

---

[1] قال عبد الرحمن بن خلدون أنه أحد شيوخ المعقل المدعو أحمد بن رحو. أنظر العبر، مج: 7، ص: 266.

[2] تاسالة أو تسَّلة: كانت في القديم مدينة كبيرة؛ ولكنها اندثرت؛ وبقي السهل المعروف بها.

الظفر بمرامه. وفي آخر رمضان من هذه السنة؛ كان إياب المولى الأمير الأعلى **أبي تاشفين** – أسعده الله – إلى الحضرة العلية؛ من بلد **الجزائر**؛ إيثاراً لمشاهدة مولاه؛ عن استيطانها.

*****

سنة ست وستين وسبعمائة[1]

وفي أول هذه السنة؛ لمع ـ بقيعة الكائنة؛ التي اقتضبنا خبرها ـ سراب الطمع؛ فخدع به **محمد ابن عثمان** وحزبه؛ فَطنَّتْ حصاتهم، وطار بأحلامهم الشره، وانضاف إليهم ـ اضطراراً ـ مغادروا الوقيعة؛ من **بني عبد الواد؛ وزناتة** مطمئنة بالإيمان قلوبهم. وتمالأ الجميع على إتيان الحضرة الكريمة بالقض والقضيض؛ فلزمها أمير المسلمين ـ أيده الله ـ مدرعاً لأمة حزمه؛ ممتطياً صهوة ثباته. وبثَّ فيهم العيون، وأوحى إلى شياطينهم سحر القول، وخفّض لمبتدعهم جناح الذلّ. ثم سرّح **خالد بن عامر** من ثقافه، وأحسن إليه بما لا مطمح وراءه لأمثاله، واستحلفه على الوفاء بطاعته، والكدح في خدمته، وكياد الأعداء؛ بحلّ عرى عزماتهم الفاسدة، وصرفه؛ فأتى القوم **بفحص ملاتة**؛ طامّين في سيرهم؛ فانحاز **بنو عامر** قبيله إليه؛ وساير بهم العير ذات اليسار؛ معوزاً إلى أمير المسلمين أيده الله؛ بقل أمورهم وكثرها. ومن منزلهم

---

[1] **1364**م.

قرية تاسالة؛ انتبذ إلى الخليفة ـ نصره الله ـ **بنو عبد الواد** وكافة **زناتة**؛ وفي الرابع والعشرين من محرم نزل **محمد بن عثمان**، **وسويد**، **والمعقل** **بذراع الصابون**؛ من ظاهر الحضرة، ونزل **بنو عامر** وادي **يسر**؛ ومنه انخزل بهم **خالد بن عامر** مصحراً؛ على **ثنية فزتون**[1] بدعوة الإمام أيده الله؛ فأجفل **محمد بن عثمان** وقومه؛ لإجفال الرئال مغربين. وبرز أمير المسلمين ـ أيده الله ـ فوقف بمقانب أوليائه بمنزلهم من **ذراع الصابون**، ومر رعيله يطأ أعقابهم إلى أن أجازهم **وادي تافنة**.

وفي الثالث من هذا الشهر فارق **محمد بن عثمان** المذكور حاشيته أجمعون؛ كـ: **عمر بن محمد بن مجن**، **وموسى بن علي بن برغوث**، **وسعيد بن موسى بن علي الغزي**؛ وأتوا إلى باب أمير المسلمين؛ يقدمهم نحوه الرجاء، وتؤخرهم المخافة؛ فأقال ـ نصره الله ـ عثارهم، وغفر أوزارهم؛ ثم أحسن إليهم، وأكبر رتبهم، وأعلى أثرهم. أرسلت إليه **سويد** وفودها؛ تلتمس الرضى والمغفرة من مقامه العلي؛ نادمين على ما فرطوا

---

[1] كتبت في مواضع هذا الكتاب: فرتون (بالراء).

في جانبه؛ فأنالهم القصد، وسوغ لهم مشارع القبول؛ فعاجوا ــ دون تلوّم ــ إلى وطنهم؛ سنة حلمه الواضح الإعلام، وشنشنة كرمه التي لا تصفه أقسام الكلام؛ ثم أصحرت **المعقل** إلى مشاتيها، وبقي **محمد بن عثمان**؛ في كفالة الشيخ **أبي يعقوب ونزمار بن عريف**؛ بمراده؛ لا يملك إلا نفسه وأخاه؛ خائب السعي، حابط العمل، منحازاً إلى فئة مربأه. **((وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ))**[1] ويختار.

وكان الأمير **أبو عبد الله محمد بن يحي الموحد** ــ الذي قصصنا قبل خبر استنصاره بالخليفة ــ قد ظهر **ببجاية**؛ فلما جرى الغدر بكائنة **البطحا**؛ اهتبل المذكور الغرة؛ في أخذ **تدلس** من يد قائدها **عمر بن موسى المطهري**؛ مسروراً في الخلا بإجرائه، وذاكراً الطعن والنزال وحده. فلم يبدأ ــ نصره الله بعد تشريده العدو ــ بأهم من بعث الجنود لاسترجاعها؛ مرؤوسة بوزيره **عمران بن موسى**؛ فغلغل إليها، وحصرها ليالي؛ فاستغلق عليه

---

[1] الآية بالكامل هي: ((وقَالَ لهُمْ نبيُّهُمْ إنّ اللَّه قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أنَّى يَكُونُ لَهُ المُلْكُ عَلَيْنَا ونَحْنُ أحَقُّ بالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ المَالِ قَالَ إنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وزَادَهُ بَسْطَةً فِي العِلْمِ والجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ)). سورة البقرة؛ الآية: 247.

أمرهـــا؛ فقفـــل إلى البـــاب العـــلي أسمـــاه الله. فأغـــرى أميـــر المسلميـــن خلـــد الله ملكـــه **يعيـــش بـــن راشـــد المجـــني**؛ قائـــد الجزائـــر بمضايقتهـــا، وتحيـــف جنابتهـــا. وأظلـــت ليلـــة المولـــد النبـــوي الشريـــف؛ فاحتفـــل ـــ أيـــده الله ـــ بمدعاهـــا احتفالـــه بأمثالـــه؛ فكـــان ممـــا أنشـــده مسمعهـــا مـــن نظـــم مولانـــا أميـــر المسلميـــن ـــ أيـــده الله ـــ قولـــه:[1]

البسيـــط:

يا من يجيبُ ندا المضطر في الدِّيَجِ
ويكشفُ الضُّرَّ عند الضيق والهوجِ[2]
ولُطـــفُ رَحْمتـــه يأتي على قنـــطٍ
إذا القُنـــوطُ دَعا يا أزمَة انْفَـــرِجِي
ومَنْ إذا حَلّ خَطْبٌ واعْترتْ نُـــوَبٌ
أبدَى اللّطْـــفَ ما لم يَجْرِ في المُهَجِ
إنّي دَعَوْتـــك جُنـــحَ اللّيلِ يا أمَـــلي
دُعـــــاء مُبتهـــلٍ بالعفْـــوِ مُنْتهـــجِ
يا كاشفَ الضرّ عنْ أيّوبَ حينَ دعا
قدْ مَسَّني الضُّرّ فاكشفْ كربَ كلّ شَجي

[1] وردت هـــذه القصيـــدة في بغيـــة الـــرواد.
[2] كتبـــت في نسخـــة أخـــرى ((والهـــرج)).

أنــتَ المُنَــجّي لنوحٍ في سَفينتِــهِ
ومُخْرِج يونُسا من ظُلمَة اللُّجَــجِ
يا منْ وَقَى يوسفَ الصدّيق كلّ أذَى
لما رَمَــوْهُ بِجُــبٍّ ضَيّــقٍ حَــرِجِ
أجــابَ يعقوب لمّا إنْ بَكَى وشكــا
وجاءَه منهُ لطــفٌ لم يَخَلْــهُ يَــجي
وعاد بَعْدُ بصيــراً حينَ هــبّ لــه
نسيــمُ نَشْرِ القميصِ الطَّيّــبِ الأرَجِ
أنْــجَى من النّــار إبراهيــمَ رُمِيَ
فيها وعــادَتْ سلاماً دونَ ما وَهَــجِ
يا منْ تكفّــلَ مــوسى وهو مُنتَبَــذ
باليــمّ في جوفِ تابوتٍ على لُجَــجِ
وأمّــه مــنْ أليـمِ الشّــوْقِ والِهَــة
فُؤادُهــا فــارِغٌ منْ شِــدَّةِ الوهَــجِ
يا مَنْ أعــادَ لها مِنْ بَعد ما يَئِسَــتْ
موسى وقُرْبه في المُرْسليــنَ نــجي
يا مَنْ كَفَى المُصطفى كيْدَ الأُولى كفَروا
إذْ جاءَهَــمْ بكتابٍ غَيْرِ ذي عِــوَجِ
يا من وفاهُ الرّدَى في الغارِ إذْ نَسَجــتْ
ببابِــه عنكبــوتُ خَيْــرَ مُنتسَــجِ

وكُلّمـــا حاولوا مكـــراً بـــه انْقَلَبـــوا
بالرُّعْبِ ما بينَ مكبوتٍ ومُنزَعِـــجِ
مَنْ قد أتَى رَحْمـــةً للعالميـــنَ وقـــدْ
أحْيَى القلوبَ بوَحْيٍ واضِحِ الحُجـــجِ
مَنْ عَطَّرَ الكَوْنَ طيبـــاً عِندَ مَولِـــده
وأشْـــرَقَ الأفْـــقُ من نورٍ لهُ بهـــجِ
من أنْزِلَـــتْ فيـــه آيـــاتٌ مُطهّـــرة
أنْوارُهـــا كَصَبـــاحٍ لاحَ مُنبلـــجِ
يُبْـــلَى الجَديـــدانِ أخلاقـــاً وجِدَّتهـــا
معَ الجَديدَيْـــنِ في نورٍ وفي بَهـــجِ
في طَيِّهـــا كُلّ عِلمٍ ظَـــلّ مُنْدَرِجـــاً
وأيّ عِلـــمٍ لدَيْهـــا غَيْـــر مُنْـــدَرِجِ
وكـــمْ له مُعجِـــزات ما لَهـــا عَـــدَدٌ
جَلَّتْ عَنِ الحَصْرِ مِنْ فَرْدٍ ومُزْدوجِ
عمـــتْ شفاعَتُـــهُ لِلخَلْـــق كلهِـــمُ
وبالوَسيلَـــةِ يَـــرقَى أرْفَـــعَ الـــدَّرَجِ
محمـــدٌ خَيـــرُ خَلْـــق اللهِ قاطِبَـــة
نورُ الهُدَى وإمامُ الرّسْلِ والسُّرُجِ
يا حادِيَ العيسِ عَرِّجْ نَحْوَ أرْبعِـــهِ
باللهِ عُجْ بي على ذاكَ المَحَلِّ عُـــجِ

لله قَــوْم إلى مغْنــاهُ قــدْ وصَلــوا

بالعزْمِ إذْ وَصلوا الرَّوحات بالدّلج

ساروا فَزاروا وفرْطُ الذَّنْبِ أقعَــدَني

وقدْ مَزَجْــتُ بدَمْعي كُــلَّ مُمْتَــزج

فالجِسْــمُ مُنتَحِلٌ والدَّمْــعُ مُنهَمِــل

والقلْــبُ مُشْتعِلٌ منْ حَرّه الوهــج

وقــدْ تقلّــدْت ما لا يُسْتطــاع لــه

مِنَ الخلافة أوْهَى مِنْ قوَى حُجَجِي

يا ربّ عَبْدكَ موسى قدْ دَعاك عَسَى

تُنيلُــهُ نَفحَة مِنْ نَصْــرِكَ الأرج

فكنْ نَصيري فقدْ أصبَحْــتُ مُكتئِبــاً

والقلــبُ مِنْ نكثِ الأوْزارِ كالسّبــج

قدْ ضقــتُ ذَرعاً بزَلاّتي وكُثرَتِهــا

فما اعتِــذاري إذا طلبت بالحُجَــجِ

وكمْ قطعــتُ من الأيّــام في لَعــبِ

وفي ضَلالٍ وكمْ ضيَّعْتُ مِنْ حجَــجِ

وفي البطالة لهْواً قدْ مَضَى عُمُــرِي

آهٍ لتضييعِــهِ في اللَّهْــوِ وَالمــرج

وكمْ عَصَيتـكَ جهْـلاً ثم تَستـرُني
وبابُ فضلـكَ عنِّي غَيـر مُرْتَتِـجِ[1]
منِّي الإساءَة والإحْسـانُ مِنكَ بَـدَا
مِنِّي الذُّنوب وكلّ الفضلِ مِنـكَ رُجِي
كمْ جُدْتَ بالفضلِ والإحسـانِ منكَ وكمْ
سَتَرْتَ بالفضلِ مِنْ أفْعَالِيَ السّمـجِ
إنِّي سَألتُـكَ بالسِّرِّ الذي ارْتفعَـتْ
به السَّماواتُ والأرضـونَ لمْ تمـج
أصلْحْ بفضلكَ ما قدْ كانَ من خَلـلٍ
واجْبرْ بحلمكَ ما قدْ بانَ من عـوج
واجْعـلْ لنا مخرجاً في إثرهِ فَـرج
فكمْ نُعامَـلُ بَعدَ الضيّـق بالفـرجِ
وصلِّ صَلاة على المُخْتارِ منْ مُضَرَ
ما لاحتِ الشُّهب في الآفاق كالسُّرج

وللطبيـب أبي عبـد الله بـن أبي جمعـة التلالـسي قولـه:

مخلـع البسيـط:

قلبي المبلّى له أوار * والجسم أودى به السقام
لما تولى الشباب عني * واستشعرت نفسي الحمام

---

[1] **أي غيـر مقفـل.**

*****

لما رأيت الشباب ولى * أذريت دمعي على الشباب * إذ عهده بان و اضمحلا
وليس يرجى له إياب * فقلـت يا نفس ليـس إلا * إن تسألي الفوز والمتاب

*****

فإن شيب الفـتى وقـار * تقبـح مهمـا بدا الأثـام
يا نفـس بادر دع التأني * فإنمـا عيشنـا منـام

*****

من لي برد الصبا ومن لي* هيهات لا يرجع الصبا* قد كنت فيه وكان شملي
يا صـاح غضـا وطيبـا* فكيف لي عنه بالتسلي* والصبر عن طاعتي أبا

*****

لأجلـه أدمـعي غزار * تنهـل سكبا على الدوام
الحـال هذا وإن جفني * بالسهد لا يعـرف المنام

*****

دع عنك ذكر الصبا وبادر * يا نفس للحج وأقلعي* واجتهدي وأتركي المعاذر
وجددي السير واسـرعي * لعل أن تسعد المقدار* لـك بخيـر واسمـعي

*****

أمّا ترى العشقين ساروا * وركبهـم قاصـدا أمـام
حاديهم دائمـا يغـني * هبـوا إلى الكعبة الحـرام

*****

يا من على الحج كان عازم* و راعه دربه البعيـد* أعدل إلى كعبة المكارم
كف الإمام الرضى السعيد * موسى الذي شاع بالأقالم* تبنى به دولة الرشيد

*****

لنـا بسلطانـه فخـار * بـاد على سائـر الأنـام

كل لسـان عليه يثـنى * شرفـه اللـه مـن إمـام

*****

ملوك ذا العصر ما رأينا* فيهم لعلياه من مثال* إحسانه دائم علينـا

ماض ومستقبل وحـال* عبادة لو أتى إلينـا* لما بكى أهله وقال

*****

شطت بأحبابنا الديـار * فـلا قـرار ولا منـام

يا لائمي في البكاء دعني* بالله لا تكثـر المـلام

*****

وفي **العشرين من شهر ربيع الثاني؛ كانت الزلزلة العظمى بالجزائر**؛ نعوذ بالله من الخسف، وسوء المنقلب. ثم اقتضى نظر أمير المسلمين ـ أعلى الله مقامه ـ الحركة لتدويخ **قطر المغرب**، وإضرام الفتنة بأرجائه، فخرج إلى محلته المنصورة **بالمنية** يوم السبت ثاني رمضان المعظم، وارتحل بجميع عساكره الموفورة: شرقيها، وغربيها صمد **جبل دبدو**؛ فجاس خلال دياره، ودكّ طور حصانته؛ وكان خروجه إلى قبيلته على **ثنية تيزي**، ثم على فرط، ثم دخل على **ثنية بلزوز**، ونزل **قرية**

تابريديا[1] فهتمهـا، وأغـارت هـوادي خليـة إلى **تـازا**، ثـم كَـرَّ قافـلاً، ومـرّ **بتاوريـرت**؛ فثلّـمَ الأسـوار، وخـرّب العمـران، وهـدّم العقـار؛ وغـدا عـلى حاضـرة ملكـه ـ الأعـز بالله ـ رابـع شـوال؛ فخيّـم **بالمنيـة** مـن ظاهرهـا بقيـة السنـة، وأيامـاً مـن الأخـرى. وقـال مخاطبـاً الوزيـر **عمـر بـن عبـد الله**[2]؛ المتغلـب ـ يومئـذ ـ عـلى ملـك **المغـرب**؛ كلمـة هي قولـه:

البسيـط:

السَّيـفُ أجْدرُ والخَطِّيُّ من خطـب
فيها اللجـاج وقول غيـر منتسـبِ

خطّ الكتائب لا خـطّ الكتـاب بهـا
جليـة الأمر عند السمر والقضـبِ

والحقُّ فرض على الإنسان مفترضٌ
والصّدق أفضل ما أودعـت في الكتب

ومن غدا السيف في كفيـه عاريـة
فكيف يدرك ما يرجـو من الأرب

[1] يسميهـا البكـري (تابريـدا). المغـرب، ص ص: 88 ، 90. وهي في الأراضي المغربيـة الآن.

[2] المعـروف باليابـاني.

فكم تحــاول أمراً ليــس تدركــه

تخطي الطريق وكم ترمي فلا تصب

قد خنــت من بعد أيمــان مؤكــدة

وتلك عادتكم في سالف الحقــب

وكم تجيــب لداعي الــغَيِّ مبتــدراً

وإن دعوتــك يوم الحرب لم تجــب

فانصب إلى الحرب ميداناً تشيب له

سود الذوائب بين الحرب والحــرب

قدمــت طائــرك المشؤوم إنَّ لــه

دلائــلاً ظهــرت في منزل خــرب

أخطأت في رأي من خابت روايتــه

حتى اقتحمــت الرّدى من غير ما سبب

تخــوض بحراً ولا تخشى عواقبــه

وليس يسلكك لجّ البحــر بالنجــب

عانــدت ويحك من أعطاه خالقــه

ومن سما ذكره في العلــم والكتــب

ومن يعــارض أمر الله معترضــاً

يُمسي ويصبح في بحرٍ من التعــب

أيَمْنَــحُ المــرء والقهّــار يمنعــه

أو يوهب الأمر والوهّاب لم يهــب

كم غاضب قبلكـــم قد عاد منتهبــاً
وطالب خاب والمطلوب لم يخـــب
من رام إدراكنـــا رام المحـــال ولا
ينجو من السّيف من يلج في الهرب
كم رام غيركـــم ما رمتمـــوه فمـــا
نالوه وانقلبـــوا في ســـوء منقلـــب
جُرْتُـــمْ على الله في أحكامه ولقـــد
قطعتـــمُ الدهر بين اللّهـــو واللّعـــب
هتكت ستر مرين طالمـــا ستـــروا
قتلـــت ما لكـــم غـــدراً بلا سبـــب
تعمـــدا جـــرءة أخليـــت دارهـــــم
ولم تدع لبني الأمـــلاك من عقـــب
فلا يغـــرّك ما قد كـــان من لعـــب
شمِّرْ إزارك جاء الحـــق فارتقـــب
لمـــا دعـــوت على بعـــد أجبتكـــمُ
وقد دعونـــاك من قرب فلم تجـــبِ
وقد نهضـــت بعون الله متّكـــلاً
على الإلـــه ومن يرجوه لم يخـــب
بعسكر لجب ضاق الفضـــاء بـــه
كالبحر أعْظِمْ به من عسكر لجـــب

عَرَمْرَم زاخــر فاضـــت مواكبـــه

كأنه سحــب أربــت على سحــب

من كل ليث شجاع فـــارس بطـــل

حامي الذّمار من الأعجام والعـــرب

على سوابـــق خيل ضمّـــر عُـــرُبٍ

تزهى بحليتهـــا كالخُـــرَّد العـــرب

من أحمر عسجديٍّ اللّـــون مذهبـــه

وأشقـــر كشعاع الشمـــس ملتهـــب

وأدهـــم متنــــه ليـــــل وغرتــــه

صبح فيا حسنه من منظر عجـــب

وأشهـــب كشهاب إن رميـــت بـــه

شيطان كل عدو في الوغى تصـــب

فالحمر من فلق والشّقـــر من شفـــق

والدّهم من غسق والشّهب من شهب

تشـــن غاراتهـــا في كــــل منهلــــة

فتنثـــني بالـــذي نهـــواه مـــن أرب

بها وطئنـــا بـــلاداً لا سبيـــل لهـــا

وما أردنـــا تناولنـــــاه من كثــــب

حيث الهـــوادج والبوجات مشرقــــة

لاحت لمنزل رأس العين كالشّهـــب

وافــت بنــو عامر من كل ناحيــة
في خيلها العرب أو في نجعهـا الأشب
جاءت إلى نصر حــزب الله وابتدرت
كالأسد تبدو عليها سورة الغضــب
ومــن امــام عبيــد الله في أمــم
فاضــت مواكبها بالبيــد والشعــب
كتائب ضاقت الأرض الفضاء بهــا
في ظــل ألويــة خفّاقــة العــذب
بحر على البــر مرتــجّ غواربــه
من فوقه قطع الرايــات كالسّحــب
ونحــن نقدمهــم والنّصــر يقدمنــا
والأرض تهتزُّ بالفرسان والنجــب
ثــم ارتحلنــا لتامَسْلَمْــتَ مرحلــة
وكوكــب الفتح قد وافى ولم يغــب
إلى ثنيّــة بلــزوز توجيــن أتــت
لمستــراح أرحناهــا مــن التعــب
ثم ارتحلنــا على اســم الله تقدمنــا
طلائــع الفتح في ابرادها القشــب
حتى نزلنــا على دبــدو وساحتــه
جالت عساكرنا في السهل والهضب

لمـــا بـــدا للعـــدا ألاّ نجـــاةَ لهـــم
ولا قرار وقد أشفوا على الشجـــب
تضرّعـــوا وأتوا طوعـــاً لخدمتنـــا
بالذّل والذّعر خوف الهلك والعطب
وقـــد عفونـــا وإنّ العفـــو شيمتنـــا
ومن تردّى رداء العفـــو لم يخـــب
ونـــال من عفونـــا ما كان يأملـــه
حمـــو بن زيان بعد القهر والغلـــب
ومن هنـــاك لوينـــا نحـــو ملويـــة
وكم تركنـــا بها من منـــزل خـــرب
ما كل من قاد جيش الزّحف قائـــده
وليـــس يذكر غير الماجد الـــدرب
لمّا دعوناك من قـــرب فلم تجـــب
علمت قولك بين الهـــزل واللعـــب
ثنيـــت عنك عنان العـــزم محتكمـــاً
بالرّأي والحزم لا عجزاً عن الطلب
لا بـــدّ من ساعـــةٍ بيـــني وبينكـــمُ
تغيب شمس الضُّحَى فيها ولم تغب
وتكتسي الأرض ثوباً كالعقيـــق ولا
تجـــري الجداول إلاّ من دّم ســـرب

والخيـــل جائلـــة والأســـد ذاهلـــة
والأرض عارية من ثوبها القشـــب
هنـــاك تجني ثماراً كنت غارسهـــا
ويحكـــم الدهرَ بالآيـــات والعجـــب
ونأخـــذ الثأر ممن قد دنـــا وقَصَـــا
مـــن العـــداة وهـــذا منتـــهى أربي
ثم الصلاة على المختار من مضـــر
خير البرية من عجـــم ومن عـــرب

وفي آخـــر هـــذه السنـــة؛ ورد عـــلى البـــاب الكريـــم ــ أسمـــاه الله ــ رســـول ملـــك **المغـــرب** ووزيـــره؛ خاطبـــاً سلـــم أميـــر المسلميـــن ــ أيـــده الله ــ ومعتـــذراً عمّـــا فـــرط؛ فأجابـــت سياستـــه رغبتـــه، وانصـــرف بقـــرة العيـــن مـــن أملـــه. وفيـــه ــ أيضـــاً ــ قـــدم عليـــه رســـول الأميـــر **أبي عبـــد الله الموحـــد**؛ وقـــد ضاقـــت **بتدلـــس** يـــده، وقـــل فيهـــا ناصـــره؛ فأرســـل بتسليمهـــا للأميـــر المسلميـــن؛ ثـــم عـــرض ابنتـــه عليـــه؛ التماســـاً لرضـــاه؛ رجـــاء لإبقائـــه عليـــه في **بجايـــة** بلـــده؛ فتلـــقّى ذلـــك ــ أعـــلى الله أمـــره ــ بالبشـــر، وقبـــول المعـــاذر، وإجابـــة الســـؤال، وسعـــة البـــر والإحســـان؛ وصـــرف معـــه ــ لعقـــد الصهـــر المبـــارك بينـــه وبيـــن مرسلـــه، والإتيـــان بكريمتـــه ــ **مهـــدي بـــن عيـــسى**

اللؤلـــؤي.

وفيهـــا أيضـــاً؛ وصــــل إلى البـــاب الكريــــم ــ أسمـــاه الله ــ **الأميـــر عبـــد الرحمـــن بـــن أبي يفلوســـن علـــي، وأبـــو بكـــر ابـــن رحـــو ابـــن أبي الطـــلاق العسكـــري** في مـــلإ فصيلتـــه، **ومحمـــد بـــن عبـــو المنبـــاوي، ومحمـــد بـــن الزبيـــر بـــن طلحـــة بـــن مظفـــر العمـــراني**، وكافـــة رجـــال **المعقـــل**؛ المستصرخيـــن أميـــر المسلميـــن ــ أيـــده الله ــ علـــى طلـــب المغـــرب؛ فأكـــرم نزلهـــم، وسهـــل قصدهـــم، ووعدهـــم إبلاغـــه مناهـــم في إبـــان غيـــر ذلـــك؛ فانصرفـــوا لإثـــارة الحـــرب **بسجلماســـة** ومـــا إليهـــا. وهنـــا انتهـــت السنـــة. والبقـــاء لله وحـــده.

* * * * *

سنة سبع وستين وسبعمائة[1]

في الرابع من أيام هذه السنة؛ كان دخول مولانا أمير المسلمين – أيده الله – من معسكره الكريم بالمنية إلى دار ملكه العزيز؛ بعد أن صرف إلى كور قطره قوادها: إلى بني راشد؛ زيان بن أبي يحي بن ونزمار، وإلى منداس وونشريس؛ إبراهيم بن محمد بن تاحاجيت المصوجي، وإلى شلف؛ عطية بن موسى، وإلى المدية؛ واتفل بن عبو بن حمادن، وإلى تدلس؛ يعيش لبن راشد بن الزعيم المجني، وإلى وجدة؛ موسى بن خالد بن محمد. وتقدم إلى جميعهم باستركاب الجيوش، واقتناء العدد، وإقامة الحركات. ومرّ صدر السنة في سكون ودعة؛ سوى أن دار الصنعة السعيدة تموج بالفعلة؛ على اختلاف أصنافهم، وتباين لغاتهم وأديانهم؛ فمن: دراق، ورماح، ودراع، ولجام، ووشاء، وسراج، وخباء، ونجار، وحداد، وصائغ، ودباج، وغير ذلك؛ فتستك لأصواتهم وآلاتهم الأسماع، وتحار في إحكام صنائعهم الأذهان، وتقف دون بحرهم الهائل الأبصار؛ ثم تعرض –

---

[1] 1365م.

قومتهم أصيلان كل يوم ـ مصنوعاتهم فيه؛ بين يدي الخليفة أيده الله، ويخزن كل بحجارٍ صنعه المعد له، وينصف العاملون من أرزاقهم عدلاً؛ هكذا أبداً. وأظلت ليلة مولد خير البشر، الشفيع في المحشر؛ فكان الاحتفال في بيتتها فائقاً سواه بأمثالها. وأنشد مسمعها لمولانا الخليفة ـ نصره الله ـ مدحاً في خير الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام؛ قوله:[1]

المتقارب:

ألفتُ الضنى وألفتُ النحيبا
وشبَّ الأسى في فؤادي لهيبَا
وحقَّ لنفسي أسًى أن تذوبا
وللدمع من مقلتي أن يصوبا
وقد كنتُ بالوصل منكم قريباً
فأصبحتُ بالهجر منكم غريبَا[2]
جفاني الحبيب فسرَّ الحسود
وأدنى البعيد وأقصى القريبا

[1] وردت هذه القصيدة في بغية الرواد وواسطة السلوك (المخطوط والمطبوع).

[2] في: و. س. (مخ + مط): ((فأصبحت بالهجر أخشى الرقيب)).

وذَنْــبِيَ أوْجَــبَ هجــري فمـــا
جفــانيَ حــتى جنيــتُ الذنوبـــا[1]

فيا ليــت شعــريَ هــل عطفــة
يكون بها الدهــر عيــشي خصيبــا[2]

فما لي عــلى الهجــر مــن قــدرة
فقد آذَ جســمي وأفــنى القلوبــا[3]

وقفــت رجــائي بكــم فارحمــوا
وقــوفي عــلى بابكــم مستريبــا

غريــــب فريــــد أنــــا بينكــم
وحاشاكــمُ تفــردون الغريبـــا

ومــا ليَ ذنــب ســـوى حبكــم
وتـــالله عـــن حبكـــم لـــن أتوبـــا

[فــإن تقتلــوني حــلالاً لكــم
أنا أرتــضي ما يــرضّي الحبيبــا][4]

---

[1] سقــط هــذا البيــت في واسطـــة السلــوك.

[2] ورد هــذا الشطـــر في: و. س. (مخ + مط): ((ببوصــل وعيــش يكــون خصيبــا)).

[3] ورد هــذا الشطـــر في: و. س. (مخ + مط): ((يذيــب النفــوس ويغــشى القلــوبا)).

[4] هــذا البيــت ساقــط في هــذه النسخـــة مـــن بغيـــة الـــرواد.

وإن تبعــــدوني عــلى زِلــتي

فشأنكـــــمُ[1] تغفـــرون الذنوبـــــا

وإنْ ترحمـــوا ترحمـــوا صبَّكــم

فظــل رضاكــم يغــطي العيوبــا

أسيــر هواكــم قتيــــل نواكــــم

لعــلّ رضاكــم يكــون قريبـــــا

فــؤادي عليــل وجســمي نحيــل

وسقــمي طويــل قَدَ أعْيَ الطّبيبــا

هجــرتُ الهجــوع نثرتُ الدمـــوع

فســرّي أذيــع وقلــبي أذيبـــــا

أبَــكّي الرســوم وأرعى النجــوم

أقــاسي الهمــوم معـــاً والخطوبــا[2]

أعاتِــب نفــسي عــلى زلــــتي

فيــزداد جسمي ضَــنَى وشحوبــا

مــسيء ألـــمَّ بذنــــب أذمَّ

وأجمــع لمّـــا أســا أن يتوبـــــا

---

[1] في: و. س. (مخ + مط): ((فشيمتكــم)).

[2] نفســه: جــاء هــذا البيــت هكــذا:

((بكيــت الرســوم رعيــت النجــوم * أداري الهمــوم معــا والخطوبــا)).

سألتُك يا خالقي توبة

فما زلت للسائلين مجيبا

خشيتُ المعاصي بيوم القصاصِ

إذ ما النواصي تشيب مشيبا

وأنت رقيبي يوم الحساب

كفى بك يوم الحساب رفيقا[1]

فكم قد لهوتُ وكم قد سَهوتُ

ولكن دعوتُ سميعاً مجيبا

عليماً بخَطْبي يُفَرِّجُ كرْبي

فمازال ربّي يزيل الكروبا

[مضى العمر يا حسرتي في[2] الضَّلاَ

لِ واشتعل الرأس منه مشيبا

وأضحى من الشوق جسمي عليلاً

وأمسى من الهجر قلبي كئيبا][3]

أحنُّ إلى الفجر عند الطُّلُوع

وللشمس حين تروم الغروبا

إذا هبَّتِ الرّيحُ من طيبَة

تَعَطَّرَتِ الأرض مسكاً وطيبا

---

[1] لا يوجد هذا البيت ف: و. س. (مخ + مط).

[2] في: و. س. (مط): ((بـ)).

[3] سقط هذان البيتان من بغية الرواد التي بين أيدينا.

وأصبـــو[1] إليهـــا ومــــن أجلهـــا
أحـــبُّ الصَّبـــا وأحــــبُّ الجنوبـــا
[تهـــبُّ النواســـم مـــن أرضهـــا
فيـــزداد نـــار اشتيـــاقي لهيبـــا][2]
حنينـــاً وشوقـــاً إلى المصطـــفى
إلى مَـــنْ بـــه الله يمحـــو الذنوبـــا[3]
إلى خيـــرِ هـــادٍ هَـــدَى للرَّشـــادِ
جميـــع العبـــاد وأخـــلى الخطوبـــا[4]
لخيـــر[5] شفيـــع مكيـــن رفيـــع
أتى في ربيـــع فأحيـــا القلوبـــا
فَأَكْـــرِمْ بشهـــر حَـــوَى كلّ فخـــر
بميـــلاد[6] بـــدرٍ بـــدا لـــن يغيبـــا
كريـــم السجايـــا عظيـــم المزايـــا
جزيـــل العطايـــا جميـــلاً مهيبـــا

---

[1] فـ: و. س. (مخ + مط): ((فأصبـــو)).
[2] سقـــط هـــذا البيـــن مـــن بغيـــة الـــرواد هـــذه.
[3] جـــاء هـــذا الشطـــر في: و. س. (مخ + مط): ((أثـــار الغليـــل وأذكى الوجيبـــا)).
[4] في: و. س. (وجـــلّى الخطـــوب).
[5] في: و. س. (مخ + مط): ((أجـــلُّ)).
[6] نفســـه: ((بمولـــد)).

فيــا حــاديَ الرَّكْبِ[1] نحو الحــمَى

إذا جئــت ذاك الجنــاب الرحيبــا

وزاد الهــوى حيــن زال النــوى

وجئـــت اللّـــوَى واعتمدت الكثبــا

لقبــر الرســول مُنَــايَ وسُــؤْلي

عــسى بالوصول سأحْظَى نصيبــا[2]

لقبــر التهــامي وخيــر الأنــام

وبــدر التمــام شفيعــاً حبيبــا[3]

[فبلــغ إليــه ســلامي عليــه

فــإن لديــه لسقــمي طبيبــا

وإن جئــت نجــداً وأعلامهــا

فشــق ثــراهــا بدمــعي سكيبــا

فيا سعد قوم حــدو كل يــوم

وعن وضع نوم تجافــوا جنوبــا

حدوا بالنياق فزاد اشتيــاقي

وسالت سواقي دمــوعي صبيبــا][4]

---

[1] نفســه: ((العيــس)).

[2] جــاء هــذا البيــت في غيــر هــذا الترتيــب في واسطــة السلــوك.

[3] جــاء هــذا البيــت فـ: و. س (مخ + مط) هكــذا:

((لقبــر التهــامي لبــدر التمــام * لخيــر الأنــام شفيعــاً حبيبــا))

[4] سقــط هــذان البيتــان مــن بغيــة الــرواد الــتي بيــن أيدينــا.

وزمّـــوا الحمـــول وأمّوا الرســـول

فجابـــوا السهـــول لـــه والسّهوبـــا[1]

تَسَـنّـى لهـم قصدهـم عندمـــا

تَسَنّـمَ كـل نجيـب نجيبــــا[2]

ســـروا بالدجون[3] ففاضـــت جفـــوني

وقـــد خلّفـــوني مشوقـــاً كئيبـــا

فقلـــبي من الشـــوق في مشـــرق

وجســـميَ في الغرب أمسى غريبـــا[4]

سقـــوني كؤوســـاً تذيـــب النفـــوس

ويرجـــوك موسى تزيـــل الكروبـــا

بحرمـــة أحمـــد خيـــر الـــورَى

رجـــائي وظـــنّي بـــه لـــن يخيبـــا

نـــبي أتى رحمـــة للعبـــاد

فأمـــحى وأمحـــص عنّـــا الذنوبـــا[5]

[وسَـــنَّ الشريعـــة للمؤمنيـــن

وشَـــنَّ على الكافريـــن الحروبـــا][6]

---

[1] في: و. س (مخ): ((والشعوبـــا))؛ أمـــا (مط): ((والشهوبـــا)).

[2] اختلـــف ترتيـــب هـــذا البيـــت في: و. س. (مخ + مط).

[3] في: و. س. (مط): ((في الدجـــون)). بينمـــا سقـــط البيـــت الكامـــل مـــن (مخ).

[4] في: و. س. (مخ + مط): ((وجســـمي بالغـــرب أضـــحى غريبـــا)).

[5] نفســـه: ((فمـــحّي ومحّـــص عنـــا الذنوبـــا)).

[6] سقـــط هـــذا البيـــت مـــن بغيـــة الـــرواد

بمولــده أشــرق الأفــق نــوراً

وأُلبِسَــتِ الأرْضُ حسنــاً قشيبــا

وكســرى تساقــط إيوانـــــه

وكــاد من الرعــب يلـقى شعوبــا[1]

ونيــران فــارسَ قــد أخمـــدت

وإخمادهــا كــان أمــراً[2] عجيبــا

[وجفَّــت مــوارد أنهارهــم

وقــد اعقبــت بعــد ريّ نضوبــا][3]

وحــنَّ لــه الجــذع مستوحشــاً[4]

وأبــدى إليــه الأسى والنحيبــا[5]

[دعــا بالعبــاد لسـقي البــلاد

فأخصــب ما كــان منهــا جديبــا][6]

وشــقّ لــه البــدر عنــد تمــامٍ[7]

وكلّمــه الظــبي يشكــو الخطوبــا

---

[1] في: و. س. (مخ): ((شغوبــا)).

[2] نفســه: ((ســراً)).

[3] سقــط هــذا البيــت مــن بغيــة الــرواد.

[4] في: و. س. (مط): ((مستانســاً)).

[5] في: و. س. (مخ) ((وأبــكى إليــه البكــا والنحيبــا))

[6] سقــط هــذا البيــت مــن بغيــة الــرواد، وواسطــة س. (مط).

[7] في و. س. (مخ + مط): ((التمــام)).

وكـــم معجـــزات لـــه أعجـــزت
جميـــع الورى شاعـــراً أو خطيبـــا

عليـــه الســـلام مـــا نـــاح الحمـــام[1]
وما أضحك الروض ثغـــراً شنيبـــا[2]

وللحـــاج أبي عبـــد الله محمـــد بـــن أبي جمعـــة التلالـــسي
موشحـــة وهي:

لي مَدمـــعٌ هَتّـــانْ * ينْهـــل مثـــل الـــدررْ
قـــد صيّـــر الأجفـــانْ * مـــا إنْ لهـــا مـــنْ أثـــرْ
*****
حـــقٌ لـــه يجـــري* دمّاً على طول الدوام* مذْ جدّ في السير
ناس إلى خير الأنام* عافني وزري* يا صاح عن ذاك المقام
*****
وســـارتِ الأُضعـــانْ * يحـــدي بهـــا في السحـــرْ
فاستبشـــرَ الرُّكبـــانْ * بقـــرب نيـــلِ الوطـــرْ

[1] هـــذا الشطـــر مختـــل الـــوزن. وكـــذا الحـــال في: و. س. (مخ)؛ حيـــث جـــاء الشطـــر مختـــلاً هكـــذا ((عليـــه الســـلام مـــا تبـــكّى حمـــام)). أمـــا (مط) فجـــاء سليمـــاً هكـــذا: ((عليـــه الســـلام بطـــول الـــدوام)).
[2] في: و. س. (مط) ((قشيبـــا)).

*****

يا سعـــد من زارْ * قبر النبي المصطفَى * محمد المختــارْ
قطب المعالي والوفَا * في مدحه قد حــارْ * الخلق طراً وكفَى

*****

في محكـــمِ القـــرآنْ * وشرحـــه والسِّيَـــرْ
فضَّلــــه الرحمـــانْ * عـــلى جميـــع البشـــرْ

*****

يا حـــاديَ الركـــبِ * بالله إنْ جئتَ البقيـــع* تحية الصبٌ
بَلِّغْ إلى الهادي الشفيــعْ* غريب بالغربِ* عن ذلك المغنى الرفيعْ

*****

وليـــس لي إمكـــانْ * يُنهِضـــني للسفـــرْ
إلاَّ مِـــنَ السُّلطـــانْ * الملـــك المظفـــرْ

*****

مَنْ لم يـــزلْ يسمـــو * إلى المعالي كل حينْ* ذاك أبو حمُو
أعني أمير المسلميـــنْ* طاعتــه غنـــمٌ * نلنا به دنيا ودينْ

*****

أظْهَـــرَ في البلـــدانْ * مـــن عدلـــه المشتهـــرْ
وعَـــمَّ بالإحســـانْ * للبـــدو ثـــم الحضـــرْ

*****

قابلـــه إسعـــادْ * تكـــل عنه الألسنةْ * قبيـــلُ عبد الـــوادْ
به غَدَتْ في سلطنةْ* أيَّامُـــه أعيـــادْ * يا ليتها ألفَيْ سنةْ

*****

ملك بني زيانْ * بالمشرفي الذّكر

أحياه إذ قد كانْ * ليس له من خبر

*****

تاهتْ تلمسانْ * بملكه على البلادْ* صار له شانْ

وسَعْدُهُ في ازْدِيادْ * قدْ ضَلَّ إنسانْ* قالَ بها يشكو السُّهادْ

*****

ليلُ الهوَى يقظانْ * والحبُّ يربو السَّهر

والصَّبْرُ لي جوانْ * والنَّومُ من عيني

*****

وفي الرابع والعشرين من أيام هذا الشهر؛ أرسل أمير المسلمين ـ أيده الله تعالى ـ الفقيه **أبا عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني**، و**محمد بن عمر البريطل إلى المغرب**؛ لإكمال عقد المهادنة؛ فعادا بمراده. ثم صرف ـ أيده الله ـ وزيره **عمران بن موسى**؛ للقاء كريمته؛ بنت الأمير **أبي عبد الله محمد بن يحي الموحد**؛ حفاية بها، وتنويها بقدرها، ورعياً لأصالتها. ووصل بها للحضرة العلية في العشر الأول؛ من شهر ربيع الثاني. وفي حادي عشر شعبان؛ توفي قاضي الحضرة؛ الفقيه **أبو العباس**

أحمد بن الحسن رحمه الله؛ فاعتاض منه أمير المسلمين ـ أيده الله ـ الفقيه أبا عثمان سعيد بن محمد العقباني[1]؛ من فقهاء البلد.

وفي هذه السنة استجاش بابو الرومي[2] أهل ملته؛ لمحاربة بطرو[3]؛ ملك قشتالة[4]؛ لأمر نقمه عليه في دينهم، ولاستباحة قطر الأندلس؛ إرادة إطفاء نور الله ((وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ))[5] المشركون. فاستصرخ ملكها السلطان، المجاهد، الأفضل؛ أبو عبد الله محمد ابن السلطان أبي الحجاج ابن السلطان أبي الوليد ابن نصر[6] ـ أعزه الله ـ مولانا أمير المسلمين ـ أيده الله ـ لفادحهم المبين في

---

[1] هو الإمام العلامة الفقيه سعيد بن محمد بن محمد العقباني التلمساني. ولد بتلمسان سنة 720هـ/1320م؛ وتوفي بها سنة 811هـ/1408م.

[2] يقصد البابا في روما.

[3] هو بيدرو الثاني ملك قشتالة؛ الملقب بالقاسي (دون بطره). خلف أباه الفونسو على ملك قشتالة سنة 1350م/751هـ. وقتل خلال ثورة ضده سنة 1368م/770هـ.

[4] هي Castille. تبعت في البداية مملكة ليون؛ ثم انفصلت عنها؛ وبعدها توحدت مع مملكة أرغون.

[5] نزلت الآية الكريمة هكذا: ((يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ)). سورة الصف؛ الآية: 8.

[6] هو الغني بالله محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل؛ سلطان غرناطة. حكم من 755هـ/1354م. إلى 793هـ/1390م. مع انقطاع في مسيرة حكمه؛ دام ثلاث سنوات؛ من 760هـ/1358م إلى 763هـ/1361م.

شهر رمضان؛ بقصيدة من نظم شيخنا الفقيه الجليل المرحوم **أبي البركات محمد بن إبراهيم البلفيقي**[1] رحمه الله وهي:

الكامل:

هل من مجيب دعوة المستنجد
أم من مجير للغريب المفردِ
هل من ولي ناصر الهدى
أو ذي حمى يحمي حنيفة أحمدِ
هل من معين أو كريم يرتجى
أو مسعد أو مرشد أو منجد
هل من جواد في الزمان مؤمّل
أو آخذ عند الشدائد باليد
هل راحم لعصابة مقطوعة
ما بين أعداء وبحر مزبد
هل ناظر فيهم بنظرة رحمة
يرجو بها نيل الشفاعة في غدِ
هل واصل لذمامهم أو سامع
لصريخهم في نصر دين محمد

[1] هو القاضي الأديب الشاعر أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم البلّفيقي المعروف بابن الحاج. (أحد شيوخ ابن الخطيب). ت 771هـ/1369/.

هــل من طبيــب مــاهــر متــدارك

رمق الجزيــرة قبل حتــف مجهــد

تــالله إن لــم يأتهــا فــرج تــرى

فيــه لطائــف صنعــه فكــأنْ قَــدِ

أين الألَى شــادوا المعاقــل قبلنــا

فيهــم يحــق لعاقــل أن يقتــدي

لعبــت بهم أيدي الزمان فأصبحــوا

ما بيــن نــائي الــدار أو مستبعــد

أين الألَى عمروا البــلاد ومهَّــدوا

أرجــاء هــذا القطــر أي تمهُّــد

أيــن الألَى كانــوا بها في غبطــة

واستوطنــوا في ظل عيش أرغــد

هــذا وآمــــاد البــلاد فسيحــة

وقواعــد الإســلام ذات تعــــدد

إيــهٍ وكيــف وما بقي فيها ســوى

ما عُدَّ في التمثيــل شبــه المربَــد

لا غروَ إن ضاقــت بنا أقطارهــا

واستنزلونــا للحضيــض الأوهــد

والعقــد إن تنثــر جواهــر سلكــه

متبــــدد لا شــــك أي تبــــدد

هـــذا الصليـــبُ تكالبَـــتْ عُبَّـــــادُه

وسطـــت على توحيـــد كل موحِّـــد

وتطاولـــتْ أعناقهـــا لمَّـــــا رأتْ

نـــار الخـــلاف شـــارة لـــم تخمـــد

واستنفـــرت أشياعهـــا وجموعهـــا

واستكثـــرت من كل بـــاغ مفســـد

واستقبلـــت أرجـــاء أندلـــس وقـــد

غـــص الفضاء بكل طـــاغ معتـــد

مستظهريـــن على البـــلاد وأهلهـــا

بعظيـــم جيـــش مثلـــه لـــم يعهـــد

مستضعفين لحرب أنصار الهـــدَى

والله مـــن دون الطغـــاة بمرصـــد

فاستخلصت بعض المعاقل يا لهـــا

من حســـرة سَرَّتْ قلـــوب الحُسَّـــدِ

لا كنها ضاقت صدور أُولي النـــهى

لمصابهـــا مـــن ترحـــة وتوجُّـــد

ولقـــد تعلقـــت المطامـــع بعدهـــــا

بأجـــلِّ قطـــر فـــوق أوج الفرقـــد

قفـــل الجزيـــرة بابهـــا وركابهـــا

لم لا ومنه الفتـــح لا شـــك ابتـــدي

هــو عــدة للمسلميــن وملجــأ

ومــلاذ أمْــنٍ أو مقــام تعبُّــد

فيــه الجهــادُ تَفَتَّحَـــتْ أبوابــه

والْتَاح نور الرشــد فيه لمن هُــدي

لــولاهُ لــم يُلْــفَ السبيــل لــوارد

كــلاًّ ولــم يسهُــلْ مــرام الوفَّــدِ

من بلـــغ أخـــوان صـــدقٍ دونهـــم

لُجَــج البحــار نــداء داعٍ مرشــد

مستنصـــراً لعصابـــة الإســـلام في

أقصى البلاد فهــل له من مسعــد

إنّا بأندلـــس نعالـــجُ معضـــــلاً

من داء ذا الخطب المقيــم المقعــد

نمسي ونصبح في مقارعة العــدى

ونروح في ريب الزمان وتغتــدي

ولطالمـــا عودتمونــــا منكـــــمُ

صنعاً جميل القصد عذب المــورد

طـــوراً بإمْــدادٍ وإرْفــادٍ فكَـــمْ

لكمْ على هــاذي الجزيــرة من يــد

أو تــارة بإعانـــة منكـــم لنّـــا

بالسمهريَّـــة والقنـــا المتقصــــــد

والآن قد قطـــع الزمـــان بجـــوره
مـــا بيننـــا مـــن عهدنـــا المتأكِّـــدِ
أسلمتمونـــا للعـــداة كـــأن مـــن
نبـــذ الإخـــاءَ يكـــون غيـــر مُفَنَّـــدِ
حاشـــا وكـــلاَّ أنْ تخيـــب ظنونـــا
في صـــدق ودِّكُمُ وحسن المقصـــد
ولْتَقبلـــوا بوجـــوه لحظكـــمُ عـــلى
من ينتـــمي لكم بصـــدق تـــودُّدِ
وتزودونـــا بالدعـــــــاء فإنـــــه
نعـــم البـــلاغ حقيقـــة لمـــــــزوَّدِ
هذا أقـــلُّ حقـــوق إخـــوان الصفـــا
أمثالكـــم في غيبـــة أو مشهـــــد
ولئـــن نسيتـــم عهدنـــا وذمامنـــا
وبـــدا لنـــا من ذاك ما لـــم نعهـــد
فَلْنَصبِـــرَنَّ على الزمـــان وريبـــه
بتجلُّـــدِ الأحـــرار أيَّ تجلُّـــــــد
مـــولاي يا رب العبـــاد ومـــن لـــه
تعنـــو وجـــوه الراكعيـــن السُّجَّـــدِ
بجلال قدر المصطفى خير الـــورى
هـــادي الأنام إلى الطريق الأرشـــد

ذي الفخر والشرف الصميم المنتقى
في ذروة البيـت الرفيـع السـؤدد
شـرف الوجود وصفوة الله الـذي
ذخـرتْ له دار النعيـم السرمـدي
أزكى البريـة محتـداً وأجل مَـنْ
ينـمى إلى عليـاء ذاك المحتـد
معـنَى الكمال وسيد الإرسـال في
يـوم الحسـاب ويا له من مشهـد
خير الأنام وخير من وطئ الثـرى
وشفيـع هذا الخلـق يوم الموعـد
المصطـفَى والمرتجَى والمجتـبَى
والمستعـد لهـول يـوم المشهـد
أنـت الذي تـرجى لدفـع ملمـة
عَمَّتْ بها البلـوى وخَطْـبُ مُؤيِّـدِ
فانْشُرْ على هاذي الجزيرة رحمـة
تشـفي بها صدر الشَّـجِيِّ المكمـد
واصرفْ طوارق فتنـة عن أهلهـا
قد سُـلَّ فيهـا كلُّ سيـف مُغمـد
وانصرهُمُ النصـرَ العزيـز بها ولا
تقطـعْ عوارفَ فضلـك المتعـوَّد

وارحم ضراعة من بها من ذي نوى
ألِفَ التَّغَرُّبَ بالمكان الأبعد
وأعزَّ دين الحق حتى لا يرى
في أرضها للشرك موضع مسجد
وأمدَّ بالتأييد من يحمي حِمَى
دين النبيّ فأنت خَير مؤيِّد
واقر للدين الحنيف قرارهُ
رغماً على أنف الشقي المبعد
وأشمل جميع المسلمين برحمة
وتجاوُزٍ وتلطُّفٍ وتَغَمُّد
وامدد ظلال الأمْن في أرجائهم
ما بين ساحة مُتْهِمٍ أو مُنْجِد
وصلِّ الصلاة على النبيّ محمد
من لم نكن لولاَ هداه لِنَهْتَدِي

وبكتاب ورسالة؛ من إنشاء الوزير الفقيه الجليل لسان الملة **أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن الخطيب السلماني**[1] ــ رحمه الله ــ نصه بعد

[1] هو ذو الوزارتين الشاعر الأديب الفذ لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني. ولد بمدينة لوشة بالأندلس سنة

الصدر؛ **أمّا بعد حمد الله**، ناصر دينه الحق، ومظهر كلمته العليا، ومؤيد من لاذ بعز قدرته، واستعصم بحبله، وآوى إلى ظل عنايته، واعتمد على معهود لطفه وكرمه، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد، رسوله الكريم عليه الرؤوف الرحيم بأمته، المشفع في معاده الوسيلة العظمى إليه والملجأ العظيم في إظهار دعوته، ونصر ملته، وإعلاء حزبه، ونظم شمل فئته الغريبة على طاعته، والرضى عن آله وصحبه، أولي السوابق في جهاد من ألحد في آياته وكتبه، والأعمال التي أوضحت معالم دينه، فهم الأسوة في الاهتداء بالسنة، والحجة الكبرى في الإقتداء بالسيرة المرضية.

فإنّا كتبناه إليكم؛ كتب الله لكم سعداً يداني آمالكم، ونصراً يعلي سلطانكم، وجهاداً ينسب أثره الصالح إلى أعمالكم، وتأييداً يمد هذا الوطن بما يعود به الفخر عليكم؛ من **حمراء غرناطة**[1] ــ حرسها الله ــ وليس إلاّ ما دهم البلاد والعباد من

713هـ/1313م، ومات مقتولاً خنقاً في سجن الدولة المرينية بفاس سنة 776هـ/ 1374م.

[1] قصر الحمراء: هو القصر الملكي في غرناطة؛ بناه ابن الأحمر ومنسوب إليه.

خطــب الأعــداء، وتفاقــم الشــدة الــتي قــدم العهــد بمثلهــا. ومــا يــرجى مــن لطفــه الكريــم؛ في تقريــب ساعــة الفــرج وإدالــة العســر باليســر، وتثبيــت القــدم عــلى الجهــاد في سبيلــه، والحمــد لله كثيــراً؛ كمــا هــو أهلــه؛ فليــس إلاّ لطفــه وفضلــه، وأخوتكــم الكريمــة فضلهــا معــروف، وحقهــا متعيــن، وفخرهــا في الملــوك المجاهديــن شهيــر، وعملهــا الصالــح في إمــداد المسلميــن كريــم الأثــر؛ لازالــت تــحي معالــم سلفهــا، وتجــدد في صالحــات مــا يعــود عليهــا بالحســنى وزيــادة.

وإلى هــذا؛ يــا محــل أخينــا؛ وصــل الله سعدكــم، وحــرس مجدكــم؛ فإننــا ــ ومــن بهــذا القطــر مــن المسلميــن مــن لــدن أقامنــا الله وسلفنــا مــن قبلهــم؛ في سبيــل المدافعــة والجهــاد ــ لــم نبــل شــدّة أثقــل وطــأة، ولا حادثــاً أمــرّ وقعــاً، ولا خطبــاً أشنــع، ولا متوقعــاً أعظــم ممّــا تحــرك في هــذه الأيــام. وهــو أن **كبيــر ديــن النصرانيــة**[1]؛ الــذي لا يــردُّون حكمــه، ولا يعصــون أمــره؛ لمــا أعيــاه شتــات أمتــه، وإعانــة المسلميــن بعضهــم عــلى بعــض؛ حــرك منهــم أمــة تسـد الفضــاء، وتكاثــر الحــصى؛ لتعيــن **القنــد**[2] عــلى أخيــه[1]؛ فــإذا استقــل

[1] المقصــود هــو بابــا رومــا.

[2] أي الكونــت.

بالملك؛ صار الجميع يداً واحدة على المسلمين، وقسَّم بينهم البلاد وسوّغها، وعاهد الكل ألاّ يخاطبوه إلاّ من العمال التي عينها، والولايات التي حدها، والبلاد التي أباحها؛ ويختص البرجلوني[2] ـ من ذلك ـ بنزول المرية، وتجتمع الأساطيل الحربية على تملك الساحل، وقطع الجواز؛ واتفق رأيهم على إتلاف الغَلاَّت المستغلة؛ التي ترمق نفوس هؤلاء العباد الغرباء المنقطعين؛ أهل لا إله إلا الله.

وبالله سبحانه نستدفع ما لا نطيق، وبالله ندرأ في نحور هذا العدو الكبير، وبالله نستظهر على هذا الخطب العظيم؛ ((رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ))[3]. ولا مفزع ـ بعد الله ـ لهذه الأمة في الشدائد إلاّ إلى المسلمين أخوانهم في الدين، ورضعائهم ثدى كلمة التوحيد، وشركائهم في إرث الدعوة المحمدية، والفضلاء الذين لا يتهنؤن العيش مع صراخ الجار وضيم أخي الملة،

---

[1] ملك قشتالة هنا هو دون بطرة (بيدرو الرهيب أو القاسي)؛ أما أخوه الثائر فهو الكونت هنري.

[2] المقصود هو ملك الأراغون

[3] الآية بالكامل هي: ((ولمّا برزُوا لجَالُوت وجُنُوده قالُوا ربَّنا أفرغْ علَيْنَا صبْراً وثبّتْ أقدامنَا وانصُرْنا علَى القَوْمِ الكَافِرين)). سورة البقرة، الآية: 250.

ولا يلذون بالنعيم مع بؤس الأحبة. وقد كنّا عجلنا تعريفكم؛ وتعريف **الجهة المرينية**؛ خروجاً عن العهدة، وإبلاغاً لضرورة الإسلام، وتذكيراً بوجوب الإعانة على من يرجو لقاء ربه من المسلمين؛ فصدر الجواب منهم بما يرضي القلوب؛ من الإعانة، والامتعاض، والمساهمة، والشروع في المبادرة، وتعيين المعونة. والله لا يضيع **((أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً))**[1]. ومثلكم من يتنافس في الخير، ويساجل في البر، ويرغب في بقاء الذكر، وقبول القربة، وإرضاء الله في عباده، والرسول في أمته. **((وفي ذلك فليتنافس المتنافسون))**[2].

ونحن لا نملك إلاّ أنفسنا؛ وقد بذلناها في سبيل الله، وقمنا بحق استنفار المسلمين واستدعائهم؛ فالله الله في المسلمين؛ فما بعد العيشة من عذار؛ ووعد الله حق، والإسلام يجود بنفسه؛ فإن لم تنعر الهمم، وتغر الأحرار، ويقذف الله الحمية في قلوب المؤمنين؛ هلكت هذه الأمة، واستؤصلت الكلمة،

---

[1] الآية كاملة هكذا: ((وإنّ الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ إنَّا لا نُضيعُ أجْرَ مَنْ أحْسَنَ عَمَلاً)). سورة الكهف، الآية: 30.

[2] الآية كلها: ((خِتامُهُ مِسْكٌ وَفي ذلِكَ فَلْيَتنافَسِ المُتَنافِسُونَ)). سورة المطففين؛ الآية: 26.

وجهات الإعانة أعظمها النفوس وأدناها الدعوات ومن ((**يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ**))[1]. وما هو إلاَّ أن يطوى البساط، ويقع إلى الله سبحانه الانتقال؛ فـ ((**تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً**))[2].

وقد بعثنا - إلى تقرير هذه الضرورة - من نعتقد أنه يوفي الغرض فيها لديكم، ويلقي الحال مفصلاً ومجملاً عندكم؛ وهو الشيخ (فلان) وصل الله مبرته، وتمم من القبول والعصمة بغيته؛ وهو - حفظه الله - يشرح ما اقتضبه الكتاب، ويفسر ما أجمله الخطاب. والله يطلعه - من تلقائكم - على ما يعود بالإمداد والإعانة، ويتولاه بالحمل الذي يسهل مرامه. فلكم الفضل في تلقي وفادته عليكم؛ بما يشرح صدره، وييسر أمره، ويصل العادة الجميلة؛ من إعانة المسلمين، ونصر كلمة الدين؛ بما هو الخليق بمجدكم الأصيل، والمنسوب على فخركم الملوكي، وكرم علائكم السلطاني. والله

---

[1] الآية هكذا: ((فمَنْ يعْمَلْ مثْقَالَ ذرَّةٍ خيْراً يرهُ)). سورة الزلزلة، الآية: 7.

[2] الآية كاملة هكذا: ((يوْمَ تجدُ كُلُّ نفْسٍ ما عمِلتْ منْ خيْرٍ مُحْضراً وما عملتْ منْ سُوءٍ تودُّ لوْ أنّ بيْنها وبيْنهُ أمداً بعيداً ويُحذِّرُكُمُ اللَّهُ نفْسهُ واللَّهُ رءُوفٌ بالعباد)). سورة آل عمران، الآية: 30.

سبحانه يصل سعدكم، ويحرس مجدكم. **والسلام.**

فامتعض خليفة الله ـ أيده الله ـ لدين الإسلام؛ واستفزته أريحية الشجاعة، وعطفته على غرباء المسلمين بالعدوة؛ رحم الملة؛ وحجزه البحر الزاخر عن الوصول إليهم بنفسه؛ فأمدهم ـ في سبيل الله ـ بالأحمال العديدة؛ من الذهب، والفضة، والخيل المسومة، والمراكب المشحونة زرعاً؛ أجزل الله ثوابه، ونصر أحزابه، وجعل ـ إلى الفوز بالحسنى ـ مآبه. ثم كفى الله المؤمنين القتال، ورد بغيظهم؛ لم ينالوا خيراً الكفار.

فكتب السلطان **أبو عبد الله محمد بن نصر** ـ أعزه الله ـ إلى مولانا أمير المسلمين أيده الله؛ مثنياً شاكراً، ومعترفاً مادحاً؛ من إنشاء الفقيه **أبي عبد الله ابن الخطيب** المذكور ما نصه:

من (فلان) إلى محل أخينا؛ الذي نطنب في شكر مجده، ونسهب ونصول بمضاء حده، ونرهب السلطان الأكرم أبي حمو أبقاه الله شهيراً في الله؛ امتعاضه فائضة لورّاد الامال حياضه؛ لا زال ليثاً للنزال، ومن الأسنة غياضه، وغيثاً للنوال، وسبيل الجهاد رياضه؛ سلام كريم برعيم يخص مقامكم الأسمى، ومثابتكم العظمى؛ من معظم قدركم الذي لا

يجحد، ولا ينكر؛ المشيد بفخركم الذي أنواره تبهر؛ وحجته تظهر المثني على فضائلكم؛ التي عضَّد الخبر منها المخْبِرُ؛ ورحمة الله وبركاته؛

أمَّا بعد حمد الله؛ مربح بضائع البرِّ ومزكِّيها، ومتمم مواهب الأجور وموفيها، ومنوِّر القلوب المؤمنة إذا سرح زناد الاستبصار فيها، ومحقِّر الدنيا عند من قدّر قَدْرَ الآخرة؛ التي تليها، ملهم من سبقتْ له العنايةُ؛ لما يُنْمي درجاته ويعليها، ومنجد كلمة الحق بأهلها، وموالي من يواليها، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله؛ مطلع أنوار الهداية وجاليها، ومواصل بينات المراشد ومواليها؛ الذي بيَّن مراتب القرب من الله؛ متفاضلاً مراقيها؛ فجعل للجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس المزية التي وضحت معانيها، وسمت مبانيها؛ والرِّضى عن آلـه، وصحبه، وعترته، وحزبه؛ الذين طالت في نصرته أيديها، ودلَّت على هذه الغاية الشريفة مباديها؛ فسمحوا بالأموال التي لا يحصرها العدُّ ولا يستوفيها، وباعوا النفوس في مواقف الصبر؛ فكان الله مشتريها، ورعوه في أمته دفاعاً لأعاديها، وإصراخاً في الشدائد لمناديها، وحمية تشهد بخلوص المعاملات لباريها، والوفاء بعهد منقذها من

النار هاديها، والدُّعاء لمقامكم الأسمى بالصنائع التي تعذب مجانيها، وظهور آثار هذه الأعمال التي في الله تبديها، والمقاصد التي لرضاه جلّ وعلا تنويها.

فكتبناه إليكم من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى. وإلى هذا وصل الله لكم أسباب السعادة التي ألبسكم لباسها، وخوّلكم – وله الحمد – أنواعها وأجناسها. فإننا اتصلت بنا صرختكم في الله؛ التي أحسبت المطامع، وراقت الأبصار، وآنست المسامع، وأقامت الأدلة على أن ربوع المكارم عامرة، وسحاب بركة الملة هامرة، وحجة من قال وقع القحط في الرجال داحضة، وأقيسة من ادعى كساد أسواق الفضل متناقضة، ودعوى من زعم ركود الهمم كاذبة، ولدليل الحس والمشاهدة مجانبة؛ بل كنوز الله في الأرض وافرة، وأولياؤه متكاثرة، وألطافه خافية وظاهرة، ورحمته – في القلوب – كامنة، وبركة نبيه صلوات الله عليه وسلامه للخير ضامنة، وإنّ لواء رسوله رفع؛ فكنتم أول مبادر وتابع، ونداءه أسمع المسلمين؛ فكنتم خير سامع؛ سمحتم بالأموال الجمة، وقدحتم زناد الحمية والهمة، وساهمتم دينكم في الشدائد الملمة، ووفيتم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالأذمة، وراعيتموه في هذه الأمة، ولم تقنعوا

بإجابة الداعي، وإخلاص المساعي، وأعمال المتاجر الرابحة، والشروع في إنشاء الأساطيل السابحة، وتعين الحصص، وإزالة الغصص؛ حتى خاطبتم مظنات الانتصار، ومن يجاوركم من ملوك الأمصار، وأطلقتم لسان العز بالله في مقامات الاستنفار، وسهلتم السبيل إلى ذلك على النفوس التي لا ترضى بالعار، والهمم التي تدين بحماية الذمار.

كافى الله لكم هذه الأعمال فبمثلها يبأى ويفخر، والوسائل إلى الله التي مثلها يقتنى ويذخر، والمزايا التي رجح بها المتقدم من تأخر، وعرفكم عوارفها يوم تخذل الأموال، وتذهل الأهوال، ويسلم العشير، ويستشعر المذلة على سلطانه كسرى وأزدشير، وأولياء الله قد جلل وجوههم النور، وهناهم الحبور، وأجارتهم من المخاوف الأجور، فتجاوز تلك الصحائف التي سوغتم فيها المغارم والزروع، وألحقتم بأصولها الفروع، طرراً في صحائفكم المنشرة، وتحيات لوجوهكم المبشرة، والأموال التي إستهنتم – في الله – بيضها وصفرها، واحتقرتم بإزاء جلاله خطرها؛ جبالاً ترجح ميزانكم يوم يزري بالموازين الخفوف، ويطول في عرصات الحساب الوقوف.

ونحن نصرف أعنة الثناء عليكم؛ فقد

تكفل الله به وهو الغني الشكور، ونغري ألسنة الأقلام بهنائكم ما اعتقب الرواح والبكور؛ فلتهنكم مزية السبق إلى إجابة دعوة الحق، وليهنكم وصف الزعامة والصرامة، وبداركم إلى هذه الكرامة؛ وليهنكم ثناء الناس على قيامكم من الجهاد بفرضه، وحبهم إياكم وهم شهداء الله في أرضه؛ فأنتم اليوم واحد الآحد رعاية للمهمل، واتساماً بالعلم والعمل، سياستكم في التدبير سديدة، وأواخي الحزم منكم شديدة، وآراؤكم حميدة، ومقاصدكم مبدية في الخاصة والعامة معيدة؛ جمعتم القبيل لمّا افترق، وصابرتم الهول عندما طرق، وجددتم الرسوم الدراسة، وأوضحتم السبل الطامسة؛ فحق على من لديكم أن يغتبطوا منكم بما منحوه من يمن النقيبة، واحماد الضريبة، ومخول الصنائع الغريبة؛ حفظ الله كمالكم، وسنى من فضله آمالكم، وتقبل في ذاته أعمالكم.

وقد كنا بعد إعلامكم بإجلاب العدو إلينا، وإيجافه علينا، استخرنا الله واستعناه، وأعلمنا الرأي وأمعناه؛ فتمحضت المشورة الموفقة، والمقاصد الممحضة في الله المحققة، على معاملته باللَّطْمة، ومتاجرته بالحطمة؛ فإنَّ البادي في مثلها أكرم لا أظلم؛ وهي علامة هبوب النصر والله أعلم؛ فأمرنا

بشنّ الغارات على بلاده من ثغر بَرّه إلى رُنْدَة، وأمرنا أهل الجهة الغربية **ومالقة ورندة**؛ بمنازلة مدينة **برغة** الشجي؛ الذي أعيا الطبيب، وأوهن الثغر الغريب، وصيَّرَ **رُنْدَة** وأحوازها لا يطرقها الطيف، ولا يقصدها إلاّ الحيف، ولا يومض ثنيتها بارق إلاّ السيف.

ففتحها الله على المسلمين، وأنعم بها على عباده المؤمنين، وعادت إلى منابرها ومآذنها كلمة الدين، وتهلل بها ـ في مناظرة عناية الله ـ وجه الفتح المبين، وتلاحق بها **الحصن** المعروف **بغار وجبر**؛ وهما أيضاً عدوا الطريق الراصدان، ومخيفا الغريق المتواعدان، ثم **حصن باغة** الغريب منهما جواره، **العظيم** بذلك الصقع أضراره، فانتشرت الأعلام، وشفيت الآلام، واستبشر بردّ مغتصبها الإسلام، ثم استعجلنا بنفسنا الحركة واستخارة الله تضيءُ بين أيدينا قبساً، والتوكل عليه لا يذخر عنّا ملتمساً؛ فنازلنا بأهل حضرتنا **حصن أشرناني** من **جبل الفتح** في رحب المسور واتساعه، وإطلاله على الأرجاء واطلاعه، وشهرة امتناعه، وبعد شأوه في النكاية وطول باعه.

قد كان طاغية الكفر لمّا تملكه لم يدع فيه مطمعاً لطامع، ولا عورة يهدَى خبرها إلى سامع؛ وحَصَّنه بالبناء، وأغرى به همة الاعتناء؛ إلاَّ أنّ الله القوي العزيز منح الصبر؛ الذي يضمن الظفر، وأظهر من آمن على من كفر؛ فعلت رايات الإسلام فوق أبراجه، وتحكمت أيدي القتل والاسترقاق والامتنان والإطلاق في العدد الكثير من أعلاجه؛ طُهِّرَتْ مساجده من زورها الخبيث، وأُديل التوحيد فيها من التثليث، وأُنْزِلَ ناقوسه صاغراً، وأصبح ركاب الإسلام فيه متاغراً،

ووقفنا الله من مباشرة قتاله الشديد، والعمل فيما يضطر إليه بعد افتتاحه من الرمِّ والتسديد، إلى ما جمع لنا بين مختلف الأجور، والإقتداء بينا صلوات الله وسلامه عليه في كثير من الأمور، وعدنا بالخيرِ الموفور، واليمن البادي السفور، فقرعنا طبول الفتح إشهاراً لوليمته، ونشرنا بنود النصر تهزها نعامى ديمته، واستضفنا إلى هذا الثغر **حصن السهلة**؛ وهو الذي كمل النعمة ووفاها وكَفَّ العادية وكفاها.

عجلنا لكم التعريف بهذا كله مفصلاً لحينه، وأغرينا الأقلام بتبيينه، واتحفنا به مقامكم؛ لما نعلمه من متانة دينه وصحة يقينه؛ وإنَّا نبطش

في العدو بيمينه، ونستعين به ثم بفضل الله على توهينه؛ ثم أجملنا التعاضد المجمل والمفضل، وتأكد السرور الموصل؛ ومن آثار نيتكم التي تلحظ فيها النسبة؛ وما خصتكم به هذه القربة، أنّ الرابطة التي تركنا لحماية ذماره، عند استقلال الإسلام به واستقراره؛ كانت من قبيلكم المبارك فأقامت به بعد انصرافنا وهيّأ الله لها ولمن معها على العدو وقيعة كبيرة هلك برماحهم فيها زعيم كبير، وفارس شهير؛ قائد الدنزلات لسلطانهم الجديد، أولي البأس الشديد، والشهرة الجامحة والصيت البعيد، أخذ أعقابهم جمع وافر، وحشد نافر؛ وقد غنموا ما يجاورهم من البلاد، وخالطهم مستظهراً بوفور الأعداد، وشكك الجلاد؛ فناشته أطراف الرماح الحداد، وخلصوا بالغنيمة تحت أجنحة السيوف، ومن بين لهوات الحتوف؛ فأردنا أن نطرفكم بهذا الصنع الذي لكم فيه النصيب، والسهم المصيب؛ جعله الله لكم عادة متتالية، وديمة هامية، وجعل الأجور بسببه نامية، والمقاصد سامية.

ونشأت بيننا وبين النصارى مداخلة خفية؛ نروم بها هدنة بخلال ما نظم الغلات المهيات للانتساف، ونسكت بها السنة الأرجاف، فإن تم

الأمر فيها على ما نريده أمضيناه، وإن كان غير ذلك استنصرنا بالله واستعنّاه، وما يتزايد نعرفكم به إن شاء وثناؤنا وثناء من لدينا من المسلمين على سلطانكم ثناء النسيم على الزهر، والرياض على القطر، واعتدادنا في الله بكم اعتداد النصل بالنصر؛ والله سبحانه يصل لكم علو الأمر، ويجمع لكم بين الفخر والأجر؛ فأنتم اليوم ممن لا يُمترَى في كماله وكرم جلاله؛ زادكم الله من مواهب السعادة، وحباكم بالنِّعَم المعادة، وحرس مالكم من أصالة المجادة. **والسلام.**

وفي شعبان هذه السنة؛ صدرت الأوامر العلية للقبيل الأعز، وكافة القواد المذكورين؛ بحشد العساكر إلى الحضرة الكريمة؛ لتعرض بين يدي خليفة الله نصره الله. وفي أول شوال اجتمعت المحلات كافة بالبسيط الأفيح من ظاهر الحضرة؛ فجلس أمير المسلمين – أيده الله – تعالى لعرض جيوشه المظفرة؛ في خباء مطل من أعلى هضبة؛ على بسيط مستوٍ؛ اصطفت به الكتائب لا يحويها العد، ولا تحيط بأقطارها الأبصار؛ من كل شاكي السلاح؛ منحدب على قناة المنا؛ لا يعرف إلاّ سيفه، ولا يستشير غير عزمه؛ قد أخذوا زينتهم؛ تحسبهم

الخمائل المزهرات؛ من فوق الكثبان الهائلة؛ وسط كلّ كتيبة فنيق جلد الوشي، وخلخل اللجين؛ يخمطه بسلسلة من الفضة؛ غلمان لبسوا فيه الخز الملون، وعليه هودج معشى بأنواع الحلل؛ قد برزت منه قنية يسبي جمالها وصقال ملبسها الناظرين؛ فأمسكت بشجاره؛ تغنّي **بأشعار زناتية**؛ مما يهيج أريحيات الهمم، ويبعث حمايات النفوس؛ ثم زحفوا للسلام عليه دراكاً؛ من ضحى اليوم إلى غروب شمسه؛ وحداق الكتبة ـ بين يديه الكريمتين ـ يحصون جمل القبائل والشعوب، وينوعون: الرامح منها والنابل؛ فكانت فذلكة حساب الجميع: اثنا عشر ألف فارس مرتزقة.

وقد كان الخبر وصل؛ بأن الأمير أبا **العباس أحمد بن محمد ابن السلطان أبي بكر الموحد** قتل ابن عمه الأمير **أبا عبد الله محمد بن يحي**؛ صهر أمير المؤمنين ـ أيده الله ـ بعقر داره بغتة؛ فاهتاجت له من أمير المسلمين أيده الله الحمية، ولمعت بأفق قرباه العصبية؛ فاستجاش ـ أيده الله من عربه: **المعقل، وبني عامر، وسويد، والديالم، والعطاف، وحصين** وعريب ـ ثلاثة آلاف فارس أخرى أضافها إلى جيشه الذي ذكرناه.

وارتحل عن حضرته الكريمة؛ ثاني عشر شوال؛ في أمم يضيق بهم رحب الفضاء؛ تحسبهم البحر الطّامي، أو قطع السحاب المسخر بين السماء والأرض. فسبحان منشئ الخلائق، والمتكفل بالأرزاق؛ لا إله إلاّ هو فاغد نصره الله السير إلى أن أخذ بمخنق الأمير **أبي العباس**؛ قاتل صهره المذكور في **بجاية** أول شهر ذي الحجة؛ مكثباً بأممه العديدة جوارها، ومطانباً بأبنيته المشيدة أسوارها. وابن عمه **أبو زيان ابن السلطان أبي سعيد** مطل عليه من **جبل بني عبد الجبار**؛ أوقفه هنالك المحصور إشجاءً للخليفة نصره الله به.

وهنالك ورد على بابه الكريم أعيان مدينة **بسكرة** قاعدة **زاب إفريقية** ببيعة أهله لمقامه العلي؛ ويا شد ما سقط في يد أهل البلد، وأيقنوا بالبوار؛ لولا ما منى – يومئذ به – أمير المسلمين من خذلان الناس، وتواطئهم على الفرار عنه؛ رأيا أبرموه فائلاً، وهوى اتبعوه مطاعاً؛ ففي يوم مني بعد الإشراف على فتح المدية؛ ولّى الناس الأدبار؛ لا لقتال قاهر، ولا أمام عدو قادر، ولا لسبب سوى

الغـدر ظاهـر. و((الأمْـر كُلَـهُ اللَّـهِ))[1]. يصرفـه في العبـاد كيـف شـاء ((وَكُـلُّ شَيْءٍ عِنْـدَهُ بِمِقْـدَارٍ))[2]. ((عَالِـمُ الغَيْـبِ فَـلاَ يُظْهِـرُ عَـلَى غَيْبِـهِ أَحَـداً))[3]. وهنالـك؛ لـزم أميـر المسلميـن ـ أيـده الله ـ وطائفتـه الصبـر؛ فضـم فساطيطـه الكريمـة لاستركـاب حرمـه وحمـل أموالـه؛ حـتى أدركهـم العـدو المنـزور، وجاولهـم الطعـن؛ فأفرجـوا لـه غيـر مـا بعيـد؛ ثـم انعطفـوا بواحـدة عليـه؛ فقتلـوا أكثـر رهطـه؛ وحـال الظـلام بيـن الفئتيـن. ولا حـول ولا قـوة إلاّ بالله.

فادلـج أميـر المسلميـن ـ أيـده الله ـ يجـدُّ السيـر ليلتـه تلـك، وغدهـا الثانيـة، وغدهـا؛ وراح إلى **الجزائـر**؛ وتلـوم يومـاً، وأمـسى النـاس ليلتهـم تلـك بـوادي **بجايـة** حيـارى؛ قـد ضلّـوا السبيـل؛ فماجـو كبحـر زاخـر عصفتـه الريـاح؛ وشياطيـن الإنـس وقـردة أهـل الجبـال يتحيفونهـم؛ إلى أن رزؤهـم السبـد واللبـد، وأصبـح ابـن عـم الخليفـة المذكـور فيهـم؛ داعيـاً لنفسـه؛

---

[1] جـاء في الذكـر الحكيـم: ((يقولُـونَ هَـلْ لَنَـا مِـنَ الأمْـرِ شَـيْءٍ قُـلْ إِنَّ الأمْـر كُلَـهُ اللَّـهِ)). هـذا جـزء مـن الآيـة: 154 ؛ مـن سـورة آل عمـران.

[2] الآيـة كاملـة هكـذا: ((اللَّـهُ يَعْلَـمُ مـا تحمِـلُ كُـلُّ أُنـثى وَمَـا تَغِيـضُ الأَرْحَـامُ وَمَـا تَـزْدَادُ وَكُـلُّ شَيْءٍ عِنْـدهُ بِمِقْـدارٍ)). سـورة الرعـد؛ الآيـة: 8.

[3] سـورة الجـن؛ الآيـة: 26.

فمن مضطر لإجابته، مطمئن بإيمانه قلبه، ومن متصامم لا يبغي عن دينه حولاً. وصمَّمَ المذكور إلى الوطن؛ مهتبلاً غرته؛ وانصرف أمير المسلمين ـ أيده الله ـ عن الجزائر؛ فطَوَى المراحل؛ يصل التأويب بالإسناد؛ إلى أن دخل حضرته الكريمة يوم الأحد خامس عشر ذي الحجة؛ صابراً لتمحيصه، محتسباً أجره عند الله؛ ولسان الحال ينشده:

الطويل:

إذا سلمت نفس الرجال من الرَّدَى

فما المال إلاَّ مثل قصٍّ الأظافرِ

*****

سنة ثمان وستين وسبعمائة[1]

لا غرو؛ أنِ اقْتضى تحويل هذه السنة ثورة الفتن **بقطر تلمسان**، وانحراف رعيته عن طاعة إمامهم الأعظم، وظهور الفساد في أرضه بكلب عربهم، وتطاولهم إلى ما ليس من طورهم. ففي أولها ملك **أبو زيان** ــ ابن عم الخليفة المذكور ــ **المدية** وما إليها؛ بمظاهرة **حصين**، وممالاة **العرب** أجمعين سراً. فأنهض إليه أمير المسلمين ــ أيده الله ــ وزيره **الحاج موسى بن علي بن برغوث**؛ **ببني عبد الواد** كافة، وأحلافهم من **توجين وبني راشد**، وقائدة **عطية بن موسى بن فارس** بجيش **شلفه**، ثم أردفهم بالوزير **عمران بن موسى بن فارس** بكتائب الحضرة الكريمة، ثم بعث ولده المولى الأمير الأعلى **أبا تاشفين** ــ أعزه الله ــ بعسكر آخر لجب؛ لاستجاشة **سويد والديالم والعطاف** على علاتهم، ومسايرة الجيوش ــ بهم ــ قبلة؛ لسد أفواه الثنايا على المنافقين. فجاؤوا **أبا زيان** المذكور ــ وغوغاءه من فوقهم ومن أسفل منهم ــ فتولوا

---

[1] 1366م.

معرضين عن القطر؛ فتسلمه الوزيران المذكوران، وغلغلا في طلبهم؛ فلم يجدوا محيصاً عن الاعتصام **بمعقل تيطري** المشهور الحصانة، الآخذ من الصحراء والتل بحظ، والمزاحم بمناكبه السحاب؛ فأووا إليه بثاغيتهم وراغيتهم؛ وأخذ أولياء الإمام نصره الله بمخنقهم؛ من خلف وأمام؛ فاستمروا صعداً إلى شماريخه المصعرة، وطال عليهم أمد الحصار، وفنيت به رؤوس أموالهم؛ فقست قلوبهم، فالتألموا فارساً وراجلاً، وفجؤوا المحلات بياتاً؛ مستميتين في حربها، فاضطربت وماجت عساكرها، وهال عليهم بحر الظلمة، وارتج دونهم الأمر؛ فتركوا الأبنية، وراحوا بواحدة دون حرب معضلة، ولا قوم كاثرة؛ والحكم لله العلي الكبير، سبحانه. **((لاَ يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ))**[1].

فرأى الوزيران وجوب حياطة المدن؛ **فاستقر عمران بن موسى بالمدية، وموسى بن علي بمليانة**؛ وطار الخبر إلى حلل المولى **أبي تاشفين وعربه**؛ فلم يسعهم إلا التأخر مرحلة أو اثنتين. ولزم **أبو زيان وحصينه** معقلهم؛ غير

---

[1] سورة الأنبياء، الآية: 23.

مصدقيـــن مـــا جــره القـــدر؛ مـــن هزيمـــة الجيـــش اللهـــام، والعسكـــر المجـــردون سبـــب. وراح نبـــأ الكائنـــة إلى أميـــر المسلميـــن ـــ أيـــده الله ـــ فتلـــقى قـــدر الله فيهـــا بالـــرضى والصبـــر، وتسليـــم الحـــول والقـــوة إلى عالـــم الغيـــب والشهـــادة. وأظلـــت ليلـــة المولـــد النبـــوي الشريـــف؛ فأجـــرى احتفـــال بيئتهـــا عـــلى أفضـــل عادتـــه؛ فكـــان ممـــا أنشـــده مسمعهـــا لـــه ـــ نصـــره الله تعـــالى ـــ قولـــه:[1]

البسيـــط:

الحب أضعف جسمي فوق ما وجبا
والشوق ردّ خيالي بالسقـــام هبـــا
والبين أشعل نار الوجد في كبـــدي
والدمع يضرمها في القلب واعجبـــا
مـــاءٌ ونـــار وأكبـــاد لهـــا شعـــل
والقلـــب بينهمـــا قـــد ذاب والتهبـــا
ضدان قد جمعا عونا على سهـــري
لكن عذابي بها في الحب قد عذبـــا
ما كنت أدريهمـــا حتى صحبتهمـــا
كرها وقد يكره الإنسان مَنْ صحبـــا

[1] وردت هـــذه القصيـــدة في بغيـــة الـــرواد وواسطـــة السلـــوك (المطبوعـــة).

أحدهمـــا قاتـــــلي آهٍ إذا اجتمعـــا
وبعض خطبهما للصب قــد صعبــا
سهــدٌ وبُعْدٌ وأشواق تلازمـــني
وكلهـــا لعـــذابي قــد غــدا سببــا
أكابــد الليــل بالتسهيــد مفتكــرا
ولا أبـــالي به إن طـــال أو قربــا
ليـــلي نهـــار[1] ويــومي كله فكــر
والنوم عن مقلتي من بعدهم سلبــا
وقد شغلــت بقلــبي كل مشتغــل
وقد مزجــت دما بالدمــع منسكبــا
وكلها لعــذابي في الهــوى سبــب
ولم أجد لوصـــالي بالنــوى سببــا
أكفكف الدمع من عيــني فيغمرهــا
كم بين مَنْ بات مســرورا ومنتحبــا
من بعد ما كان دهر الأنس يجمعنـــا
والسعـــد يسعدنا والوصل قد عذبــا
ولا رقيــب ولا واش بحضرتنـــا
واليـــوم بالبين حالت بيننـــا الرقبــا

---

[1] في: و. س: ((نهـــاري)).

ما كنت بالوصل قبل اليوم مقتنعـــا

واليوم أقنـــع إنْ هبتَ نسيـــم صبـــا

كانـــوا وكنا وحكـــم الدهر فرقنـــا

وكم عـــسى يبلغ الإنسان ما طلبـــا

وهكـــذا الدهر ما زالـــت عوائـــده

فـــلا تثـــق بزمـــان بان أو قربـــا

يـــدني ويبعـــد في أحكامـــه أبـــدا

هـــذا بـــذاك ولا عتـــب لِمَنْ عتبـــا

كم نفحـــة بعد قطع اليـــأس نافحـــة

تهـــدي لنا عاطرا من ثغـــره شنبـــا

وكـــم أعلـــل قلـــبي بعـــد فرقتهـــم

إن التعلـــل للأحبـــاب فيـــه نبـــا

وقد تعلمـــت من حـــبي لهم خببـــا

وخيـــل راحتنـــا تجـــري بنا خببـــا

مـــا للمحـــب دواءٌ غيـــر وصلهـــم

يبري له السقم والتبريح والوصبـــا

وقد تقطـــع قلـــبي بعدهـــم قطعـــا

لما نـــأوا وقضوا في سيرهم إربـــا

سار الأحبة نحو الرقمتين ضـــحى

وخلفـــوني رهيـــن القلـــب مكتئبـــا

ساروا على البزل والحادي يجد بهم[1]
والقلب مني إلى أرض الحجاز صبا
هذي الأحبــة قد شــدوا[2] مطيهــمُ
وأسرعوا بقباب الــحي[3] نحــو قبــا
ولا رضيــتُ لنفسي غيرهم بــدلا
ولا وجــدت لقلــبي دونهــم طلبــا
ولا سلــوتُ ولا أسلــو لبعدهـــم
إن السلو عن المهجــور قد حجبــا[4]
زمــوا إلى زمــزم والقلب يتبعهــم
والصبــر بعدهــم عني لقد عزبــا
وخلفــوني بغربٍ مغرمــاً بهـــم
أشكو لهم وبهم من عبرتي عجبــا
فقلـــت يا حاديا والركب يسمعــني
رفقا على الصب يا حاديهِــمُ فــأبى
مزجت دمعي دما من بعد رحلتهــم
فأنظــر ترى عجبا للدمع مختضبــا

---

[1] نفســه: ((يجذبهــم)).
[2] نفســه: ((شطــوا)).
[3] نفســه: ((الحــب)).
[4] نفســه: ((صعبــا)).

وكم سحبت ذيولي[1] في الهوى مرحـــا

وكم سفحت دموعي بعدهـــم سحبـــا

لا تنكـــروا حال قيـــس في محبتـــه

إن الهـــوى لم يـــزل للحر منتسبـــا

يا حادي العيس قف بالله تخبـــرني

بيـــني وبينهمُ عهـــدا تـــرى قربـــا[2]

في كل عام يسير الركب مرتحـــلا

وقد تَقيَّدْتُ عن فرضي الذي وجبـــا

لولا الخلافـــة شدتـــني قلائدهـــا

لم أقتنـــع بخيال أو بريـــح صبـــا

إلا بجد السرى والسير نحـــو ربي

نجـــد وكاظمـــة أكْـــرمْ بهِـــنَّ رُبَى

لو كان لي قـــدرة ما كنت أتركهـــم

حتى أمـــوت بفرط الحب محتسبـــا

فليس يطفي لهيب الشوق من كبدي

إلا بمـــا زمزم يا سعد من شربـــا

مِنِّي السلامُ على أهل الحطيم ومَـــنْ

أمَّ المقـــامَ وطاف البيـــتَ مرتقبـــا

[1] نفســـه: ((دمـــوعي)).

[2] نفســـه: ((لقـــد قربـــا)).

مِنْ مذنفٍ[1] هائم في الغرب مسكنــه
موسى بن يوسف أفنَى عُمْرَهُ لَعِبَــا
لكنني أرتجي يوم الحســاب غــدا
شفاعــة لشفيــع جــل ذا طلبــا
فهو الحبيب بأقصى الشرق شوقني
والقلب من أجله في الكرب قد نشبا[2]
صــلى عليــه إلهُ العــرش خالقنــا
ما غنت الطير في أفنانهــا طربــا
ثــم الســلام عليــه دائمـــا أبــدا
ما أطلــع الأفــق من أنواره شهبــا

ولمحمــد بــن يوســف القيــسي الأندلــسي لطــف الله بــه قولـــه:

الطويــل:

سمــا لــك نــور الحــقّ للحــقِّ هاديــا
فخفضـــت طرفاً عن سناه وهاديَــا
ومــا زال يدعــوك التّـقى لــو وعى النــهى
فيا معرضاً هــلاَّ أجبــت المناديَــا

---

[1] نفســه: ((مــن مذنــب)).

[2] نفســه: ((قــد نسبــا)).

وما النفس إلا مِنَ أعْدائــك فليكــن

عزيمــك فيهــا ما يسوء الأعاديــا

فيا نفس كم تهوى الهوى وتطيعــه

ولــم تنتــه لما ارتكبــت النواهيــا

فــفي الرشــد لا تزداد إلا تماريــا

وفي الــغيّ لا تــزداد إلاّ تماديــا

ولو ثمر التوفيق أصبحــت جانيــا

لما كنــت للأثــام والذنــب جانيــا

ولا كــانَ قلبي بالجرائــم قاسيــا

ولا كنــت عن دار الأحبة قاصيــا

ولله قوم عندمــا للهــوى دعــوا

أجابــوا فجابــوا للحجــاز الفيافيــا

هُمُ أوردوا ماء العذيــب ظماءهــم

وَخلّفتُ مصدوداً عن الورد صاديــا

غريــب بغــرب أوبَقَتْــهُ ذنوبــه

فأصبــح في أســر البطالة عانيــا

وكــم أنــة لي كــل يــوم وليلــة

تــذوب عليها قطعــة من فؤاديــا

حنينــاً وشوقــاً للنــبيّ محمّــد

فيا ليــت شعري هل أنال الأمانيــا

وأُبْصِـــرُ ربعاً حلَّه خيـــر مرســـل

وألثـــم في مغنـــاه تلـــك المواطيـــا

وأسجـــد في التُّرب المقدَّس سجـــدة

وأنـــوي بها جبراً لما كنت ساهيـــا

وما فاز إلاّ من فـــلى نحوه الفـــلا

ولم ينـــو في قصـــد إليـــه التوانيـــا

ومـــا عافـــني إلاّ ذنـــوب كأنّمـــا

تحملـــت منهنّ الجبـــال الرّواسيـــا

مـــددت يديّ يا ذا المعارج راجيـــا

وأصبحـــت آمـــالي إليـــك حواديـــا

عسى جودك الفيّاض يدني وسائـــلي

وينـــشي من العفو العميم غواديـــا

ويفتـــح لي باباً إلى منهـــج التّـــقى

فَأُلْـــفي التّداني يوم أُلقَى التناديـــا

لدى موقف يوم الحســـاب وهولـــه

يسوم الورى كرب يُشيب النّواصيـــا

هنـــاك ينادي أشفع تشفـــع محمـــد

وسل ما تشـــا تُعْطَ المنى والأمانيـــا

فينقذنـــا من ذلـــك الهـــول جاهـــه

ويحجزنـــا عن زفرة النّـــار واقيـــا

فمــا لي سوى حبّي إليــه وسيلــة

تــردّ عن اللهفــان تلــك المراديــا

نــبيّ رآه اللــه أفضــل خلقــــه

فأرسلــه بالحــق للخلــق هاديــــا

وأسرى به ليلاً إلى حضرة العــلى

فشاهــد فيهــا كلّ ما كان خافيــا

ســرى راكباً ظهر البراق كرامــة

وبيــن يديه ســار جبريــل ماشيــا

دنــا فتــدلّى قاب قوسيــن رفعــة

وقُرْبــاً فأمــسى للحبيــب مناجيــا

وكلّمَــهُ ظــبْيُ الفــلا متشفعــاً

وحــنّ إليه الجذع بالحــال شاكيــا

وفــاض نميــر المــاء بين بنانــه

فكــان وضــوء للكتيبــة كافيــا

وكان له في الغــار إذ نــزلا بــه

أبو بكــر الصديق بالصــدق ثانيــا

وحامــت حواليه الحمــام وشيــدت

من النسج أيدي العنكّبــوت مبانيــا

وإن انشقــاق البــدر أعظــم آيــة

يعــود بهــا جيــد الهدايــة حاليــا

وكم معجــزَ أبدى النــبي مظاهــراً

غــدا في اتضاح للصباح مضاهيــا

وَوِرْدُ الهــدى لا يهتــدي لسبيلــه

فيروي به من كان في البدء صاديا

وبشــر رضــوان بمولــد أحمــد

ففتــح جنــات النعيــم الثمانيــا

و آدم لمــا خــاف يجــزي بذنبــه

توســل بالمختــار للــه داعيــا

فتــاب عليــه واجتبــاه وخَصَّــهُ

وأدنــاه منــه بعد ما كــان نائيــا

وقد يهجر المحبوب في حالــة الرّضى

ويأبى الهــوى ألاّ يصــدق واشيــا

وعين الرضىَ عن كلّ عيب كليلــة

ولَكِنَّ عين السُّخط تبدي المساويــا

وأدرك موسى في المناجاة رعبــه

فكلمــه اللــه العظيــم مناجيــا

وما الرســل إلاّ كالمبــادي لغايــة

هو الغايــة القصــوى أتمّ المباديــا

نــبي له فضــل على كلّ مرســل

كما فضلت شمس النهار الدراريــا

أشهــر ربيع حــزت كلّ فضيلــة

ويا ليلــة الاثنيــن فقــت اللياليــا

ويا مولد المختــار وافيــت زائــراً

فلله ما أســنى الحبيــب الموافيــا

حللــت بربع الملك فاختال زاهيــا

وصــار لنــور النيــرات مباهيــا

تلقّــاك مولانــا الخليفــة باسمــاً

لقاء مشــوق لم يكن عنــك ساليــا

وأبدى محيــا كالصبــاح صباحــة

بموسمــك السامي فأجلى الدياجيــا

إمــام عليــه للسعــــادة حلّــة

جديدة حسن ليس تخــشى التباليــا

أجلّ ملوك العصر موسى بن يوسف

حلاه التّــقى والجود كهلاً وناشيــا

ومن تكــن التقــوى حلاه ودأبــه

يكن عنه ربّ العرش لا شكّ راضيا

ومن يتوكــل في جميــع أمــوره

عــلى الله يُلْفِــه كفيــلاً وكافيــا

حمى حوزة الدّين الحنيــف بعدلــه

وقــام بتقويــم الأمــور مُعانيــا

إمام الهدى مفني العدا بظبا الــردى
فمنذ بــدا أحيــا النــدى والمعاليــا
ودانــت له كــلّ البــلاد وأقبلــت
إليــه أدانيهــا فــأدنى الأقاصيــا
أمــولاي إنّ اللـــه أعطـــاك ملكــه
فشيـــدت من مبنـــاه ما كان واهيــا
رأى الله أنّ الملك ليـــس يسوســـه
ســـواك وما للدّين غيـــرك حاميـا
فـــأولاك في ضيق الشّدائد فرجـــة
وأعطـــاك نصــراً دائمـــاً متواليــا
ستقضي لك الأقدار ما كنت ناويــاً
وتدني المنى من حيث تقـضي المناويا
وتستفتـــح الأمصار شرقاً ومغربـــاً
وتدفـــع عنهـــن العـــدو المداجيــا
وتجلبهـــا خيلاً ورجـــلاً وتمتـــضي
من العزم ما ينسي السيوف المواضيـا
تشـــنّ عليهـــم غـــارة بعد غـــارة
تحكّـــم فيهـــن الظـــبى والعراليـا
فمـــا أهملـــوا لكنهـــم أمهلـــوا إلى
زمـــان يبيـــد اللـــه فيـــه الأعاديــا

لكـلٍّ من الأشيـاء حَـدٌّ موقـت

ولا بد يومــاً أن يــوافي التناهيـا

وكم أبــق في رق ملكك قد جـنى

مــراراً ولولا العفو ما كان ناجيـا

عفــوت اقتداراً عن تمادي ذنوبـه

وأوسعتــه حِلْمــاً فكـفَّ التماديّـا

وما قلــة الأحرار كالعفــو عنهـمُ

وما الحر إلاّ من يــراعي الأياديـا

فــلا زالَتِ الآمَــالُ وقفــاً عليكـم

لها من نداك المورد العذب صافيـا

ودام لك الملـك الذي أنــت زينـه

وألبــس بــرداً بالسعــادة صافيـا

ودونكــه سلكاً من النظم رائقـاً

غــدا فائقــاً في نظمهــنَ اللآليـا

وما كنت أدري الشعر قدما وإنمـا

تعلمــت من تلك المعالي المعانيـا

فلــو لا حلاكم وأعلاكم لمّا غــدت

تطاوعني مهمــا دعــوت القوافيـا

اقتضى نظر أمير المسلمين ــ أيده الله ــ معلجة الحادث في جيوشه بالتلافي؛ فأزعج ــ لحينه ــ الشيخ **عثمان بن مسلم الزردالي**؛ يشد ساعد ولده المولى الأعلى أعزه الله؛ وأرسل إليه معه بالطبل، والبند، ونقاوة من جيش الحضرة العلية؛ غافلاً ــ أيده الله ــ عمّا أبطنه المذكور من النفاق؛ فلم يكن إلاّ أن انفصل عن الباب الكريم؛ فاستهوى الذين معه إلى الضلال، ودلاهم أجمعين بغروره. ومن **البطحا**؛ نكب بهم عن سواء السبيل؛ راكباً وعر **بلاد توجين**؛ قصد **أبي زيان**. وعند وصوله إليه ــ بسفح **جبل تيطري** ــ ارتاش جناح أمره، واضطرم مفتأد فتنته؛ فاستنفر غوغاءه، وأخذ بمخنق **المدية**.

وفي ثامن شهر ربيع الآخر؛ أخذ النصارى مركباً قادماً على **مرسى هُنَيْن** المحروسة؛ بهدية **ملك الأندلس** إلى أمير المسلمين أيده الله، وفيه صاحب أشغال الخليفة ــ أعلى الله أمره ــ **محمد بن قضيب الرصاص**، ثم عرضوا أسراه للفداء؛ فافتدى مولانا أمير المسلمين أيده الله جميعهم؛ ابتغاء وجه الله العظيم؛ بالمال العديد نقداً. فيا شرف ما حازه فيهم مقامه الكريم؛ من الفخر العاجل، والثواب الآجل؛ ضاعف الله تعالى أجوره، وسدد أموره بمنه

وكرمه. ثم جهز نصره الله الجيوش، واستنفر الناس، وحشد القبائل من: **بني راشد**، **وتوجين**؛ وأرسل الجميع إلى الوزير **موسى بن علي بن برغوث بمليانة**، وأمره بالنهوض لتشريد مردة المنافقين عن **بلد المدية**؛ فأقبل ـ المذكور ـ عليهم غير هائب ولا متوان؛ فتضاربوا الحرب، وضرب الوزير ـ المذكور ـ بمن كان معه في البلاد من الجند؛ عوض المخافين؛ فأفرجوا ـ عن الحال ـ وتركوا المال والأولاد؛ إلاّ أن أولاد **عمر بن عثمان** ـ من **توجين** ـ كانوا قد شايعوا **أبا زيان** وقومه، وأضمروا الخداع والانتباذ إليه.

فلما ظهر جيش أمير المسلمين انخدع عنهم المذكورون **بتوجين** كافة؛ فأهنوا طائفة الهدى، وفلوا غربها؛ فانفلت ساعد المنافقين إلى مراكزهم الأولى؛ فولوا الناس الأدبار ملتمين. **((وَاللهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ))**[1]. **((وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ))**[2]. فراح الوزير **موسى بن علي بن برغوث** منهزماً إلى الباب العلي، وأسلم **مليانة**، وعاد الوزير **عمران بن**

---

[1] الآية كاملة هكذا: ((أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الحِسَابِ)). سورة الرعد؛ الآية: **41**.

[2]. جزء من الآية: **11**؛ من سورة الشورى.

موسى إلى **المدية**؛ فلزمها ليالي؛ فأسلمها مضطراً، وألقى بيده إلى العدو بأسره، وتملك البلدين؛ فهنالك صبأ إليه سالم **ابن إبراهيم الثعلبي** وقومه؛ كفراً بأنعم الله وأنعم الخليفة؛ وقام بدعوته في قومه **بمتيجة**، ثم عاقروا أهل **الجزائر** جميعاً الضلائل، وعاطوهم كئوس الفتنة؛ فخامر عقول أسراهم سكر الهوى؛ فثاروا بدعوة **أبي زيان**. وكان بين أظهرهم ــ من ولد أمير المسلمين أيده الله ــ **فارس، وعامر، وعثمان، وأبي عبد الله، ويعيش** ولد راشد **بن الزعيم بن مجن**؛ فاسلموا جميعهم طموعاً إلى الثائر **أبي زيان**. واستحكمت في قلوب الضلال والزيغ صبغته. ولمّا رأى أمير المسلمين ــ أيده الله ــ شنائع هذه الوقائع في عساكره، وخروج البلاد الشرقية عن طاعته؛ أعمل حركة ركابه؛ لإطفاء تلك الثائرة، وإخماد ما أذكه الخوارج من شعلها.

ففي يوم السبت السابع والعشرين من جمادى الأولى؛ خرج إلى أبنيته السعيدة بالمنية ــ ظاهر الحضرة الكريمة ــ واستنفر الناس من كل أوب، ثم استقدم أشياخ زغبة ــ وكانوا أهل خداع ــ فلم يتأت لهم ذلك؛ إلاّ بعد طول القيل والقال، ومتابعة الانعام بالمال العديد، والبلاد العزيزة؛ تأليفاً

لقلوبهم، وطيباً لرضاها. وبعد أيام أتى بابه الكريم **خالد بن عامر، وأبو بكر بن عريف**؛ رؤساء ذلك الضلال، ووقود فتنة العمى؛ فعرض ـ أيده الله ـ الخيام معهما يوم الجمعة الثامن من شعبان المكرم، وتقدم **أبو بكر بن عريف** لضم قبيله، والتصدي بهم لركاب أمير المسلمين أيده الله؛ ولزم **خالد بن عامر** ركابه العلي بزملة؛ مظهراً النصح والوفاء بخدمته؛ إلاّ أن **محمد بن عمر البريطل** ـ كافر النعم، والخائن لله ولرسوله، ثم لمولانا الخليفة أيده الله ـ قد أولع بتنفير الرجال، وإعرابه بالنفاق؛ مستعيناً على ذلك بما يخلفه من الإفك، ويُزَوِّرُهُ من الأباطل؛ مواصلاً بذلك ليله ونهاره.

فلما حل ركاب أمير المسلمين **بمنداس**؛ فر **خالد** ـ المذكور ـ مغادراً زملة بما اشتمل عليه من: ظهور، وكراع، وطعام، ومتاع؛ وأصبح بخيمة **أبي بكر ابن عريف**؛ نازعاً بينه وبين الخليفة أيده الله؛ فتساعدا على الخلاف، وانظم إليهما مرضى القلوب، ومؤلفتها من **العرب**؛ وزاجرو **بأبي زيان**؛ فعاجلهم أمير المسلمين بالحركة إليهم؛ فأجفلوا مصحرين، وتلاهم إلى أن تخلف جبل **جرجرة ووادي الدوم** من **أسريس**. ونزل القوم **بماء تغلين** من

قبلتـه؛ فصـرف إلى **خالـد** زملـه بمـا حـواه، وعـاج أيـده الله إلى **قلعـة أوغـزوت**؛ المطلـة عـلى الصحـراء والتـل؛ آيبـاً إلى دار ملكـه. وكـان **أولاد عمـر بـن إبراهيـم، وأولاد عسكـر**، ولفهـم مـن **بـني عامـر، ومحمـد بـن عريـف**، ولفهـم مـن **سويـد**؛ قـد انحـازوا إلى جانبـه الكريـم؛ فطلبـوا منـه نـزول وزيـره **مـوسى بـن عـلي بـن برغـوث** معهـم لحفـظ التـل وحمايتـه؛ فأسعدهـم لذلـك؛ فأصبـح نصـره الله راحـلاً؛ وجـدّ السيـر إلى أن دخـل داره الكريمـة؛ فهربـت عنـه: **توجيـن إبراهيـم بـن تاجيـة، وسعيـد بـن تصاليـة، ومسعـود بـن عـلي**، وكافـة **توجيـن**؛ خوفـاً بمـا استشهـروه مـن الضـلال والفسـاد، ومـا أخمـدوه مـن الغـدر؛ نكبهـم الله. ولله در القائـل حيـث قـال:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونـه
وصـدّق ما يعتـاده من توهـم

ثـم دخـل أميـر المسلميـن داره الكريمـة؛ فحينئـذ اجتمعـت كلمـة **العـرب وزناتـة** ــ إلاّ مـن هـداه الله وشـرح بالإيمـان صـدره ــ عـلى مظاهـرة **أبي زيـان**، والإقـدام بـه عـلى الحضـرة العليـة؛ فأقـدم وهـم

يتناسلون عليه من كل جهة، والحواضر تطيعه كـ: **تنس**، **ومستغانم**، **ومزغران**، **ووهران**؛ إلى أن نزل بظاهر **البطحاء**؛ ونزلت: **سويد**، **والديالم**، **والعطاف**، **وحصين**، **وعريب** على يساره؛ **بوادي مينا**. وتقدم **خالد بن عامر** بقبيلة **بني عامر** كافة، وبني يعقوب، وخلطائه إلى **تانيرا**؛ من أطراف **بني سقا**. وانحاز خدام أمير المسلمين أيده الله؛ من **العرب**؛ وهم: **أولاد عسكر**، **وأولاد عمر بن إبراهيم**، ومن اقتدى بهداهم؛ إلى **جبل تاسالة**. فأحضر مولانا أيده الله أولياءه الأعليين لإدارة الرأي؛ فأجمعوا ـ بعد استخارة الله تعالى ـ على إمضاء ما اقتضاه نظر الخليفة؛ من مناجزة أول القوم، وصدمهم بغتة ـ وهم الشوكة ـ فإذا زلزلوا؛ ذهب ريح الآخرين، وأوهنوا قوة عزم الجميع؛ وردّهم الرُّعب على أعقابهم؛ لم ينالوا خيراً.

وفي يوم الاثنين السادس من ذي القعدة؛ خرج مولانا ـ نصره الله ـ بأوليائه؛ فخيم **بأصطفطيف**[1]؛ وبعث إلى **عربه** بالنهوض، ونادى بالناس؛ فأخذوا الأسلحة، ثم أدمج فجد السير؛ فلما

[1] سبقت الإشارة إلى هذا النهر.

أضـــاء النهـــار، وصـــار النـــاس زَامَـــاتٍ ووُحْدَانـــاً إلى أشيـــاع الضـــلال، ومجئهـــم لخيامهـــم هـــوادي الخيـــل بغتـــة؛ فبـــادروا بالدفـــع عـــن الحـــرم؛ ثـــورة رجـــل واحـــد؛ وحـــمى بينهـــم الوطيـــس، ودارت رحى الحـــرب عـــلى الطائفيتيـــن، وجـــاء الخليفـــة ــ أيـــده الله ــ عـــلى الإثـــر بساقتـــه، وأجـــواد **عبـــد الـــوادي**؛ وريـــح النصـــر تخفـــق بأعلامـــه وبخيلـــه؛ تغيـــر عزائـــم أوليائـــه؛ فلـــم يكـــن إلاّ كلمـــح البصـــر؛ حـــتى ولّى المنافقـــون الأدبـــار، وتركـــوا مـــا حوتـــه الحلـــل؛ فحيـــل بينهـــم وبيـــن أموالهـــم العريضـــة. فخيـــم أميـــر المسلميـــن ــ أيـــده الله ــ بمكانهـــم، ثـــم حـــاز الخليفـــة الغنائـــم؛ فأبـــاح مـــال **المعقـــل**، واستـــرد عـــلى **بـــني عامـــر** كـــل مـــا ضـــاع لهـــم مـــن أموالهـــم وأولادهـــم؛ فزحفـــوا مـــن حينهـــم إلى طاعتـــه أيـــده الله، وأطافـــوا بمحلتـــه المنصـــورة ونزلـــوا عليهـــا. وأصحـــر **خالـــد بـــن عامـــر** بالخيبـــة والندامـــة، وطـــار مـــن يومـــه الخبـــر إلى **أبي زيـــان** **وعربـــه**؛ فخامرهـــم الـــروع، ثـــم أجفلـــوا كالظلمـــان؛ قـــد ركـــب كـــل واحـــد رأســـه؛ فأخـــذ **بنـــو زيـــان، وحصيـــن** ذات اليســـار، وأخـــذت **العـــرب** بأجمعهـــا ذات اليميـــن.

وارتحـــل الخليفـــة ــ أيـــده الله بأوليائـــه ــ في أثرهـــم؛ فبظاهـــر **البطحـــاء**؛ أتتـــه بيعـــات بـــلاده كلهـــا؛ ســـوى **الجزائـــر**، وقدمـــت عـــلى بابـــه العـــلي وفـــود

العرب: سويد، والديالم، والعطاف، وبني يعقوب؛ لالتماس الرضى والأمان؛ فعفا ـ نصره الله وأصلح ـ محتسباً أجر تمحيصه عند الله، وهنالك عرضت عليه **بنو عامر** كافة أبطالها؛ وجأجأ بولده المولى الأمير الأعلى **أبي تاشفين** من الحضرة، وبعثه مع **العرب** المذكورين لمسابرته بهم على القبلة، وسد أفواه الثنايا في وجوه طائفة الضلال؛ ونهض هو ـ نصره الله ـ بأوليائه، وكافة **بني عامر**؛ آخذاً على وادي **شلف** صعداً؛ وفي **إغيل يزان**؛ أخذ موسم الأضحى، وبمجمع من **شلف** نفذت السنة. والبقاء لله وحده.

وقد رأيت ما كان بها من الوقائع الشنيعة، والأهوال الفظيعة، والتمحيص، والابتلاء، والمثلات الشديدة اللأواء. ومع ذلك؛ فما نبا لأمير المسلمين صارم حزم، ولا خارت له قوى عزم، ولا ريع منه جنان، ولا كَلَّ له في قراع مكابريه مقضيب ولا سنان؛ فكأن المعري بلسانه نطق، أو كان لديه علم من كتابه؛ فنظم شأنه ونسق؛ حيث يقول:

الوافــر:

وكـــم من طالـــب أمـــدي سيلـــقى
دويـــن مكـــاني السبـــع الشـــدادا

يؤجـــج في شعاع الشمس نـــارا
ويقـــــدح في تلهبهـــا زنـــــادا

ويطعـــن في عُـــلاَيَ وإن سيـــفي
ليأنـــف أن يكـــون لـــه نجـــادا

لِيَ الشـــرف الذي يطـــأ الثريـــا
مع الفضـــل الـــذي بهـــر العبـــادا

وكـــم عيـــن تؤمـــل أن تـــراني
و تفقـــد دون رُؤْيَـــتِيَ الســـوادا

* * * * *

سنة تسع وستين وسبعمائة[1]

أهل محرم هذه السنة؛ وأمير المسلمين أيده الله بمجمع من وادي **شلف** مشرقاً؛ وفيه نزل **طارن وفاطيس** من بسيط **مليانة**؛ وانحاز **أبو زيان** ومن معه إلى **تيطري**. وقد ذكرنا أن خروجه ـ أيده الله ـ لهذه الحركة كان على سبيل الغزو لهوادي **المخالفين**؛ فلم يكن بها استعداد لمضايقة المعاقل، والأخذ بمخنق المنافقين. فأطال ـ نصره الله ـ مقامه بهذا المنزل؛ لاستئلاف شاردي أهل ذلك القطر، وتأمين خائفهم، واستنقاذ ولديه؛ اللذَيْنِ أسلمهما **أهل الجزائر** لقريعة، ثم رَمَّ أسوار **مليانة**، وأعمق خنادقها، وشحنها بـ: الرجال، والفرسان، والعدد، والأقوات؛ إشجاء بها لصدر المخالفين، وكبحا لجماع روحهم في **شلف** بحكمتها. فتم ذلك له ـ أيده الله حسب الاقتراح ـ غرة ربيع الأول؛ فبعث **عمر بن محمد بن مجن** رسولاً إلى **رياح**؛ يدعوهم إلى طاعته، والكدح في خدمته، ويستنفر كبارهم للقدوم على العلي بابه.

---

[1] 1367م.

وارتحل أعلى الله مقامه يجد السير قصد حضرته الكريمة. وفي منزله **بمجمع صادرا**؛ أخذ أشياخ **العرب** كافة؛ كـ: **عبد الله بن شيقر، وسعد ابن العباس، وزيان بن يعقوب، وزرين بن رحو بن منصور، ومنديل بن أبي يحي الصغير**؛ وفي **البطحاء** أخذ أشياخ توجين كافة؛ وسيق الجميع في ركابه العلي؛ تحملهم البغال المبردعة. وفي خامس عشر المذكور دخل حضرته الكريمة؛ وقد مضت ليلة المولد النبوي.

قال المؤلف عفا الله عنه: كنت في هذا التاريخ ببلد **بسكرة** من زاب **إفريقية**؛ مفلتاً من سجن **أبي العباس الموحد**؛ قاتل مخدومي ابن عمه **الأمير أبي عبد الله** رحمه الله؛ فقدم بها علىَّ **عمر بن محمد** المذكور، ودفع لي ـ من قبل الخليفة أيده الله ـ كتاباً؛ فأمرني فيه بإعادته على غرضه من **رياح**؛ لملابستي بالقوم، وعنائي فيهم؛ ثم القدوم معه ـ بهم ـ على بابه الكريم. فبادرت ممتثلاً وقمت فيهم إلى مقامه العلي؛ داعياً غير مول، نصحاً ولا مغادر جدا إلى أن أصبت نهزة القوم، وحصلت مفصله، وظفرت برأي من شيخهم: **يعقوب بن علي بن أحمد، وعثمان بن يوسف**؛ بأربعة

بنين: اثنان رهن، واثنان لمفاوضة أمير المسلمين أيده الله عنهما بالرأي، وتلقي مرسوم الخدمة منه. فجئت بهم — أنا وعمر بن محمد — في نحو أربعمائة فارس؛ من أعيان القبيل.

وكان قدومنا على الباب العلي؛ غرة رجب السنة؛ فأتينا — والله — البحر الزاخر كرما، والشمس المنيرة بشراً، والعلم الفرد كمالاً؛ فيا لله ما أرحب قراه، وأحمى ذراه، وأعظم اجتباءه، وأجزل حباءه؛ وتلانا عثمان بن يوسف؛ أحد الشيخين المذكورين؛ في مثل عددنا من رجال قومه؛ فوسع كلا الإحسان، وشملهم الفضل والامتنان؛ فلبسوا أجمعون في بابه الكريم الثياب الرفيعة، من: المرعز، والقهزي، ووجوه الحرير الملون، والملف المتلون وشبهه، ثم الذراريع، والعمائم، والأحاريم؛ ثم أعطى جميعهم ثلاثة آلاف من الذهب العين؛ وكل ذلك على يدي، وبمناولته إياهم؛ وانصرفوا مأمورين بمضايقة حصين؛ قبلة بنجوعهم؛ عند حركة أمير المسلمين إليهم. واصطنعني — أيده الله وأعلى مقامه — لخدمته، ثم اصطفاني — خلد الله سلطانه — لكتابة إنشائه؛ فأخذ بضبعي، وراش الجناح، ورفع الرتبة، وأكبر الجراية، وأمرني باستقدام ولدَيّ من بسكرة؛

محمولين بإحسانه، محفوفين ببره وعنايته؛ فكان ذلك أول سعادة أوتيتها، وأعظم عناية ربانية رأيتها؛ فحضرت ـ بعد ذلك ـ سلمه، وحربه، وظعنه.

رجع الحديث: وفي يوم الأحد سابع شعبان؛ رحل أمير المسلمين ـ أيده الله ـ بجيوشه الوافرة الأعداد، وحشوده المتصلة الإمداد مشرقاً؛ وعاج من **بني راشد** ذات اليمين إلى القبلة؛ لبغت مخالفي **العرب بتغالين**؛ وجاءهم النذير العريان؛ فأجفلوا كالظلمان، وشطت في القفر اليباب بهم الدار، ونزل هو أيده الله وعرب طاعته **بماء تغالين**، ثم نكب ـ مستجيشاً ـ كافة العرب: **العامرية، واليعقوبية، والديالمية، والعاطفية**؛ آخذاً بهم على وجوه البلاد شرقاً؛ إلى أن نزل بعرصات **مدينة أشير**؛ منها رجع ذات اليسار؛ مكرهاً **عربه** على دخول التل؛ أيّام فرارهم بروس أموالهم عنه؛ وأخذ **ثنية وادي شلف**.

قلما أحس به المارقون؛ لجؤا إلى **تيطرهم**؛ فتبعهم أيده الله إلى **البرواقية**؛ فهنالك ماز العساكر ميزاً أكبر؛ حسبما وصفته أولاً؛ فكانت فذلكة حسابهم؛ عشرة آلاف فارس؛ فارتحل وأخذ بمخنق الجبل، وجاءت **رياح** من شرقه؛ فاحتضنته. وكان

المخالفون – بعد رجوع أمير المسلمين عنهم – قد سايروه مشرقين إلى مناظرة العدو من القبلة؛ ثم فزعوا من عند آخرهم: فارسهم، وراجلهم؛ وأتوا أهل الجبل بياتاً؛ وركب الجميع غدوة؛ يوم الأحد الخامس عشر من شوال؛ وأغارت مطاردتهم بسارح المحلات؛ فركب إليهم الناس داركاً؛ فرجعوا القهقرى إلى سفح جبلهم؛ والتحم به القتال بين الفريقين إلى الأصيل؛ وكثر العدو المقاتلة؛ فركب أمير المسلمين – أيده الله – لكبح جماحهم، ورتب المقانب، وعين المصاف؛ وذلك أصيلان النهار؛ ثم سار نحو المعمعة الهوينا؛ فعندما قاربها؛ انتبذت طائفة من **العرب**؛ الذين معه موازرة للعدو؛ لأمر أبرم ليلاً؛ لم يشعر الناس به؛ فظهر في سائر الناس الخذلان، فوهنت قوى الجيوش، وتفلل غربها، وثار منها العدو؛ فماجت مظطربة؛ ولم يك إلاّ أن خفر الناس الظلام؛ فركب كل رأسه، وأرفل في أثرهم العدو.

قال المؤلف عفا الله عنه: شاهدت هذا الموقف بين يدي أمير المسلمين أيده الله؛ فما رأيت، ولا سمعت أثبت جاشاً، ولا أقدم في هيجاء، ولا أصبر عند وغى منه أيده الله؛ إلى أن أفرده الناس؛ سوى شرذمة قليلة أنا منهم؛ فثنى – أيده الله –

العنان تلقاء أبنيته، واستركب الحرم، وحمل الأموال، وأكفل بذلك الخيصان، والنصرى المستخدمين؛ وتقدمهم منتحياً خيام خلصائه الأوفياء؛ **أولاد عسكر بن معروف العامري**؛ وأضل الكفلاء ــ بما معهم ــ سبيله؛ فقفوا آثار العسكر حيارى؛ وبلغ هو ــ أيده الله ــ مأمنة؛ فسرّ خاصاؤه بسلامته، وأطافوا من عند آخرهم به، ثم حملوا مقتنى ذخائرهم، ونبذوا الأهل، والمال بالعراء؛ عرضة للنهب، وساروا مع مولاهم بالعزائم الوقادة، والحميات المحتدمة، والهمم الآبية؛ أريحية عربية، وشنشنة كريمة أخزمية.

وأدلجنا نناهز الخمسين دون خريت وتنكب منا شر المنافقين سانحة وبارحة؛ فركبنا وعور جبل ذي كهوف وشعاب، وأجمات، ولم ننشب ــ إذ توسطناه ــ أن نبحتنا كلابه، وتعاوت في كل أوب علينا ذئابه؛ ثم أتو برجل الدباء، وألجؤنا إلى مهواة؛ تساقطنا من عند أخرنا بقعرها العميق، ولم نلف به نهجاً؛ فأدهمنا منه لهباً أغين؛ نرجو نجاة الأنفس؛ مستعينين ــ في صعوده ــ ركباناً بجذب شجره؛ فلم أر ــ بعد افتراعه ــ أشهى إلي من أمير المسلمين أيده الله؛ ناجياً من شركه، ثم الكثير من الناس، ومررنا نلهب المركض؛ والذؤبان الإنسية

تستك لعوائها الأسماء؛ وربما اعترضنا أبعاضهم؛ فنردهم على الأعقاب؛ هكذا إلى الاسفار؛ فإذا نحن قد أصبحنا تيها قرب محلتنا بالأمس؛ فابتدأنا العمل من أوله، ورملنا إثر العساكر؛ فإذا طلائع المخالفين المبيتة للعساكر قد فجأتنا؛ صادرة عنهم؛ تعتقبنا ذات اليمين وذات الشمال؛ فتصدت **عربنا** لإجابة سائلهم، والانتماء فيهم، والنشدة عن مكان العسكر؛ متظاهرين بالخنق عليهم كذلك صدر النهار؛ إلى أن شعروا بنا فانقلبوا أولا عن آخر إلينا؛ فأحضرنا حافين بأمير المسلمين أيده الله؛ إلى عروض وعر تسنمناه؛ إلاّ من أعيا مركوبه، وفي قنته ثابت إلى **عربنا** حمايتهم؛ فدعوا نزال، ورجعوا في وجوه أولئك الطغام، وانصبوا إليهم من عل بمنحط الضحر؛ فانقلبوا صاغرين من نجد الشواهق إلى غوره؛ فمن صريع يجود بنفسه، وثخين يتشحط في دمه، ومغلول يقاد برسنه: و **((كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ))**[1].

فكان ذلك فراق بيننا وبينهم؛ وأرفلنا جانحين إلى القبلة؛ فبغرب **تيطري**؛ من جانب القبلة

---

[1] جزء من الآية 249 من سورة البقرة.

أجننا الليل؛ فسرناه مدلجين غرباً، وأصبحنا بطرف سرسو سويد المخالفين، ووسط حلل عمرته. ومن لطف الله الخفي غيبة فرسانهم؛ إلاَّ واحداً أو اثنين؛ فجددنا السير يومنا وخمسة بلياليها؛ بعده لم نطعم فيها ولا خيلنا قوتاً؛ سوى مرة شيئاً منزوراً، ولا ذقنا النوم فيها؛ إلاّ غراراً. وبعد غروب الشمس من اليوم السابع – وهو يوم السبت الحادي والعشرين لشوال – دخل أمير المسلمين أيده الله دار ملكه؛ بعد دخول وزرائه، وجيشه، وماله، وحرمه إليها.

وفي صبيحة يوم الأحد – بعده – جلس نصره الله بسرير ملكه؛ لسياسة أمره؛ غير مكترث بالحوادث، ولا متأسف على الذاهب؛ عزماً من الأمر، وتسليماً إلى الله في أحكامه؛ فأحسن لخلصائه الأوفياء؛ **أولاد عسكر** المذكورين ومن معهم؛ بما لا عهد لنظيره أموالاً ناضة، وثياباً فخيمة، ومراكب فارهة، وإقطاعات جزلة؛ وسرح من سجنه **عبد الله بن شيقر بن عامر**، وآخى بينه وبينهم، وصرفهم – بحصة وافرة – للوقوف **بجبل هوارة**؛ لمحاربة الأعداء؛ ثم استأنف – أيده الله – إقامة الحركات؛ فصدرت الأوامر العلية لحواضر ملكه بإقامة الأخبية؛ إذ لم يلف منها شيئاً بحضرته، وبعث لاستنفار قبيله

وأحلافهم من **زناتة** أجمعين. وفي خامس عشر ذي القعدة؛ لانقضاء عشرين يوماً من دخوله عسكر أيده الله بالمنية؛ من ظاهر الحضرة؛ بمحلة وجيوش تكاثر الأولى؛ مرتقباً غرة يهتبلها في أهل الخلاف. فقد كانت **عربه** كافة ــ بعد الكائنة ــ انضمت إليهم، وجاء الجميع ــ مع **أبي زيان** ــ بقضهم وقضيضهم إلى **سيرات**؛ فأرسل شيعه فيهم بالإنخزال عنهم، ودس لسائرهم الأطماع؛ فافترقت كلمتهم، وتخاذل لفهم؛ فبادر: **خالد بن عامر، وأبو بكر بن عريف، وأخوه محمد** بالبعث إليه نصره الله؛ رجاء الصفح والأمان؛ فلم تأب ذلك عليهم سياسته الفضلى. وهنا انقرضت السنة. والبقاء لله وحده.

*****

سنة سبعين وسبعمائة[1]

في أولها؛ بعث ـ أيده الله ـ الشريف العالم **أبا عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني**، **ومحمد ابن عمر البريطل** بأمانه إلى المذكورين آنفاً، وشرط عليهم إخراج **أبي زيان** عن القطر؛ فتبرأ **خالد بن عامر** منه، والتزم فيه ذلك **أبو بكر بن عريف**، وافترق ـ ساعتئذ ـ جميعهم، وولوا الأدبار مصحرين. وجاء إلى الباب الكريم ـ أسماه الله تعالى ـ الشيخ **أبو معروف محمد بن عريف**، **وزناتة** المخالفون الذين كانوا معه؛ ففسح ـ أيده الله ـ جانب القبول، وأجزل لديهم مواهب الإحسان، وصرف الوزير **عمران بن موسى** للحاق **بأبي بكر ابن عريف**؛ لاستقضاء الشرط الذي التزمته في **أبي زيان**، وأنهض ولده المولى الأمير الأعلى **أبا تاشفين** أعزه الله، والوزير **أبا عمران موسى بن علي بن برغوث** ـ ثامن شهر صفر ـ لتمهيد أرجاء البلاد الشرقية، وإصلاح ما فيها من الفساد، ودخل ـ هو أيده الله ـ إلى دار خلافته بعده بأربعة

---

[1] 1368م.

ليـــال. وأقبلـــت ليلـــة الميـــلاد النبـــوي الكريـــم؛ عـــلى صاحبهـــا أفضـــل الصـــلاة والســـلام؛ فاحتفـــل بمدعاهـــا؛ فكـــان ممـــا أنشـــده مسمعهـــا ــ مـــن نظمـــه أيـــده الله تعـــالي ــ قولـــه:[1]

المتقـــارب:

ألاَ مـــا لصـــبٍّ مشـــوق صَبَـــا
إذا مـــا تذكَّـــر عهـــد الصبَـــا
غـــدا بالغـــواني يغـــنّي هـــوًى
فيا ربع أين الغـــواني الظِّبَـــا
لقدْ قدَّ قلـــبيَ شـــوقي لهـــم
وبيَّـــن بَيْنُهُـــمُ مـــا خبَـــا
ومـــزّق صبـــرِيَ من بعدهـــم
فما البيض ما السمر أو ما الظبا
ونـــوح حمـــام الحـــمى شاقـــه
وأطربـــه كـــل مـــا أطربـــا
فيـــا عـــاذلي كـــفّ من لومـــه
فلـــم تلـــق أهـــلاً ولا مرحبـــا

[1] وردت هـــذه القصيـــدة في بغيـــة الـــرواد.

شجـــون تهيج لهيــب الحــشى

فوفــد الجــوى فَــوْدَهُ شَيَّبَــا

فكــم ذا أواري أواري وقــدْ

تبيَّــنَ مِــنِّيَ مــا قــد خبــا

فصبــر يقــل ووجْــد يجـــد

وسهــد يزيــد وشــوق ربــا

فمــن ليَ بالصبـــر من بعدهــم

أبَى الصَّبر في الحبّ أن يصحبا

فيا سعـــد من مسعدي في البكـــا

فقـــال تعـــال بنـــا نندبـــا

ونجــري دموعـــاً كمثل الدِّمـــا

رَضَى مَنْ رَضَى[1]أو أبَى من أبَى

نعلّــم فيهــا لأهــل الهــوى

علومـــاً جرى [2] قــلّ أنْ يكتبـــا

فمن شـــاء يروي غريب الغرام

فأمـــر غــرامِيَ مـــا أغربـــا

لقد كنـــت والدَّهـــر لي مسعـــد

فأغضبـــني ليـــت مـــا أغضبـــا

---

[1] هكــذا للضــرورة.

[2] هكــذا أيضــاً.

فمـــا بالــه اليــوم مُحْلَولِكــاً
ومــا زلــت أعهــده مذهبـــا
فخـــان وأخنى وجوراً جـــفى
وظهــر المِجَــنَّ لنـــا قلبـــا
فصـــرت أعاتبــه إذ عتـــا
فأسلمــني بعــد مـــا قربـــا
فـــلا دَرّ دَرُّكَ يـــا دهـــر قــل
أيرجـــع منـــك الـــذي قــد نبـــا
فقـــال مجيبـــاً ألســـت الـــذي
على الرغـــم فرقـــت آل سبـــا
وأرْزَأتهـــم كـــلّ مـــا ملكـــوا
وأضحـــت معاهدهـــم سَبسبـــا
تفانـــوا جميعـــاً ومـــا جَمَّعُـــوا
فأيـــن سبـــا والـــذي قد ســـبى
توالـــت عليهـــم أكـــفّ الـــرّدى
فولّـــوا وما أن قضـــوا مأربـــا
وأنـــت أخـــا الصّبر مهـــلاً إذا
بساحـــك خطـــب الدّنـــا طنبـــا
فمفتاحهـــا الصبـــر إنْ ضيّقـــت
فصبـــراً فبالصّبر يرجى الحبـــا

فكـــم من جـــوادٍ جـــوادٍ كمـــا

وكـــم من حســـامٍ حســـامٍ نبـــا

وأعقبـــــه صبـــره بعدهـــــا

نجاحـــاً فيـــا جـــلّ مـــا أعقبـــا

فبشـــراك موسى بنيـــل المـــنى

بفضـــل الإلـــه فمـــا أقربـــا

ويـــا نفـــس بشـــرى بما نلتـــه

وإيـــاك إيـــاك أن ترهبـــــا

وبـــادر إلى اللـــه مستعجـــلاً

ووالِ الصـّــلاةَ عـــلى المجتـــبى

ولمحمـــد بـــن يوســـف القيـــسي الأندلـــسي لطـــف الله بـــه:

الكامـــل:

لـــولا هوى ذات الجناب السّـــامي

ما شِمْـــتُ ثغـــر البـــارق البسّـــام

بـــرق يُعارضـــه الفـــؤاد إذا بـــدا

مـــا بيـــن خفـــق دائـــم وخـــرام

فوميضـــه يذكي الجوى بجوانـــحي

مهمـــا تألّـــق في متـــون غمـــام

وافَى بخيــرٍ عن ربــوع أحبَّــتي
خيــر الحديــث العهــد بالإلمــام
يا برق صف حال المشــوق إليهــم
وارو حديــث صبابــتي وغــرامي
قسمــاً بهــم ومحبــتي لجنابهــم
وبمــا لهــا مــن حرمــة و ذمــام
مــا أن سلــوت هواهــمُ بسواهــمُ
يومــاً ولا أصغيــت لِلُّـــوام
في كــل جارحــة غــرام كامــن
لــم يبــق فيهــا موضــع لمــلام
فالقلــب من فــرط المحبّــة هائــم
والجفــن من بعــد الأحبّــة هــام
مــا ضرّهــم وهــم بــدور تمــام
لو قصّــروا بالطّيــف قبــل تمــام
أم هل يزور الطّيف مضجع ساهر
مــا ذاق مُذْ هجــوره طعــم منــام
آهٍ لليــلي مــا أمــر سهــاده
عنــدي وما أحــلى جــنى أحــلام
ولعهــد أيــام الشبيبــة والصبــا
مــا كــان أحسنهــن مــن أيــام

مــرت سراعــاً ثم أبقــت حرفــة
فكأنّهــا حلـــم مــن الأحـــلام
وأتى المشيب فظلْــتُ أندب بعدهــم
عهــد الصبــا ومرابـــع الآرام
يــا أيهــا الركــب الميــم طيبــة
بركائـــــب الأنجـــاد والاتهـــام
يــذري مطي كالقــسي سواهــم
تــرمي بهم عرض الفــلا كسهـــام
عوجــوا المطي على مطالع أنجــم
بالجــزع تــدعى عندهــم بخيــام
وسلوا جفوني كم أسلْنَ مِنَ أدْمُــعٍ
مثل العقيــق على العقيــق سجــام
وردوا العذيــب وخلّفوني ظامئــاً
فمــتى يبــاح الــورد فيه لظـــام
يا خيــر خلق الله شكــوى مذنــب
ملئــت صحائفـــه مــن الآثـــام
رام المسيــر لرامـــة وذنــو بـــه
قعــدت به عنْ نيًْــل كــلّ مــرام
يا ليـــت شعري هل لحومي مـــورد
يــروي أواري أو يبــل أوامي

وأزور ربعـــاً ضمّ أكـــرم مرســـل
وأرى حمـــاه قبــل يـــوم حمـــامي
لـــم لا يحـــن لـــه فـــؤاد متيـــم
والجـــذع حـــنّ لـــه حنيـــن هيـــام
والبـــدر شقّ له ليظهـــر صدقـــه
والطفـــل كلمـــه لـــــدون فطـــام
رَوَّى الجيـــوش بعـــذب ماء بنانـــه
والآلـــف أشبعهـــم بصـــاع طعـــام
ولقد عـــلا فوق السمـــوات العـــلا
وسمـــا إلى ذاك المحـــل الســـامي
في حيـــث لا ملَـــك ولا فلَـــك ولا
نجـــم ولا علَـــم مـــن الأعـــلام
فأتـــــمّ نعمتـــــه عليـــــه ربّـــــه
في كـــلّ أمـــرٍ أفضـــل الإتمـــام
وحبـــاه فضـــلاً من لدنه ورحمـــة
بمواهـــب لـــم تجـــر في الأوهـــام
وله الشفاعة وهو مخصوص بهـــا
يـــوم القيامـــة في ذوي الإجـــرام
ولـــه لـــواء الحمـــد معقـــود بـــه
والكوثـــر المـــورود دون زحـــام

ومقالـــه المسمـــوع فيــه عنايـــة
ومقامـــه المحمـــود خيـــر مقـــام
لاحـــت به شمس الهدايـــة فانجـــلى
مـــا كـــان للإضـــلال من إظـــلام
ولَكَمْ له من معجـــزات أوضحـــت
سبـــل الهـــدى لنّهى ذوي الإفهـــام
وأجلهـــا الـــوحي الـــذي إعجـــازه
متجـــــدد بتجـــــدّد الأيّـــــام
متضمـــن كـــل العلـــوم بأسرهـــا
ومفصـــل الأدلـــــة الأحكـــــام
مِـــنْ واجـــبٍ أمَـــرَ الإلـــه بفعلـــه
أو مـــن حـــلال بَيِّـــنٍ وحـــرام
فدعـــا جميع الخلـــق للحقّ الـــذي
في ضمنـــه بدعايـــة الإســـلام
وأبـــان واضـــح نهجـــه وسبيلـــه
وأبـــاد ما عبـــدوا مـــن الأصنـــام
ســـرّ الوجـــود وصفوة الله الـــذي
ختمـــت به الارســـال خيـــر ختـــام
في ليلـــة الاثنيـــن أشـــرق نـــوره
بأجـــلّ شهـــر أو بأسعـــد عـــام

أبــدى لنـــا مــن هديــة وجبينــه
نوريــن شمس ضحى وبدر تمــام
فجــلا بنــور هــداه كل ضلالــة
وجــلا بنــور سنــاه كــل ظــلام
لــولا لوائــح نــوره ما أبصــرت
مــن مكــةٍ أقصى قصــور الشــام
يــا مولد المختار كم أسديــت مــن
نِعَــمٍ لكــلّ العالميــــن جســــام
يا موسمــاً قــد قــام فيــه بحقــه
للــه خيــر خليفــــة وإمــــام
مــوسى أميــر المسلمين أجلّ مــن
في الأرض من مَلِكٍ أغــرّ هُمــام
ملــك عليــه هيبـــة ملكيّـــة
تقــضى على الأعــداء بالإعــدام
قسّمــت قلوب الخلق إجــلالاً لــه
بيــن المحبّــة فيــه والإعظــام
أحــيى بنائلــه المكــارم والعــلا
وحــمى بصارمــه حمى الإســلام
أعــطى فأين الغيــث من إعطائــه
في بشــرِ بَسَّــام ونفــــع دوام

وسطــا فأيْــنَ اللّيــث من إقدامــه

في الحـــرب عند تزلــزل الأقــدام

كم موقـــف ضنــك يحار بحربــه

عمرو بن معدي صاحب الصّمصام

دارت كــؤس حمامــه لحماتـــه

صرفــاً كمــا دارت كــؤس مــدام

بــرزت به الشمس المنيرة غــادة

فتقنّعــت مــن نقعــه بلثـــام

وصبت إلى بيض الظّلى سمر القنى

وتواصلـــت ألفاتهـــا بالـــلام

فحــمى ذمار ذمامه المولى أبــو

حمّــو فــلا بطــل ســواه محــام

يا ماجداً قسم الفضائل في الــورى

وحوى الذي في الفضل من أقســام

برجاحــة وسجاحــة وسماحــة

وفصاحــة وصباحــة ووســام

سبحــان من أولاك مــن أفضالــه

أوفى الحظــوظ وأوفر الأقســام

فملكــت بالإرهاب أرقاب الــورى

وقلوبهـــم بالبـــرّ والأنعـــام

من لم يكـــن هــذا المقـــام إمامــه
في دينـــه لـــم ينتفـــع بإمـــــام
لا يبـــرح التوفيـــق لازم أمـــره
أو نهيــه في رحلــه ومقـــــام
أدنـــت له الأقطار عزمتــه الـــتي
بنيـــت عـــلى الأســـراج والالجــام
لا يرتضى فوق البسيطـــة منـــزلاً
مـــا لـــم تطنبـــه الـــوغى بقتـــام
نهضـــت به قدماً إلى حرب العـــدا
همـــم وعـــزم صـــادق الإقـــدام
بسوابـــق غـــرٍّ كـــــرام ضمَّـــر
نهضـــت بغـــرٍّ ماجديـــن كـــرام
أسد على خيـــل تخـــال إذا جـــرت
ريحـــاً تقـــاد مطيعـــه بلجـــــام
صدقـــت له النيـــات أســـد ما لهـــا
إلا الردينيـــات مـــــن آجــــــام
خفقـــت قلوب عـــداه من أعلامـــه
كخفـــوق ريح النصر في الأعـــلام
لما ذعـــرتَ عـــداك في أوطانهـــم
وفصمـــتَ عروتهـــم أتـــم فصـــام

فــرّوا ولا لــوم وكيف يلام مــن
يطــوي المراحل خوف بحر طــام
أخمــدتَ نارهـــمُ بنــار أسنّـــةٍ
وحسمــت داءهــمُ بكــلّ حســام
وفصمـــتَ عقدة جمعهــم فتفرقــوا
أيــدي سبــا في البيــد والآكــام
ونقضـــت ما قد أبرموه فلن يــرى
أبــداً لــذاك النقــض مــن إبــرام
لــولا الــذي آثــرت من إبقائهــم
لم يصبحــوا الأرواح في الأجســام
مولايَ حزتَ معانيَ المجــد الــذي
ما حازَ غيرك منه غيــرَ أســامي
فأسلــم أميـــر المسلميــن مؤيَّــداً
في غبطــة موصولـــة بـــــدوام
دامَتْ علاكَ فليس مثلك في العـــلاَ
ســامٍ ولا لك في الملــوك مُســام
وأسعـــد بدهر نحــو أمرك ينتـــهي
وإليــك يلقـــني طائعـــاً بزمـــام
وأقطفْ مِنَ الأشعارِ روضاً جــاده
منْ جودك الفياض صــوب غمــام

روض كــأن ثنــاك في أثنائـــــه
عــرف الصّبا وحلاك زهر كمــام
وإليـــك من سحـــر البيـــان بدائعــاً
قصـــر الخطـــا عنهـــا أبـــو تمّـام
هي بنـــتُ فكر من حلاكم حُلّيَــتْ
بنظـــام دُرٍّ أو بــــدُرّ نظــــام
حَسُنَـــتْ بمدحك فَهْيَ خير لذاتهـــا
شهــدتْ بذلـــك ألســـن الأنـــام
خُتمـــتْ بذكر المصطـــفى فكأنهـــا
نفحـــات مســـك عند فـــضِّ ختـــام
صلى عليه من اصطفــاه كرامـــة
أزكى صـــلاة شُفِّعَــتْ بســـلام

ولمؤلفـــه ــ لطـــف الله بـــه ــ قولـــه:

الطويـــل:

ســـلا القلـــب لولا لوعة وشجـــونُ
تتـــمّ ولا يـــدري بـــذاك شئـــونُ
يُذَكِّــره البـــرق اليمـــانيّ عهـــده
بنجـــدٍ فيصبـــو والحديث شجـــونُ

وربتمـــا بيـــدي المشـــوق تجلـــداً

ولكـــن إذا جـــدّ الغـــرام يميـــن

ومنْ ملـــك الحب القيـــاد ويـــدعى

سلـــواً لعمـــري أنـــــه لضنيـــن

رعى الله بالجرعـــاء موطن أُلْفِـــهِ

ولا برحـــت تسقى ثراه مـــزونُ

عهـــدتُ فصيحـــاً بالأوانس ربعـــه

فأعجـــم حـــتى مـــا يكـــاد يبيـــنُ

وقفتُ بها أُزْجي سحائب أدمـــعي

من السقم أخـــفي تـــارة وأبيـــن

و قالـــوا جنون ما اعتـــراه وإنمـــا

لذيـــذ التّصـــابي أن يقال جنـــون

كـــذا مذ عرفنا الحبّ أوله ضـــنى

وآخـــره امـــا عرفـــت منـــــون

أيـــا عذبات البان من أيمن اللـــوى

نعمـــت وجـــادت ربعكُـــنَّ عيـــون

تـــرى ذلـــك العهد الذي تعرفينـــه

يعـــود وتُقْضَى في حماك ديـــون

يمينـــاً لقد أوى الفراق بمهجـــتي

فلـــمْ يبـــقَ إلاَّ زفـــــرة وأنيـــنُ

ويسـري برياك النسيـم فأنثـني

كمـا تنثـنى بينكـنّ غصـون

ألاَ أيُّها الرّكب المخبُّون بالضُّحَى

عسى لك من أرض الحجاز ظعون

أعيـدوا أحاديث العذيب وأهلـه

فـلي بأحاديـث العذيـب فتـون

أمِـنْ طيبـة يا قوم ثـور ركبكـم

فعـن طيبهـا هـذا العبيـر يبيـن

وما طيبـة حسناً إذا ما اعتبرتهـا

وسكّانهـا إلاّ الجنـان وعيـن

محطّ ركاب الوحي منتجع الهـدى

مساحـب ذيل الرّشد حيث يكـون

مـواطئ خير الخلق آثـار نعلـه

ومثـواه حيـاً وَهْـوَ ثَـمَّ دفيـن

هو المصطفى المختار من آل هاشم

أولي الشرف الوضـاح منه جبيـن

محمـد المبعـوث للخلـق رحمـة

وليـس سـواه للنجـاة ضميـن

توالـدَ إحـدَى بَعْدَ عشـرة ليلـةً

لشهـر ربيـع حبـذا لـك حيـن

فيـــا ليلة الاثنيـــن فضلـــك ظاهـــر
وكـــلّ الليـــالي عنـــد قـــدرك دون
أتى وظـــلام الكفـــر مـــدّ رواقـــه
فجـــلاه صبـــحٌ مـــن هـــداه مبيـــن
نـــبيّ كريـــم للرسالـــة خاتـــم
مطـــاع لدَى ذي العرش ثمّ أميـــن
رؤوف رحيـــم بالعبـــاد وإنّـــه
لـــذو قـــوّة عنـــد الإلـــه مكيـــن
وســـرّ وجود العالمين وأصلـــه
وغايتـــه فالكـــلّ عنـــه يبيـــن
وما هو إلاَّ سيـــد الرســـل كلهـــم
وأولاهـــمُ بالفخـــر حيـــث يكـــون
وأفضلهـــم خَلْقـــاً وخُلْقـــاً ومحتـــدا
وأكملهـــم ذاتـــاً وذاك يقيـــن
وأعلاهـــم قـــدراً وأرفـــع منصبـــاً
وأسمـــح كفـــاً إذْ تجـــرد يميـــن
وهل يـــدرك المدّاح غايـــة فضلـــه
وفي الغيب سرّ من علاه مصـــون
ألاَ يا رســـول الله دعـــوة خـــاطئ
لقد طـــال منـــه للضـــلال ركـــون

مقيـــم بأقصى الغرب جسماً وقلبـــه
بيثـــرب لا يلـــوي عليـــه رهيــــــن
يُؤَمِّــلُ قَبْلَ الموت نحوك رحلـــــة
فيقضيـــه دهـــرٌ باللقـــــاء ضنيـــن
وقد ضقتُ ذرعاً بالذي اكتسبت يدي
وإنِّيَ مـــن خـــوف الجـــزاء حزيـــن
سريـــت بليل من شبـــابي إلى الصّبـــا
وخفت افتضـــاحي والصّبـــاح مبيـــن
وقد يرعوي بعد اللّجاج أخو الهوى
ويقتـــاد من بعد الجمـــاح حَـــرون
إذا لم تكن لي في القيامـــة شافعـــاً
فيـــا حســـرة إنِّي إذَنْ لغبيـــن
وإنّي لأرجـــو عن قريـــب زيـــارةً
لقبـــرك تســـري بي إليه أمـــون
وما خلت هذا قبل أن علقـــت يـــدي
بجـــاه أحبّ الخلـــق فيـــك يكـــون
خليفة ربّ العرش موسى بن يوسف
لـــه شـــرف مما يشيـــن مصـــون
أغـــار حســـودي رفعـــة وكرامـــة
وراش جنـــاحي والجنـــاح مهيـــن

فتلــتُ الذي أُمِّلْــتُ دنيــا بعـــــزه

وما لي على الأخرى سواه معيــن

هو الملــك المنصور والواحد الذي

بـــه قُضِيَــتْ للمعلــوات ديــونُ

بـــه الله أعــطى للخلافـــة حقّهــا

فعــمّ الــورَى عَــدْلٌ وأُيِّــدَ ديــنُ

فيمنــاه يوم الحرب والسلــم للعـــدا

ضــرام وللراجي النّوال معيــن

إذا ما بدا فالشمـــس نوراً ورفعـــة

وهاتيــك قد تخــفى وأنــت مبيــن

له همّــة لم تــرض إلاّ له العـــلا

على أنّــه فــوق السّمـــاك مكيــن

وشيمتـــه الفخـــر العظيـــم وعنــده

من العلــم والرّأي الرّجيـــح فنــون

به الغرب يزهى غبطـــة بجــواره

فمصـــر تمنت أن تَكُنْهُ وصيــنّ

إذا شــرف الأمـــلاك ملــك فإنّـــه

كمـــال لملــك العالميــن يزيــــن

أمـــولاي يا أعلى الملوك بأسرهـــا

وأكرمهــم أصـــلاً وذاك مبيــن

إذا افتخروا جداً كريمـــاً ففخركـــم
بعبـــد منـــاف عنـــد ذاك يكـــون

أبى الله إلاَّ أن يكـــون لـــك العـــلى
فخابـــت من الأعداء فيـــك ظنـــون

وآتـــاك ربّ العرش عزاً فلاَ تُبَـــلْ
وإن نظـــرت شزراً إليك عيـــون

وخذهـــا أمير المسلميـــن مجاجـــة
من القـــول غراً من علاك تبيـــن

شـــأوت بها صبحي وأنت شهيدهـــا
فليـــس لهـــا بيـــن النّظـــام قريـــن

بقيـــت عـــلى مـــرّ الزّمان مؤيـــداً
لك الصّعب في كلّ الأمور يهـــونُ

ولا زلـــتَ في العزّ المكين مخلـــداً
وربّـــك فيمـــا ترتجيـــه معيـــــــنُ

قلـــت: وأمـــرني ــ أيـــده الله ــ بنظـــام أبيـــات عـــلى لســـان الجـــواري المعرفـــات **ساعـــة المنجانـــة** الغربيـــة الشكـــل؛ المتقدمـــة الوصـــف؛ فقلـــت في ذلـــك:

الساعـــة الأولى

المتقـــارب:

أمـــولى الملـــوك وأعـــلى الأمـــم
ومـــن جـــود العالَـــمَ الكـــل عَـــمْ
مضـــت ساعـــة ليـــت لـــو تثـــني
فـــإن الحيـــاة بكـــم تغتنـــم
ولِلـــه وجهـــك لمَّـــا بـــــدا
وقـــد خلته البـــدر في الأفـــق تـــمْ
عليـــه لأجـــل التـــقى هيبـــة
وفيـــه من الفضـــل بشـــر الكـــرم
أقمـــت بمولـــد خيـــر الـــورى
ســـروراً لكـــم بالمعـــالي حكـــم
طويـــت الفـــؤاد عـــلى حبـــه
ففعلـــك هـــذا عـــلى ذاك نـــم
فنلـــت السعـــادة دنيـــا وأخـــرى
وحـــزت المفاخـــر دون الأمـــم
فـــدم مـــا حييـــت لنـــا ملكـــاً
تطيعـــك عـــرب الورى والعجـــم.

الساعة الثانية

الكامل:

أخليفةَ الرّحمن والملكَ الذي
تعنوا لعزّ عُلاه أملاكُ البَشَرْ
للهِ مجلسُك الذي يحكي عُلاً
بكَ مالِكي أفقَ السَّماء لمن نظرْ
أوَ ما ترى فيه النّجومَ زواهراً
وَجْهُ الخليفة بينهنّ هو القَمَرْ
واللّيلُ منه ساعتان قد انقضتْ
تُثْني عليك ثَنا الرّياضِ على المَطَرْ
لا زال هذا المُلكُ منصوراً بكمْ
وبَلَغْتَ ممّا ترتجي أسنى الوَطَرْ

الساعة الثالثة

المتقارب:

أمولايَ يا ابن الملوك الأُلَى
لهم في المَعالي سَنِيُّ الرُّتَبْ
تَوَلَّتْ ثَلاثٌ من اللّيلِ أبْـ
قَتْ لَكَ الفَخْرَ في عُجمها والعربْ

فَـدُمْ حُجَّـةَ اللّـهِ في أرضـــهِ
تنـالُ الـذي شئتَـه مـن أربْ

الساعـة الرابعـة

المجتـث:

يـا واحـداً في المعـالي
ومالـكُ الفضـلِ أجْمَـعْ
مَـولايَ دمـت عليـاً
مضـت لليلـكَ أرْبَـعْ
لا زلـتَ تفْـني الأعـادي
وللمفاخـرِ تَجْمَـعْ

الساعـة الخامسـة

الرمـل:

يـا أميـرَ المسلمنَـا
وجَمـالَ العالمينَـا
والـذي حـازَ المَعـالي
كلّهـا دُنْيَـا ودينَـا
قد مضـتْ للّيـلِ خمـسٌ
حُسنُهـا راقَ العيونَـا

وانقــضى النِّصْــفُ فــآه

هكَــذا تَمْــضي السّنونَـــا

دُمــتَ في عِــزٍّ وسَعْــدٍ

خالـــد الملــكِ مكينَـــا

الساعــة السادســة

المجتــث:

يـــا واحــــداً في عـــلاه

مـــن بأســـهِ في عساكـــرْ[1]

سِــتٌّ من اللّيــلِ ولّــتْ

مـــا إنْ لهـــا منْ نظائــرْ

دامــتْ لياليــكَ حــتّى

إلى المَعــادِ نَوَاضِيـــرْ

الساعــة السابعــة

يـــا مَــنْ لــهُ الفضــلُ طَبْــعٌ

والفَخْــــرُ فيــــهِ سَجِيَّـــهْ

[1] جــاء هــذا البيـت في نفــح الطيــب، وأزهــار الريــاض؛ هكــذا:
((يـــا ملجــأً وهــو فــردٌ * تخالــه في عساكـــر)).

مَــرَّتْ مِــنَ اللَّيْــلِ سَبْــعٌ
مــا إنْ لهــا مَثْنَوِيَّــــهْ
لا زلــتَ والشَّمْــــلُ جَمْـــــعٌ
يُعَلِّيــــــكَ رَبُّ البَرِيَّـــــــهْ

الساعــة الثامنــة

يــا أكــرمَ الخلــقِ ذاتــاً
وأشْــرَفَ النَّــاسِ أُسْــرَهْ
مَــرَّتْ ثمــانٌ وأبْقَــتْ
في القَلْــبِ مِنِّيَ حَسْــرَهْ
فيهِــنَّ كــان شَبَــــابي
أخَــا نَعيــمٍ ونَضْــرَهْ
ولَّى بهــا الدَّهــرُ عَــنِّي
تُــرَى لهــا بَعْــدُ كَــرَّهْ
فالله يُبْقِيــــكَ مَــــولًى
يُطيــلُ في السَّعدِ عُمْــرَهْ

الساعـــة التاسعـــة

البسيـــط:

يا أوْحدَ النّاسِ في مَجْدٍ وفي شَرَفٍ
وأفْضلَ الخَلْقِ في بَــأسٍ وفي كَــرَمِ
مَـــوْلايَ تَاسِعَةُ السّاعاتِ قَدْ ذَهَبَـــتْ
واللّيْــلُ مِنْ بَعْدِها قدْ عادَ ذا هــرَمِ
كَـــذا يَمرُّ ولا نَدْري الزّمان بنـــا
ويَنقَضي العُمرُ في اللّذاتِ وَالنَــدَمِ
من كلّ ذا عمـــل في البــرّ مثلكـــم
يا فـــوزه يوم تخـــشى زلّـــة القـــدم
لا زلت ذا عزّة والملك ذا شـــرف
بكـــم وأنتـــم مدى الأيـــام في نعـــم

الساعـــة العاشـــرة

يا مالِكَ الخيرِ والخيلِ التي حَكَمَـــتْ
لَـــهُ بِعِـــزٍّ عـــلى الأيّـــامِ مُقْتَبِـــلِ
هذا الصّبّـــاح لقد[1] لاحتْ بشائـــرُه
واللّيـــل وَدّعَنـــا توديـــعَ مُرْتحـــلِ

---

[1] في نفـــح الطيـــب، وأزهـــار الريـــاض: ((وقـــد)).

لله عشـــرٌ مـــن السَّاعـــاتِ باهــرةٌ

مضيـــنَ لا عن قِلًى منًّا ولا ملـــلِ

كذا تمـــرٌّ ليـــالي العمـــرِ راحلـــةً

عنًّـــا ونحن من الآمـــالِ في شُغُـــلِ

نمـــسي ونصبحُ في لهو نُســـرُّ بـــه

جهـــلاً وذلـــك يُدْنينـــا من الأجـــلِ

والعمر يمضي ولا ندري فوا أسفـــا

عليه إذْ مـــرَّ في الآثـــام والزَّلـــلِ

يا ليتَ شعري غداً كيفَ الخـــلاصُ به

ولـــمْ نقـــدِّمْ لَهُ شيئـــاً من العمـــلِ

يا ربِّ عَفْوكَ عمّا قدْ جَنَتْـــهُ يَـــدِي

فليـــس لي بجزاء الذَّنبِ منْ قِبَـــلِ

يا ربِّ وانصر أميرَ المسلمين أبـــا

حمُّـــو الرِّضى وأنله غايَةَ الأمـــلِ

وابـــقِ في العزِّ والتّمكيـــن مدَّتَـــهُ

وأعـــلِ دولتـــه الغرَّاءَ في الـــدُّولِ

وفي آخـــر شعبـــان؛ وصـــل إلى بابـــه الكريـــم **عـــرب المغـــرب** كافـــة: **أولاد حصيـــن، العمارنـــة، والمنبـــات؛** طـــرداء خـــوف ملكهـــم؛ السلطـــان **أبي فـــارس عبـــد العزيـــز؛** متذمميـــن بأميـــر المسلميـــن أيـــده الله؛ فأجارهـــم،

وأكـــرم مثواهـــم، وأكبـــر إقطاعاتهـــم. وفي شـــوال؛ بلـــغ الخبـــر برجـــوع **أبي زيـــان** إلى **حصينـــه**؛ بمظاهـــرة **أبي بكـــر بـــن عريـــف**، وأبعـــاض مـــن **العـــرب**. وفي ثـــاني عشـــر ذي القعـــدة؛ رحـــل نصـــره الله بجميـــع جيوشـــه؛ لحســـم هـــذا الـــداء العضـــال، وإخمـــاد ذبالـــه قبيـــل الاضطـــرام؛ وقـــدم بيـــن يديـــه وزيـــره **عمـــران بـــن مـــوسى**؛ لســـوق أشيـــاخ **العـــرب**. ثـــم أخـــذ ــ نصـــره الله ــ عـــلى **بـــني راشـــد**؛ فأجفلـــت بيـــن يديـــه **بنـــو يعقـــوب**، وخلطـــوا عـــلى **أبي بكـــر بـــن عريـــف** وقومـــه، ونـــزل أميـــر المسلميـــن ــ أيـــده الله ــ ظاهـــر **البطحـــاء**؛ فثـــم أتـــاه الوزيـــر **عمـــران بـــن مـــوسى بمحمـــد بـــن عريـــف، وسعـــد بـــن العبـــاس الديالـــمي**؛ فقبـــض عـــلى ثلاثتهـــم لأمـــر نقمـــة عليهـــم؛ فأرســـل **بعمـــران** إلى **تنـــس**، وبعدهـــا أجـــازه البحـــر إلى عـــدوة الأندلـــس، وثقـــف الآخريـــن بالحضـــرة الكريمـــة. وانتهـــت السنـــة. فسبحـــان البـــاقي بعـــد فنـــاء خلقـــه. وفي هـــذه السنـــة حـــذق ــ مـــن أولاد أميـــر المسلميـــن ــ المـــولى الأميـــر الناصـــر أسعـــده الله ســـورة البقـــرة؛ فأقـــام ــ نصـــره الله لذلـــك بمشـــوار داره الكريمـــة ــ مـــدعى حافـــلاً، وعرســـاً شامخـــاً؛ اجتمعـــت لـــه الأمـــم؛ عربهـــا والعجـــم، وحشـــر فيهـــا المغنـــون؛ عـــلى اختـــلاف أصنافهـــم وأطوارهـــم؛ فكـــان يومـــاً للســـرور مشهـــوداً، وحفـــلاً للفخـــر جامعـــاً.

سنة إحدى وسبعين وسبعمائة[1]

في أول هذه السنة؛ رحل مولانا أمير المسلمين ــ أيده الله ــ من ظاهر **البطحاء**، وأخذ على **منداس**؛ قاصداً المخالفين؛ فاجفلوا بين يديه، وانحازوا إلى **أبي زيان وحصينه**؛ وتذمم جميعهم **بتيطري**؛ فنزل نصره الله بقود وسط بلادهم، وأطلق أيدي النهب فيها؛ فلا تسئل عمّا استولت عليه من زرع، ومتاع، وضرع؛ فليس ذلك مما يحصى. وبعد إقامته هنالك ثلاثين يوماً؛ رحل نصره الله إلى منزل **القطفة**؛ فقدمت عليه وفود **رياح** لمظاهرته؛ وأظل زمان الشتاء، وحنّت إلى صحرائها **العرب**؛ فثنى ــ نصره الله ــ العنان؛ يجد السير على وجوه البلاد تلقاء حضرته الكريمة؛ فدخلها أول شهر ربيع الأول؛ فكان أهم ما بدأ به؛ إرسال **محمد البريطل** إلى السلطان **عبد العزيز**؛ ملك **المغرب** في شأن المهادنة. واحتفل في إقامة بيته مولد رسول الله صلى الله عليه

---
[1] 1369م.

وسلـــم؛ عـــلى عادتـــه في ذلـــك؛ فكـــان ممـــا أنشـــده المسمـــع ــ ليلتئـــذ ــ مـــن نظمـــه أيـــده الله؛ قولـــه:[1]

الطويـــل:

خليلي قد بان الحبيـــب الذي صَـــدَّا
وقد عاقني صبري فلم استطع ردّا

وسَالتْ دموعي فوق خدّي هوامـــلاً
وقد صيَّرت فوق الخدود لها خـــدّا

قد اصفرَّ لوني بعد حسن شبيبـــتي
كما أبيضَّ رأسي بعدما كان مُسْوَدًّا

وقد مرَّ عمري في عـــسى ولعلّمـــا[2]
تواصلني لُبنَى وتهجرني سعـــدى

وتزري بِيَ الدّنيا بزور غرورهـــا
فكم نقضت عهداً وكم نثرت عِقْـــدَا

وهذا نذيـــر الشّيـــب لاح بمفـــرقي
يذكـــرني خوفاً وينجـــز لي وعـــدَا

هويت من الدّنيا زخارفها الـــتي
بفـــرط هواها لا أطيـــق لهـــا ردًّا

---

[1] وردت هـــذه القصيـــدة في بغيـــة الـــرواد وواسطـــة السلـــوك (مخ + مط).

[2] في: و.س (مخ + مط): ((في لعـــل وفي عـــسى)).

شغفت بها دهراً ولم أدْرِ ما مـضَى
وقد بذلت من بعد قربي لهـا بعـدَا
تشاغلني نفسي ودنيـايَ والهـوَى[1]
وتبعـدني من بعد ما أظهـرت ودًّا
ولستُ بِسَالٍ عنْ هواهـا كأنّـني
أشابـه بشـراً في محبتـه هنـدَا
لبانة دهري قد تقضّتْ[2] وقد مضت
وجيـش شبابي بالمشيب لقـد قـدَّا
ويا ليت شعري للزمان[3] الذي مضى
أيرجـع مُرُّ العيش من بعده شهـدَا
وتغفر أوزاري وتمحى جرائـمي
وحصر ذنوبي لا أطيـق لها عـدًّا
أنا المسرف الجاني أنا المذنب الذي
أشاهد باب العفو بالذّنب قـد سـدًّا
لقد حقّ لي أبكي على فرط زلّـتي
وأسكب دمعاً كالعقيـق علا الخـدَّا
إذا ذرفـت عينـاي زاد تفكّـري
وتعظم أفكاري ووجدِيَ لو أجـدَى

[1] نفسـه: ((تشاغلـني الدنيـا ونفـسي والهـوى)).
[2] نفسـه: ((نقضـت)).
[3] نفسـه: ((بالزمـان)).

أعاتب نفسي في زمان بطالتي
وقلبي على كسب المآثم قد جدّا[1]
وجيش شبابي قد مضى بسبيله
وجيش مشيبي قد تقدم لي وفدَا
وحاليَ بين الحالتين كما ترى
فتطعمني[2] شوقاً وتقلقني صدّا
إلهيَ هبْ لي منك عفواً ورحمة
فما زلت يا مولايَ تبلغني القصدَا
وعبدك موسى لم يزل فيك راجياً
ومن شيَمِ المولى بأن يرحم العبدَا
توسلت بالمختار من آل هاشم
أجِرْني من النّار التي أضرمت وقدَا
نبي أتى والكفر بادٍ ضلاله
فأهْدَى الهُدَى للخلق يا حسن ما أهْدَى
هو الرّحمة الهادي الشّفيع لنا غداً[3]
هو المصطفى المختار يلهمنا الرُّشدَا
هو الذّخر للهول الشّديد إذا أتى
ومن ذا سواه للمخاف إذا اشتدّا

[1] في: و. س (مط): ((حدّا)).
[2] في: و. س (مخ + مط): ((تطمعني)).
[3] نفسه: ((المشفع في غد)).

ألا يا ربيــع الخير لا زلت رائقــاً

لقد[1] جئت بالرّحمى وخوّلتنا السّعــدَا

لك الفخر[2] صلْ وافخرْ على الحول كلها

فأنـــت لنـــا عيد نوفّي لك العهــدَا

أتيـــتَ بمن لم يــأت دهــر بمثلــه[3]

أبــر بميثــاق وأزكاهــمُ مجـــدَا

وأعظــم عند الله جاهــاً وحرمـــة[4]

وأندى الورى كفّاً إذا سئل الرّفْــدَا[5]

ســلامٌ عليه طيّبُ النَّشْــر عاطــرٌ

يفــوق بريّــاه الرّياحين والرَّنْــدَا

ســلام مشــوق من بــلاد بعيــدة

يموت ويحيى من صبابتــه وجــدَا

ولمحمــد بــن يوســف القيــسي الأندلــسي؛ لطــف الله بــه:

---

[1] نفســه: ((فقــد)).

[2] نفســه: ((المجــد)).

[3] نفســه: ((أتيــت بمــن لــم تــأت أنــثى بمثلــه)).

[4] نفســه: ((ورفعــة)).

[5] نفســه: ((إذا سألــوا الرفــدا)).

البسيـــط:

أقصـــر فإنّ نذير الشّيــب وافـــاني

وأنكرتــني الغــواني بعد عرفـــانِ

وقــد تماديــت في غيّ بلا رشــد

والنفــس تأمرني والشيب ينهـــانِي

فقلــت للنفــس إذ طالت بطالتهـــا

مهلاً ألم يأن أن تَخْــشَى الم يـــأنِ

كم من خُطَى في الخطايا قد خطوت ولم

تراقبــني الله في ســر وإعــلانِ

فـــلاَ تَغُــرَّنَّــكَ الدنيـــا بزخرفهـــا

فيـــا ندامـــة مـــن يَغْتَــرُّ بالفـــاني

فليس فيها وصـــال دون هجـــران

وليــس فيها كمـــال دون نقصـــان

وأسلك سبيلاً إلى التّقوى لتقوى بها

على السّلوك إلى جنّـــات رضـــوان

وانهض لمغنى رسول الله تحظ بما

تشـــاء من خير أوطـــار وأوطـــان

وأركب إليه جـــواد الجـــد مجتهـــداً

ولا تكن في السّرى والسّير بالوانِي

يا مزمع السير نحو المصطفى عجـــلاً

يحـــدو إليـــه باحـــداج واظعـــــانِ

بلــغ تحيـــة مشتـــاق لروضتـــه
إنّ الطليـــق يؤدّي حاجـــة العـــاني

وإن رأيت المصلّى قِفْ وحاليَ صيـفْ
لجيرة بالحــمى هم خيــر جيــران

وقلْ لهم ضاع قلــبي في رحالكــمُ
فساعــدوني ولــوْ قــولاً بنشــدان

فما وَجَدْتُ ســوَى وجــداً أكابــده
ولا فقدتُ سوى صبري وسلــواني

عندي لطِيبـــة أشـــواق مضاعفـــة
أذَبْــنَ قلبي وقد أنْحَلْــنَ جثمـــاني

مهما تذكّرتُ بعدي عن معاهدهـــا
سحّت بوابل دمعي سحب أجفاني

عليل نسمتهـــا يبرى العليـــل بـــه
لو عـــادني بعد أحيـــان لأحيـــاني

فيا نسيماً سرى في الطّيب منغمســـاً
مجـــرراً ذيلـــه في كـــلّ بستـــانِ

مغـــازلاً لخـــدود الـــورد يلثمهـــا
ملاعبـــاً لقـــدود الرّنـــد والبـــان

مصاحبـــاً لرياحيـــن الّربى سحــراً
وساحبـــاً من عليهـــا فضـــل أردان

قَبِّلْ ثرى روضة حلَّ الحبيب بهـا

بل جنّـة عرفها روحي وريحـاني

وقُلْ غريب بأقصى الغرب أقصـده

سهـم البعاد فهلْ للقـرب من آن

نـائي المحلِّ بعيد الـدّار شاسعهـا

هامي الجـون مشوق رهن أشجان

فـؤاده صحبـة الرّكبان مرتحـل

لطيبـة وهـو ثـاوٍ في تلمسـان

لا يعذب الـورد إلاّ بالعذيـب لـه

ولا نعيـم لـه إلاّ بنعمـان

يا أفضل الخلـق من عرب ومن عجـم

وخيـر آتٍ بآيـاتٍ و فرقـان

عسـاك يا خير خلق الله تشفـع لي

يوم الحسـاب فإنّي مذنـب جـان

وأنـت لي أمل إذ ليـس لي عمـل

من التّقى يقتضي ترجيح ميزاني

لعـلّ حسن يقيـني فيك يمنحـني

شفاعـة ويقيـني لفـح نيـران

ديني على الدّهر حجّ البيت معتـراً

فهـل يساعـدني دهـري بإمكـان

وزورة لرسـول الله ملتحمـاً
ذاك الضّريح الذي بالنّور يغشـاني

وأي عـذر لقلـب لا يحـنّ لـه
والجـذع حـنّ له تحنـان لهفـان

والبـدرُ شـقّ له والضـّب كلّمـه
والظّـبي والذّئـب تكليمـاً بتبيـان

وفـاض ينبـوع مـاءٍ من أناملـه
بورده العذب روّى كلّ ضمئـان

أعلى الورَى من سرَى ليلاً لخالقه
بما له من عـلاء القـدْرِ والشـانِ

إعْظِـمْ بقدر رسول الله حين دنـا
من ربـه حيـث لا قـاصٍ ولا دان

وعاد قبـل ظهـور الفجـر منقلبـاً
عن قـاب قوسين لمْ يخصص بها ثانِ

كم من دلائـل للمختار قد حسبـت
ومن فضائـل لا تحصى بحسبـان

ببعثـه نطقـتْ من قبـل مولـده
في الكتب أخيـار أحبار ورهـان

وفي ربيـع ربوع للهدى عمـرتْ
ورحمة ظهـرتْ للإنـس والجـان

يا شهر أطلعت في أفق الهدى قمـراً
كمالـــه غيــر موســـوم بنقصـــان
فالسّعـــد مقتبـــل و العـــزّ متّصـــل
والدّهـــر محتفـــل في زيّ جـــذلان
والملـــك مبتســـم بالبشـــر متسـم
مذ قام بالعدل فيه خير سلطـــان
أفـــاض في مولد المختـــار نائلـــه
فأنظـــر إلى ملتقى حسن وإحســـان
موسى الخليفة والإجمـــاع منعقـــد
عليه لم يختلف في فضلـــه اثنـــان
كأنّـــه للـــورى روح وهـــم جســـد
ولا حيـــاة بـــلا روح لجثمـــان
له وقـــار نـــهى في طيّـــه فطـــن
إن يرســـل الظـــنّ يأتيـــه بإيقـــان
فراســـة مـــن هبـــات الله صادقـــه
يـــرى المغيَّب من ســـرٍّ كإعـــلان
تتهـــاه عفّتـــه عن أمـــر بطشتـــه
يرعى الرعايا بعين العاطف الحاني
فالحـــقّ في الخلق جار في إيالتـــه
مستضعـــف وقـــويّ فيـــه سيّـــان

أعـــاد دولـــة عبـــد الـــواد ثانيـــة

حتّى استقامـــت بأســـاس وأركـــان

يا ناظـــم الملك بالأمـــوال ينثرهـــا

كم كَفَّ كفّاك من أزمـــات أزمـــان

نوالـــك الغيـــث إلاّ أنّ ديمتـــه

صوبان من ورق محض وعقيـــان

وجيشـــك البحر لكن من عجائبـــه

عقبـــان خيل عليها أســـد فرســـان

تفـــر منه شياطيـــن العـــدا فَرَقـــاً

تَنْقَضُّ منه عليهم شهب خرصـــان

يا باسط العدل في أهل البسيطة قـــد

طويتـــمُ للأعـــادي كـــلّ عـــدوان

مـــولاي أن تدع الأمـــلاك معلـــوة

بشبهـــة فمعاليكـــم ببرهـــان

فلو رأى من مضى ما شدتَّ من كـــرم

لـــم يمـــدح المتنـــبّي آل حمـــدان

إليكهـــا كلمـــات لو بهـــا سمعـــتْ

أولاد جفنـــة قالـــوا شعـــر حسّـــان

ما مثّل عبدك في مداح مجدك مـــن

مثْنٍ ولا لـــك في الأملاك من ثـــان

فـدام سعـدك يا مـولاي مقتبـلاً
مجـدداً كلّمـا عـاد الجديـدان

وللمؤلـف عفـا الله عنـه؛ قولـه:

الطويـل:

سقى الدّار بالجرعاء من جانب الشّعب
سحائب دمعي إنْ وَنَتْ أدْمُعُ السحـبِ
وروّض مـا بيـن العقيـق إلى النـقى
وحيّـا بنيّـاك الحـمى زمـن القـربِ
مغـاني شمـوس أو ربـوع أهلّـة
طلعْنَ بروضٍ أو بزغـنَ على القضـبِ
هنالك أعطيـتُ الهوى فضـل مقـودي
وجـدت مطيعـاً بالحشاشـة والقلـب
فيـا عجبـاً لاَ من تنـائي مزارهـا
ولكنّـه إن أمكنـت عيشـة الصّـب
وقفـتّ بأطـلال الرّبـوع ركائـبي
بـلأي عرفـت الدّار عافيـة التّـرب
فيأيّهـا الحـادون مهلـة ساعـة
عسى وطراً أقضيـه في وقفة الرّكـبِ

خليــليَّ مــالي كلّمــا هبّــتِ الصّبــا

تذكّــرت والذّكرى تهيج لــذي الحــبِّ

دِعَــا العتب أو ردًّا على القلبِ عهــدَه

فــإنّ وفــائي لا ينهنــه بالعتــــب

ومــا شاقــني إلاّ تألُّـــقُ بــارقٍ

أطــار منام العين وهنــا مِنَ الرُّعــبِ

يذكّــرني عهــد التصــابي برامــة

فأهفــو فيــأتي زاجر الشّيــب بالعتــب

بنفسي الألَى راضوا على السّير أنفســاً

يهون عليها في المعالي لقــا الصّعــب

يحثُّــون مــن شــوقٍ ليثــرب ركبَهُــم

فما شئــتَ فيه مــن ذميــل ومن خــبّ

نضــاوى على عيس نضــاوى كأنهــم

سهــام تــرامىٰ عن قُــسيٍّ من النّجــبِ

تُــضيءُ الدُّجا مهما ســروا عزماتُهــم

وتطوي الفَــلاَ طيّ السِّجِــلاَّتِ لِلكُتْــبِ

تميــل على الأكــوار سكرى رؤسُهــم

وليس سوى خمــر المحبــة من شــرب

إذا مــا دنــوا داراً يزيــدون نشــوة

كذا بُرَحاءُ الشّــوق تــزداد بالقــرب

فنالــوا المــنى في طيبـــة لهــم الهنـــا
وأقعــدني ما قــد جنيــتُ مــن الذّنــب
فمن لي بــأن يدنــو المــزار ونلتــقي
ونقــضى لبانـــات المحــبّ من الحــب
وآتي ضريــح الهاشــمي محمــــدٍ
أعَفِّــرُ خدّي في ثرى ذلــك التّــرب
بحيــث الهدى والوحي تبدو ربوعــه
وآثار خير الخلق في السّهل والهضــب
نــبيّ الــرّضى نــور الإلــه صفيّـــه
ومختاره المخصوص في القدْسِ بالقربِ
هو المصطفى والمجتــبى سيّد الــورى
وأكــرم مبعوث إلى العجــم والعــربِ
أتى بالهــدى يمحــو الضّــلال نهــاره
فأشــرق صبحاً لا يميــل إلى غــرب
بــه بشّــر الكهّــان قبــل ولاده
وعندهــم ألفــوه في محكــم الكتــبِ
لــه أنهــدَّ إيــوان وغاضــت بحيــرة
ورُدَّتْ شياطيــن عن السّمــع بالشّهــب
مِنَ المسجد الأقصى سما ليلــة الســرى
يصاحبــه جبريــل حتّى إلى الحجْــب

دنـــا فتـــدلّى قـــاب قوسيـــن رفعـــة

لدى حضـــرة التّقديـــس تؤذن بالقـــرب

وحـــلّ بها عن عالـــم الكـــون مفـــرداً

وهل بعد هـــذا من دليـــل على الحـــبّ

وأرسلـــــه للعلميـــــن بأسرهـــــــم

وأيـــــده بالمعجـــزات وبالرُّعـــــب

فـــفي البـــدر والشّمـــس المنيـــرة آيـــة

وفي الجذع والحصباء والظّبي والضّب

ومن كفّـــه أروى الجيـــوش على ظمـــا

وأشبـــع من نزرٍ ألوفـــاً على سغـــب

ونـــادى فجـــاءت أيكـــة لندائـــــه

تجرّ من الأغصان ذيلاً على التّـــرب

بدعوتـــه أغـــنى مـــن الفقـــر عافيـــاً

وأبـــرأ من بعد العـــمى ليـــس بالطّـــب

بشيـــراً نذيـــراً عاقبـــاً حاشـــــراً أتى

رءوفـــاً رحيمـــاً بالعبـــاد عـــن الـــرّب

إبـــان قضايـــا الأمـــر في كـــلّ ملّـــة

فهـــذي بإيجـــاب وهاتيـــك بالسّلـــبِ

بـــه ' ختـــم الله الرسالـــة للـــــورى

وشفّعـــه فيهم لدى الموقـــف الصّعـــب

إذا الْتــجَّ هــول الحشر أو جلَّ خطبــه
فأحمد ينجي الخلق من ذلك الخطــب
أجــب يــا رســول الله دعــوة مرتــج
شفاعتــك العظــمى تجيــر من الذّنــب
يــروح ويغــدو في البطالــة جامحــاً
يســرّ مــن الأيّــام باللّهــو واللّعــب
وقــد آدني حمــل الخطايــا وإنّــني
بجاهــك أرجو الصّفح عن ذاك من ربي
عليــــك صــــلاة الله ثــم سلامــــه
ورحمتــه ما أنْهَلَّ مُزْنٌ من السحــب
وعامِــلِ بالرّضــوان قومــك إنّهــــم
هم النّــاس من آلٍ كِرام ومن صحــب
وأيّــدْ مَــنَ أحْيَــا لنــا سنــة الهــدى
خليفتــه حــامي حمى الدّين بالعضــب
شريــف ملــوك الأرض فرعاً ومحتــدا
وأكملهم في الجنس والفصل والكســبِ
هو القطــب والأمــلاك شهب سمائــه
وهل دارت الشهبــان إلاَّ على القطــبِ
كريــم السّجايــا أريــحيٌّ سميــدع
طليقُ مُحيًّا الوجه في السِّلــم والحــرب

وما في سوى كسب المحامد رأيه
وذاك لعمري أشرف الرَّأي والكسب
له أثر في الحِلْم والعلم ظاهر
وفي الرّأي والإقدامِ يسفرُ عَنْ نَدْبِ
فمن ذا كموسى أوْ يُضَاهِي جلاله
وهيهات للشّمس المنيرة من تِرْبِ
خلال كما شاء الكمال حميدة
تضاهي نجوم الأفق في العَدِّ أو تربي
وخلق كما قد شاءه الحسن باهر
يُعَظِّمُهُ الرَّائي على البُعدِ والقُربِ
وهمَّة ذي مجد كريم نجاره
سمتْ بك يا مولاي عن مرقب الشهب
فيمناك وَهِيَ المزن سيفك جاحم
ولا عجب أن لاح برق من السّحبِ
فإنْ تأتِهِ تَأتِ الذي ليس بَعْده
لذي أملٍ مرمى بشرقٍ ولا غربِ
ففي بابه تلقى الأسود خوادراً
على الجرد من عجم البريّة والعربِ
وفيه ترى آثار حكمة ربّنا
من الأمر والنّهي المطاعين عن حبٍّ

تزاحم تيجان الكماة ببابه

كما ازدحم الصّادون بالمورد العذبِ

إذا حَطَّ عاف رحله بفنائه

يلاقي الذي يهواه بالمنزل الرّحب

فما الدّين والدّنيا سوى ما رأيته

ببابك لاَ ما دوّن النّاس في الكتب

هنيئاً أمير المسلمين بأن حوتْ

معاليك كلّ الفخر بالطّبع والكسب

ودونك من نسل القريض كريمة

تزفّ بمغناك العلي عن الشهب

أتتْك كما شاء الكمال كريمة

بديعة نظمٍ من عروضٍ ومن ضربِ

وقفتُ بها بين السّماطين منشدا

لدى ملك الدنيا ففقتُ بها صحبي

وبان بها فضلي على كلّ شاعر

فليس لها فيما يقولون من تِربِ

بقيتُ لنيلِ المجدِ والعزّ والعلاَ

تغيظ الأعادي إذ تسرُّ ذوي القرب

ولا زلت والأقدار تجري بما تشا

وأنت قرير العين بالآلِ والحزبِ

وبعد المولد الكريم؛ وصله رسوله **محمد بن عمر البريطل** من **المغرب**؛ ومعه **حسون بن علي الصبيحي**؛ رسولاً من قبل السلطان **أبي فارس عبد العزيز**؛ لاقتضاء الصلح، والتماس طرد **معقل المغرب** عن باب أمير المسلمين أيده الله؛ فلم تسمح بذلك يد عزه، ولا أعطت المقادة فيه نخوة ملكه. فانصرف الرسول المذكور بسخنة العين من قصده. وجمع أمير المسلمين - أيده الله - **العرب** المذكورين على بيعة **محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد الحق**، وكساه شارة الملك، وأرسل جميعهم لحصار **سجلماسة**؛ وملك المغرب - يومئذ - محاصر **لعامر بن محمد الهنتاتي**؛ الثائر بوطن **مراكش**.

ثم نادَى - نصره الله - في الناس بالحركة؛ معمياً قصده فيها عن الخاص والعام؛ وبادر بالخروج إلى محلته، وقدّم الكتب لكافة قبيله الأعز، وأحلافه، وسائر الجيوش المستركبة بالكور؛ يأمرهم بالنهوض واللحاق به. وفي يوم الاثنين ثامن عشر ربيع الثاني؛ نهض - نصره الله - يجد السير ويطوي المراحل؛ إلى أن بغت **الثعالبة بمتيجة** ضحى؛ فانتهب الأموال، واستباح الأنفس، وأخذ بمخنق **الجزائر**؛ ليلة أو اثنتين ثم قفل؛ وقبيل **الثعالبة**

يذادون بالمال والأنفس ذود الأنعام بين يديه الكريمتين؛ آخذاً بهم على نهج الساحل؛ ماراً بـ: **برشك**، **وشرشال**، **وتنس**؛ إلى أن أحلهم **بوادي شلف**؛ وأمر قائده فيه بإغرامهم كل ما غابوا عليه من مخازن السنين السالفة.

ونشر أعلامه المنصورة إلى حضرته؛ فدخلها يوم السبت ثالث جمادى الثانية. فأمر الناس بتجديد الحركة، واستنفر الحشود من كل قطر؛ لمتانات حصار **الجزائر** براً وبحراً؛ فتم ذلك ورحل مشرقاً يوم الاثنين رابع رمضان المعظم. وفي **تاسالة** ورد عليه الخبر؛ بأن ملك **المغرب** السلطان **أبا فارس**؛ قد أخذ **عامر بن محمد الهنتاتي** وعاد إلى دار ملكه؛ داعياً قومه إلى الحركة شرقاً؛ امتعاضاً لطرد رسوله غير مقضي الغرض، وإيجاف الخليفة أيده الله على **سجلماسة**؛ **لمحمد بن محمد** المذكور وعربه. وقد كان المذكور عاد إلى **تلمسان** في شعبان؛ فتمادى أمير المسلمين نصره الله إلى **البطحاء**، وضم بها جنوده الشرقية كافة، وقبيل **بني عامر** بأسره، وثنى العنان للقاء ملك **المغرب**؛ وعسكر ظاهر الحضرة أول ذي القعدة، وخيم **بنو عامر** **باصطفطيف**.

ثم أمر قبيله الأعز بالاستعداد إلى الصحراء؛ على عادته في أمثال ذلك؛ واستدعى **رجال عبيد** الله للمؤامرة؛ فجاؤا من عند أخرهم؛ واتفقت الكلمة على اجتماع أمير المسلمين أيده الله وعربه **برأس العين**، وإقامة ولده المولى الأمير الأعلى **أبي تاشفين** أعزه الله بألف فارس مختارة في **تلمسان**؛ فإن قصدها العدو أخذ أمير المسلمين عنها بحجزه، وإن قصد إلى الخليفة وقومه أصحروا أمامه، فإذا رجع قفوه، وإن أعيا في أثرهم انعطفوا عليه. ويا ما أحزم هذا الرأي؛ لولا خذلان **عبيد الله** فيه، وانحيازهم إلى ملك **المغرب** عند صدمته. وانتهت السنة. ولله وحده البقاء، لا إله إلا هو سبحانه.

* * * * *

سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة[1]

في أول هذه السنة؛ كان ابتداء التمحيص الأكبر، والابتلاء الأشهر؛ بما لم نعرف لملك من ملوك الإسلام نظيره، ولا عدّ في مثلات الأمم الخالية شبهه؛ حسبما تقف عليه، وعلى ما اعتقب شدته من الفرج وتمحيصه من التخصيص. السبب هو ما خامر رسالة **محمد بن عمر البريطل إلى المغرب** من الغش والخديعة، ثم ما ذكرناه من استنكاف أمير المسلمين عن إجابة سؤال السلطان **أبي فارس عبد العزيز**[2]؛ إلى طرد **المعقل** المستجيرين به، ثم ظهور أمير المسلمين أيده الله على قبيلي: **سويد**، وبني **يعقوب** المخالفين كانوا عنه، وجلاهم **إلى المغرب** خوف سطوته. فلما ظفر السلطان **أبو فارس بعامر بن محمد الهنتاتي**؛ مناصفه في **الجهات المراكشية**؛ في ذي القعدة من السنة الماضية ــ كما مر ــ دبت حميا نزغات الناكبين عن أمير

---

[1] 1370م.

[2] هو أبو فارس عبد العزيز ابن أبي الحسن. حكم من 767هـ/1365م إلى 774هـ/1372م.

المسلمين في نخوته، وزهت زخاريفهم ببصر بأوه؛ فارتاشت سهام الحقد، وثارت أفاعي العدواة، وأرهفت مدى العزم؛ فجمع أهل **مغربه** كافة؛ من **السوس الأقصى** إلى صحراء **درعة**، إلى **سبتة** من **بحر الزقاق**[1]. ونهض ميمماً **تلمسان** بالجراد المنتشر، أو البحر الطامي، أو السحاب المسخر بين السماء والأرض؛ وانتبذ **قبيل عبيد الله** كافة إليه؛ خديعة ولؤماً وكفراً للأنعام؛ فاحتمل ـ نصره الله ـ كل ما اشتمل عليه قصره السعيد من: مال، وحرم، وذخائر، وفرش؛ مما لا يحويه الحساب، ولا يحيط به الفكر، ولا يصدق ناقل خبره؛ وظعن بقبيله الأعز، وأحلافهم، وكافة **بني عامر** عن الحضرة مشرقاً؛ يوم الأربعاء رابع عشر محرم؛ فنزل **البطحاء**، وتلوم بها ثمانياً.

وفي يوم الأحد الخامس والعشرين من المحرم؛ دخل ملك **المغرب تلمسان**، وأمّر وزيره **أبا بكر بن غازي بن الكائس**، ومضى بكافة قبيله، وأحلافهم المحشودة، وجميع عربهم المستجاشة؛ من: **المنبات**، **والعمارنة**، **وأولاد حسين**، **والهداج**،

---

[1] بحر الزقاق هو مضيق جبل طارق.

وبني **يعقوب**، **وسويد** في أثر أمير المسلمين؛ فارتحل ـ أيده الله ـ عن **البطحاء** ماراً **بمنداس**، ثم **ببقود**[1]؛ ثم انخزلت عنه إلى بلادها **توجين**، **وبنو راشد**؛ سوى رجال صبر منهم؛ فنزل وادي ورك من **بلاد العطاف**[2]؛ ثم أخذ منه على **ثنايا الغنم**، ونزل **بسبخة زاغر**[3]؛ وتلوم إلى أن وصلته عيونه المبثوثة عن العدو باقترابه؛ فارتحل مشرقاً.

قلت: ومن هنا فارقته ـ أيده الله ـ لخيالات سوداوية اعتورتني، ونزعات شيطانية تجاذبني، وسوء بخت تقاعس عن إدراك الفخر برحلي، وشقاء مكتوب أهوى إلى درك الخسارة بي؛ ولا حول وقوة إلا بالله؛ ولولاَ أن أفضح مستوراً وأخلد في بطون الأوراق وصماً مشروحاً لأبنت ما جرى، وقلت كيف كان؛ لكن فضله ومجده محا السيئات، وجلا بمنصه العفو المحاسن، والاعتراف إنصاف، والندم توبة، ولا ذنب كما ورد، مع إقرار خلد الله

---

[1] تابعة لقبيلة الديالم الهلالية.

[2] أو وادي وارك؛ يقع جنوب البطحاء؛ الواقعة بدورها شمال الصحراء الرملية المعروفة بأم يدّر. وتدخل في البلاد المخصصة لقبيلة العطاف الهلالية.

[3] موقعها في ولاية الجلفة حالياً.

ملكه، وأعان على أداء الواجب من الخدمة له، ولا أعدمنا ظل حرمته، بفضله ورحمته.

رجع الحديث: وأخذا أمير المسلمين ـ أيده الله عند ارتحاله من زاغوا ـ على **ثنية الأمطار** من بلاد **رياح** واجتاز شمال **خيزرانة** ونزل قرب **مسيلتهم**.[1] وتلوم ثلاثة أيام؛ لإيلاف **أولاد يحي** منهم[2]؛ فأحسن إلى جميعهم بالكسي العديدة، والمال الجزيل؛ ثم رحل آخذاً على مشارع وادي **مسيف**[3] فبحائر الشيخ، وخرج على **ثنية غان**؛ فنزل ظاهر **الدوسن**[4] من قرى الزاب أول شهر ربيع الأول؛ تحف به حلل **أشياخ بني عامر**؛ وخيم سائرهم **بوادي شدى**؛[5] على قيد رحلتين منه قبلة. وأقام هنالك ثلاثاً لاستيلاف **أولاد محمد من رياح**؛ فهنالك فجأه العدو؛ عقب نهار؛ فاجفل من كان قربه؛ من

---

[1] يقصد المسيلة. وتلك المناطق كلها خاضعة لقبيلة رياح الهلالية.

[2] أي من رياح.

[3] مسيف: هي الآن بلدية في ولاية المسيلة؛ اشتهرت بمنتوجاتها الزراعية.

[4] الدوسن: بلدية في ولاية بسكرة؛ اشتهرت بمنتوجها الفلاحي. لها تاريخ عريق؛ حيث كانت عبارة عن مركز متقدم للجيش الروماني.

[5] ينطلق هذا الوادي من جبل لعمور بآفلو مروراً بالأغواط ـ التي يسمى فيها بواد مزي؛ ثم يواصل امتداده ـ عبر ولاية بسكرة ـ حتى شط منغيغ بولاية الوادي.

أشياخ **بني عامر**، وتركوا خيامهم بما حوته. ووقف هو ـ أيده الله ـ لإرحال محلته؛ وقد غشيها العدو من كل جانب؛ وولده المولى الأمير الأعلى أبو تاشفين ـ أعزه الله ـ يحمل على جميعهم كالأسد الهادي؛ فيرد أولهم على أعقابهم؛ حتى لم يتركوا بالدار عقالاً.

وقدم الخليفة ضيعته بين يديه؛ وقد أجنه الظلام؛ فانهار العدو خلفه، وتكالبوا في طلبه؛ فقرعت طبوله، وانعطف نحوهم؛ فولوا الأدبار، وانكبح طغيانهم؛ ثم أدلج ـ نصره الله ـ مقبلاً أثر قبيله الأعز وعربه؛ وقد أخذ كل منهم طيته؛ مع الجهل بالبلاد، وعدم الهداة فيها، وتراكم بحر الظلمة؛ فجد أيده الله سيره أربعة أيام بلياليها؛ في تنايف ومجاهل لا يهتدي بها القطا لمسقط نوء، ولا يسمع بها سوى عزيف الجن صوت؛ لم يرد بها ـ ولا قومه ـ ماء، ولا استأموا أكلاً، ولا عرفوا غير برض القوت غداء. وفي الخامس؛ اجتمع بقبيله وعربه على ماء **قارة المهمر**؛ شرق **جبل مزاب**[1]؛ سويداء قلب الصحراء، وسنام يبابها القفر؛ وقد

[1] يعرف الآن بوادي ميزاب. ويقع هذا الوادي جنوب الأغواط؛ في منطقة صخرية تسمى الشبكة.

خامر قلوب كثير من أوليائه الزيغ، وران عليهم الهوى؛ كـ: **محمد بن عمر البريطل**، **ووادفل بن عبو**، **وسعيد بن تصاليت**، **وخالد بن عامر**.

ومنه ارتحل ـ أيده الله ـ إلى **ماء السمارة**[1]، ولزمه أربعاً، ثم نزل الجبل المذكور[2] وتلوم به ـ أيضاً ـ أربعاً؛ ومنه بعد مشي يوم وليلة ورد على **متليلي**[3]؛ فارتوى الناس، وصرف عنه مشيخة **بني عبد الواد عمرت مصاب**، وركب القفر الصحصح مغرباً؛ فمرّ **بماء قوفافة**، ثم **تماسين**، ومنه إلى **جوف تيدلي**، ومنه إلى **وادي مايرتيغن**؛ وقد نفدت الأمواه، وبلغ ثمن الشربة الواحدة إلى ربع دينار؛ فارتحل إلى **عقبة بئر الذبان**، ثم إلى **ماء كرط**؛ وبعد ثلاث ـ تلومه بها ـ رحل إلى **قور الدنانير**، ثم إلى **ماء سلدن**؛ قرب قصور **بني عامر**؛ فقدم بين يديه من ينفض البلاد، وتلوم سبعاً؛ حتى علم نزول **بني مرين وعربهم**

---

[1] توجد أماكن عديدة في بلاد المغرب عموماً أخذت اسم السمارة مضافة إلى كلمة عين أو ماء... أما بخصوص هذه فقد تعذر علينا تحديدها.

[2] يقصد جبل ميزاب.

[3] يقصد هنا: متليلي الشعانبة؛ إذ توجد متليلي أخرى في شمال لغواط. ومتليلي الشعانبة تقع في وادي متليلي جنوب غرداية.

بالقصور؛ فرحل إلى مورد **أم الجرابيع**، ثم إلى **مجهل القرارة الحمراء**، ثم إلى **منهل أبيض تيسمرين** قبلة **قصر ربادس** من **بلاد بني عامر**؛ وقد نفذت الأزواد؛ فأقام وأرسل الناس عيرهم إليه، ثم ارتحل بعد وصولها إلى **غدير البقر**، ومنه إلى **منهل تماسين**، ثم إلى **وادي الاسمام**، إلى **بئر طرفا**، إلى **مجهل**، وغدا على **وادي نوت**، أمسى ثالث ليله **بوادي درمل**؛ فلتوم به ثمانياً، ثم صعد معه إلى **نبقة الخبا** قريباً من **وادي فيجيج**؛ ذي القرى الجريدية، وأرسل إليها الناس عيرهم؛ وتلوم ــ أيده الله ــ إلى أن قفلت، ثم كرّ يطأ أثره؛ فأمسى **بماء عمود الاسمام**، ولزمه أياماً ثم ركب منه **الحمادة**[1]؛ فراح إلى **غدير الخشبة**، **فغدير البقر** المعروف **بالأبيض**، فغدا على **قصر ربا**، ولزمه أياماً، ومنه أصحر إلى **تاربابية إلى كدى السباع**، ثم إلى **مجهل** يكاثبها؛ ميز به **بني عامر**، وأعطى مرتباتهم المعتادة؛ سوى **عبد الله بن شيقر بن عامر**؛ في إخلاط منهم شايعوا ملك **المغرب**.

[1] الحمادة: صحراء حجرية مستوية.

وبهذا المنزل – في شهر رجب – أتت أمير المسلمين رسل **عبيد الله** من **المعقل** بإنابتهم إلى طاعته، ويدعونه إلى دخول **التل**[1]، والحركة إلى **تلمسان**؛ بعد أن خلعوا طاعة السلطان **عبد العزيز**، وشنّوا على بلاده الغارة؛ فاستبشر الناس بقدومهم، وسرّوا بنقض عدوهم. وارتحل أمير المسلمين إلى **قصر ربا**، ثم إلى **خنق الحديد**؛ وفيه لقيه – من عبيد الله – وفد يستحثونه؛ فغلغل وأمسى **بعين القمل**، فأراح الظهر بها أياماً؛ تلاحقت به فيها **العرب**، ورحل إلى **وادي مسيف**، ثم إلى **معلم**؛ بين **تاجرنا**، و**المناقيب**، **فخربة عنتر**؛ وأصاب الناس بها ثلج شديد؛ فقَدّم أمير المسلمين – بين يديه إلى **التل** – **محمد بن عمر البريطل**؛ بحصة من قبيله الأعز، **وخالد بن عامر**؛ في جمرة قومه؛ وأقام هو مستصحباً؛ فجاءه من **عبيد الله** وفد آخر باستعجاله؛ فارتحل ونازلهم **باليتيمة**.

وبلغ الخبر بنهوض **خالد بن عامر** إلى **عبد الله** ابن أخيه **شيقر** شيعة **المريني**؛ فاعتقد انصراف **زناتة والعرب** أجمعين معه؛ فنهض إلى حيّ

[1] **التل**: المنطقة الخصبة التي شمال الصحراء.

أمير المسلمين؛ لاهتبال الغرّة فيه؛ فثنى ـ نصره الله ـ العنان قصده؛ وفزعت منه **عبيد** الله كافة؛ فردّها إلى أهلها؛ من **ماء نبش الذئب**؛ ولم يزل ـ نصره الله ـ يطأ عقب **عبد** الله المذكور، ويأخذ في ظعنه إلى أن أقحمه **التل** مكرهاً قبل أبانه، ونزل **أبيض عنتر**، ثم قفل إلى **درج**، ومنه إلى **مجهل**، فقبلة **تيسمرين**؛ وثلج الناس أيضاً؛ فاستصحى بهم أياماً، وارتحل إلى **عيون النشاب**؛ قبلة **جبل بني ورنيد** المصاقب **لتلمسان**؛ وذلك أول رمضان؛ ثم نزل **إيفرطن**؛ طرف بلاد **بني يبقّى**؛ فلقيه رسول **عبد الله بن شيقر** المذكور؛ ملتمساً رضاه وصفحه؛ فتجاوز ـ كعادته ـ عنه، ورحل مغرباً؛ فأمسى **بماء تاملحت**، **فتيولى**، **فتامززدكت**، **فوادي يسلي**، ثم أخذ بمخنق **وجدة**؛ فأصمد إليه السلطان **أبو فارس** وزيره **أبا بكر بن غازي**؛ بكافة **بني مرين**، وأحلافها، وجميع **زغبة** من **سويد**، **وبني يعقوب**، **والديالم**، **والعطاف**؛ فنزلوا **وادي تافنا**،

وأقبلت ـ أيضاً ـ باستقدامه **عرب عزبه** من: **أولاد حسين**، **والعمارنة**، **والمنبات** كل بقائده؛ فنزلوا مع الشيخ **أبي يعقوب ونزمار بن عريف**

بأبردل من **جبل بني يزناسن**؛ فما ضام نصره الله عن إقدامه، ولا بالي بكثرة العدوين القاصدين إليه من يمينه وشماله؛ بل استمر حاركاً على **العرب** الغربية؛ فوافقوه، وحمى الوطيس، واستحدم المراس ملياً؛ ثم انجلت الوغى عن هزيمة عدوه، واستئصال ظعنه؛ وأسر خمسة وعشرين من أجوادهم؛ كـ: **سعيد بن عثمان**، وأخيه **رحو**، و**عبد الرزاق بن عبد** الواحد، **وغانم بن موسى**، وغيرهم؛ فصفح ـ أيده الله ـ عن جميعهم، وعفا عن زلاتهم، ثم أحسن إليهم وسرحهم. وأخذ ـ نصره الله ـ على **ثنية الحصباء** جنوباً؛ فعرس قبلتها، وراح من الغد إلى **مقطع الغاسول** من **وادي صا**.

ثم اقتضى نظره الكريم الحركة على الوزير **ابن غازي** وجموعه؛ فثنى العنان قصده ونزل **بتاملحت**؛ فأجفلوا بين يديه، ونزل إزاء **وجدة** غرة شوال، ثم غرب إلى **دبدو** من **بلاد مرين**؛ فجاس خلال دياره، واستباح زرعه وضرعه، وعاج الركاب قاصداً **تلمسان** المحروسة؛ فنزل **أيلوان** قبلتها؛ فمن هنالك إنخزل عنه **رحو بن منصور**

بن **عبد الله الخراجي**[1] بقومه؛ داعياً فيهم لملك **المغرب**؛ فشرق أمير المسلمين غازياً إلى **عمر بن مسعود التيربعي** وزير ملك **المغرب**؛ وكان على **البطحاء**؛ بالآف من مرين؛ للتضيق على **حمزة ابن علي بن راشد المغراوي**؛ الثائر يومئذ **بشلف**؛ فعرس ـ أيده الله ـ **بمرسيط**، **فعين الثور**، **فسعيدة**؛ أول شهر ذي الحجة؛ وسبق إلى الوزير المذكور النذير العريان؛ فاجفل متذمماً بمدينة **مستغانم**. وتملك أمير المسلمين **البطحاء**، وتلوم بكورتها أياماً؛ أراح بها الظهر، واستجم القوة، وأنمى الأزواد، ثم انتقل إلى مناصبة **منداس**؛

وقد كان ملك **المغرب** أنهض إليه أيضاً وزيره **أبا بكر بن غازي** ببني **مرين** كافة، **وزغبة** أجمعين، **والمعقل**؛ ونزلوا **بتالحني**؛ وعميت الأنباء على الطائفتين؛ فلم تعلم أحدهما بالأخرى؛ إلى أن تصادفتا أصيل يوم روادهما؛ فتنادوا محتربين ليلتهم، وصدر غدها؛ ثم تقهقر الوزير حذراً على نفسه. وأصحر أمير المسلمين؛ فعرس ليلته تلك **بوادي سنوف** سلم من **السرسو**؛ ومنه راح إلى **طاقين**،

[1] الخراج: بطن من ذوي عبيد الله من قبيلة المعقل.

فمنهل قطبف، فبيضاء راشد، فسمجاج، ثم تسنم **جبل راشد**؛ ليخفف به عن الظهر؛ ما أذاه ثقله من الزرع والمرافق النامية؛ ويعود لحرب العدو؛ فهنالك نفذت ــ للخليفة أيده الله ــ السنة؛ على ما رأيت من شط داره، وتقاذف النوى بركابه، وتهادي الآكام والوهاد مواطئ نعليه، وتجاذب الصبا والدبور أهداب غدوه ورواحه، واعتياضه الفقر من القصر، والعسر من اليسر، والبؤس من النعيم؛ إلى ما مني به ــ أعلى الله مقامه ــ من محاربة عدوين: ظاهر وباطن، ومثاقفة بغيضين: بعيد وقريب؛

فلقد كان كفار النعم، وخونة الله ورسوله، رهط الضلال، وحزب الشيطان، ومغلوبو الهوى: **محمد ابن عمر البريطل، ووادفل بن عبو بن حمادن، وسعيد بن تصاليت**؛ تكالبوا في الفساد عليه، وإعمال الحيل في ضرره؛ فتسري نزغاتهم إلى قلوب أنصاره سماً نافعاً، وتحرق نمائمهم أسماعها سهاماً مصمية، وتنساب مختلفات زورهم بين الأحياء أراقم ناهشة. و **((اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الخَائِنِينَ))**[1]. وربما فاجؤه ــ نصره الله ــ بهجر القول، وأفرغوا له الغش في

---

[1] الآية كاملة هكذا: ((وذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين)). سورة يوسف؛ الآية: 52.

قالب النصيحة، وأحالوا ـ بين يديه الكريمتين ـ قداح الصداقة المنطوية على البغضاء؛ فيصارفهم بحسن القول، ويجازي بميدان المصانعة أهواءهم، وبغض البصر فيهم على قذاه، ويوطئ قدمه منهم شوك السعدان؛ خلقاً عظيماً، وسياسة فضلَى. وقد علمت ـ أرشدك الله ـ أن مصارعة العدو الظاهر أهون من مصارعة العدو الباطن، وأن الحذار من الصديق الخائن أوجب من حذار العدو المجاهر. ولا حول ولا قوة إلا بالله. ولسان حال أمير المسلمين ـ أيده الله خلال ذلك كله ـ ينشد ملك **المغرب**؛ من شعر أبي العلاء المعري:

الطويل:

الا في سبيل المجد ما أنا فاعل
عفاف وإقدام وحزم ونائلُ
أعندي وقد مارست كل خفية
يصدق واش أو يخيب سائلُ
أقل صدودي أنني لك مبغض
وأيسر هجري أنني عنك راحل
إذا هبت النكباء بيني وبينكم
فأيسر شيء ما تقول العواذل

تعـــد ذنـــوبي عنـــد قـــوم كثيـــرة
ولا ذنب لي إلا العـــلا والفواضـــل
كـــأني إذا طلـــت الزمـــان وأهلـــه
رجعـــت وعندي للزمان طوائـــل
وقد سار ذكري في البلاد فمن لهـــم
بإخفـــاء شمس ضوءهـــا متكامـــل
بهم الليـــالي بعض ما أنا مضمـــر
ويثقـــل رضوى بعض ما أنا حامل
وإني وإن كنـــت الأخيـــر زمانـــه
لآتٍ بمـــا لـــم تستطعـــه الأوائـــل
وأعدو ولـــو أن الصباح صـــوارم
وأســـري ولـــو أن الظلام جحافـــلُ
وإني جـــواد لـــم يحـــل لجامـــه
ونصـــل يمـــان أغلفتـــه الصياقـــل
وإن كان في لبس الفتى شرف لـــه
فما السيـــف إلاّ غمـــده والحمائـــل
ولي منطق لم يرض لي كنه منزلي
على أنـــني فوق السماكيـــن نـــازل
لـــدى منـــزل يشتاقـــه كـــل سيـــد
ويقصـــر عن إدراكـــه المتطـــاول

ولما رأيت الجهل في الناس فاشيـا
تجاهلـت حـتى ظـن أنّيَ جاهـل
فيا عجباً كم يدعي الفضل ناقـص
ووا أسفي كم يظهر النقـص كامـل
وكيـف تنام الطيـر في وكناتهـا
إذا نُصيّـتْ للفرقديـن الحبائـل
ينافـس يومي فِيَّ أمـسي تشرفـاً
وتحسـد أسحاري علَيَّ الأصائـل
وطـال اعتـرافي بالزمان وأهلـه
فلسـت أبـالي من تقول القوائـل
فلو بان عضدي ما تأسف منكـبي
ولو مات زنـدي ما بكته الأناملُ
إذا وَصَفَ الطّـائِيُّ بالبخـل مـادر
وعَيَّـرَ قُسّـاً بالفهاهـة باقـل
وقال السـهى للشمـس أنت خفيـة
وقال الدجى للصبـح لونك حائـل
وطاولت الأرض السمـاء سفاهـة
وفاخرت الشهب الحصا والجنـادل
فيا مـون زُرْ إنّ الحيـاة ذميمـة
ويا نفس جدي إن دهـرك هـازل

وقد اغتـــدي والليـــل يبكي تأسفـــاً
على نفسه والنجم في الغرب آفـــل
بريح أعيرت حافـــراً من زبرجـــد
لها التبر جســـم واللجيـــن خلاخـــل
كـــأن الصبّـــا القـــت إلَيَّ عنانهـــا
تخـــب بســـرجي تـــارة وتناقـــل
إذا اشتاقت الخيل المناهـــل أعرضـــت
عن الماء فاشتاقـــت إليها المناهـــل
وليليـــن حـــال بالكواكـــب حـــوزه
وآخر من حلي الكواكـــب عاطـــل
كان دجاه البحر والصبـــح موعـــد
بوصل وضوء الفجر حِبٌ مماطـــلُ
قطعـــت به بحـــراً يعـــب عبابـــه
وليـــس لـــه إلا التبلـــجَ ساحـــل
ويؤنســـني في قلـــب كـــل تنوفـــة
حليف سُرًى لم يصح منه الشمائـــل
من الزنج كهل شاب مفرق رأسه
وأوثـــق حـــتى نهضـــه متثاقـــل
كـــأن الثريـــا والصبـــاح يروعهـــا
أخو سقطـــة أو ضالـــع متحامـــل

إذا أنت أعطيت السعـــادة لم تبــل

ولـــو نظـــرت شزراً إليك القبائـــل

تفتـــك على اكتاف أبطالهـــا القـــنى

وهابتـــك في أغمادهـــن المناصـــل

وإن سدد الأعـــداء نحوك أسهمـــا

نكصـــن على أفواقهـــن المعابـــل

تحـــامي الرزايا كل خف ومنســـم

وتلـــقى رداهـــن الذرى والكواهـــل

وترجـــع أعقـــاب الرماح سليمـــة

وقد حطمت في الدراعيـــن العوامل

فإن كنت تبغي العيش فأبغ توسطـــاً

فعند التنـــاهي يقصـــر المتطـــاول

توقي البدور النقـــص وهي أهلـــة

ويدركهـــا النقصـــان وهي كوامـــل

* * * * *

سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة[1]

أهل هلال هذه السنة؛ والفتنة بحالها، والعدو منيخ على الحضرة بكلكله، وأمر التمحيص مستتب، ومردة الضلال ترفل في غيها. ((لِكُلِّ أجَلٍ كِتَابٌ))[2]. ففي محرمها[3]؛ أقطن أمير المسلمين ــ أيده الله ــ أكثر حرمه، وثقلاته **بجبل راشد**، ونهض تلقاء العدو؛ وقد عاد إليها **بنو مرين ومعقلهم**، وبقي **عمر بن مسعود وزغبة** بالوطن. فنزل هو ــ أيده الله ــ **أم عسكر**؛ من **تل بني راشد**، وتلوم به ثمانياً للميرة، وأرتحل آخذاً على **جيج**، **إلى وادي المينة**، **فمدغوسة**، **فقلعة ابن سلامة**. وثم وصله رسول **أبي بكر بن عريف**؛ بالإنابة إلى طاعته سراً؛ فاستمر إلى **ماء تونكيرة**، وأرسل العير المثقلة إلى **جبل راشد**، وثنى العنان مغرباً؛ فنزل **بماء ساوس** من **سبخة كبود**، ثم **السخونة**، **فالشجرة**، **فالصوان**؛ ولزمه أياماً؛

[1] 1371م.

[2] الآية كاملة هكذا: ((وَلَقَدْ أرسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قبْلِكَ وَجعلْنَا لَهُمْ أزْوَاجاً وَذُرِّيَةً وَمَا كَانَ لِرسُولٍ أنْ يأتِيَ بآيةٍ إلاَّ بإذْنِ الله لِكُلِّ أجَلٍ كِتابٌ)). سورة الرعد، الآية: 38.

[3] أي في شهر محرم من تلك السنة.

إنصرفت عنه فيها عبيد الله إلى صحرائها، وثنى العنان ناهضاً على: **زغبة، سويد والديالم، والعطاف** وقريرها؛ فأمسى **فيض الجريبينة**.

ثم بدا له بما شاهد من فساد المخادعين عليه، فعاج الركاب، وأمسى **بالحليات**، ثم **وادي القصب**؛ ومنه غرب عنه **خالد بن عامر**؛ مكراً وخيانة، وركوناً إلى ملك **المغرب**؛ فتوجه أمير المسلمين بقبيلة الأعز إلى **جبل** راشد ولما كاثبه ـ **بمنهل بئر تاويالا** ـ أول شهر ربيع الأول؛ تخلف محلته وسار لا رحال قطينته؛ فأبي ذلك عليه **شيخ الجبل**؛ ضناً بكيانه عنده؛ فعاد نصره الله إلى محلته مصحراً؛ فأمسى **فيض الحجالة، فمجهلا، فتاسين، فملالا**؛ وألفاه ممرعاً؛ فأقام به إلى أن وصله شيعه الأوفياء؛ **أولاد عسكر بن معرف**، وخلطاؤهم من **بني عامر، وعبد الله بن شيقر**. وارتحل إلى **عين العنب** إلى **تاجديت**؛ وبها وافته رسل **بني يعقوب**؛ بانابتهم إلى طاعته، واقتراح الاجتماع؛ فارتحل نصره الله صمدهم، وعرس **بوادي الحجل**، ومنه إلى شمال مجرس؛ فانخزل عنه **ابن شقير**، وصعد الخليفة أيده الله ونزل **مجرساً**، ثم **ماء عين الكلب، فمجهلا**،

ثم نازل بني يعقوب؛ بخضراء كبود، وأرتحل بهم ميمماً التل؛ فخيم بماء مفسوخ العقل، ثم بإيفني طرف وارزلف.

وأرسلت إليه زغبة ـ خداعاً ـ بخدمتها، وطلب الاجتماع؛ فعاج ـ نصره الله ـ ركابه، وناورهم بذراع الوسط، ونهي إلى علمه الشريف ما أضمروه من الغدر؛ فأمر قومه بالاستعداد لحربهم، وتعبية السيقات، وأخذ المصاف؛ ثم دهمهم بما لا قبل لهم به؛ كثرة، وحزماً، وأقداماً؛ فحاق مكرمهم السيء بهم؛ واستؤصلوا قتلاً، وسبياً، وأسراً، وافترق فلهم أيدي سبا؛ فمن مقتحم التل زمن الشتاء، ومشرق؛ وأمير المسلمين في أثره؛ آخذاً على تغاليسن إلى عيون السرايا، فالزيادي؛ وأغار رعيله الأول؛ فاستباح قيطنة القوم؛ بحبل جزول من عند آخرها؛ وذلك في شهر ربيع الثاني. ومن هنالك أرسل الخليفة ـ نصره الله ـ لإرحال قيطنته الظهر؛ وأمر حفظتها باعتراضه بها في الصحراء، وثنى العنان بطأ أثره؛ فأمسى بعين وهب، فالزيادي، فحنش، فذراع الوسط ؛وثلج به الناس.

فاستصحى بهم فيه ليالي؛ أبدل فيه المنزل مرات؛ ثم انتقل إلى ماء الشجرة؛ فأصابت

الناس فيه سماء؛ استصحاها أيضاً، ورحل مصحراً؛ فأمسى **الصفيصيفة**، ثم غربي **الخضراء**، **فمنهل الحضري**، **فالنبقة**، **فتاجرنا**، **فالمناقيب**؛ وبها لقيه ظعن قيطنته، ومعه **أشياخ العمور**؛ عمرة **جبل راشد**، ووفد: **عروة**، **والديالم**، **والعطاف**؛ فأوسع حباء الجميع، وانصرفوا. وارتحل ــ أيده الله ــ فأمسى **بمجهل**، ثم بشمال **تيوت**، فشمال **ثنية الجليبة**، فقبلتها؛ ثم أغزى ولده الأمير الأعلى **أبا تاشفين** ــ أعزه الله ــ بجمرة القبيل المبارك، **وخالد بن عامر** بجماهير قومه إلى **المعقل** الغربية من: **المنبات**، **والعمارنة**، و**عبيد الله**، **وأولاد حسين بسجلماسة**؛ وراح هو ــ أيده الله ليلتئذ ــ إلى **مجهل**، ومنه إلى **درمل فيجيج**؛ فوفد ــ به ــ عليه أشياخ تلك القرى بالتحف الجزلة، والألطاف السنية، وانصرفوا بقرة العين من إحسانه؛ ثم أخذ ــ نصره الله ــ على **ثنية الصيادة** جنوباً، **إلى ثنية الجبيسة**، **فوادي ندت**، **فنبقة الخبا**، **فالقرارة الغسوا**؛ وتلوم بها إلى أن وصله عربه؛ بعد إبلاغهم الأنفس عذرها في طلب القوم.

وأهل رجب؛ وقد أدبر فصل الشتاء. فجمع ــ نصره الله ــ قبيله، وعربه **بني عامر**، وثنى

العنان شمالاً؛ نحو **تلمسان**؛ فأمسى أول ليلة **بوادي الغنم**، **فخنق الحديد**؛ وصرف منه العير بأثقاله كلها؛ للقطون **بقصر أبي سمغون**؛ من **بلاد بني عامر**؛ ثم أغد السير؛ فراح إلى **عين العسل**، **فمصران**، وقطع **ثنية الرملة**، إلى **تاجرنا**، إلى **مجهل**، **فأبيض عنتر**، **فدرج**؛ ثم نازل **المعقل بفرط**؛ قبلة **بني ورنيد**؛ وجمعها على ولده المولى **أبي تاشفين** أعزه الله، ثم ارتحلوا جميعاً؛ بغص الفضاء الأخرق بنشرهم، وتضيق الفجاج الرحبة عن راكبهم وراجيلهم؛ فنزل أمير المسلمين أيده الله بقبيله، وبني عامر **تيمزغارين**، وولده الأعلى، **والمعقل**؛ **تافروت** من **بني ورنيد**؛ وتكاثبوا ــ غداً ــ **بفيض الجزار**؛ وثلجوا به؛ فاستصحوا ثلاثاً؛ ثم رحل أمير المسلمين ــ أيده الله بقومه وعربه ــ إلى **أوماكرا**؛ من **تل بنى راشد**، ثم إلى **تاسالة**، فمنها انخزل عنه **خالد بن عامر**؛ بطائفة من أهل الضلال قومه؛ اشراً وكفراً للأنعم، وإظهاراً لما أبطنه من النفاق، وانحاز إلى ملك **المغرب**؛ بإغراء **محمد البريطل**، **وودفل بن عبو**، **وسعيد بن تصاليت** المذكورين؛ فصال أمير المسلمين عليه، إلى أن نزل اثره بأعلوف؛ ولزمه أياماً؛ انبثت ــ فيها ــ سراياه

وغــواره حفــافي تلمســان؛ بالواسطــة، وصيــدور، وبــني ورنيــد؛ إلى أن أدركــه المــولى أبــو تاشفيــن ومعقلــه؛ فارتحــل نصــره الله بالجميــع؛ صائــلاً عــلى زغبــة الشــرق، وأمــسى بتامرابطــت، فزروفيــا، فتالويــن. وهنالــك أدركــه الخبــر بنهضــة بــني مريــن، وخالــد بــن عامــر في أثــره؛ فثــنى إليهــم العنــان خلــد الله ملكــه، ونظــم بــلآلي العــز سلكــه، ولا أعدامــه ــ إن شــاء الله ــ تخصيصــاً ولا أراه ــ بعــد ــ تمحيصــاً بالعزائــم الوقــادة، والحميــات المنقــادة.

ولــو شــاء الله مــا فعــل؛ فلقــد كــان هــذا الرجــوع سببــاً للابتــلاء؛ الــذي لا بعــده، والتمحيــص الــذي لا نظيــر لــه؛ ولا قــوة إلا بالله. وسأشــرح لــك مــن ذلــك الكيــف الشنيــع، والأمــر الفظيــع، والتفرقــة لشمــل الجميــع؛ مــا تفطــر لــه الأكبــاد، ويــرق لمصابــه الجمــاد، وتزلــزل بزعــازع بأســه الأطــواد. وأذكــر مــا ارتكبــه فيــه الخَليفــة ــ نصيــره الله ــ وولــده المــولى أبــو تاشفيــن مــن الأخطــار، واعتمــداه مــن الأمــور الكبــار، والمخــاوف الكثــار، ومــا اقتحمــاه مــن القفــار، وباعــداه مــن الأسفــار، وصابــراه مــن الأهــوال، وراوغــاه مــن تصاريــف الأحــوال، ومــا بلــواه مــن الأخــلاق والجــدة، والفــرج مــن بعــد الشــدة؛ ليكــون ذلــك عظــة للأريــب،

وعبرة لأولي التجريب، وخبراً في المثلاث جداً غريب، وليعلم سامعه أن لكل خير وشر مدة، وأن لا جدوى للعديد ولا للعدة، وألاَّ فاعل لما يريد إلا الله جل جلاله وحده.

رجع التاريخ: وفي اليوم الخامس والعشرين من شوال؛ كان الملتقى الأكبر **بأوماكرا** من كورة **بني راشد**؛ فعبى أمير المسلمين ــ أيده الله ــ جيوشه مردفة بظعنها، واعتمد مصاف العدو؛ غير هائب، ولا متوان؛ فلما اضطرمت نار الحرب، وأجن الفريقين ليل القتام، وزهرت بجوه نجوم الأسنة؛ غدر **بنو عامر**؛ الذين كانوا مع الخليفة؛ بإغراء **البريطل** وأصحابه؛ وانقلبوا مع العدو عليه؛ فهزم جمعه، وأحيط بهم، وحل بين أمير المسلمين وبين ظعنه؛ بما اشتمل عليه من مال وذخيرة، وأهل وولد؛ وأحيط به ــ أيده الله ــ فأفحص ناجياً؛ وولده المولى الأعلى **أبو تاشفين** ــ أقر الله عين المجد به ــ يكافح العدو دونه، ويطاعن الكراديس خلفه، ويقطع أيدي المناسر المتطاولة إليه؛ شجاعة أنست **بسطام بن قيس**، وزرت على **عمر بن عبد ود**، واحتقرت **صياد الفوارس**، وصدقت الخبر عن **عباد بن الحصين**؛ من ضحى اليوم، إلى عصره؛ إلى أن

يئس الطامع، وكع التابع. فتماديا – صان الله عزمهما – خائفين؛ يترقبان الإنشاز؛ فلما رق ثوب الأصيل؛ تقدم المولى **أبو تاشفين** لافتراع نجد مطل على تنانير؛ لتنفيض وهادها منه، والخليفة نصره الله يتلوه؛ فحالت بينهما طائفة من خيل العدو فافترقا.

فيا ما أفجعه من مصاب، وأخرقه من بعاد، وأنكده عند الحاجة من فراق؛ وإلى الله يرجع الأمر كله. فانحرف الخليفة – بهداية الله – إلى وادٍ مجرف؛ استبطنه. واجتازت تلك الطائفة مردفة بأمثالها؛ يستاقون غنائمهم؛ عن يمينه وشماله بمرأى ومسمع منه؛ قد ضرب الله على قلوبهم، وأبصارهم غشاوة؛ فلم يفطنوا له؛ فأجازهم – نصره الله – وركب الليل؛ جهلاً مدلجاً؛ تلقاء الجنوب ليله كله؛ إلى أن بدا عمود الفجر من غدا الكائنة؛ فيمم نجداً شاهقاً، وافترع قنته لنفض البلاد، وميز معالم الأرض، ثم طاف فوقه بركاب بصيرته شرق البلاد وجنوبها؛ فأبصر المفاوز النائية، والمرامي الصعبة، والقفار المتقدمة؛ وأيقن بالهلكة دون قطع شيء منها؛ فأجمع – وقد بدا حاجب الشمس – رأيه الفظيع البداهة، الصعب الارتكاب، المغرّر في الإقدام؛ لولا ما خالطه من لطف الله الخفية، وآيات عنايته

المعجزة، وأساليب وقايته الغربية؛ على أن يرجع إلى حلل العدو؛ تعيمة لشأنه، ويعتمد خيام **أولاد شيقر بن عامر**؛ ظناً بهم جميلاً، واعتقاداً في وفائهم سليماً. ومن لم يجد ماء يتيم بالترب؛ فانحدر عن النجد، وتبطن سهباً يحفه نشزان؛ كأنما خلفهما الله تعالى لوقايته. وكان **خالد بن عامر وبنو مرين** قد ذهبوا يضربون في الأرض؛ للبحث عنه. فمن غرائب الستر الحصين اجتيازهم شرق أحد هذين النشزين؛ وأمير المسلمين غربه. فسبحان اللطيف الخبير؛ ولله در البوصيري؛ حيث يقول:

وقاية الله أغنت عن مضاعفة

من الدروع وعن عال من الاطم

وغدا ـ أيده الله ـ على **أوماكرا**، وراح أصيلانا إلى الحلل؛ فقصد ساح المحلة **المرينية** إذ ذاك؛ أخفى لشأنه، وأشد تعمية لأمره، وأرفع للريب عنه؛ ثم نزل عن فرسه وأسامه غير مرتاب، ولا وجل، ولا مدبر في عقبى؛ كلا بل الجأش ـ مع ذلك ـ رابط، والحجا غير ذاهل، والصبر مدرع، والثقة بالله معتقدة؛ حتى إذا غشيه السرح رائحاً إلى أهله، ركب

يماشيه ناشيداً رعاته عن الأحياء؛ حتى انتهى إلى شيعة له؛ من **بني عامر؛ يعرف بمرين بن حامد بن خلف الله المنادي**؛ فأركبه هاديا ومضيا يستقريان المنازل، ويبليان الأبنية؛ وربما عثرا على أبيات **خالد بن عامر**؛ فاجتنباها. ولم يهتديا سواء سبيلهما الليل كله؛ فأصبحا **بفحص أداد**؛ إزاء **تاسالة**؛ فعرجا غاديين على محلة **مرين**، وأتيا ــ ضحى ــ خيام **أولاد شيقر بن عامر بتامرابطت**؛ فارحبوا، وأسهلوا، وأجاروا، وستروا، وأجنوا أمير المسلمين البيوت يوماً وليلة؛ حتى جمعوا له الزاد والظهر، وتخيروا منهم رفيقه المسعد؛ ثم صرفوه إلى القبلة؛ فمر عن الحلل غير ما بعيد، وأقام لاجمام راحته يوماً وليلة، ثم جد السير آخذاً على **جبل وارصلف**، فراح إلى **إيفني**، وأدلج فضل خريته؛ فأصبح **بجبل شعيب**، وراح منه إلى **الأبيض، فعقلية السدرة، فقصر ربا**؛ وتلوم به ثلاثاً، وسار منه إلى قيطنته؛ كانت **بقصر أبي سمغون**؛ فوجد ولده المولى الأمير **أبا تاشفين** ــ أعزه الله ــ قد مرَّ بها؛ فرفع إخوته الأصاغر: المولى **محمد المنتصر، وأبا زيان محمداً، ويوسف**؛ وتوجه مع **المعقل** إلى **فيجيج** فوجد نصره الله عنهم، وتلوم لانتظارهم هنالك شهراً؛ أعمل فيه

الاستعداد لدخول الصحراء بالظهر الكثير، والأزواد النامية، والمزادات المتعددة؛ إلى أن وصله المولى **أبو تاشفين** باخوته المذكورين؛ فكان لاجتماعهم يوم مشهود، ومرأى مشج، وخبر محزن، وأمر لصم الصخر مبك:

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما
يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

وجاء الخبر أول ذي الحجة؛ بقصد **بني مرين وخالد بن عامر** إليه؛ فارتحل ـ نصره الله ـ لا يملك إلاّ نفسه الكريمة وبنيه، ولا يستشير غير عزمه المطرور في كل ما يعنيه؛ وقد استردت منه أم دفر عاريتها، وجذت من روض ملكه زهرتها، وماء التمحيص قد بلغ الزبى، وحزام الابتلاء قد تجاوز الطبى، فذهب الذخر والشوى، وشطت بالقربة النوى، ولم يبق إلاّ لطف الله سبحانه لا سوى، فأمسى أول ليلة **بمجهل** من الحمادة، ومنه **بماء الأسمام**؛ وتلوم فيه يومين للارتواء، ثم دخل **عقنقلا** متراكماً يعرف **بالهبور**؛ لا ينبت سوى الهبيد، ولا يعرف به ماء سوى حسي أو اثنين؛ موجفاً عليهما بالجلود؛

خشيـــة الإرتـــدام بالرمـــل؛ تطمـــس أبـــداً سافيـــاء الهـــوج معالمـــه؛ فيضـــل ســـواء سبيلـــه الخريـــت؛ ولســـان حالـــه ينشـــد:

الطويـــل:

ونحـــن أنـــاس لا توسيـــط عندنـــا
لنا الصدر دون العالميـــن أو القبـــر
تهـــون علينا في المعـــالي نفوسنـــا
ومن خطب الحسناء لم يغله المهـــر

ثـــم واصـــل التأويـــب بالأســـآد، والغـــدو بالأدلاج في بحـــر مـــن الرمـــل محيـــط، ومـــوج مـــن الزعـــازع طـــام؛ فبعـــد خمـــس ورد ركبـــه حسيـــاً يعـــرف **بنينوالـــوا**؛ عـــلى حيـــن مشارفتهـــم الهـــلاك، وفـــرار كـــل امـــرئ منهـــم مـــن أخيـــه، وأمـــه وأبيـــه، وصاحبتـــه وبنيـــه؛ لشـــأن يومئـــذ في نفســـه يغنيـــه، وقـــد نفقـــت الخيـــل، وكَـــلَّ الظهـــر، وعيـــل الأمـــر، ولله الاصطبـــار؛ فلتـــوم ـــ نصـــره الله ـــ بالنـــاس هنالـــك خمســـاً؛ رجعـــوا فيهـــا عـــلى آثارهـــم؛ لالتقـــاط مـــا طرحـــه يـــأس الحيـــاة مـــن أيديهـــم. ثـــم ارتحـــل يطـــوي السيـــر يومـــاً وليلـــة؛ وورد ـــ بمنقطـــع ذلـــك الرمـــل ـــ حسيـــاً آخـــر، ودخـــل بعـــده **القواريـــر**

فحوصاً فيحاء منتسقة؛ تحيط بكل منها كثبان شواهق؛ وعند منتهاها **قصور تعرف بالسواني**؛ يعمرها صنف من البشر؛ يعرفون **ببني يالدز**؛ أشباح خاوية؛ قد نشرت جلداً على عظم؛ لبرض القوت؛ فارتوى الناس بها ساعة من نهار، ثم استمر إلى **تجوراريـن**؛ قصور متكاثبة؛ حفافي سبخة مستطيلة؛ تعمرها قبائل مختلفة من: **زناتة، وبني يالدز، ونزنجة، ومسوفة**؛ أولوا مذاهب مختلفة، ونحل مبتدعة؛ يجلبون إليهم الماء من كثبان محيطة بهم؛ رأي العين في أسراب مفيضة إلى عقارهم؛ فسبحان الخالق الرازق المدبر، لا إله إلا هو. فتلقى جميعهم الخليفة – نصره الله تعالى – بالبر، والترحيب، والإجلال، والتعظيم؛ وعرفوا لمنصبه الملوكي قدره، وبايعوا له من عند آخرهم بالخلافة، ثم تشاحوا في إنزاله وخيروه؛ فارتضى قصر **أولاد آدم**؛ من الشط الشمالي؛ فافرجوا له عنه، وأكرموا به مثواه. وذلك آخر السنة؛ فاستقر به؛ ولسان حاله ينشد قول السموءل بن عاديا؛ حيث يقول:

الطويـــل:

إذا المرء لم يدنس من اللــؤم عرضه
فكـل رداء يرتديــه جميــلُ
وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها
فليــس إلى حســن الثنـــاء سبيــلُ
تعيرنـــا أنـــا قليـــل عديدنـــا
فقلــتُ لهـــا إنَّ الكـــرام قليـــل
وما قـــلَّ من كانـــت بقايـــاه مثلنـــا
قـــروم تســـامي للعـــلا وكهـــول
وما ضرَّنـــا أنَّـــا قليـــل وجارنـــا
عزيـــز وجـــار الأكثريـــن ذليـــلُ
لنـــا جبـــل يحتلـــه مـــن نجيـــره
منيـــع يـــردُّ الطـــرف وهو كليـــل
رسى أصله تحت الثرى وسما بـــه
إلى النجـــم فرع لا ينـــال طويـــل
وأنا لقـــوم ما نـــرى القتـــل سبـــة
إذا مـــا رأتْـــهُ عامـــر وسلـــولُ
يُقَـــرِّبُ حُبُّ المـــوت آجالنـــا لنـــا
وتكرهـــه آجالهـــم فتطـــول
وما مـــات منا سيِّـــد حتـــف أنفـــه
ولا طَـــلَّ مِنَّا حيـــث كـــان قتيـــلُ

تسيـــل على حـــدِّ الظبـــاة نفوسنـــا

وليست على غير السيـــوف تسيـــل

صفوفنـــا فلم نكدر وأخلص سُّرنـــا

إنـــاث أطابـــتْ حملنـــا وفحـــولُ

علونـــا على خيـــر الظهور وإنَّنَـــا

لِوَقْتٍ إلى خير البطـــون نـــزول

فنحـــن كماء المزن ما في نصابنـــا

كهـــام ولا فينـــا يعـــد بخيـــل

وننكر إن شئنـــا على الناس قولهـــم

ولا ينكـــرون القول حيـــن نقـــول

إذا مـــات منـــا سيـــد قام سيـــد

قـــؤل لما قـــال الكـــرام فعـــول

ولا أخمـــدت نار لنا دون طـــارق

ولا ذمنـــا في النازليـــن نزيـــل

وأيامنـــا مشهـــورة في عدونـــا

لهـــا غـــرر معلومـــة وحجـــول

وأسيافنـــا في كل شرق ومغـــرب

بهـــا من فـــراغ الدارعيـــن فلـــول

معـــودة ألاَّ تسـل نصالهـــا

فتغمـــد حـــتى يستبـــاح قتيـــل

سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم
فليس سواء عالم وجهول

فهل – أعزك الله – وَعَى مثل هذا التمحيص الأكبر، سمع أو رأى مثاله لأحد من الملوك السالفين، بصر وأنه لأكبر دليل على عناية الله تعالى بهذا الإمام الأعلى، وأوضح برهان قائم بسعادته الأولى والآخرى. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **((أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل))**. وقال: ((**إذا أحب الله قوماً ابتلاهم؛ فمن رضي فله الرِّضَى ومن سخط فله السخط**)). ولا أشد منه – أيده الله – رضي بقضاء الله، ولا أكثر شكراً على أحكامه، ولا أشرح صدراً لقدره، ولا أحسن ظناً بجلاله، ولا أقوى رجاءً في كرمه سبحانه؛ فيلقى الأهوال الفادحة، والشدائد المبيرة بالمحيا الطلق والخلق السبط، والجبين المتهلل، والجأش الرابط، والهمة الغروف عن الخضوع، والاحتمال المحتقر للعظائم؛ ثم ينتظر الفرج بالصبر، ويدين لله بالحمد والشكر؛ أعظم الله ثوابه، وجعل هذا آخر تمحيصه، وخلّد في العز والتمكين دولته، وأعان على ما يجب من خدمته إن شاء الله.

قلت: وكل معلم أسميته في هاتين السنتين؛ من مغدَى لأمير المسلمين، أو مراح؛ **فمياه معروفة ومواطن بالصحراء مشهورة**؛ تستقر بها العرب رحلة الشتاء، وتربضها الوحش سائر الفصول. ومما نظمه أمير المسلمين في هذه الحركة؛ بعد حلوله **بتجورارين**[1]؛ قوله:[2]

الكامل:

قِفْ بالمنازل وقفة المتردّدِ
ما بين نؤي بالطّلول وموقدِ
وإذا مررت على الرّبوع مسلماً
فاسئلْ عَنِ القلب الغريب المفردِ
حدّث بها خبر الأسى عن مدنف
بحلى الغرام موشّح ومقلّد
هجر السّلو فما يقرّ قراره
فيظل حلف تأوّه وتنهّد

[1] بالجيم المصرية؛ (Tigourârîn)؛ لذا فهي ترسم أيضاً هكذا ((تيڤورارين أو تيقورارين أو تيكورارين)). تقع في الشمال الشرقي لواحات توات. وهي من أهم المراكز التجارية في الصحراء؛ إذ تربط تلمسان بالسودان.

[2] وردت هذه القصيدة في بغية الرواد.

نزحــت منازلـــه وشــطّ مــزاره

ونـــأت أحبّتــه بغيــر تعمّـــــدِ

فغــدا يكابــد عبــرة في زفــرة

للبيــن بيــن مصســوّب ومصعّــدِ

يا سائــق الأظعان هل لي بعدهــم

مــن منجــد في حبّهــم أو مسعــد

ركبوا بدوراً في الخدور وأدلجــوا

فسألــت توديعــاً فقلــنَ إلى غــدِ

فغرقت في دمعي وما يغــني البكَــا

ضنّــوا بتوديــع فكيــف بموعــد

لو كـــان لي يوم الفــراق تخيــراً

لفديــت ظعنهمُ بما ملكــت يــدي

تركــوا المنـــازل بلقعاً وترحّلــوا

فغــدت معاهدهــا كــأن لم تعهــد

سحبت عليها الرّامســات ذيولهــا

من شَمْــألٍ وصَبا تروح و تغتــدي

وتعوضـــت بالأثْلِ بينِ عراصهــا

من بعد ذاك الزّهر والورد النــدي

ومن الأوانس بالرّيــاض نواعمــاً

بالوحــش يرتــع في خـــلاءٍ فدفــدِ

من بعـد طـول تنعّـمٍ ونضـارة
للعيـش فيهـا بالحسـان الخـرّدِ
وغنـاء غانيـة سبـت بجمالهـا
تـزهى بكـل مغنَّـج ومـورَّدِ
الشعـر ليل فوق صبـح جبينهـا
يحمى لعقـرب صدغهـا بمجعَّـدِ
ولحاظهـن صـوارم مسلولـة
فتَكَـتْ بألبـابٍ ولمـا تغمـد
ومباسـمٌ كالأقحـوان تخالهـا
درّاً بسمـط في العقيـق منضّـد
ولكم ظفرنا بالـرّضى من دهرنـا
وأتـتْ لنا الدّنيـا بوقـت مسعـد
نجني المـنى وبنو الزّمان عبيدنـا
والسّعـد يـدني ما لنا من مقصـد
لا نختـشى في الحيّ رقبة عـاذل
كـلاًّ ولا نصـغى لقـول مفنّـد
نلنـا الـذي شئنـا بدهـر طائـل
من أنعـم دامـت برغـم الحسّـد
حتى إذا شُهـر الزّمـان سلاحـه
بيـد العـدا مِنْ أسمـرٍ ومهنّـد

ورمى سهامـــاً للفـــراق كأنّمـــــا
كانـــت لشـــتٍّ جميعنـــا بالمرصـــد
وأرى بروق القضب في ليل الوغى
ذهبـــتْ بأبصـــار العلا والسّـــؤددِ
والخيل تعثر في طـــلى صرعائهـــا
ما بيـــن مظطجـــع وبيـــن موسّـــد
من كلّ أشهـــبِ كالشّهـــاب تخالـــه
أو أدهـــم مثـــل الغـــراب الأســـود
أو أحمـــرٍ كالـــورد لـــون أديمـــه
أو أشقـــرٍ متجلّـــل بالعسجـــــد
أو أصفـــرٍ منهـــنَّ كالخيـــريِّ في
حســـن معارفـــه كَخَـــطٍّ باليـــدِ
أو أبلـــقٍ حســـن الحجـــال مرنَّـــد
ومدرهـــم ومقصـــدر ومحـــــدد
أو أشقـــرٍ أصدَى فسحـــرة لونـــه
سحـــر وغرة ووجهـــه كالفـــرقـــدِ
وفـــوارسٌ مـــن فوقهـــنَّ عوابـــسٌ
بسلاحهـــا مـــن أبتـــرٍ أو أملـــدِ
فكأنهـــم أسـَــدُ الشَّـــرى في غابهـــا
والسّيـــف قـــرع زنـــاده لم يصلـــد

فيجــول بين جمــاجمٍ وغلاصــمٍ

ويقــدّ كــلّ مــدرّع ومحــدّدِ

ومقانــبُ مــن خلفهــنَّ عساكــرٌ

طافــتْ بنا من كلّ شهــمٍ أمجــدِ

من عامــريٍّ ضيغــمٍ يوم الــوغى

أو معقــلِيٍ بهمَّــةٍ لــم يرفــدِ

وزناتــةٌ مــن خلفنــا وأمامنــا

من كل ليث في الحــروب مُمَجَّــدِ

وطبولنــا زَأرتْ كأُسْدٍ في الــوغى

وبنودنــا خفقــتْ بنصــر منجــد

واصطفّتِ الْجَمعان واحتدم الــوغى

لكنّهــا خبثــتْ بســعي المــرَّدِ

وجرتْ غشائم خاربِيــنَ لحربنــا

مــن كافــرِي نعمائنــا أو جُحَّــدِ

حــتّى تفــرَّق جمعنــا وتشتَّتــوا

بسعــاة كــلّ مضلــل أو مفســدِ

فالبعض منهم قد انزوى لعدوّنــا

والبعــض فَــرُّوا كالنَّعــام الشُّــرد

نقضوا العهود وخلّفوني في الوَغى

بينَ الأعــادي كالغريــب المفــردِ

كفــروا بأنعمنا وخانــوا عهودنا

وأتــوا مــن الخــذلان ما لم يُعْهَــدِ

فهنــاك فرسان العدا طافــتْ بنــا

من كلّ طاغ في الــوغى أو معتــد

فنَضَيتُهَــا صمصامــة روميــة

وهززتُ منها منتهى ضرب اليــدِ

أوردتهــا علق النجيــع من العــدا

نهــلاً وما روِيَتْ بــذاك المــورد

فلكــم كــررتُ عليهــمُ من كــرَّة

بمشطّــب ومثقّــف ومهنّــدِ

من فوق ضامرة الحشــا وَحْشيّــة

جــرداء حجّــر نعلهــا كالجلمــد

فكأنّهــا بــرق يلــوح لشائــم

وكأنّهــا نجــم يلــوح لمهتــد

من خلفنا النّجل الرّضى متسربــل

شهــم اللّقــا فمثلــه لــم يولــد

فكأنّــه في الخيــل ليــث عابــس

يسقي الفوارس في الوغى كأســاً ردي

وإذا انثــنى نحو العــداة فكَــمَ لــه

من فارس فــوق التّــراب موسّــد

من فوق أشهب ضامر حسن الحلى
فكأنّــه ريــح تــروح وتغتــدي
دارت بنا الأعــدا فصرنـــا بينهــم
كالــدرّة البيضــا بليــلٍ أســـودِ
اثنــانِ كــانَ الله ثالثــاً بهــا
ولكَمْ لــه عند الشدائــد من يــد
ولكَــمْ عفَــا ولكَمْ أنــال تَفَضُّــلاً
والله ربّي ناصــري ومؤيِّــدي
يا ربّ كــم آنستــني في غربــتي
يا ربّ كَمْ فرَّجْــت كرب المكمــد
يا ربِّ فاجبرْ ما ترى من حالــتي
يا ربِّ واجبــرْ قلــب كلّ موحــد
يا نفسِ لا تيئسْ وإنْ طال المــدى
فالله يجمــع شمــل كــلّ مبعّــدِ
ستعــود أيّام السّــرور وطيبهــا
وتعود عن قــرب ليــالي الأسعــد
يــا رب بالبيــت العتيــق وأهلــه
وبجــاه يثــرب والنــبيّ محمــد
فــرّج بحقّــك كربــتي يا موئــلي
وبحقّ فضلك لا تخيّــبْ مقصــدي

ثـــم الصّـــلاة على النـــبيّ محمـــد

مـــا غـــرّدت ورق بغصـــن أملـــدِ

* * * * *

سنة أربع وسبعين وسبعمائة[1]

أهل لأمير المسلمين ـ أيده الله ـ هلال محرم هذه السنة المباركة **بتجورارين**؛ حسبما قلناه، وعلى الحال الذي وصفناه؛ إلاَّ أن الرجاء في الله قوي، وحسن الظن به من الظنة بري، وصراط الصبر لانتظار الفرج سوي. فكان ممّا خوطب به ـ أيده الله ـ في عالم النوم يومئذ: **بعد ستة تعود إلى ملكك**؛ فعيّنها تعبيره الصادق أشهراً؛ فكان كذلك؛ دون نقص، ولا زيادة؛ سنة حلمه في الحادثات.

قلت: لم يزل ـ نصره الله ـ في أكثر غدوات جلوسي بين يديه للتوقيع؛ ينبئ برؤيا راهنة، ثم يعبرها؛ فما ـ والله ـ ينحرف أثرها عن مواقع قوله؛ فكأنها فلق الصبح.

رجع الحديث: وأقام بالقصر الذي أسميناه بتلك البلاد؛ يرحل أيام الشدة، ويزجي رياح الأمل، ويتنسم هبوب الفرج؛ ستة أشهر؛ وكلّ مبدأ فإلى غاية، وكلّ حادث فإلى تمام؛ والله هو اللطيف الخبير. وفي اليوم الثاني والعشرين من ربيع الثاني؛

---

[1] 1372م.

قَضَى – ملك المغرب السلطان **أبو فارس** – نحبه من سُلٍّ أصابه، وقام – في **تلمسان** – بدعوة مولانا أمير المسلمين **أبي حمو**؛ مولاه الأوفى؛ **عطية بن موسى الركاب**. وتغلب على دولة **بني مرين** وزيرها **أبو بكر ابن غازي بن الكاس**؛ بشبهة بيعة ولد السلطان **أبي فارس**؛ الخماسي السن؛ ثم ارتحل القوم مغربيين؛ بعد أن صرفوا **علي بن هارون بن منديل بن ثابت المغراوي**، وقبيله إلى **وادي شلف**، ثم أرسلوا – أيضاً من أثناء طريقهم – **إبراهيم ابن السلطان أبي تاشفين**؛ ملبساً شارة الملك؛ مع **أولاد منصور بن عبد الملك**؛ من **أولاد خراج** إلى **تلمسان**؛ فلم يقبله أهلها؛ فنازلهم ليالي قاتلوه فيها؛ إلى أن يئس فولّي مدبراً ولم يعقب. وبعد انصرافه وصل إلى الحضرة الكريمة: الحاج **موسى بن علي بن برغوث**، والخونة: **محمد بن عمر البريطل وwادفل بن عبو بن حمادن، وسعيد بن تصاليت**؛ يعموهن في ضلالهم القديم، ويبادرون لإطفاء نور الله المحقق التتميم. و **((اللهُ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الخَائِنِينَ))**[1].

[1] **الآية كاملة هكذا: ((ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الخَائِنِينَ))**. سورة يوسف؛ الآية: 52.

فمنعهم الناس من دخولهم إليها؛ حتى أحلفوهم ـ بمؤكدات الإيمان ـ على التزام بيعة أمير المسلمين أيده الله، والكدح له؛ فـ: ((**أقسموا بالله جهد أيمانهم**))[1]؛ على الوفاء بذلك. ((**وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**))[2]. وفي سادس جمادى الأولى؛ ورد على الخليفة نصره الله؛ بالقصر المسمى ـ **بقصر أولاد أدم** ـ رسل **عبد الله بن شيقر** بالبشارة؛ فقدم معهم ـ بين يديه الكريمتين خلد الله ملكه ـ ولده الأمير الأعلى **أبا تاشفين**، ثم وصله **بأولاد يغمور بن عبد الملك** ـ من **أولاد خراج** ـ نصيحه الأوفى؛ الشيخ الأكمل **أبو عمران بن موسى ابن موسى بن خالد** أعزه الله؛ فارتحل ـ أيده الله ـ معه؛ قاصداً دار ملكه العزيز.

ففي الثاني والعشرين من جمادى المذكور؛ دخل الحضرة العلية؛ مولانا الأمير المعظم أبو

---

[1] ((وأقسموا...))؛ ورد هذا في عدة مواضع من سور القرآن الكريم؛ مثل: الآية: 53 من سورة المائدة، ثم الآية: 109 من سورة الأنعام. ثم الآية: 38 من سورة النحل. ثم الآية: 53 من سورة النور. ثم الآية: 42 من سورة فاطر.

[2] الآية كاملة هكذا: ((إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ)). الآية: 1 ؛ من سورة ((المنافقون)).

تاشفين؛ علم الكمال المنصور، وروض الجمال المقصور، وأسد الحروب الهصور، وشرف الجحافل والقصور، سبط الرسالة، وبدر هذه الهالة، ومظهر العلا والجلالة، كنز المحتاج، وليث الشرى المهتاج، وأمير العرب والعجم والعمامة لذة التاج، آي فضل مبين، وعز وضاح الجبين، وموروث ومكسوب، ومجد إلى إمارته الفضلى منسوب:

المنسرح:

خير قريش أباً وأمجدها
أكثرها نائلاً وأجودهَا

أطعنها بالقناة أضربها
بالسيف جحجاحها مسودها

أفرسها فارسا وأطولها
باعا ومغوارها وسيدها

تاج لؤيّ بن غالب وبه
سمَا لها فرعها ومحتدها

شمس ضحاها هلال ليلتها
دُرّ تقاصيرها زبرجدها

فيا لله من شمائل، فضحت الخمائل، وضرائب أبدت الغرائب، ومواهب أخجلت السحائب،

وشجاعة عودت الضراغيم الضراعة، ورياسة أعملت في العالم السياسية، إلى الشرف والإباء، والبرور بالآباء، والعفاف والطاعة، والآداب غير المضاعة. نشأ أعزه الله كريماً، ودرج عظيماً، وشب عليماً حكيماً، لا يعرف إلاّ نور الله سراجاً، ولا يتخذ سوى مرضاة الله ومرضاة رسوله منهاجاً، فعمر بمبرة أبيه؛ مولانا أمير المسلمين **أبي حمو** ــ أيد الله ــ يومه وساعته، وقرن بطاعة الله ونبيه طاعته، وأنفق في سبيل رضاه جوده وشجاعته؛ فكم احتقر له من نفس، وبذل فيه من عطاء غير مقيس:

الكامل:

زعموا بأنّ الغيث مثل يمينه
فأجبتهم ما كلّ غيث وابل
قالوا البحار إذن فقلت ظلمتمُ
إن البحار ترى لهنّ سواحل

وكم شفى لصدره الكريم من نسيس، وجادل عنه من مرؤس ورئيس، وصلى دونه بنفسه العزيزة من وطيس:

الكامل:

قالوا وينظم فارسين بطعنه
يوم اللّقاء ولا يراه جليلاَ
لا تعجبوا فلو ان طول قناته
ميل إذن نظم الفوارس ميلاَ

فحل من الشرف أرفع الطباق، وحاز بميدان الفخر قصب السباق، وظفر بالعز العاجل والشرف الباق، فهو الذي إن وعد وفى، وإن قدر عفا، وإن والى كفى، وإن عاد اشتفى، وإن خرق الدهر رفا، وإن صمت فالطور، أو نطق فالدر المنثور، أو قضى فالعدل المأثور، وإذا ازور فالقسور الهصور، أو رضي فالأرى المشور، أو اختال فالروض الممطور، أو ركب فالبند المنشور، أو صال فالحسام المطرور، أو ساس فالإسكندر المشهور، يعرف ذلك الواحد والجمهور، وتشهد به الأنجاد والغور؛ أمير تزيّا بالهدى، وتخلق بالجدى، فغاظ العدى؛ وسبق في الكمال المدى، خلص من مفتاد التمحيص خلوص النضار، وارتفع مجده السامي عن الأنظار، فاشتهر بالأقطار اشتهار النهار، قد هذبته التجارب، وعرفته

المشارق والمغارب، وأذعن لعلمه وحربه المسالم والمحارب، وقرت عينا به الجحافل والمحارب.

ولما خبر مولانا الخليفة ــ أيده الله ــ خبره، وأنس بره، وابتلى في الحادثات صبره، وشاهد امتثاله نهيه وأمره؛ رفع في عليين قدره، وأنار بسماء الملك بدره؛ فسوغه مناهل اصطفائه، وإجناه ثمرات تقريبه واحتفائه؛ فألقى إليه مقاليد علانيته وخفائه، ثم أشركه في السيف والقلم، والطبل والعلم، والعقد والحل، و الترحال والحل، والمواكب والقصور، وجنى العز المهصور، وأخذ الناس بالبيعة له، وأبلغه من رضاه مأمنه وأمله؛ فهو ولي عهده، والخليفة ــ بعد طول العمر إن شاء الله ــ من بعده؛ أبقاه الله فائح الثناء، لائح السناء، طامح العلاء، طافح الآلاء، بمنه وكرمه.*

قلت: وهو ــ أعزه الله ــ أكبر أولاد مولانا الخليفة أمير المسلمين **أبي حمو** ــ أيده الله ــ الذين هم: **محمد المنتصر، ومحمد أبو زيان، ويوسف، وعمر، والناصر، وعثمان، وفارس، وعبد الله، وأحمد، والسعيد، وعلي، ويعقوب، وأبو بكر، وداوود، وزيان؛** غير ما يتزايد له ــ إن شاء الله ــ في العمر الطائل بفضل الله، وسوى البنات، و من توفي عظم الله

أجـره؛ وجملتهم الآن؛ بين ذكر وأنثى، وحي وميت؛ ثمانون؛ أقرّ الله بأحيائهم عينه، وأجزل في موتاهم أجره.

رجع التاريخ: وفي اليوم الرابع والعشرين من جمادى الأولى المذكورة؛ كان دخول مولانا أمير المسلمين **أبي حمو** خلد الله ملكه، ونظم في العز سلكه؛ دار خلافته؛ معتقداً صفحه عن كل ذي قرفة؛ إلاّ ما كان من خونته؛ المسمّين في هذا الكتاب، الذين اصطفاهم عن أوليائه، وقربهم عن سائر قبيله، وأشركهم في الحلو والمرّ من أمره؛ ثم لم يكفهم أن كفروا نعمه، وجحدوا حقه، واعتمدوا خذلانه؛ حتى ارتكبوا الضلال المبين؛ بسعيهم في فساده: قولاً، وعملاً؛ وأسماعهم إياه هجر الكلام غيباً، ومشهداً، ومشيهم بينه وبين عربه بالنميمة والزور؛ فباؤا بالإثم الأكبر، واستوجبوا القتل شرعاً وسياسة. فلم ينشب نصره الله؛ أن أخذ ثلاثتهم، **والحاج موسى بن علي بن برغوث**؛ لإشعاره إياه لباس الوزارة ولم يعمل بمقتضاها، ثم أمره ــ أيده الله ــ بقتل الثلاثة، وإجازة الرابع البحر إلى عدوة **الأندلس**. وفي مثلهم يقال: ((**من نسي ذنبه قتله**)). ولله در **إدريس المأمون بن يعقوب المنصور**؛ حيث

يقول عند قتله أشياخ الموحدين الغادرين به والناكثين بيعته:

الكامل:

أهلُ الخرابة والفساد من الورى
يعْزونَ في التَّشبيه للذُّكَّارِ

ففساده فيه الصلاح لغيره
بالقطع والتعليق في الأشجارِ

مرآهم ذكرى إذا ما أبصروا
فوق الجذوع وفي ذرى الأسوار

لو عم حلم الله جملة خلقه
ما كان أكثرهم مِنَ أهْلِ النَّارِ

قلت: إنما شبه وزراء الملك؛ بيده الباطشة، وعينه الباصرة، و أذنه الواعية. و من كان بهذه الصفة يجب عليه لزوم مولاه؛ الذي حلاه من صفة الوزارة؛ بما حلاه لزوم هذه الأعضاء للإنسان؛ الذي لا تفارقه ما دام حياً؛ فهلاَّ عمل هؤلاء المساكين بالواجب عليهم في ذلك، وتأسوا بما

ضرب ـ لأمثالهم ـ الأديب **عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن ظفر** رحمه الله؛ من مثل...[1]

رجع التاريخ: ثم شرع الخليفة ـ نصره الله ـ في جبر قبيله الأعز، وإركاب جيوشه المظفرة، وإقامة العدد، وإيلاف **العرب** الشرقية والغربية لخدمته. وفي آخر جمادى الأخرى؛ أنهض ـ نصره الله ـ مولاه **عطية بن موسى** بالجيوش العديدة؛ لاستئصال **مغراوة**، وتطهير البلاد من دنسهم؛ فلقيهم بظاهر **مازونة** مرتين؛ هزمهم فيهما، ونكث قواهم؛ فانحلت عرى ظلالهم، ولجؤوا إلى المعاقل؛ مستحصنين بدمائهم؛ واستوطن ـ هو ـ **تيمزوغت**؛ مركز دائرتهم، وركن بغاتهم؛ فراجعت ـ ساعتئذ ـ **تنس**، **ومليانة** بيعة الخليفة أيده الله. وفي أول رجب الفرد؛ قدم على أمير المسلمين ـ نصره الله ـ رسول ملك **الأندلس**؛ السلطان الجليل المجاهد الأصيل: **أبي عبد الله محمد الغني بالله ابن السلطان أبي الحجاج ابن السلطان أبي الوليد ابن الرئيس أبي سعيد ابن**

[1] ما استشهد به المؤلف ـ هنا ـ عن ابن ظفر؛ خبر طويل عن الملك سابور بن هرمز. وقد رأى ألفرد بل أن ينقل الخبر إلى ملحق في آخر الكتاب أعطاه رقم: 2. وقد أحسن؛ لكون هذه الرواية طويلة، وخارجة عن موضوع الكتاب. وسنتبع نحن ما اعتمده ألفرد بل.

السلطان أبي الوليد ابن السلطان أبي عبد الله ابن السلطان أبي عبد الله (3) بن يوسف ابن محمد بن نصر بن أحمد بن محمد بن خميس ابن عقيل الأنصاري الخزرجي؛ أبقاه الله في غرض الهناء والاتحاف؛ بهدية حافلة؛ على العادة المتقدمة بينهما؛ فأكرم ــ أيده الله ــ نزله، وأوسع بره وحباءه؛ وأرجع مرسله بما يناسب تودده من الشكر والثناء العاطرين؛ و صرفه.

قلت: إنّ هذا السلطان النّصري ــ أعزه الله ــ من الملوك الأعلام، وأيمة الإسلام، و مستخدمي السيوف والأقلام، وخير من ظللته **بالأندلس** ــ بعد خلافتها ــ أروقة الأعلام؛ منتهى خزرجي النجار، وعلى مشيد الفخار، ومجد واضح النهار، وكمال مجلوا بالأقطار، فوق منصة الاشتهار، وشرف بادي الإسفار، وحياء آمن الذمة من الإخفار، وجود مزر بالأمطار، وبأس في الله ماضي الشفار، يوم جهاد الكفار فكم دان فيهم لله بالجهاد، واستحفظ في سبيله شهادتي: الربي والوهاد، فأعمل الجلاد، ودوخ البلاد، وسلب الطارق للشرك والتلاد، وأشبع القشاعم والغربان، وكسر الصلبان وأذل الرهبان، وأسر الشيب والشبان؛ إلى أن جمع من الفخر شتيتاً، ودنا فضلاً

وبعد صيتاً، وأرغم للكفر مارنا وأخضع ليتا، فنجائب العز تمرح لديه في الأرسان، ومنصات العناية تجلو عليه وجوه السعاة الحسان، وألسنة الإسلام والمسلمين تشكر ماله عليها من الإحسان، شكر الرياض لعارض النسيان؛ فأي دنيا ودين، واقتضاء دين زمان مدين، ومكيف تمهيد للملة وتهدين، ثم أحرز في حرمات جاره الجنب من المتغلبين الخصل، وسدد لاشوائه الفواق والنصل، فأعمل الفصل، وأجنب من قطره فرعه والأصل، ولقد كان قعقع إليه سنانه، فعض من اللجام عنانه، وملأ من نبل غربه لنضال أمثاله الكنانة؛ فهو السئوس للملك، والنظوم لشذر السلك، والخير باستخدام الخميس في سبيل الله والفلك. وفي وصفه قلت:

الكامل:

ملك تبجبح الجلالة والعلاَ
ضاهى المجرّة رفعة وجمالاَ
وامتياز بالفضل المبين خليفة
شأت الأنام مجادة وكمالاَ

وبدا بأفق الديـــن شمـــس ظهيـــرة

فإنجـــاب ليل الكفـــر عنـــه ومـــالاَ

هو شـــاد للإســـلام ركنـــاً واهيـــاً

مستهونـــاً نفســـاً تعـــز ومـــالاَ

وأتى بآيـــات الشجاعـــة والنّـــدى

يبـــدي بهـــا التفصيـــل والإجمـــالاَ

من كل معجـــزة بفصـــل خطابهـــا

ومبينـــة قـــد أغنـــت الأمثـــالاَ

فهـــو الـــذي مـــن بأســـه ونوالـــه

قهـــر العـــداة وأحســـب الآمـــالا

والدّيـــن والدّنيـــا به نـــالاَ المـــنى

لمّـــا غـــدا وزراً وراح ثمـــالاَ

فالزهـــر ينطـــق عرفـــه بثنائـــه

والريح إن خفقـــت صبـــا وشمـــالاَ

فلـــذاك أسمـــاه الإلـــه ممجـــداً

وحبـــاه عـــزة نصـــره إكمـــالا

دامـــت لـــه الدّنيـــا ودام لأهلهـــا

يجـــني السّروروبحفـــظ الإهمـــالا

وتأشـــب بينـــه وبيـــن مولانـــا الخليفـــة نصـــره الله وشيـــج إخـــاء، مـــروح للوفـــاء برخـــاء، غرســـت دوحـــه

برحم السود يد المجد، وصانته في القبل والبعد عن النكد، ثم فجرت عيونه، واهمرت عيونه، فزهرت خمائله، ورقت شمائله، واجتليت ببصر الخلوص أنواره، واجتنيت بيد التهادي ثماره، وانشقت عن عرف الثناء العطر كمائمه، وصدحت من فوق أفنان الشكر حمائمه، فالولاء بين مقاميهما الكريمين أبداً مشدود الأواخي، والفضل لدى سلطانيهما مقضي الفروض على الفور لا على التراخي، وشعار الصداقة صافي الصدار، وقطب التودد مستقيم المدار، وكؤس المخاطبات على ندامى الصفاء تدار؛ أبقاهما الله علمي فخر وكمال، ومظهري جمال وجلال، ومحطي رحال منى وآمال.

رجع التاريخ: وأخذ **علي بن هارون المغراوي** – بعد هزيمتيه المذكورتين – في إيلاف المخالفين – يومئذ – عن أمير المسلمين أيده الله؛ **كخالد ابن عامر**، ومن تبعه من قبيله، **وسويد، والديالم، والعطاف، وتوجين**؛ بجامع الدعوة **لأبي بكر ابن غازي**؛ المتغلب على ملك **بني مرين** حينئذ. وتم له ذلك في رجب هذه السنة؛ فاستنفرهم لمصارخته؛ فنهض معه المذكورون، وبغتوا **عطيه بن موسى**؛ فانجاز عنهم القهقرى إلى مدينة **تنس**؛

فحصروه بها، وأخذ **خالد بن عامر** ولفه على **تل بني راشد** قاصداً حضرة **تلمسان** الكريمة؛ ضلالاً وغروراً؛ فلما نزل **حمدلاته**؛ أنهض إليه أمير المسلمين ولده الأعلى **أبا تاشفين** أعزه الله؛ بقبيله الأعز وخلطائه من: **زناته والعرب**؛ وذلك في شهر شوال؛ فهزم **خالد بن عامر** وقومه هزيمة استئصال؛ وجلاهم عن القطر بأسره إلى الصحراء؛ فغربوا، وغلغل ـ أبقاه الله ـ تلقاء **مغراوة**، ومن ظاهرهم؛ فاجفلوا خشيته عن **تنس**؛ بعد إضاقتهم حصرها، وتذمّموا **بجبل بني يلسيت**؛ فافترع عليهم ذراه إقدامه وحزمه ـ أقر الله عين المجد به ـ واستأصل جميعهم؛ سلباً، وأسراً، وسبياً، وقتل **رحمون بن هارون**؛ أخا **علي بن هارون** صبراً، وفرّ جلهم إلى **متيجة**؛ مفلتاً بذمامه. كلّ ذلك بعد عيد الأضحى؛ والحمد لله. وفي أخريات هذه السنة؛ وجه إليه ـ أيده الله ـ الفقيه الوزير **أبو عبد الله محمد بن الخطيب** رحمه الله أبياتاً لزومية؛ في غرض الهناء. وهي قوله:

الكامل:

وقَفَ الهـواءُ[1] على ثَنـاكَ لسـاني
رعيـاً لمـا أوليـتَ من إحسـانِ
فكأنّمـا شكـري لمـا أوليتـه
شكـرُ الرّيـاضِ لعارضِ النّيسـانِ
أنا شيعَـةٌ لك حيثُ كنـتَ قضيـةٌ
لَـمْ يختلـفْ في حكمهـا نفسـانِ
ولقد تشاجـرتِ الرّماحُ فكنـتُ في
ميـدانِ نصـرك[2] فارسَ الفرسـانِ
ورويـتُ غُـرَّ مآثـرٍ أسندتُهـا
لعـلاكَ بيـن صحائـحٍ وحسـانِ
ولأنـت أولَى بالتّشيُّـع شيمـةً
لـم تتّفـقْ لسـواكَ مـن إنسـانِ
الشّمسُ أنت قد انفردتَ وهل تـرى[3]
بينَ الـورى في مطلـعٍ شمسـانِ
جبـرت بحبـرك كلّ نفسٍ حـرّةٍ
وشـدا بشكـرِ الله كـلُّ لسـانِ
وبَدَتْ سعـودك مستقيمـاً سيرُهَـا
وعلـتْ فقَـرَّ أمامهـا النّحسـانِ

[1] في نفـح الطيـب: ((الغـرام)).
[2] نفسـه: ((نهـرك)).
[3] نفسـه: ((يُـرى)).

فاستقْبِــلِ السّعدَ المعــاود سافــراً

عــن أيّ وجــه للــرّضى حُسَّــانِ

وابــغ المزيدَ بشكر ربّــك ولتثــقْ

بمضاعَــفِ الإنعــامِ والإحســانِ

فالشُّكْــرُ يقتــادُ المزيــدَ ركائبــاً

تنتــابُ بابــكَ منــهُ في أرســانِ

ثم السَّــلامُ عليكَ يُــزْري عَرْفــه

طيبــاً بِعَــرْفِ العــودِ والبَلســانِ

*****

سنة خمس وسبعين وسبعمائة[1]

في أول هذه السنة؛ حذر خدّام مولانا أمير المسلمين من **سويد**، وأحلافهم. فجاء **خالد بن عامر**، وقومه المخالفين معه إياهم؛ فرغبوا من المولى الأمير **أبي تاشفين** – أعزه الله – الإصحار معهم؛ لدفع عاديته؛ فأجابهم؛ ونزل طرف **السرسو**؛ فانتهز **علي بن هارون** رهطه الفرصة؛ بمغيبه في القطر؛ فعادوا إلى **شلف**، وبلغه الخبر؛ فأغذ نحوهم السير غازياً؛ ففرّوا أمامه، وتذمموا **بجبل زاتيمة**؛ فخيم – أعزه الله – ظاهر **مازونة**؛ مزاحماً بمنكب إضاقته معقلهم، وأطال اللّبث. ففي صفر؛ **قدم أبو زيان ابن السلطان أبي سعيد**؛ عم أمير المسلمين من **صحراء وارجلا**؛ مقره من **بني مرين** على **حصينه وثعالبته**؛ فعادوا إلى ضلالهم القديم معه، وتوجهوا به لحصار **بني مرين بالجزائر**. وأظلت أمير المسلمين ليلة ميلاد شفيعه خير الأنام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم؛ فأعاد عيد احتفاله بمدعاها كأفضل ما مر. فكان مما أنشده مسمعها؛

---

[1] 1373م.

للطالب النبيل أبي علي حسن بن إبراهيم بن سبع قوله:[1]

الطويل:

هو الحبّ تهديه العيونُ الفواترُ
ويخفى فتبديه البوادي البوادرُ
وتغرسه في روضة القلب روضة
من الحسن مرعاها جوى أو جواهرُ
فيثمران وصلاً بحلو وإن نوى
فمر وإن عتباً فطعم مغايرُ
كذا مذْ عرفناه وصعب مرامه
ينيل المنى طوراً وطوراً يغادرُ
ولم أعنِ نفسي لم أقل من أحبتي
مرادي حمتني عن حماهم كبائر
جنيت ثمار الغيّ من دوحة الهوى
وأطمعت قلبي فهو قاسٍ وقاسر

---

[1] ذكره صاحب البستان في سياق ترجمة أبي عبد الله محمد بن احمد الشريف الحسني؛ ولكنه لم يخصص له ترجمة؛ وكل ما قاله أنه عند وفاة الشريف: ((ورثاه الفقيه الصدر المفتي المدرس أبو علي حسن بن إبراهيم بن سبع بقصيدة طويلة)). البستان، ص: 177.

ولكــنْ بمــدح الهاشــميّ محمـــد

رجوت خــلاصي يوم تبــلى السّرائــرُ

قصــدت رســولاً أكرم الخلــق كلّهــم

وأفضــل مــن تثـني عليــه المنابــر

وسيّــد أهــل الأرض والكــون كلّهــم

وأول مــن تنشــقّ عنــه المقابــر

أبو القاســم المــاحي محمــد أحمــد

رســول أميــن عاقــب وهــو حاشــرُ

له المنــزل الأعلى وفي حبّه العــلاَ

ومــن أجلــه الدّنيــا وعنــه المفاخــرُ

تقــدم فضــلاً قبــل كــلّ مكــون

وجــاء لنصــر الحقّ والكفــر جائــر

أيــا خاتــم الإرســال وهــو أمامهــا

وسيّدهــا والفضــل في الكــلّ باهــرُ

فــأحى ربــوع الحــقّ بعــد دروسهــا

مهلّلــة بعــد العفــا وحواضــر

وجــدّد للتوحيــد عقــد شهــوده

براهيــن صــدق كلّهــنّ بواهــر

تبــدت بآفــاق القلــوب قواطعــاً

فقــدّت قميــص الكفــر فــهي بواتــر

وما برحـت حـتّى أزاحـت ضلالـه
وحـتّى أراحـت منه والحـقّ ظاهـر
وأعظـم آيـات النـبي وكلّهـا
عظائـم آيـات دواع زواجـر
تبـدت بأفـق الرّشـد شمسـاً منيـرة
وقـد أسبلـت للـغيّ سـود غدائـر
فأشـرق بالتوحيـد ما كـان مظلمـاً
وشابـت بمـا لاقتـه تلـك الغدائـرُ
أتت معجـزات المرسلين وقد مضـت
ولـم يلقهـا إلاّ الفريـق المعاصـرُ
ومعجـزة الهـادي الشّفيـع محمّـد
تـدوم وترعى ما رعى النّجـم ساهـر
وما الحصـر قصـد المادحيـن وإنّمـا
لتشنيـف آذان الفخـار المفاخـر
فلا الفضـل محدود ولا المـدح بالـغ
ولا الفخر محصور ولا المجـد قاصـر
فـفي ليلـة الإسـراء فضـلاً ورفعـة
فكـم خلعـت فيهـا عليـه مفاخـر
على السبـع يرقى نحو مجد وسـؤدد
بتـرداده يشـقى الحسـود المكابـر

إلى أن أتى من قــاب قوسيــن منــزلاً
أتتــه بــه تتــرى عليــه البشائــر
فما تثبــت الأقــلام ما نال من عــلى
ولو مــدّ هــذا البحــر سبــع زواخــر
فصــلّى عليــه الله مــا لاح بــارق
وما سبحــت فلــك وما ســار سائــر
وأيّــد بالنصــر العزيــز خليفـــة
لــه المجــد أرث والعــلى والمآثــر
هو البحــر جــوداً والكواكــب رفعــة
وشمــس الضّحى نفعــاً فمن ذا يفاخــر
هو الملــك الــزّابي موسى بن يوســف
أبى الله إلاّ نصــره وهــو قــادر
ليهــن تلمسانــاً إيــاب مليكهـــا
فقد ذهبــت عنهــا النّحــوس الغوابــر
ويهــن الــورى طــراً إيابــك سالمــاً
وسعــدك موفــور وأمــرك ظاهــر
تبــدّت بأفــق اليمــن شمس سعودكــم
فأجفــان شانيهــا سَــوّاهِ سواهــر
وعــادت تلمســان لأحســن حالــة
فكــم بعدمــا سيمــت يخســف يسامــر

وَمُـدَّتْ ظـلال الأمـن فالكـلّ مأمـن
وسحـت عهاد الخير والجـود غامـر
فللّـه مـا ألـقى السّـرور بمهجـتي
غـداة اللّقـا أو ما حوتـه الضمّائـر
وما لي ونظـم الشّعـر لـولاَ علاقـة
ومـن لي بـه لـولاَ العـلى والمآثـر
كلفـت بكم فأحتلـت في نيـل قربكـم
وأملـت معاليكـم وتلـك المفاخـر
فأصبحـت أهـدي من ثنـائي عليكـم
جواهـر نظـم كلّهـنّ جواهـر
فقالـوا محبـاً وهـو حقـاً يحبكـم
وقالـوا وزور قولهـم هـو شاعـر
فكـن منصـفي منهم وجـد لي بالمـنى
فلا شـك مـولى العبـد حام وناصـر
ودم وابق وانعـم واسلـم وسـد وجـد
تـضيءُ بك العليـا وتـزهى المنابـر

وفي شهـر ربيـع الثـاني؛ اجتمـع **خالـد بـن عامـر، وبنـو يعقـوب، والمعقـل** المخالفـون؛ وغرهـم سـراب الأمـل اللامـع، فـأرادوا مقاربـة **تلمسـان**، والعيـث في ساحهـا بالفسـاد؛ فأنهـض إليهـم أمـير المسلميـن الشيـخ

أبا عمران موسى خالد بن محمد بغربية **عبد الواد**، وجيش الحضرة؛ فنزل **أبريدين**؛ من **جبل بني يزناسن**؛ وأحسوا به؛ فأجفلوا مغربين؛ لا يلوي متقدم منهم على متأخر؛ إلى أن جاءوا **وادي القصب**؛ الفاصل بين وطني: **بني عبد الواد**، **وبني مرين**؛ ثم راجع **بنو يعقوب**، **والمعقل** الطاعة، وانقلبوا إلى أوطانهم صاغرين، وغدا **خالد بن عامر** بقومه، لا سوى جاراً **لعرب المغرب**؛ والمولى **أبو تاشفين** ـ أثناء هذا كله ـ آخذاً بمخنق مغراوة؛ إلى أن طال عليهم الأمد، ويئسوا من إقلاعه عنهم؛ فاستنصروا **بأبي زيان**، **وحصين**، **والثعالبة**، **والديالم**، **والعطاف**؛ ففزعوا من عند آخرهم إليهم؛ وذلك في رجب السنة؛ واعتمد الجميع معسكر المولى **أبي تاشفين** ـ أعزه الله ـ فَسَوَّلَتْ لهم أطماعهم فيه؛ ما أباه الله، وقوة عارضته، وكرم صبره وحيائه، وفضل شجاعته؛ وأطلوا على محلته؛ فخب رعيلهم بساحها، وأوضع وتضاعفت خلفه الساقات. **((يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ))**[1] الخاسرون.

---

[1] هم الكاذبون وليس ((الخاسرون))؛ كما كتب. والآية كاملة هكذا: ((يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ)). الآية: 18 من سورة المجادلة.

وركب المولى **أبو تاشفين**؛ فقرعت طبوله، وترتبت مصاف جيوشه، ثم أخذ الناس بالثبات لصدمه العدو الأولى؛ وأن لا يعدو أحد مركزه، ودفع المقاتلة بين يديه؛ فلم يكن إلاّ كطرفة العين أو أقرب؛ حتى ولوا الأدبار منهزمين؛ والأولياء البررة يقتلون، ويأسرون، ويرجلون فيهم؛ إلى أن ضرب الليل بين الفريقين سوره، واستمر **أبو زيان** ولفه – غير مصدقين النجاة – إلى مألفهم، وعاد **علي بن هارون المغراوي**، وقومه إلى وطنهم؛ وقد خذلتم الأطماع، و تبرأ منهم الغواة، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت. **((وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ))**[1]. فهنالك استوطن المولى **أبو تاشفين بلد مازونة**، واستعد بها لطول المقام.

وفي أول شهر شوال؛ تحرك ركاب مولانا أمير المسلمين – أيده الله – مشرقاً بمدونته، وحشده، وكافة أنصاره؛ وأخذ على **وهران**؛ فأوسع بها عاطايا الناس من الزرع والمال، ونزل **البطحاء**؛

---

[1] الآية كاملة هكذا: ((أوْ كظُلُماتٍ في بحْرٍ لُجي يغْشاهُ موْجٌ مِنْ فوْقه موْجٌ منْ فوْقه سَحابٌ ظُلُماتٌ بعْضُها فوْق بعْضٍ إذا أخْرج يدهُ لمْ يكدْ يراها ومنْ لَمْ يَجْعَل اللهُ لهُ نُوراً فما لهُ منْ نُورٍ)). الآية: 39 من سورة النور.

فصرف منها **العرب**؛ إلاّ ما كان من زمل كل قبيل منهم، واستمر؛ فلقيه ولده المولى **أبو تاشفين** ـ صان الله مجده ـ بإزاء **مازونة**، و نزلا معا ظاهر **تيمزوغت**؛ آخذين بمخنق طائفة البغي **مغراوة**. وأمر مولانا أمير المسلمين ـ أيده الله ـ بتشييد البناء هنالك لسكناه، واستعد لمطاولتهم الحصار؛ بالأقوات النامية؛ تجلب إلى معسكره المنصور من كل قطر؛ وولده المولى الأعلى **أبو تاشفين** ـ أعزه الله ـ يراوحهم بالقتال، و يغاديهم. وانتهت السنة؛ ولله وحده البقاء؛ سبحانه. وفي آخرها؛ وردت على الخليفة ـ أيده الله ـ من الفقيه الوزير المرحوم **أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن الخطيب** رحمه الله؛ عند استشعاره المخافة من أهل **المغرب** قصيدة سينية غراء، يعقبها سجع بليغ. وذلك قوله:[1]

الكامل:

أطلَعْنَ في سُدَفِ الظّلاَمِ[2] شموسَا

ضحك الظلامُ لها وكان عبوسَا

---

[1] وردت هذه القصيدة أيضاً في نفح الطيب.

[2] في نفح الطيب: ((الفروع)).

وعَطَفْـــنَ قُضُبْـــاً للقـــدودِ نواعمـــاً
بُـــوِئْـــنَ أدواحَ النَّعيـــمِ غُروسَـــا
وعَدَلْنَ عن جهرِ السَّلامِ مَخافةَ الْـــ
ـــوَاشِي فجئـــنَ بلفظـــهِ مَهْموسَـــاَ
وسَفَرْنَ من دهَشِ الوداعِ وَقَومُهنْ
إلى التَّرحُّـــلِ قـــد أناخـــوا العيسَـــا
وخلســـنَ من خلَـــلِ الحجـــالِ إشـــارةً
فتركـــن كـــلَّ حجالهـــا مخلوســـا
لـــم أنسهـــا من وحشـــةٍ والـــحيُّ قـــد
زَجَـــرَ الحمـــولَ وآثـــرَ التَّغْليسَـــا
لا الملتـــقى مـــن بعدهـــا كَثَـــبٌ ولا
عُـــوجُ الرِّكـــابِ تســـأمُ التَّخْييســـا
فوقفـــتُ موقـــف[1] هائـــمٍ برحـــاؤهُ
وُقِفَـــتْ عليـــهِ وحُبِّسَـــتْ تحبيســـا
ودَعَـــوْتُ عيـــني عابثـــاً[2] وعيونهـــا
بعصـــا النّـــوَى قـــدْ بجّســـت تبجيســـا
نافســـتِ يـــا عيـــنيَّ درَّ دموعهـــم
فعرضـــت درّاً للدّمـــوعِ نفيسَـــا

---

[1] نفســـه: ((وَقفَـــة)).
[2] نفســـه: ((عاتبـــاً)).

مـــا للحـــمى بعـــدَ الأحبَّـــةِ موحشـــاً
ولَكَـــمْ تـــراءى آهـــلاً مأنوسَـــا
ولِسِرْبِـــهِ حـــولَ الخَميلَـــةِ نافـــراً
عَمَّـــنْ يَحُـــسُّ بـــهِ وكـــان أنيسَـــا
ولظلّـــهِ المـــورودِ غمـــرُ قليبِـــهِ
لا يقتـــضي ورداً ولا تَعْريسَـــا
حَيَّيْتُـــهُ فأجابـــني رَجْـــعُ الصَّـــدَى
لا فَـــرْقَ بينهمـــا إذا مـــا قيســـا
ما إنْ يزيـــدُ عـــلى الإعـــادةِ صوتُـــهُ
حرفـــاً فيشـــفي بالمزيـــدِ نسيسَـــا
نَضَـــبَ المعيـــنُ وقلّـــصَ الظلُّ الـــذي
ظَلْنَـــا عكوفـــاً حولـــهُ[1] وجُلوسَـــا
نَتَواعَـــدُ الرُّجْـــعَى ونَغْتَنِـــمُ اللقـــا
ونديـــرُ مـــن شكـــوى الغـــرامِ كؤوســـا
فـــإذا سألـــتَ فـــلا تُسَائِـــلْ مخبـــراً
وإذا سمعـــتَ فـــلاَ تحـــسُّ حسيســـا
عهـــدي بـــهِ والدَّهـــرُ يتحـــفُ بالمـــنى
وقـــد اقتضـــتْ نعمـــاهُ إن لا بوســـا

[1] نفســـه: ((عنـــدهُ)).

والعيـــشُ غَضٌ الرَّبْعِ والدُّنْيــا قد اجْــ
ــتُلِيَــتْ بمغنـــاه عَــلَيَّ عَروســـا

أتُـــرَى يعيــدُ الدَّهــرُ عهــداً للصِّبــا
دَرَسَـــتْ معـــاني الأنـــسِ فيهِ دروســـا

أوطـــانُ أوطـــارٍ تَعَـــوَّضَ أفقهـــا
مـــن رونَـــق البشـــرِ البَـــهِيِّ عُبوســـا

هيهـــاتَ لاَ تغـــني لعـــلَّ ولا عَـــسَى
في مثلهـــا إلاّ لآيـــةِ عيـــسى

والدَّهـــرُ في دســـتِ القضـــاء مـــدرِّسٌ
فـــإذا قـــضى يستأنـــفُ التّدريســـا

تفْتَـــنُ في جمـــلِ الـــورى أبحاثُـــهُ
لاسيَّمـــا في بـــاب نعـــمَ وبيســـا

وسَجِيَّـــةُ الإنســـانِ ليـــسَ بناصـــلٍ
مـــن صبغهـــا حـــتّى يُـــرى مرموســـا

يغتـــرُّ مَهْمَـــا ساعَـــدَتْ آمالـــهُ
فـــإذا عَـــرَاهُ الخَطْـــبُ كـــان يؤسَـــا

فَلَـــوَ أنَّ نفســـاً مُكِّنَـــتْ مـــن رشْدهـــا
يومـــاً وقدَّسهـــا الهـــدى تَقْديســـا

لـــم تَسْتَفِـــزَّ رسومَهـــا[1] النعـــمى ولا

هلعـــتْ إذا كَشــرتْ إليهـــا البـــوسَى

قـــلْ للزَّمـــانِ إليـــكَ عـــن مُتَذَمَّـــمٍ

بضمـــانِ عـــزٍّ لـــم يكـــن ليخيســـا

فـــإذا استَحَـــرَّ جـــلادُهُ فأنا الـــذي اسْـــ

ـــتَغشيـــتُ من ســـردِ اليقيـــنِ لَبوســـا

وإذا طـــغى فرعونُـــه فأنـــا الـــذي

مـــن ضُـــرِّهِ وأذاهُ عُـــذْتُ بمـــوسى

نـــادي أبا متـــوايَ[2] مَنْ يحـــمي الحـــمى

ليثـــاً ويعلـــمُ بالزئيـــرِ الخيســـا

بحمى أبي حمّـــو حططـــتُ ركائـــبي

لمّـــا اختبـــرتُ اللَّيـــثَ والعرّيسَـــا

أسَـــدُ الهيـــاجِ إذا خطَـــا قُدُمـــاً سطـــا

فتخلَّـــفَ الأســـد الهزبـــر فريســـا

بـــدرُ الهـــدى يأبى الضـــلالَ ضيـــاؤهُ

أبـــداً فيجلـــوا الظلمـــةَ الحنديســـا

جبَـــلُ الوقـــارِ رسا وأشرق[3] واعتـــلى

وسمـــا فطأطـــأتِ الجبـــالُ رؤوســـا

---

[1] نفســـه: ((رسوخَهـــا)).

[2] نفســـه: ((أنـــا ذا أبـــو مثـــواهُ)).

[3] نفســـه: ((وأشـــرفَ)).

غيــثُ النــوالِ إذا الغمــامُ حَلوبــةٌ
مَثَلَــتْ بأيــدي الحالبيــن بَسوســا
تَلْقَــاهُ يــومَ الأنــسِ روضــاً ناعمــاً
وتــراهُ بأســاً في الهيــاجِ بئيســا
كم غمــرةٍ أجــلّى وكمْ خطــبٍ كــفى
إنْ أوطــأ الجُــرْدَ العتــاقَ وطيســا
كمْ حكمــةٍ أبــدى وكــمْ قصــدٍ هــدى
للسَّالكيــنَ أبــانَ منــهُ دريســـا
أعــلى بــني زيَّــان والفَــذُّ الــذي
لَبِــسَ الكمــالَ فزيَّــنَ الملبوســا
جَمَعَ النَّــدَى والبــأسَ والشّيَــمَ العُــلاَ
والسّــؤددَ المتــوارثَ القّدْموســا
والحلــمُ ليسَ يبايــن الخلــق الــرضى
والعلــمُ ليــسَ يعــارضُ النَّاموســا

والسّعــدُ يغــني حكمــه عــن نَصْبَــةِ
تَسْتَخْبِــرُ التَّرْبيــعَ والتَّسْديسَـــا
كمْ راضَ صعبــاً لا يُــراض مغاضبــاً[1]
كم خــاض حربــاً لا تُخاض ضروســا[2]

[1] نفســه: ((مُعاصيــاً)).

[2] نفســه: ((كــم خــاض بحــراً لا يخــاضُ ضروســا)).

بَلَــغَ الــتي لا فوقهــا متمهّــلاً
وعــلا السُّهــا واستفــل البرجيسـا
يــا خيــرَ مَنْ خفقــتْ عليــهِ سحابــةٌ
للنَّصْــرِ تُمْطِــرهُ أجــشَّ بجيسـا
وأجــلَّ مــن حملَتْــهُ صَهْــوةُ سابــحٍ
إنْ كَــرَّ ضعضــع كَــرُّهُ الكُردوسـا
قسَمــاً بمن رفــع السمــاءَ بغيــر مــا
عَمَــدٍ ورَفَّــعَ فوقَهــا إدريسـا
ودحا البسيطَــةَ فَــوْقَ لُــجٍّ مُزْبِــدٍ
مَــا إنْ يــزالُ عــلى القــرارِ حبيسـا
حَــتّى يَهــبّ بأهلهــا[1] الوعــدُ الــذي
حَشَــرَ الرّئيــسَ إليــهِ والمرؤوسَـا
ما أنتَ إلاّ ذخرُ دهــرِكَ دمــتَ في الــ
ــصونِ الحريــزِ مُمَتَّعــاً محروسـا
لو ساومتــهُ الأرضُ فيــكَ بما حَــوَتْ
لَــرَآكَ مستامــاً بهــا مبخوسَـا
كلــف[2] البــرورُ بهــا أليَّــةَ صــادقٍ
ويميــنُ مَــنْ عقــدَ اليميــنَ غموسـا

[1] نفســه: ((بأهلــه)).

[2] نفســه: ((حلــف)).

مَــنْ قَــاسَ ذَاتَــكَ بالــذَّواتِ فإنَّــهُ
جهــلَ الــوِزَانَ وأخطــأ التقييســا
لا نستــوي الأعيــانُ فضــلَ مَزِيَّــةٍ
وطبيعــةٍ فَطَــرَ الإلــهُ وسُوســا
فعنايــة[1] التَّخصيــصِ سِــرٌّ غامــضٌ
من قبل ذَرْءِ[2] الخلــقِ خَــصَّ نفوســا
مــن أنكــرَ الفضــلَ الــذي أوتيتَــهُ
جَحَــدَ العيــانَ وأنْكَــرَ المَحْسوســا
مَــنْ دان بالإخــلاص فيــكَ فعقــده
لا يَقْبَــلُ التَّمْوِيــهَ والتَّلْبِيسَــا
والمنتــمى العَلَــويّ عِيصُكَ لمْ تكُــنْ
لتَــرَى دَخيــلاً في بَنِيــهِ دَسيسَــا
بيــتُ البتــولِ ومنبتُ الشَّــرفِ الــذي
تحــمى الملائــكُ دوحَــهُ المغروســا
أمَّــا سياستــكَ الــتي أحْكَمْتَهــــا
فرَمَيْــتَ بالتَّقْصيــــرِ رسطاليســا[3]
فلو أنَّ كِســرى الفرْسِ أبصر بعضهــا
مــا كــان يَطْمَــعُ أنْ يُعَــدَّ سَئُوســا[1]

---

[1] نفســه: ((العنايــة)).

[2] نفســه: ((ذرء)).

[3] نفســه: ((ورميــت بالتقصيــر أسطاليســا)).

لو سار عدلــك في السنيــن لما شَكَــتْ[2]
بخســاً ولــم يَــكُ بعضهــن كبيســـا
ولــوِ الجــوارِ[3] الخُنَّــس انتسبــتْ إلى
إقــدامِ عزْمــكَ مــا خَنســنَ خُنوســا
قُدْتَ الصِّعــابَ فكلُّ صعــبٍ سامــحٌ
لــكَ بالقيــادِ وكــانَ قبــلُ شَموســا

تَلْــقَى اللُّيــوثَ ولِلْقَتــامِ غَمضامَــةٌ
قَــدَحَ الصّفيــحُ وميضَهــا المَقْبوســا
وكأنّهــا تحــتَ الــدّروعِ أراقــمٌ
ينظــرنَ مِــنْ خلــلِ المغافــرِ شوســا
مــا لابــنِ مامــةَ في القَديــمِ وحاتــمٍ
ضــربَ الزّمــانُ بجودهــم ناقوســا
مَنْ جــادَ[4] منهــمْ مثــلَ جــودكَ كلَّمــا
حسبــوا المكــارمَ كسْــوَةً أو كيســا
أنــتَ الــذي افتــكَّ السفيــنَ وأهلــه
إذْ أوسعــتْ سبُــلُ الخــلاصِ طموســا

---

[1] نفســه: ((أنْ يعــدِّي سوســا)).
[2] نفســه: ((لمــا اشتكــت)).
[3] نفســه: ((الجــواري)).
[4] نفســه: ((مــن جــاء)).

أنتَ الذي أمددتَ ثغرَ اللهِ بالـ

ـصدقاتِ تُبْلِسُ كَرَّةً إبليسا

وأعَنْتَ أنْدَلُساً بكلّ سبيكَةٍ

موسومَةٍ لا تعرفُ التَّدْليسا

وشَحِينةٍ بالبرّ في سُبُلِ الرِّضَى

والبرّ قارب قاعُها القاموسا

إنْ لم تجرَّ بها الخميسَ فطالما

جَهَّزْتَ فيها للنّوالِ خميسا

وملأتَ أيديها وقد كادت على

حكمِ القضاء تُشَافِهُ التَّفْلِيسَا

صَدَّقْتَ لِلآمَالِ صنعةَ جابرٍ

وكفيتها التَّشميعَ والتَّشْميسا

والحلَّ والتّقطيرَ والتّصعيدَ والـ

ـتّخميرَ والتّصويلَ والتّكْليسا

فسبكتَ من آمالها مالاً ومنْ

أوراقها وَرِقاً وكُنَّ طُروسا

بُهِتوا فلمَّا استخبروا لم ينكروا

وزناً ولا لوناً ولا ملموسا

وتُديرُ من قَلْبِ السّطورِ سبائكاً

منها ومن طبعِ الحروفِ فلوسا

ونحوتَ نحوَ الفضلِ تعضدُ منه بالـ
ـمسموعِ ما ألفيتَ منهُ مقيسا
وجبرتَ بعدَ الكسرِ قومكَ جاهداً
تُغْني العديمَ وتُطلقُ المحبوسا
ونشرتَ رايةَ عِزّهمْ من بعد ما
دالَ الزّمانُ فسامها تنكيسا
أحْكَمْتَ حيلَةَ بُرئِهِمْ بِلَطائفٍ[1]
قدْ أعجزتْ في الطبِّ جالينوسا
وفَلَلْتَ من حدِّ الزّمانِ وإنَّهُ
أرْحى[2] وأمضَى من غِرارِ الموسَى
وشحذتَ حَدّاً كان قبلُ مُثَلَّماً
ونعشتَ جَدّاً كان قبلُ تعيسا
لمْ ترجُ إلاَّ اللهَ جَلَّ جَلالُهُ
في شدَّةٍ تُكْفى وجُرحٍ يؤسا
قَدَّمْتَ صبحاً فاستضأتَ بنورِهِ
ووجدتَ عند الشدَّةِ التَّنفيسا
ما أنتَ إلاَّ فالحٌ مُتَيَقِّنٌ
بالنّجْمِ[3] تعمرُ مُمْرِعاً ويبيسا

[1] نفسه: ((بلطافةٍ)).
[2] نفسه: ((أوحى)).
[3] نفسه: ((بالنُجْح)).

ومُتاجِـرٌ جعـلَ الأريكـةَ صهـوةً
عَرَبِيَّـةً والمُتَّـكَى القَرَبوسـا
مـا إنْ يُبايـعُ أو يُشـاري[1] واثقـاً
بالرِّبـحِ إلاَّ المالـكَ القُدُّوسـا
والعـزمُ يفتـرعُ النُّجـومَ بنـاؤهُ
مَهْمـا أقـامَ علـى التُّـقَى تأسيسـا
ومقـامُ صبـركَ واتِّكالـكَ مُذكـرٌ
بحديثـهِ الشبـليَّ أو طاووسـا
ومَـنِ ارْتضـاهُ اللهُ وفَّـقَ سَعْيَـهُ
فـرأى العظيـمَ من الأمـورِ[2] خسيسـا
مـا ازددتَ بالتمحيـصِ إلاَّ جـدَّةً
ونضـوتَ مـن خِلَـعِ الزَّمـانِ لَبيسـا
ولطالمـا طـرقَ الخسـوفُ أهِلَّـةً
ولطالمـا اعترضَ الكسـوفُ شموسـا
ثـمَّ انجلَـتْ قَسماتهـا عـن مشـرقٍ
للسَّعـدِ ليـسَ بحـاذرٍ تَتْعيسـا
خذْهـا إليـكَ علـى النَّـوَى سينيَّـةً
تـرضى الطِّبـاقَ وتشكـرُ التَّجنيسـا

[1] نفسـه: ((تُبايـع أو تُشـاري)).

[2] نفسـه: ((مـن الحظـوظ)).

إنْ طوّقــتْ[1] بالــدُرِّ من حــول الطُّــلَى
يومــاً تشكّــتْ حظَّهــا المركوســـــا
لــولاكَ ما أصْغَــتْ لخطبــةِ خاطـب
ولَعُنِّسَــتْ في بيتهــا تعنيســـا
قصــدتْ سليمـــانَ الزَّمــانِ. وقاربــتْ
في الخطــوِ تحســبُ نفسهــا بَلْقيســا
لي فيــكَ وُدٌّ لــم أكــنْ مــن بعد مــا
أعطيــتُ صفقــةَ عهــدِهِ لأخيســا
كــمْ لي بصحَّــةِ عقــدِهِ مــن شاهــدٍ
لا يَحْــذَرُ التَّجريــحَ والتّدنيســا[2]
يقفــو الشهــادةَ باليميــنِ وإنَّــهُ
لمؤمَّــنٌ مــنْ أنْ يُعَــدَّ قَسيســا
لا يستقــرُّ قَــرارُ أفكـــاري إلى
أنْ أستقِــرَّ لــدى عُــلاكَ جليســا
وأرى بجاهــكَ مستقيــمَ السَّيـــرِ للـ
ـقصــدِ الــذي أعملْتُــهُ معكوســا
هي ديــنُ أيَّــامي فــإنْ سَمَحَــتْ بــهِ
لــم يبــق مــن شيءٍ عليــه يؤسـا

---

[1] نفســه: ((إنْ طُوولــتْ)).

[2] نفســه: ((والتّدليســا)).

لا زالَ صنعُ اللهِ مجلوباً[1] إلى
مَثْواكَ يهدي البشرَ والتّأنيسا
مُتَتابِعاً كتَتابُعِ الأيّامِ لاَ
يَذَرُ التّعاقُبَ جمعَةً وخَميسا
فَلَوَ أنْصفَتْكَ إيالةُ الملكِ التي
رُضْتَ الزّمانَ لها وكانَ شريسا
قرنتْ بذكركَ والدُّعا[2] لكَ الذي
تختارهُ التّسْبيحَ والتّقْديسا
والقَلْبُ أنْتَ لها رئيسُ حياتها
لمْ تُعْتَبرْ مهما صلَحْتَ رئيسا

هذه القصيدة ـ أبقى الله أيّام المثابة المولوية الموسوبة ـ ممتعة بالشّمل المجموع، والثناء المسموع، والملك المنصور الهجوع[3]، نفثة مَنْ بات بسر حبّهِ[4]، ولبّى دعوة الشوق العابث بلبه وقد ظفر بمن يُهدي خبر جواه، إلى محلٍّ هواه، ويختلس بعث تحيته، إلى مثير أريحيته، وهي بالنسبة

[1] نفسه: ((مجنوباً)).
[2] نفسه: ((والدُّعاء)).
[3] نفسه: ((الجموع)).
[4] نفسه: ((هواه)).

إلى ما يعتقد من ذلك الكمال، الشّاذ عن الآمال، عنوانٌ من كتاب، وذواق من أوقار ذات أقتاب، وإلاًّ فمن يقوم بحق تلك المثابة لسانُه، أوْ يكافيء إحسانَها إحسانُه، أو يستقلّ بوصفها يراعه، أو تنهض بأيسر وظيفها ذراعه، ولا مكابرة بعد الاعتراف، والبحر لا ينفذُ[1] بالاعتراف.

لاَ سيّما وذاتكم اليومَ والله[2] يبقيها، ومن المكاره يقيها، وفي معارج القرب من حضرة القدس يرقيها، ياقوتة اختارها واعتبرها، ثم بلاءها بالتمحيص في سبيل التخصيص واختبرها، وسبيكة خلصها وشجرها،[3] فخلصتها السحيرة[4] من الشّوْب، وأبرزتها من لباب الذّوب، وقصرت عنها[5] الأثمان، وسُرَّ بصدق دعوته البرهان، ليفاضل بين الجهام والصّيّب. و(لـ) ((يُمَيِّز اللهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّب))[6].

---

[1] نفسه: ((ينفد)).

[2] نفسه: ((والله تعالى)).

[3] نفسه: ((مسجرها)).

[4] نفسه: ((بتسجيره)) وهذا أسلم.

[5] نفسه: ((عن هذه)).

[6] الآية كاملة هكذا: ((لِيُمَيِّز اللهُ الخبيث من الطَّيِّب ويجْعل الخبيث بعْضهُ علَى بعْض فيرْكُمهُ جميعاً فيجْعلهُ في جهنّم أولئك هُمُ الخاسرُون)). سورة الأنفال، الآية: 37.

فأراكم أن لا جدوى للعديد ولا للعدَّة، وعرّفكم بنفسه في حال الشدَّة، ثمّ فسح لكم ــ بعد ذلك ــ في المدَّة، لتعرفوه إذا دال الرخاء، وهبَّت ــ بعد تلك الزّعازع ــ الرِّيح الرُّخاء، وملأكُم من التجارب، وأوردكم من أَلْطافه أعذب المشارب، ونقلكم بين إمرار الزمان وإحلائه، ولم يسلُبكم إلاَّ حقيراً عند أوليائه، وأعادكم المعاد المُطَهّر، وألبسكم من أثواب اختصاصه المُعْلَم المشهّر، فأنتم اليوم معين العناية، بالإفصاح والكناية، قد وقف الدّهر بين يديكم موقف الاعتراف بالجناية، فإن كان الملك اليوم عِلْماً يُدرَّس، والقوانين[1] في قوة الحفظ تُغرس، وبضاعة برَصْد التجارة[2] تُحرس، فأنتم مالك دار هجرته المحسوبة، وأصمعيُّ شعوبه المنسوبة، إلى ما حزتم من أشتات الكمال، المُرْبِية عن[3] الآمال، فالبيت علويّ المنتسب، والملك بين الموروث والمكتسب، والجود يعترف به الوجود، والدّين يشهد به الرّكوع والسّجود، والبأس تعرفه التهائم والنُّجود، والخَلْقُ يحسده الرّوض المَجود،

[1] في نفح الطيب: ((وقوانين)).
[2] نفسه: ((التجارب)).
[3] نفسه: ((على)).

والشّعر يغترف من عذب نمير، ويصدق من قال: ((بُدئ بأمير، وختم بأمير)).

وأن مملوكك[1] حَوّم من بابكم على عذب[2] البَرود، فعاقه الدّهر عن الورود، واستقبل أفقه يحقق[3] الرَّصْد، ولكنّه أخطأ القصد، ومن أخطأ الغرض أعاد، ورجا من الزّمن الاستعداد[4]، فربما خُبِّئَ نصيب، أو كان مع الخواطئ سهم مصيب، وكان يؤمل صحبة ركاب الحجاز، فانتقلت الحقيقة منه إلى المجاز، وقَطَعَتْ القواطع التي لم ينلها الحساب، ومنعت الموانع التي خلص منها إلى الفتنة الانتساب، ومن طلب الأيام أن تجري على اقتراحه، وَجَبَ العمل على إطِّراحه، فإنما هي البحر الزاخر، الذي لا يدرَك منه الآخر، والرِّياح متغايرة، والسفينة الحائرة، فتارة يتعذر من المرفأ الصرف، وتارة يقطع[5] المسافة البعيدة قبل أن يرتدَّ الطَّرف، هذا إن سالمها عَطَبُهَا، وأُعفي من الوقود حَطَبُهَا، ولقد علم

---

[1] نفسه: ((مملوككم)).

[2] نفسه: ((العذب)).

[3] نفسه: ((ليحقق)).

[4] نفسه: ((من الزمان الإسعاد)).

[5] نفسه: ((تقطع)).

الله جلّ الله جلاله أنّ لقاء ذلك المقام الكريم عند المملوك تمام في المطلوب[1]، ممّن يجبر كسر القلوب، فإنّه ممن[2] انعقد على كماله الإجماع، وصحّ في عوالي معاليه السّماع، وارتفعت في وجود مثاله الأطماع، أخلاقاً هَذَّبَها الكرم الوضّاح، وسجية كلف بها الكمال الفضّاح، وحرصاً على الذّكر الجميل وما يتنافس فيه إلاّ من سَمَتْ هِمَمُهُ، وكرمتْ ذممه، وألفت الخلد رممه، إذِ الْوُجود سراب، وما فوق التّراب تراب، ولاَ يبقى إلاّ عمل راق، أو ذكر بالجميل يُسَطَّر في الأوراق[3]، حسبما قلت من قصيدة كتبتها على ظهر موضوع[4] أشار به من كانت له طاعة، فوفت بمقترحه الاستطاعة:

الكامل:

يَمْضِي الزّمانُ فكلّ[5] فانٍ ذاهبٌ
إلاَّ جَميلُ الذِّكرِ فهو الباقِي

---

[1] نفسه: ((تمام المطلوب)).
[2] نفسه: ((ممّا)).
[3] نفسه: ((في أوراق)).
[4] نفسه: ((على ظهر مكتوب موضوع)).
[5] نفسه: ((وكلُّ)).

لمْ يبـقَ منْ إيـوانِ كِسْـرَى بعـد ذا
كَ الحفْـلِ إلاّ الذّكـر في الأوراق
هلْ كانَ للسفّاحِ والمنصـورِ والـ
ـمَهـديِّ مِـنْ ذكـر عـلى الإطـلاق
أوْ للرّشيـدِ وللأميـنِ وصنْـوهِ
لـولاَ شَبـاة يراعـةِ الـورَّاق
رجع التّراب إلى التّـراب بما اقتضـتْ
في كـلّ خَلْـقٍ حكمـةُ الخَـلاّق
إلاّ الثّنـاء الخالـد العَطِـر الشّـذَا
يهـدي حديـثَ مكـارمِ الأخـلاق

ورغبـة مـن مقامكـم العـلي[1] الجنـاب، أنْ يمكّنهـا مـن حسـن المَئـاب[2]، فتحـظى بحلـول ساحتـه، ثـمّ بلثـم راحتـه، ثـمّ بالإصغـاء، ولا مزيـد للابتغـاء، إلى أن ترتفـع الوساطـة، وتغـني عـن التركيـب البساطـة، ويُنـسى الأثـر بالعَيـن، ويحسـن الدّهـر قضـاء الدّيـن، ونسـأل الله الـذي أغـرى بهـا القريحـة، ولـم يجعـل الباعـثَ إلاّ المحبـة الصّريحـة، أن يبـقي تلـك المثابـة

[1] نفسـه: ((والرغبـة مـن مقامكـم الرفيـع)).
[2] نفسـه: ((المثـاب)).

زَيْناً للزّمان، وذخراً مكثوفاً[1] باليُمن والأمان، مظلَّلاً برحمة الرحمان، بفضله وكرمه.[2]

قلت: في خفارتها إلى بابه الكريم من **المغرب**، تشيعاً لمقامه العلي، واعترافاً بنعمه السالفة والخالفة، والتماساً لرضاه؛ كلمة نونية هي:

الكامل:

هاتيك رامة كثبها والبانُ
ينبيك عنها العرف لا العرفانُ
بانوا وقدْ تركوا بها لجمالهمْ
معنى فتحسب أنهم ما بانوا
وإذا الدّيار تعرّضت لأخي الهوى
لمْ يغنِ عنه الصَّبر والكتمانُ
يعتاده الذكرى ويبعث وجده
أثر تخلفه بها السّكان
يا سائل العرصات أقوت ضلة
من أين تدري الدّار ما الأضعان
لا تخش إن ضنّ الغمام لربعها
ظمأ فدمعي عارض هتّان

---

[1] نفسه: ((مكنوفاً)).

[2] انتهى هنا خطاب ابن الخطيب المتصل بقصيدته السينية.

يـــا أهــل نعمـــان وأهـــل صبابــتي
شغفـــاً بحـــبّ فريقهـــا نعمــــان
هــل عندكــم أني لذكــرى عهدكــم
طربـــاً أميـــل كأنّــني نشـــــوان
لله عصـــر باللّـــوى قضيتـــــه
حلمــاً وأحســب أنــني يقظـــان
أيّــام لا ظــلّ الــرّضى بمقلــص
عنــا ولا نزحــت بنــا الأوطــانُ
يــا جيــرة بالغــور ضـــاع بحَيِّهــم
قلــب المتيّــم مــا كــذا الجيــران
إن كــان رأيكــم البعـــاد فما اعتــرى
ذاك الهـــوى ملــل ولا سلـــوان
ردّوا الفـــؤاد لمغــرم في صـــدره
لفراقكــــم فكــــر هي الأحـــزان
خطّـــت يـــد الأشـــواق طيّ ضلوعـــه
صحفـــاً لهـــا مـــن دمعـــةٍ عنـــوان
لــم يبــق غيــر الطّيــف من متعلّــل
للصّـــبّ لـــو لـــم تسهـــر الأجفـــان
ولــــربّ ليـــل مزّقـــت أحشـــاءه
وحشـــايَ أيـــدي البـــرق والأشجـــان

راعيت أنجمه تسير كأنّها
وسط المجرّة للنّوى أظعان
وعلى الثّرى من طلّه ومدامعي
بحر لديه الدرّ والمرجان
حتى بدا ضوء الصباح كأنّه
وجه الخليفة نوره فتان
وسرت بريّا المسك أنفاس الصّبا
كثنائه تسري به الرّكبان
ملك تعالى عن نظيرٍ قدره
فيه كمالاً يفخر الإنسان
خلق يغار الرّوض منها والحيا
وشهامة خضعت لها التّيجان
وجمال مرأى في جلال مهابة
كالشّمس ترهب نورها الأجفان
وأرومة في هاشم شرّفت بها
مضر وسادت عندها عدنان
من آل زيّان سلاطين الورى
أهل المفاخر والعلى مذ كانوا
شهب بآفاق الكمال منيرة
خفيت ولاح لشمسه لمعان
موسى بن يوسف حجّة الفضل الذي

لا يعتريها الجحد والبهتان
في ذاته انحصرت على أنواعه
فهو الذي ما مثله سلطان
تعنوا إليه رغبة أو رهبة
في عزها الأملاك والشّجعان
وعليه من تقوى الإله سكينة
سيّان فيها السّر والإعلان
أحيا به الله الخلافة بعدما
كادت تخر بعرشها الأركان
آراؤه حكم وفضل قضائه
عدل وفضل خطابه برهان
رحب الجناب عزيزه لعفاته
والجار مجداً دونه الشّهبان
إن كان جوداً عمّ أصناف الورى
بالوبل يروى النّجد والغيضان
أو فلّ من قبل اللّقاء عداته
بالرُّعْبِ أيَّدَ أمْرَهُ الرَّحمانُ
ولله يجزي الشّاكرين بما ابتلى
فيهم وأنت مقامك الشّكران
بعثت عزيمتك الحميّة غيرة
للملك وَهْيَ كما ترى إيمان

وطلعت بداراً في ظلام ضلاله
ضاءت بنور جبينه الأكوان
فالناس لا يرجون غيرك مالكاً
نطقت بذاك الشّيب والشّبان
وَهُمُ لسان زمانهم لا سيّما
إن وافقوا ما قاله الكهّان
فابشرْ بعزّ النّصر والملك الذي
ما ناله كسرى ولا خاقان
واستقبل الملك الذي بزمانه
تبأى العصور وتفخر الأزمان
وإليك نظماً معجزاً لا ينتهي
لبديعه قسّ ولا سحبان
أهداكه عبد تملك رقه
في بابك الإيثار والإحسان
أقصاه لا بمراده عن بابك الـ
ـأعلى قضاء شاءه الدّيان
والحبّ باقٍ والتشيّع ظاهر
يقضي على سرّي به الإعلان
أدعوا بعزّ النّصر في طول البقا
لك والدّعا يجيبه الرحمان

شكــراً لصنــع طــول مــا أوليتــني
منــه الجميــل وشكــره إيمــان
لازلــت تــرقى سامـيــاً نحــو العــلى
حــتى تــرى مــن دونــك الشّهبــان
تنــهى وتأمــر والقضــاء مساعــد
والنّــاس والدّنيــا لكــم أعــوان

*****

سنة ست وسبعين وسبعمائة[1]

أهل هلال محرمها؛ وأمير المسلمين ـ أيده الله ـ آخذا بمخنق **مغراوة**؛ قد أرهقهم عسراً وأحاق بهم خسراً؛ وهنالك وصله ـ أيضاً ـ من **الفقيه الوزير المرحوم أبي عبد الله محمد بن الخطيب** برد الله ثراه؛ عندما اشتدت مخافته من **بني مرين**، وعيل اصطباره، وقلبت له دنياه ظهر مجنها؛ قصيدة غراء ميمية؛ في غرض الاستصراخ والاستشفاع؛ بمولانا أمير المسلمين **أبي حمو**؛ عند مولاه السلطان **الغني بالله أبي عبد الله محمد بن نصر**؛ أعزه الله؛ ثم عاجله الحال، ومات رحمه الله كيف قدر، و **((إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ))**[2]. قوله:[3]

[1] 1374م.

[2] الآية كاملة هكذا: ((صراط اللّه الّذي لهُ ما في السّماوات وما في الأرض ألا إلى اللهِ تصيرُ الأمُورُ)). سورة الشورى؛ الآية: 53.

[3] بعث ابن الخطيب بهذه القصيدة إلى أبي حمو قبل وقت قصير من مقتله في سجنه بالمغرب. وعلى هذا فقد أحسن يحيى بن خلدون بتسجيلها في كتابه هذا.

الطويـــل:

أمّـــا لـــوْ علمنـــا أنّـــهُ ينطـــق الرّســـمُ
ولمْ يبـــقَ يومـــاً مِنْ مسمـــاهُ إلاَّ اســـمُ

وإنَّ سُـــؤال الرَّبْـــع ينقـــع غلـــة
فيحصـــلُ منْ أنبـــاء من ظعـــن العلـــمُ

لطـــالَ وقـــوفٌ واستهلـــتْ مدامـــعٌ
وبُـــثَّ غـــرامٌ طالمـــا صانـــهُ كتـــمُ

ولكنّـــه جســـمٌ تحمَّـــلَ روحـــه
ومهما تـــولّى الرُّوح لاَ يُسئـــلَ الجســـمُ

وحـــتّى متَى شغْـــل بما شـــاءهُ الهـــوَى
وكيـــفَ بعـــزمٍ بعدَمـــا خُـــذِلَ العـــزمُ

لهـــا اللهُ مـــنْ نفـــسٍ شعـــاع ومهجـــة
هيَ الغـــرضُ المقصودُ يثبتـــهُ السَّهـــمُ

يصـــولُ عليَّ الشّـــوق صولـــةَ جائـــرٍ
إذا اغتـــاضَ لاَ عفْـــوٌ لديـــهِ ولا نظـــمُ

وينفـــرُ عـــنْ عَيْـــني المَنـــامُ كأنّمـــا
قَطَـــا صـــدَّهُ عن وردِ مشرعـــه شهـــمُ

ويسلمـــني الصَّبرُ الجميلُ إلى الجـــوَى
فتعـــزوني البـــؤسى ويكســـوني السقـــمُ

لقـــد شفيَـــتْ طـــوع الصبابـــة أنفـــسٌ
حـــبَى الرُّشد مثواهـــا وباينهـــا الحلـــمُ

ومـــا فتئــتْ إنْ أمكنــتْ مــن قيادهـــا
يــداً ساءَ في الأفـــلاكِ منها لها حكــمُ
تمــنى بــورد الظّلــم غلّــة هائــم
وما هــو إلاّ الظلــم أو دونــهُ الظلــمُ
وتهلــكُ دونَ الشّهــد شــأن ذبابــةٍ
ومِنْ دون ذاك الشّهد لو يشعــر السّــمُّ
علاقــةُ وهــمٍ في الخيــالِ تحكّمــتْ
ويا شدّ ما يجــني إذا استحكــم الوهــمُ
إذا لــمْ يقدهـــا بالغــرامِ وجودهـــا
إلى عــدْم ألــوى بموجودهـــا العــدمُ
فكــنْ للمعـــالي والفضائــلِ عاشقـــاً
وإنْ عسرَ المطلـــوب أو ثقــلَ العــزمُ
خـــلال النّدَى والبـــأسِ تستلــزمُ الثّنـــا
إذا مـــا تسنّى لامْــرئٍ منهمـــا قســمُ
ولاَ يُشهِــرُ الإنســانَ إلاّ امتيـــازهُ
بفضــلٍ فلــولاَ الخمــر ما كرّمَ الكَــرْمُ
فــلاَ درّ إلاّ درٌّ مكتمــل النّــهى
بغيــرِ المعـــالي لاَ يــرَى وهو مهتــمُّ
أعار جنـــاب اللّهْــو صفحـــة معــرض
وعـــاف الهوَى ورداً وإنْ عذبَ الطّعــمُ

وأضرب عن خطّ الهوى عندما استــوَى
وقد أجملــت جُمْــلُ وقدْ أنْعِمَــتْ نُعْــمُ

حَــمَى ساحةَ الطَّبعِ العفيفِ كمثــلِ مــا
حَــمَى ساحةَ المُلْكِ المُنيفِ أبــو حَمُّــو

ومــا هُــنَّ في التَّحقيــقِ إلاَّ صفاتــهُ
بِهِــنَّ إلى إطرائــهِ استَطــردَ النّظــم

ومنْ مثلــهِ قــدْ أعجــزَ الدَّهــر مثلــهُ
إذا ذُكِــرَ العــزمُ الصَّريح أو الحــزمُ

أوِ الدِّيــن مرفوعــاً على عَمَــدِ التُّــقَى
أوِ الكَلِــم الحكــميّ يُشْــفَى بــهِ الكلــمُ

يغــضُّ عــنِ الطَّيــف الملــمِّ لعفَّــةٍ
وفضــل حيــاءٍ لاَ يكيدهمــا الحلــــمُ

ويخجــلُ سُحْب الغَيْثِ فالبــرقُ خجلــة
إذا مــا هــمَى في كفّــه وابــل سجــمُ

ويسمـــعُ يومَ الخطــبِ خطبــة فيصــلٍ
ومِنْ ضربــهِ نثــرٌ ومنْ طعنــهِ نظــمُ

غــنيّ بتصهــالِ الجيــادِ عنِ القنـــا
فلا الزّيــر يَستهْــوي نهاهُ ولا البســمُ

وبالبيــضِ راقَ الوســمُ فوقَ صفاحهــا
عنِ البيضِ يصبي في معاصمها الوشــمُ

إذا مــا بــنَى يومــاً بنــاء صنيعــةٍ
تعاهــدهُ منــهُ التّفقّــد والــــــرّمُّ
ومهمــا استلّقــتْ في الرّقــابِ حقوقــهُ
فلا يعــدمُ الإبــراءُ فيهــا ولا الهضــمُ
ويعلــم ثوب المجد بالخُلُــق الــرّضى
كمــا يعلــم الثّوب الطّــرازُ أو الرقــمُ
وجــاءتْ به الدّنيــا النّــزور فأنجبــتْ
وأرحامهــا في مثلــهِ شأنهــا العقــمُ
أجــلُّ الملــوكِ الصّيــد ذاتــاً ومحتــداً
فما فوقــهُ مســمّى لمنْ شاءَ أنْ يسمُــو
وفَخْرُ بــني زيّــان يحضر إنْ خطَــوْا
ويســرعُ إنْ أبْطَــوْا ويمضي إذا همــوا
فلــولاَ وليّ العهــدِ مــا ضــلّ قائــلٌ
بــهِ البــدءُ في عليائهــمْ وبــهِ الختــمُ
ولكنّــهُ إرثٌ قديــمٌ وحــــــادثٌ
ومنبــتُ فضــلٍ ليسَ يُــزري له جــذمُ
وإنّ بــني زيّــان في أُفُــق العُــــلاَ
لأَ نجــم هَــدْيٍ كلّمــا أفــلَ النّجــــمُ
غيــوثٌ إذا أعطَــوْا ليــوثٌ إذا سطَــوْا
أهلّــة هــالاتِ البهــاء إذا اعتمُــوا

أمعلمهــا في حرمــةِ الجــودِ غــارة
تَــأزَّرَ فيها النَّصــرُ واستبحــرَ الغنــمُ
وقادِحهــا في هضبــةِ الحــربِ جــذْوَة
رمتْ شــرراً يشقَى بها العربُ والعجــمُ
تبــاركَ معطيــكَ الكمـــال كأنَّمـــا
تصــوَّرت مختــاراً وكان لــكَ الحكــمُ
ظَهــرتَ وجــوداً واحتجــتَ لطافَـــةً
كأنَّــك روحٌ لا يصاحبـــهُ جســـمُ
يقولــونَ ممتـــازٌ بنصبــةِ مولـــدٍ
ومــا أنْ ينيــل الحظَّ شمــسٌ ولا نجــمُ
ومــا هيَ في التَّحقيــقِ إلاَّ مواهـــب
مــنَ الله قبــلَ الكــون عينهــا القســمُ
أمــوسى لقد أمْسى حديثــكَ في الــورَى
صحائــف تُتْــلاَ مــا لشائعهــا كتـــمُ
عــلى قَــدَرٍ قدْ جئــتَ قومــك عندمــا
تناهــتْ بهــا البــؤسَى وأجهدهــا الأزمُ
طلعــتَ لها في الجنحِ شمســاً منيــرةً
فأشْرقَــتِ الأرجــاءُ وانفــرجَ الغَـــمُّ
وجــدَّدْتَ فيهــا دولــةً موسويـــةً
سَجيَّتهــا عــدلٌ وشيمَتهــا حِلْـــمُ

أبـــو تاشفيـــن حدُّهـــا وحُسامُهـــــــا
فقدْ صَحَّ منها الحَدُّ في المَجْــدِ والرَّسْــمُ
فأنــتَ بهـــا لازلــتَ شمـــسَ ظهيــرةٍ
وهـــاهـــو في إمــدادكَ القمــرُ التــمُّ
أمـــا والــذي أغـنَى وأقــنَى ومَنْ لــهُ
من النّســم الرّجــعى بــلَى وله الحكــمُ
ومن أوجــدَ الكونَ اختراعـــاً ولم يكـــنْ
مثـــالٌ لـــهُ يحــدي عليـــهِ ولا رســمُ
ودارَ المحيـــطُ المستديـــرُ بأمــــــرهِ
على قطـــب بـــادٍ وإنْ عظـــمَ الجـــرمُ
ومَـــنْ سجــدَ الخَلْــقُ اعترافـــاً لعــزِّهِ
فــلاَ شجـــرٌ يـــأبَى السُّجــودَ ولا نجــمُ
لقدْ فُـــزتَ بالقَــدَحِ المُعَـــلَّى مِنَ العَـــلِي
وسلّـــم في الحقِّ الصَّريـــحِ لكَ الخصـــمُ
وبانـــتْ لِـــرَبِّ الخَلْــقِ فيـــكَ عنايـــةٌ
وآيـــاتُ لُطـــفٍ لا يخيلهـــا الحلـــمُ
فكمْ فتَّ منْ خطبٍ وجـــاوزتَ منْ ردَى
تـــذوبُ لمجـــراه الململمَّـــــة الصــــمُّ
فمـــا كنـــت إلاّ درّة المجـــدِ كلّمـــــــا
تـــردّد فيها الوصفُ لم يُعرفُ الوصـــمُ

وياقوتـــة قد محَّــص الدَّهــرُ سنخهــا
صليــاً فــلا تلــب لديهــا ولا ثلــمُ

علقــتْ بحبــلِ الله كفّـــاً تمكنـــتْ
مِنَ العُــروةِ الوُثــقَى التي ما لها فصــمُ

وقــدْ ذعــرَ العُربــانُ منــكَ غضَنْفَــرٌ
أزل عريــض الصَّــدر ساعــدهُ فعــمُ

وملتفــتٌ عــنْ حذوتيــنِ إذا هــوَى
أوِ انْقَضَّ قلت الشّهــب يقدمها الرَّجــمُ

إذا ضــمّ أبطــال الهيــاجِ معانقــاً
فكــمْ مفــردٍ أودَى علامتــه الضَّــمٌّ

فقــلْ لهــمْ للحــقّ في الخَلْــق صولــة
ولوْ نَفَــرتْ ياجــوجُ وارتفــعَ الــرَّدمُ

ولوْ أجلبــتْ للحــربِ عــادٌ وجرهــمُ
وليت جديســاً إذ دعــتْ أختهــا طسْــمُ

ولوْ أقسمتْ أنْ تغلــبَ الجمــعَ تغلــبُ
وتنسفُ جرمَ الأرضِ إنْ حملــت جــرمُ

وراءكــم عمّــا أردتــــم فإنّهــــا
لدائــرة في الــرّأي داخلهــا الخــرمُ

متى ترجحُ الشّهب الحصَى لافتخارهــا
بكثرتهــا أو تُذْعَــرُ الأسُــدُ البهــــمُ

فلوْلاَ التَّقــاضي جــبّ غاربها الــرَّدَى
ولوْلاَ التَّجافي عاثَ في ظهرها القصــمُ

لمــوسى أبي حمــو بن يوســف آيــة
وبرهــان صـــدقٍ لاَ يعانــدهُ خصــمُ

وربّتمــا نـــال المســمّى مــن اسمــهِ
نصيــب على حكــمِ العنايــة أو قسـمُ

أدال من البــؤسَى ونـــجّى من الــرَّدَى
فعمــتْ بــهِ في قومــهِ النِّعــم العــمُّ

وأنقذهــمْ مــن حيــرة التِّيــهِ بعدمــا
تقطّعــتِ الأسبــابُ وانتثــرَ النظـــمُ

وهــشَّ عــلى يــمِّ الشَّدائــدِ بالعصــا
ووافــقَ إذن اللهِ فانفــرقَ اليَـــمُّ

لــكَ اللهُ من مبنًى على مشــرق السَّنــا
حــرامٌ عــلى أركانــهِ الهَــدُّ والهَــدْمُ

ومَــنْ جبــل للحِلْــم أشــرفَ واعتــلَى
فدانــتْ لــهُ بالعــزَّة القلــلِ الشُّــمُّ

لــكَ اللهُ مــنْ قلــبٍ لهُ خُلِــقَ الهــدَى
لــكِ اللهُ مــنْ كَــفٍّ لهــا خُلِــقَ اللَّثْــمُ

لــكَ اللهُ من وجهٍ وجيــهٍ يجــلُّ عــن
شبيــهٍ فــلا فــظٌّ اللِّقــاءِ ولاَ جهــمُ

لــهُ الحُســنُ خــالٌ والقبــولُ قبيلــةٌ
ومنْ محتــد الفضــلِ المبيــن له عــمُّ
إذا زعمــتْ شمــسُ الظَّهيــرةِ أنَّـــهُ
أخوهــا بلاَ شــك فقدْ صــدقَ الزَّعــمُ
تــوالى منِ استَرْعيــت أمنــاً ورأفــةً
ورفقــاً كما تحنُــو على المُرْضَــعِ الأمُّ
وتبلــغ أعنــانَ السَّمــاءِ بهمَّـــــةٍ
بغيــرِ جميــلِ الذِّكْــرِ ليــسَ لها هــمُّ
وتوجــف منْ فصــلِ الخطــاب لغايــةٍ
أنافــتْ وجلَّــتْ أنْ يحيــطَ بهــا وَهْــمُ
وتُصْــمي رمايــا الغائبــاتِ بفكــــرةٍ
يسدِّدهــا التَّقــوَى ويُنجدهــا العلـــمُ
كمــالٌ ولا نقــصٌ ورشـــدٌ ولا هــوَى
ومنــحٌ ولا منــعٌ وحمـــدٌ ولا ذمٌّ
وما شئــتَ من فضلٍ ولطــفِ سياســةٍ
يُطيــعُ بها العاصي وتُستنــزلُ العصــمُ
ومعقــدُ مُلْــكٍ طالِـــبِيّ نجـــارهُ
عــلاهُ مــردَى بالمهابــةِ معتـــــمُّ
مــلي بأوصــافِ الإمــامِ بمثلــــهِ
ولا مثــل مــن يبــغي الإمامــة يأتــمُّ

إذا اجتمـعَ الإقْـدامُ والـرَّأيُ والتُّــقَى
وساعــدَ سعــدٌ واستقـلَّ بــه عــزمُ
ولاحــتْ بآفــاق السَّمــاحِ مخيلــةً
مِنَ الجودِ يَتلُو برقها العــارضُ السجـمُ
وقــامَ عــلى التَّقــوَى بنــاءُ سياســةٍ
يمهّــد مــن أســاسِ أركانهــا علــمُ
ورفَّــتْ عليهــا نسبــةٌ طالبيـــــةٌ
فليــسَ ظــلامٌ في الوجــودِ ولا ظُلْــمُ
هنيئــاً لضيــفٍ في ذراك قــرارهُ
بحيــثُ النّــوالُ الغمرُ والكــرمُ الجــمُّ
فآمالــهُ للفكــرِ نصــــب وعيشــــهُ
كمــا شــاءهُ خفــضٌ وطاعتــهُ جــزمُ
أطيــة تهجيــري وباعــث رحلـــتي
فلــولاكَ لــمْ يذكــرْ عقــال ولا خطــمُ
أتتــكَ عــلى حكــمِ الــودادِ غريبـــة
نتيجــة فكــرٍ لا يبيــن لهــا رســـمُ
وهلْ منة تــرضَى إذا أكلّــتِ القــوَى
وبــانَ اشتعــالُ الرّأسِ أوْ وَهنَ العظــمُ
عــلى أنّهــا البُــرد اليمــانيّ كلّمـــا
تقــادم أهــوَى نحــوهُ اللّثــمُ والشّــمُّ

وأذكـــرُ مهمـــا رئي أرض بعيـــدة
وبـــان لـــهُ فضـــلٌ وراق لـــه رقـــمُ
فلـــوْ زمن ابن الجهـــمِ أشـــرقَ بِشْـــرُهُ
لما ســـرّ بابـــن الجهـــمِ والـــذُهُ الجهـــمُ
ولـــو نشـــرَ الطّـــائيُ يـــومَ ا جتلائهـــا
لحلّـــهُ مـــن أجـــلِ إيثارهـــا غـــمٌ
جعلتـــكَ مـــرمَى همّـــتي ومُؤمّـــلاً
لنيـــلِ الـــتي ما هـــامَ في غيرهـــا هـــمٌ
وفَوّضْـــتُ رحلي عنْ بـــلادٍ نبـــا بهـــا
مهـــادي إلى حيـــثُ السّلامـــة والسّلْـــمُ
وما كنتُ أخشَى الجورَ في حكمِ جيـــرةٍ
أجرتهـــمْ فاعْتُـــدّ ذلـــك لي جـــــرمُ
أتيتهـــمْ بالصُّبـــحِ لكنهـــم عمُـــــوا
وآذنتهـــمْ بالنُّصـــحِ لكنهـــمْ صمـــوا
سأذكرهـــمْ حيـــثُ احتللـــتُ وإنْ نسُـــوا
وأمدحهـــمْ مهمـــا قـــدرتُ وإنْ ذمـــوا
وأنـــتَ لهـــا مـــنْ بغيـــةٍ مطلـــتْ بهـــا
صـــروفُ زمانٍ نالَ أنْـــفي لهـــا رغـــمُ
إلى أنِ اقّـــضَى في منى الفوزِ بالمـــنَى
ويثبـــت في أهـــل السّعـــادة لي سهـــمُ

فيــا مَــنْ رآني والحــداة مرنّــــــة
بشعــري إذا ما زمزمَ القــومُ أو زمــوا
تخــبّ بــرحــلي كلّ شاكيــة الــوَجَى
هِيَ القــوسُ ترمي الرّكن راكبها سهــمُ
حمتها النّوى قرب القضيــمِ أو النّــوَى
فلــمْ تبــقَ إلاّ جلــدة تحتهــا عظــمُ
وقدْ حــطّ كــوري في جــوارِ مثابــةٍ
بهــا تُكتــبُ الزّلــفَى ويُغتفَــرُ الإثــمُ
وكــانَ بحــجٍّ البيــتِ بــدْءي وبعــدهُ
بقصــدِ رســول الله يســر لي ختــمُ
ولــمْ لا ينــالُ السّــؤل عنــدكَ قاصــدٌ
ومثلــكَ من لــم يخــطِ قاصــدُهُ غنــمُ
فــلا زلــتَ في عــزٍّ منيــعٍ جنابــــهُ
مطــلّ عــلى الأيّــام منكبــه الضّخــمُ
لذكــركَ في الآنــافِ عــرفٌ مــؤرجٌ
كما أنتشــق الرّيحــان والــرّاح مشتــمُّ
ومثــواكَ مقصــودٌ وحبّــكَ طاعــةٌ
وأمــرٌ على الأعيــانِ مفتــرض حتــمُ
أعــدتَ عــلى الأيّــام رونــقَ بشرهــا
ومنظرهــا بــادي الكآبــة مغتــمُّ

وصــــارتْ ليالي الدَّهر غــراً وجوهـهــا
ونـاصعــــة أوضـاعهـــا وهي الدّهــمُ

فَـــدُمْ ما بدَا صبـــحٌ ودُمْ مـــا دَجَى دُجَى
ودُمْ ما هَـــمَى غيـــثٌ ودُمْ ما بدَا نجـــمُ

قلـــت: وفي غـــرة شهـــر ربيـــع الأول؛ كـــان قـــدومي عـــلى بابـــه الكريـــم؛ معترفـــاً بالذنـــب، متبرئـــاً مـــن الإصـــرار، مستقيـــلا العثـــار، لـــم أقـــدم إليـــه شافعـــاً غيـــر حـــبي فيـــه، ولا عرفـــت إليـــه وسيلـــة ســـوى إحسانـــه السابـــق إلي، ولقيتـــه بالوجـــه الـــذي ألـــقى بـــه غافـــر الـــزلاّت، وقابـــل التّـــوب، **((يَـــوْمَ لاَ يَنْفَـــعُ مَـــالٌ وَلاَ بَنُـــونَ، إلاَّ مَـــنْ أتَى اللهَ بِقَلْـــبٍ سَلِيـــمٍ))**[1]. فعفـــا ــ نصـــره الله وخلـــد ملكـــه ــ وأصلـــح، وجبـــر، و نـــوّه، و تجـــاوز عـــن الفـــرط؛ فضـــلاً لا يليـــق إلاَّ بـــه، ومجـــداً قـــلّ أن يعـــرف مـــن ســـواه؛ أوزعـــني الله شكـــر نعمائـــه. ثـــم أخـــذ ــ أخـــذ الله بيـــده عنـــد الفـــزع الأكبـــر ــ بالضبـــع، واستـــردّ الخطـــة، وأعـــاد ــ كمـــا كانـــت ــ الجرايـــة. فالحمـــد لله الـــذي لـــم يقـــض المنيـــة حـــتى بلغـــت مـــن رضـــاه الأمنيـــة، وتبحبحـــت ببابـــه الكريـــم في العيشـــة الهنيـــة؛ دامـــت أيامـــه،

[1] ســـورة الشعـــراء، الآيتـــان: 87 ــ 88.

وأعلى مقامه، وانقاد برسن اقتراحه أمله ومرامه؛ إن شاء الله.

رجع التاريخ: في ثالث يوم ورودي على بابه الكريم استركب ـ نصره الله ـ ولده المولى الأمير الأعلى **أبا تاشفين** أعزه الله؛ ليلاً في خفاء من الناس؛ لارتياد منزل يكاثب معقل أشقياء **مغراوة**؛ كي ينزله نصره الله للإضاقة عليهم؛ وأصبح أعزه الله بسفح جبلهم؛ فلمّا بصروا به أشرفوا إشراف الوعول من صياصيهم؛ شاخصة أبصارهم؛ قد قذف الله في قلوبهم الرّعب؛ فطارت إليهم مناسر أبطاله الشجعان، وناشبوهم الحرب فكسحوهم، ثم ركبوا عليهم الذّرى كالفتخ الكواسر؛ فيا سرعان ما ملكوا ذلك المعقل، واحتازوا حلل تلك الشياطين؛ بما ضمته من مال وحرم، وتفرقوا أيدي سبا؛ فاعتمد كبيرهم ـ **علي بن هارون** ـ **بجاية**؛ فركب بحرها إلى **المغرب**، وراح المولى **أبو تاشفين** أعزه الله ليلاً؛ إلى باب مولانا أمير المسلمين أيده الله بالنصر العزيز، والفتح المبين؛ ويا بردها على كبدي؛ فلقد كان أول إنشاءاتي ببابه العلي كتاب هذا الفتح. وغدا خبرهم على **أبي زيان**، **وحصينه**، **وثعالبته**؛ فضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وتنادوا مؤتمرين.

وصرف الخليفة ـ نصره الله ـ وجه القصد؛ لمحو ضلالهم؛ فلم يجدوا بداً من الانقياد إلى طاعته، واستقالته عثراتهم فأتته رسلهم بالخنوع والانقياد، ورغب **أبو زيان** ـ من مقامه العلي ـ صلة رحمه بإحسان يترمقه؛ في سبيل حجّه؛ فقابل ذلك ـ نصره الله ـ منهم بالقبول، وإجابة الداعي. وصرف الشيخ **أبا عبد الله محمد بن عريف بن يحي السويدي**؛ أنصح عربه الآن إليه بما سأله **أبو زيان**؛ ليصرفه إلى قصده، ويؤمن كل خائف من البوادي الشرقية والحواضر؛ فتمّ ذلك بحسب المنى والاقتراح، وعاد المذكور إلى الباب العلي بأشياخ: **حصين، والثعالبة**، وأعيان حضر **الجزائر والمدية**؛ مقرّين بخطاياهم، مستغفرين لذنوبهم؛ فتلقاهم أيده الله بالرّضَى والبشر، وخفض لهم جناح الغفران والأمن، وصرف الجميع بقرة العيون، وشفاء الصدور.

لا زالت أيّامه مظاهر فخر، ومقامه محل كمال؛ إن شاء الله. ثمّ عين ـ نصره الله ـ لكور بلاده الشرقية القواد والعمال، وحدّد بها الحدود، ورتّب الألقاب، ومهّد الأرجاء، وأمّن السبل، وأعاد الرعايا مواسم العدل، وأضحك فيهم مباسم الفضل. ونشر الأعلام إلى حضرته العلية؛ فدخلها يوم الأحد

الثاني والعشرين لجمادى الأولى؛ منصور البنود، ومؤيد الجنود؛ والحمد لله. وقد فاتت ليلة المولد الكريم؛ فأرسل لحينه الشيخ **أبا عمران موسى بن خالد بن محمد** إلى ملك **المغرب**؛ السلطان **أبي العباس أحمد ابن السلطان أبي سالم ابن السلطان أبي الحسن**؛ لتجديد عهد المصادقة، وتثبيت عقد السلم؛ فتكمل ذلك، وعاد المذكور إلى الحضرة في الثاني والعشرين من شعبان المكرم.

وفي شهر رجب الفرد؛ حذق ولده المولى الأسعد **أبو زيان محمد** ــ أسعده الله تعالى ــ سورة البقرة؛ فأقام نصره الله لسروره مدعًى كريماً، وعرساً حافلاً؛ جمعت فيه: الأشراف، والمشروف، والرفيع والوضيع؛ ونودي في أرباب الغناء والعزف، والطبرخانات والكريج [1] وغيرهم بالمدينة؛ حاشرين فأجمعوا بمشوار داره الكريمة؛ يروقون الأبصار، ويبهجون الأسماع؛ واستتاب أيده الله للحضور؛ ولده الأمير الأعلى **أبا تاشفين** أبقاه الله؛ وجئ بخوانات الطّعام العديدة؛ من كلّ ما حلا في الفم، وحليَ في

[1] الصحيح: طبلخانة أو (طبول خانة): وهي الفرقة الموسيقية المتكونة من مجموعة طبول (طنبور) وآلات نفخ. والكريج: آلة موسيقية.

العين؛ فطعم النّاس، وحمدوا الله تعالى على ما منح مولاهم؛ من قرّة العين؛ في النفس، والمال، والبنين؛ خلد الله سلطانه، وأسعد الكريم زمانه، ورفع ـ يومئذ ـ **محمد بن يوسف القيسي الأندلسي** قصيدة؛ هي قوله:

الطويل:

تهلّل وجهُ الأرض وابتسم الزّهرُ
وغارتْ به في أفقها الأنْجمُ الزهرُ
وضاحكتِ الأرض السّماء مسرّة
وقابلها منْ كلّ ريحانة ثغرُ
ومالتْ قدودُ القضبِ زهواً كأنّها
نشاوَى تمشّتْ في معاطفها الخمرُ
وغنَّت قيانُ الورق خلفَ ستورها
وللورق إنْ غنَّت بأوراقها سترُ
أجدت سروراً في صنيع خليفة
أتاحتْ له الأقدارُ ما يقتضي القدرُ
لمولاي موسى أبدتِ الأرض زينة
فتوّجها زهرٌ ووشّحها نهرُ
وقد رفلتْ في حلّة سندسيّة
وشاّها الصّبا ودبَّجها القطرُ

فاللـــرّوض إيـــراق بنائلـــه الــــذي
غدا الـــرّوض منه وهو فينان مخضـــرُّ
وللزّهـــر أشـــواق بمحفلـــه الـــذي
غدا الدّهـــر منه وهـــو جـــذلان مفتـــر
ولله مـــن يـــوم أغـــرّ محجّـــــل
وأيـــام مولانـــا محجّلـــة غــــــرٌّ
به الحســـنُ والحســـنَى جميعـــاً تجمّعَـــا
تلاقـــتْ به البشـــرى وراق بـــه البشـــرُ
وقـــد ســـرّ أبنـــاء الملـــوك بأنسهـــم
وناهيـــكَ منْ أنـــسِ الملـــوك إذا ســـرُّوا
أشمـــس الهدَى أطلَعْتِ في أفق العـــلَى
نجومـــاً وليّ العهـــد بينهـــمُ البـــدرُ
أبـــو تاشفيـــن سيـــف دولتـــكَ الـــذي
بـــه تفخـــر العليـــاء أو يعتـــلي الفخـــرُ
له السّـــؤددُ المأثـــورُ والمجـــدُ والعـــلاَ
له الكـــرمُ المشهـــورُ والنّائـــلُ الغمـــرُ
أميـــرُ رِضَى أرْضَى الخلافـــة أمـــره
فقدْ فـــازَ بالرّضـــوانِ ممَّـــنْ له الأمـــرُ
تـــلاه أخـــوه في عـــلاه وإنَّـــــه
لمنتصـــرٌ بالله عـــزّ بـــه النّصـــرُ

وإنَّ أبـــا زيّـــان زيـــنٌ لذاتـــــهِ
زكـــا منه نجلٌ حيـــنَ طـــاب له نجـــرُ
وقـــدْ حـــذقَ القـــرءانَ حِـــذْقَ مُجَـــوِّدٍ
فأشـــرقَ منهُ القلبُ وانْشـــرحَ الصَّـــدرُ
وهشَّـــتْ لـــهُ الجـــوزاءُ تخـــدمُ حفلـــهِ
وقد شدَّ منْ عقدِ النّطـــاقِ لهـــا خصـــرُ
ويتلـــو كتـــابَ اللهِ واللهُ حافـــظ
لتـــالي كتـــاب اللهِ مـــا حُفِـــظَ الذّكـــرُ
وقـــرّة عيـــنِ المجـــدِ يوســـف صِنـــوهُ
بِهَدْيِهِمَـــا العليـــاءُ شـــدّ لهـــا أزرُ
وكوكـــبُ أفقِ السَّعـــدِ خامسهـــمْ أبـــو
عَـــلي عـــلاَ في المعلـــواتِ لـــه قـــدرُ
وناصرهـــمْ يتلـــوهُ عُثمـــان واقتـــدَى
بفـــارس عبـــد الله فانتظـــمَ الـــدُّرُّ
فيـــا ملكـــاً فاضـــتْ أشِعَّـــةُ نـــورهِ
فأشـــرقَ منهـــا لِلْعـــلَى أنجـــمٌ زهـــرُ
لِيُهنِّئْـــكَ أبنـــاءٌ بنيـــت بهديهـــم
مـــن الدّيـــن أركانـــاً يهـــدّ بها الكفـــرُ
بهـــمْ تـــزدهَى الأعلامُ والبيضُ والقنـــا
كما ازدهتِ الأقْـــلامُ واللَّـــوحُ والحبـــرُ

فمـــا مِنهُــــمُ إلاَّ أميــــرٌ مؤيــــدُ

ومـــا منهُــمُ إلاَّ رضى ماجــدٍ بَــرُّ

جمعتــمْ لدَى القصريــنِ كـلّ فضيلــةٍ

سمـــا لكــمْ في الخافقيــنِ بهــا ذكــرُ

مآثــرُ شــتَّى مِــنْ قِــرَى وقِــراءَةٍ

تضمّــن منــهُ كــلّ مأثــرة قصــرُ

فَمِنْ صدقــاتٍ غارَ منْ جودهــا الحيــا

وفيض هباتٍ غاضَ في جودهــا البحــرُ

دعوتــمْ إليهــا كــلّ بــادٍ وحاضــرٍ

فلبَّــوْا كــأنَّ النّــاسَ ضمَّهــمُ الحشــرُ

كــأنّ الثّريّــا نحوكــمْ مــدَّ كفَّهــــا

فمِــنْ نَيْلكــمْ في كفّهــا ورق وفــرُ

كــذا تُبتَــنَى العليــا ويُذخــرُ الثَّنــا

وتُكتســـبُ الزُّلــفَى ويُغتنــمُ الأجــرُ

مكـــارمٌ لا تنفــكُّ تَــزْدادُ جِــــدَّةً

على الدَّهر لا تُبــلَى وإنْ بُــلِيَ الدَّهْــرُ

فدامــتْ بــكَ الأيَّــام تُظهِــرُ حُسنَهــا

فيحسنُ في أوصافهــا النَّظــمُ والنَّثــرُ

ودونــكَ منْ دُرِّ الــدَّراري قوافيهــا

فيـــا مَنْ رأى الشّعرَى ينظّمهــا الشّعــرُ

قـوافٍ قفتْ أثـرَ النُّجـومِ مناهجـاً
فليـسَ بِمقْـفِيٍّ لهـا أبـداً أثـرُ
ومـا هيَ إلاَّ بِكـرُ فِكْـرٍ تَبَرَّجَـتْ
وفي لفظهـا دُرٌّ وفي لحظهـا سحـرُ
مخبـرة مـنْ قـال مُستخبـراً لهـا
سَـلِي هـلْ لديهـا مِنْ مخبـرةٍ ذكـرُ

وفي منسلـخ شعبـان المكـرم؛ صـدر أمـره الكريـم؛ باستتابـة ولـده ـ المـولى الأعـلى ـ **أبي تاشفيـن** أعـزه الله؛ وقصـر النظـر في الملـك عليـه، وإطـلاق يـده علـى السّيـف والقلـم، والخـراج والحكـم. وكتـب بذلـك صـكٌّ كريـمٌ؛ فامتنـع المـولى **أبـو تاشفيـن** ـ أنجـح الله مقاصـده ـ مـن قبـول ذلـك؛ بـروراً بمـولاه، واستنكافـاً مـن التَّقـدم بيـن يديـه، وتفويـت عقـد أو حـلّ عليـه. فأحضـره ـ نصـره الله ـ بيـن يديـه، وعاتبـه في ذلـك، وألـقى إليـه بمقاليـد الخلافـة؛ فغـض الحيـاء مـن بصـره، وأخـذت الهيبـة بمجامـع قلبـه؛ فمـا نبـس ببنـت شفـة وانصـرف؛ فأمـر لحينـه بإنعـال مراكبـه؛ وأزمـع الانتبـاذ إلى بعـض الزّوايـا، والأفحـاص؛ إلى جانـب مـن الباديـة؛ تخلصـاً مـن ذلـك؛ فرفـع عنـه الحـرج، وأقالـه ممـا ندبـه إليـه. وأنـت تـرى ـ أعـزك الله ـ فضـل هـذا

الخليفة خلد الله ملكه، وبرّ ولده واعتماده السبيل الأقوم من طاعته؛ دليل شرف وضاح ونور كمال لياح؛ خلد الله ملكهم، وأبقى عزهم، وضاعف معارج كمالهم.

وفي ثاني شهر رمضان المعظم؛ ورد الخبر بأنّ **يحيى بن عمر العجيسي**؛ قدم وطن **زواوة**؛ وبحله خدع **حمزة بن عمر المطهري**؛ كبير قواد مولانا أمير المسلمين أيده الله هنالك؛ بطلبه اجتماعهما عند صالح ذلك القطر؛ ليتقاسما على المصادقة، والكدح في خدمة الخليفة نصره الله؛ فأجابه إلى ذلك، واتّفق إنْ مرّ **حمزة** بأبيات **يحيى** المذكور؛ فأقسم لينزلن؛ موريا بقِراه، وتفرق أصحابه بالأبيات، فركب **يحيى** فرس **حمزة**، وصاح بعبدانه: اقتلوه؛ فاعتورت **حمزة** السكاكين؛ وسط البيت؛ فردتها عن أديمه ذرع كان تدثرها حزماً؛ وخرج فاراً عن البيت، ثم اعروروا فرساً هائماً بساح البيوت ونجا؛ فاتبعه يحيى المذكور بعد أنْ ناوله أحد خدّامه رمحاً فكرّ به على يحيى ـ الغادر المذكور ـ فضربه فأشواه؛ فاحتضن تليل فرسه عاجزاً عن المدافعة؛ والفرس كما قلناه **لحمزة**؛ فركب به رأسه إلى خيام

مولاه؛ إلى أن وقف بفنائها؛ فثار به النّساء؛ فأجهزن عليه، ورد الله كيد الغادر في نحره.

سعادة لأمير المسلمين أيده الله واضحة الدليل، وعناية من الله تعالى ـ بأمره الكريم ـ غريبة الأثر. و **((الله لاَ يَهْدِي كَيْدَ الخَائِنِينَ))**[1]. وفي تاسع رمضان المعظم؛ وصلت إلى بابه العلي بيعة مدينة **تدلس**؛ دخلها قواده الأنجاد عنوة؛ في اليومِ السّادس والعشرين من شهر شعبان؛ فشمل أهلها الصّفح والأمان، وعفا عن قائدٍ للموحدين كان بها؛ فرفع لمقامه العلي ـ في غرض الهناء بها ـ الفقيه الكاتب **أبو الفضل ابن الشيخ الفقيه العدل أبي عبد الله محمد ابن علي العصامي**؛ أحد كتاب الإنشاء ببابه العلي؛ قطعة حسنة؛ هي قوله:

الكامل:

بُشرّى كمُنبَلج الصّباح المُسفرِ
أو كالصّبا جاءتْ بريّا العنبرِ
حيّاك عاطر نشرها فكأنّها
دارين أهدتْ طيبَ مسكٍ أذفرِ

---

[1] الآية كاملة هكذا: ((ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الخَائِنِينَ)). سورة يوسف؛ الآية: 52.

جاءتـكَ تخبـرُ بالفتـوحِ كريمـة
أكـرِمْ بهـا مـنْ قـادمٍ ومبشّـرِ
وافـتْ بفتـحِ تدلّـس لـك مالـكي
فاهنـأ بِمُلْـكٍ بالفُتـوحِ مـؤزّرِ
فتدلّـس تَقْـضي بفتـحِ بجايـةٍ
فانهـضْ بعـزّك أو بسعـدك تظفـرِ
واكْـرعْ بواديهـا وجُـلْ ببديعهـا
وربيعهـا الـزّاهي بـذاك المنظـرِ
وافـرعْ معاقلهـا وجسْ بخلالهـا
فالله يمنحهـا بأمـرِ أيسـرِ
لا زلـت ذا سعـد جديـد ترتـقي
أوج الكمـالِ علـى تـوالي الأعصـرِ
وبقيـت في العـزّ المكيـن مؤيـداً
مهمـا سـرتْ نفحـاتُ روضٍ مزهـرِ

ورفـع أيضـاً في ذلـك أحـد الكتـاب؛ وهـو **محمـد بـن علـي ابـن قاسـم المـرسي**[1] قولـه:

---

[1] لـم نعـرف عنـه أكثـر ممـا ذكـر.

الكامـــل:

مـــولَى الملـــوكِ وواحـــد الخلفـــاءِ
ومقـــرّ كـــلّ مجـــادة وعــــلاءِ

ومنـــوّل العافيـــنَ مـــا لـــم يحـــوهِ
فكـــرٌ ولا لمحتـــه عيـــنُ الـــرّائي

لله في تكييـــفِ أمـــرك حكمـــة
بهـــرتْ شواهدهـــا وسِـــرُّ سمـــاءِ

حكمـــت بتسويـــغ السّعـــادة والمـــنَى
وقضـــتْ لعزّكـــم بنصـــرِ لـــواءِ

فشـــأوتَ أمـــلاكِ الزّمـــان بأسرهـــمْ
شـــأواً علـــوتَ بـــه عَـــنِ النُّظـــراءِ

وغـــدوتَ أحرزهـــمْ لأسبـــابِ العـــلاَ
طـــراً وأحوزهـــمْ لطيـــبِ ثنـــاءِ

فليهنئـــكِ الفتـــح الـــذي عذبـــتْ بـــهِ
بيـــنَ الأنـــامِ مـــوارد السّـــراءِ

فالله يجعلـــه بدايـــة أنعـــــم
خُوّلْتَهـــا مـــن واهـــبِ النُّعمـــاءِ

مولايَ يا كهـــفَ العفـــاةِ وواهـــب الـــ
ـــنعمـــا ومســـرح ألســـن الشّعـــراءِ

أجْنَيْتَـــنِي ثمـــر الأمـــاني دانيـــاً
فجـــزاكَ عـــنّي الله خيـــرَ جـــزاءِ

ورفـــع محمـــد بـــن يوســـف القيـــسي الأندلـــسي قولـــه:[1]

الخفيـــف:

أيُّهَـــا الحَافِظـــونَ عَهْـــدَ الـــودادِ
جَـــدِّدوا أُنْسَنَـــا بِبَـــابِ الجِيَّـــادِ[2]

وصِلُوهَـــا أصائِـــلاً بِلَيـــالٍ
كـــلآلٍ نُظِمْـــنَ في الأجْيـــادِ

في رياضٍ مُنَضَّـــداتِ المجـــاني
بيـــنَ تِلْـــكَ الرُّبَيـــا وتِلْـــكَ الوهـــادِ

وبُـــروجٍ مُشَيَّـــدَاتِ المَبـــاني
باديَـــاتِ السَّنَـــا كَشُهْـــبٍ بَـــوَادِ

رَقَّ فيهـــا النَّسيـــمُ[3] مثلَ نَسيـــبي
وصَفَـــا النَّهرُ مثلَ صفـــوِ ودادِي

[1] وردت هـذه القصيـدة في: بغيـة الـرواد، ونفـح الطيـب وأزهـار الريـاض.

[2] بـاب الجيـاد: يقـع في الجهـة الشرقيـة مـن المشـور؛ ويربـط بينـه وبيـن أغاديـر والمشـور.

[3] في نفـح الطيـب: ((النَّسيـبُ))؛ومـا جـاء في بغيـة الـرواد وأزهـار الريـاض أفضـل.

وزهَــا الزّهْــرُ والغُصونُ تثَنَّــتْ

وتَغَنَّــتْ عَلَيْــهِ وُرْقٌ شَــوادِ

وانبــرَى كــلُّ جــدولٍ كحُســامٍ

عــارِيَ الغِمدِ سُنــدُسيَّ النِّجــادِ

وظِــلالُ الغُصونِ تَكتــبُ فيــهِ

أحْرُفــاً سُطِّــرَتْ بِغَيــرِ مــدادِ

تُنْكِــرُ الوَشْمَ في مَعاصِمِ خَــوْدٍ

قُضُــبٌ[1] فوقَــهُ ذواتُ امتــدادِ

وكُئُــوسُ المُــنَى تُــدارُ عَلَينــا

بجَــنَى عِفَّــةٍ وثِقْــل[2] اعتقــادِ

واصفــرارُ الأصيــلِ فيها مُــدامٌ

وصفيــرُ الطُّيــورِ نغمــةُ شــادِ

كمْ غَدَوْنَــا بهــا لأنْــسٍ ورُحْنــا

جادهــا رائِــحٌ من المُزنِ غــادِ

ولَكَمْ رَوْحَــةٍ على الدَّوْحِ كــادتْ

أنْ تُرِيــحَ الصَّبَــا لنا وَهْوَ غــادِ

رَقَّتِ الشَّمسُ في عَشايــاهُ حَــتَّى

حَدَثَــتْ[1] منــه رِقَّــةٌ في الجَمــادِ

---

[1] هــذا مــا جـاء أيضــاً في أزهــار الريــاض. أمــا في نفــح الطيــب فكتــب: ((نصبــتْ)).

[2] في نفــح الطيــب، وأزهــار الريــاض: ((ونَقْــلِ)).

جَدَّدَتْ بِالغُروبِ شَجْوَ غَريب

هاجَهُ الشَّوْقُ بعدَ طولِ البعادِ

يا حَيَا المُزنِ حَيِّهَا مِنْ عراصٍ[2]

غَرَسَ الحُبُّ غَرْسَها في فؤادي

وتعاهَدْ معاهِدَ الأنسِ مِنْها

وعهودَ الصِّبا بِصَوْبِ العِهادِ

حيثُ مَغْنَى الهَوَى ومَلْهَى الغواني

ومَرَادُ المُنَى ونَيلُ المُرادِ

ومقَرُّ العُلاَ ومَرْقَى الأماني

ومَجَرُّ القنَا ومَجْرَى الجيادِ

كُلُّ حُسْنٍ على تِلِمْسانَ وقْفٌ

وخُصوصاً على رُبَى العبَّادِ

ضَحِكَ النُّورُ في رُباها وأرْبَى

كهفُ ضَحَّاكِها على كلِّ نادِ

وسَما تاجُها على كلِّ تاجٍ

وصَطَفْطيفها على كلّ وادِ[3]

---

[1] نفسه: ((أحدثتْ)).

[2] نفسه: ((من بلادٍ)).

[3] كتب هذا الشطر في نفح الطيب هكذا: ((ونَما وهْدُها على كُلّ وادي)). وفي أزهار الرياض: ((وسَطا سَيْفُها على كلّ وادي)).

يَـدَّعِي غَيْرُها الجمالَ فيقـضي

حسنُهـا أنَّ تِلْـكَ دَعْـوَى زيـادِ

وبِشِعْـري فهِمْتُ مَعْـنَى عُلاهـا

مِـنْ حِلاَهـا فَهِمْـتُ في كلّ وادِ

حَضْـرَةٌ زانها الخليفـةُ مـوسَى

زِينَـةَ الحَـلْيِ عاطِـلَ الأجْيـادِ

وحَبَاهـا بكـلِّ بَـذْلٍ وعَـدْلٍ

وحَمَاهـا مِنْ كـلِّ بـاغٍ وعـادِ

ملكٌ جـاوز المَدَى في المعـالي

فالنِّهايـاتُ عنـدهُ كالمَبـادِي

مَعْقِـلٌ للهدَى منيـعُ النّـواصي[1]

مَظْهَـرٌ للعُـلاَ رفيـعُ العمـادِ

قاتِـلُ المَحْلِ والأعـادي جميعـاً

بغِـرارِ الظُّبـا وغُـرِّ الأيـادِي

كلّما ضَنَّـتِ السّحائِـبُ أغْنَـتْ

راحتـاهُ عنِ السَّحـابِ الغَـوادي

كـمْ هِبـاتٍ لهُ وكـمْ صَدَقـاتٍ

عائـداتٍ عـلى العُفـاةِ بَـوادِ

---

[1] في نفـح الطيـب، وأزهـار الريـاض: ((منيـعُ النّـواحي)).

فأيَــادِي خليفــةِ اللهِ مُــــوسَى
أبْحُــرٌ عَذْبَــةٌ عــلى الـــوُرَّادِ
رُكِّــبَ الجُود في بَسيــطِ يَدَيْــهِ
فتَــلافَى بــهِ تِــلافَ العِبـــادِ
جَــلَّ باريـــهِ مَلْجَــأً لِلْبَرايــــا
كالحَيـــا ضامِنــاً حَيــاةَ البـــلادِ
جــلَّ مَنْ خَصَّــهُ بتِلــكَ المَزَايَــا
باهِــراتٍ مِــنْ طــارِفٍ وتِــلادِ
شِيَــمٌ حُلْــوَةُ الجَــنَى وسَجايــا
شهِــدَ[1] المجــدُ أنَّهــا كالشِّهـــادِ
يا إمامَ الهُــدَى وشَمْسَ المَعــالي
وغَمــامَ النَّــدَى وبَــدْرَ النَّـــادي[2]
لَــكَ بَيْــنَ المُلــوكِ سِــرٌّ خَــفيٌّ
ليــسَ مَعْنــاهُ لِلْعقــولِ ببـــادِ
فكَــأنَّ البـــلادَ كَفُّــكَ مَهْمـــا
كـــان فيهـــا مـــن يَنْتَــمي لعنــادِ[3]
قَبَضَــتْ كفُّــكَ البَنـــانَ عَلَيْـــهِ
فـــأتَى بالإذعـــانِ والانقيـــادِ[1]

---

[1] في أزهـــار الريـــاض: ((يَشْهَــدُ)).
[2] نفســـه: ((النَّـــوادي)).
[3] نفســـه: ((للعبـــاد)).

بكـمُ[2] تصلـحُ البـلادُ جميعـاً

إنّ آراءَكُـمْ صَـلاحُ البِـــلادِ

لَـمْ تَـزلْ دائمـاً تحِـنُّ إليكـمْ

كحَنيـنِ السَّقيـمِ للعُـوَّادِ

لـوْ أُعينـتْ بمنطـقٍ شكرتكـم

مثـلَ شُكـرِ العُفـاةِ للأجـوادِ

قـدْ أطاعَتْكُـمُ البِـلادُ جَميعـاً

طاعـةً أرْغَمتْ أنوفَ الأعـادِي

فأريحُـوا الجِيـادَ أتْعَبْتُموهَـا

وأقِـرُّوا السُّيـوفَ في الأغمـادِ

واهْنَئُـوا الخالدينَ[3] في عِـزِّ ملكٍ

قائـمِ السّعـدِ دائِـمِ الإسْعـادِ

وإليكُـمْ منْ مُذْهَبـاتِ القَـوَافي

حِكَمـاً سهلـةً[4] ليـانَ المغـادِ

كُـلُّ بَيْـتٍ مِنَ النِّظـامِ مَشِيـدٍ

عَطَّـرَ الأفْـقَ بالثّنـاءِ المُشَـادِ[1]

---

[1] جـاء هـذا الشطـر في نفـح الطيـب.هكـذا: ((فـأتى بالإذعـانِ خِلْـفَ انقيـاد)). أمـا لأزهـار الريـاض فجـاء الشطـر هكـذا: ((فاتثـنى بالإذعـان خِلْـف انقيـاد)).

[2] في أزهـار الريـاض: ((وبكـم)).

[3] في نفـح الطيـب، وأزهـار الريـاض: ((خالديـن))؛ وهـو أسلـم.

[4] في نفـح الطيـب: ((سَهُلَـتْ)) بفتـح السيـن والهـاء. وفي أزهـار الريـاض: ((سُهِّلَـتْ)) بالضمـة فـوق السيـن، والكسـرة مـع التشديـد علـى الهـاء..

ذُو ابتسامٍ كَزَهرِ رَوْضٍ مَجُودٍ
وانْتِظَامٍ كَسِلْكِ دُرٍّ مُجَادِ

ووقع بين يديه الكريمتين ـ أيده الله ـ في شهر شوال؛ حديث في مفاخرة السّيف والقلم؛ فأدّعيت أخوتهما، وعدم اشتراكهما؛ محلا يتنازعانه؛ بلْ لكلّ منهما فخر يغاير فخر صاحبه؛ وأنهما متساعدان في تشييد مباني الملك؛ فأمر ـ نصره الله ـ بنظم هذا المعنى؛ فقلت:

الكامل:

بَيْنَ اليَراعِ ومُرْهفِ الأسيافِ
نَسبٌ حَمَتْهُ شَريعَةُ الإنْصافِ
خلق وكفّ الملكِ آدم نوعهِ
والنّوعُ مُنقسمٌ إلى الأصنافِ
أولا فصنْوًا دوحةِ الشَّرفِ اللذا
قد أدْنيا للفخرِ كلّ قطافِ
لانا مَهَزٌّ عُلًى وراقا منظراً
وتواخَيا في تالدٍ وطرافِ

---

[1] في نفح الطيب: ((المجاد)) وفي بغية الرواد أسلم.

وتناسَبَـا قصـراً وشَفَّـا جوهـراً
وتماثـلاً في البَـرْيِ والإرْهـافِ
وتألفَـا خُبْـراً وبانـا مخبـراً
كالمـاءِ تمزجـهُ بصَفْـوِ سُـلاَفِ
رَفَعَـا سمـاءَ المُلـكِ فـوقَ بَسيطَـةِ
ليـرى السّياسـة رحْبَـة الأكنـافِ
وتقاسَمـا زمنيـة مـن حـرب ومـن[1]
سلـمٍ ومـا اشْتَركـا مَحـلّ خـلافِ
هـذا يَصـولُ وذا يَقـولُ فهَـلْ لمـا
خرَقـاهُ مِـنْ قَـوْلٍ وفِعْـلٍ راف
فامتـازَ كـلٌّ مِنْهُمـا بِمَحامِـدٍ
واحْتـازَ فَضْـلاً ليـسَ فيـهِ بخـافِ
فالسَّيْـفُ يَنْطِقُ صامِتِ الأمـنِ الـذي
يُـرْجَى ويَصْمـتُ ناطـقُ الإرجـاف
والسَّيْـفُ إنْ يصلتْ مَحا ظُلْـمَ العِـدا
كالصُّبـحِ يَجْلـو اللَّيْلَ حيـنَ يُـوافي
والسَّيـفُ تَـمَّ بِجِنْسِـهِ وبِفَصْلِـهِ
حـدّ الشّرائـع واضْمَحَـلَّ النّـافي

[1] هـذا الشطـر غيـر مستقيـم.

والسَّيـفُ مدَّ لِنَصْـرِ أحْـزابِ الهُـدَى
كَفـا تَـلافى الحَـقّ بعـدَ تـلافِ
والسَّيْـفُ قَبْـلُ أعَـزّ أمَّـةَ أحْمَـد
وأذَلَّ أمَّـةَ نابـلٍ وأسـافِ
والسَّيـفُ مَـازَ مَناصِبَ العلْيـا وكـمْ
في ظِلِّـهِ مِـنْ جنَّـةٍ ألفـافِ
شَـرَفٌ بِمُنْتـجِ ضربـه وبِفضْلِـهِ
صدَقَـتْ قَضايـا المُلْـكِ دُونَ خِـلافِ
ومِـنَ اليَـراعِ لـهُ أخٌ بجدالـه
قـدْ شـدّ أزْرَ جـلادِهِ المُكْتـافي
غَـوَّاصُ بَحْـرِ للـدَّوَاةِ إذا انْثَـنَى
لَقَـطَ الجَواهِـرَ مِنْـهُ في أصْنـافِ
كالزَّهْـرِ أوْ كالسِّلْـكِ في نَثْـرٍ وفى
نَظْـمٍ بأسْجـاعٍ وغُـرّ قَـوافِ
قلـمٌ بـهِ الرَّحْمـانُ أقْسَـمَ عِنْدَمَـا
خَـطَّ الكيَـانَ بِنُونِـهِ والكَـافِ
قلـمٌ بـإذنِ اللهِ يَكْتُـبُ وَحْيَـهُ
ويبيـنُ منـهُ كـلّ سِـرٌ خـافِ
وبـهِ أحاديـثُ الرّسالـةِ والهُـدَى
تُـرْوَى عَـنِ الأسْـلافِ لِلأخْـلافِ

والعِلْـــمُ والآدابُ والحِكَـــمُ الـتي
بَهَـرَتْ بـــهِ ظَهَـرَتْ بِنَـصٍّ شـافِ

وبـــهِ الحِســـابُ غَـدَتْ مَراتِـبُ أسِّـهِ
مَبْـنى قَواعِـد شِرْعَـة الإنْصـــافِ

وبـــهِ حَديـث الأوليـنَ تَقُصُّـــهُ
في الآخريـــنَ صَحائـــفُ الآلافِ

مـا تُبَّــعٌ في حِمْيَــرٍ مــا قَيْصَــرٌ
في الــرُّومِ مـــا سابُــور ذُو الأكْتــافِ

ما القِبْــطُ ما فِرْعَوْنُهَا ما الفُــرْسُ مـــا
كِسْــرَى ومـــا خاقـانُ ذُو الأسْيــافِ

ما جُرْهُــمٌ وجَديــسُ ما طَسْـم ومـــا
قَحطـانُ أو عَدْنـانُ في الأسْـــلافِ

مَنْ هـمْ بنو مَـرْوان يوماً أو بنو الـ
ـعَبَّـاس في أقْيـالِ عبـدِ مَنـافِ

ومَنِ الْعَباهِــلُ والقُــرومُ ومَنْ هُـمُ الـ
ـأذواءُ والأبـواءُ في الأشـــرافِ

ذهبــت بهـم أيـدي المنـا وتخلّفـوا
هــذي الدّنـا رغمـاً علـى الآنـافِ

ومَضَـوْا ومـــا كنّـا لِنَسمــعَ ذكرهـمْ
لـولاَ شبـاة يراعـةِ العـــرّافِ

لـــمْ يبــقَ إلاّ ذكــر عمــراً خالــداً
ولهــم بمـــا عملــوا الجــزاء الـــوافي
عَهــدي بحيّهــمُ الحلـــوف وأهلـــه
عهــدي بأيّــام الشّبـــاب العـــــافي
دار الهــوَى جادتــك أخـــلاف الحيــا
مـــن مربــعٍ أقـــوى ومــنْ مصطـــافِ
كــمْ في عراصـــكَ للصّبــا من ملعـــبٍ
حـــالٌ عهدنـــاهُ وورْدٌ صــــافِ
يـــا طالمــــا قَضيْــت فيــهِ لياليـــا
وطــرّ الهــوَى والشّمــل في إيــلافِ
ما خِلــت أنْ تذْوَى غضـــارة عيشهـــا
حــتّى انقضــتْ والدّهــرُ ذو أخيـــافِ
فلئـــنْ نزحـــت فإنّـــني بـــكَ جائـــل
بالوهــمِ بيـــنَ مواقـــدٍ وأثـــافِ
مـــنْ لي بقلـــبٍ فيـــكَ قـــدْ أضللتـــهُ
بيـــنَ الغُصـــونِ الهيــفِ والأحقــافِ
ولَـــرُبّ ليـــلٍ بِـــتُّ فيـــهِ كأنّـــني
مِــنْ لاعــجِ البرحـــاءِ فـــوقَ أشـــافِ
أرْعَى كواكِبـــــهُ تمـــــورُ كأنّهـــــا
نـــورٌ عـــلى نَهْـــرِ الحديقـــةِ طـــافِ

والدَّمـعُ في خَـدّي تراهـنُ شقـره
سبـقَ المجـلّي والمصـلّي قـافِ
حضـأتْ بصـدْري جاحمـاً زَفراتـهُ
أرأيـتَ مقتـاداً خـلالَ سـوافِ
قدْ كنتُ أرجو الطَّيف يخطرُ في الكـرا
لـوْ أنّ جفنـاً مِـنْ مُحِـبٍّ غـافِ
يـا عـاذل المشتـاق قدْ بَـرِحَ الخفـا
عـنّي إليـكَ فلسـتُ ذا إسعـافِ
سلـبَ الفراقُ حشاشتي وسبَى الجـوَى
لُـبِّي فهـلْ لِصَبَابَـتِي مُتَـلافِ
أفْـدي فَـتى وَنِيَتْ خطاهُ عَنِ الهَـوَى
وأراهُ صفحـةَ معـرضٍ مُتَجـافِ
وسَمَـتْ بمطلبـهِ إلى أوْجِ العُـلا
هِمَـمٌ أحَلَّتْـهُ ذُرَى الأعـرافِ
يـا راكبـاً تخـدي بـه وجنـاؤهُ
كالرّيـحِ بيـنَ تنايـفٍ وفيـافِ
متطلبـاً شـأْوَ المكـارمِ والعُـلاَ
عَـرِّجْ عـلى أسبـاطِ عبـدِ منـافِ
واقصـدْ أبا حمو الرِّضى فهـو الـذي
دونَ الـورَى فيمـا تطالـبُ كـافِ

تَلْفَ المَعالي والعَوالي والنَّدَى
والدِّين والدُّنيا على أصنافِ

تَلْفَ السَّراوةَ والجَلالةَ والهُدَى
والعِلمَ والإيمانَ في إيلافِ

تَلْفَ الخلافةَ قبلةً مَحْجوجَةً
طافَ الورَى منها بخيرِ مطافِ

تَلْفَ المَفاخِرَ نيّرات شُهْبِها
والمجدُ ثوباً معلمَ الأطرافِ

تَلْفَ الكمالَ البخت والخلقَ الرّضى
والبِشْرَ مُقترناً بوعدٍ وافِ

ملكٌ أعارَ الرَّوْضَ طيبَ ثنائهِ
والصُّبحُ نورُ جبينهِ الشفّافِ

غمرَ الأنامَ مواهباً كالقطرِ إذْ
غمرَ الوِهادَ ومُرتقَى الأشرافِ

فبكلّ قطرٍ مِنْ صنائعِ جُودِهِ
حَفلٌ تروحُ إليهِ في الأضيافِ

إنْ صالَ طالَ الأُسْدَ أوْ بذلَ النَّدَى
بَذَّ الغمامَ بعارضٍ وكّافِ

يبدُو فتحسبهُ الكتائبُ هيْبَةً
للهِ فردٌ قيسَ بالآلافِ

مَنْ ذا يُضاهي في العُلاَ موسى الرّضى
مــولَى المُلــوكِ وسَيّـــد الأشْــرافِ
يــا طالِــبِي إدْرَاكَ شــأوَ كمالــــهِ
طاشَــتْ سِهامُكُــمُ عَــنِ الأهْـــدافِ
خَلّــوا لهُ طُــرقَ المَحامِــدِ وافسَحــوا
لِمُــــــدَرَّبٍ بِسُلوكِهــــا عَـــــرّافِ
جَمّـــاع نهْــب المَجــدِ منْ إرْثٍ ومــنْ
كسْــبٍ حــواهُ لمالــــــهِ مِتْـــــلافِ
مِــنْ آلِ زيّـــان الألَى رفعــوا علــى
عمــدِ الغــنَى للعــزّ أيّ طــــرافِ
نَهَجــوا سبيــلَ المعْلــواتِ وخَلّــدوا
شرفــاً علــى الأيّــامِ ليــسَ بعــافِ
وسعَــوْا لكســبِ الحمدِ بالهِمَــمِ العــلَى
وكَــذا تكــونُ خلائِــق الأشــرافِ
أخليفــةَ اللهِ الــذي فضّــلَ الــورَى
بالــذّاتِ والآبـــاءِ والأوصـــــــافِ
للهِ دولتُـــــــكَ الكريمـــــــة إنّهــــــا
زَيْــنُ الحيـــاةِ ومظهــرُ الألطــــــافِ
رفّــتْ علــى الأيّـــامِ روْض سياســـةٍ
رتَــعَ الــورَى منــهُ بظِــلٍّ ضــافِ

وكفــت عليــهِ للسّعــادةِ ديمـــــــة
فاختـــــالَ للإقبــــــالِ في افـــوافِ
كرمــتْ مجــاني العزّ فيهِ وقدْ جــرَتْ
جــوداً مجانيــهِ بعـــذبِ قطـــافِ
وتمايلـــتْ قُضــبُ الفتــوحِ بدوحــه
لنسيــمِ نَصــرٍ بينهـــا هَفّـــــافِ
كــمْ زَهــرَةً للفخــرِ يَعْبَــقُ طيبُهــا
فيــهِ وكَــمْ ثَمَــرٍ دَنــا لقطــافِ
قسمـــاً بمجْــدكَ وهــوَ خيــر أليــةٍ
آليْــتُ في مـــاضٍ وفي استئنــافِ
مـــا أنــــــتَ إلاّ آيــــةَ للهِ في
فُرْقانِهــا للنّـــاسِ سِـــرٌّ خـــافِ
وأنــا الــذي للعالميــنَ شَرَحتُهـــا
وأتَيــتُ عنهــا بالبَيــانِ الشّـــافي
وجمعـــتُ في تأليفِهــا لأُولِي النُّــهَى
عِبَــراً تُبيــنُ مَواقِــعَ الألْطـــافِ
وصدَعــتُ فيــهِ للكمــالِ بحجــةٍ
قامــتْ علــى الأسْـلافِ والأخْـلافِ
مــا الفخــرُ كــلّ الفخــرِ إلاّ مــا بــهِ
خلــدتَ مــنْ خبــرٍ بخُبْــرِكَ وافِ

لــمْ آل فيــهِ طــوعَ أمْــركَ غايــة
بــلْ طــرتُ مــلء قــوادمٍ وخــوافِ
مــولايَ خُذْهــا مِــنْ نتائــجِ فِكْـرَتي
بِكْــراً تُــزَفُّ لديــكَ أيَّ زفـــافِ
ألْبَسْتُهــا حُلَــلَ القَريـــضِ فَأقْلَــتْ
تختــالُ فــي حبراتــهِ الأقـــوافِ
وأطَبْتُهــا بخلــوق مدحــكَ فاغتــدَتْ
والعــرفُ منهــ فاغــمُ الآنــافِ
فُقْــتَ الملــوكَ ممادحــاً فشــأنْ بكــمْ
أمداحهــا فــي تالــدٍ وطـــــرافِ
لازلــتَ سلطــان البريـــةِ كلّهـــا
حــتّى القيامــة يــا جَمــآلِ العــــافِي

واشتملــت هــذه السنـــة ــ أجمــل الله ختمهـا ــ عــلى مجاعــة شديــدة؛ أكــل فيهــا بعــضُ النّــاس بعضــاً؛ لريــحٍ ذات إعصــار؛ أهلكــت زرع صائفتهــا وحيوانهــا. **((والله يحكــم لا معقــب لحكمــه))**[1]. فافتقــر النــاس إلى مــا عنــد الخليفــة ــ أعــلى الله مقامــه ــ فتصــدّق نصــره الله بنصــف جبايــة حضرتــه الكريمــة؛ كــل يــوم عــلى

[1] الآيــة كاملــة هكــذا: ((أوَلَــمْ يَــرَوْا أنَّــا نَــأتي الأرْضَ نَنْقُصُهَــا مِــنْ أطْرَافِهَــا وَاللهُ يَحْكُــمُ لاَ مُعَقِّــبَ لِحُكْمِــهِ وَهُــوَ سَرِيــعُ الحِسَــابِ)). ســورة الرعــد؛ الآيــة: 41.

ضعفائها؛ تجمع آلافه العديدة لآخر سبع، ثم يحشرون بمشوار أيمى أن الجهيّ وغيره من الرّحاب الفسيحة الجنبات؛ فيقسم ذلك حفظته عدلاً بينهم. وربما شاهدهم ــ أيده الله ــ مستعبراً خاشعاً لخالق الجميع، ومقدّر الأرزاق، ومديل العسر باليسر؛ لا إله إلاّ هو.

ثم اقتضى نذلره الكريم؛ أن ضمّهم أجمعين **بمارستانات**؛ يأتيهم فيها رزقهم بكرة وعشياً؛ شتاء السنة وربيعها؛ إلى أن دعاهم خصب البادية، ودرور ضروع ماشيتها إلى الإصحار إليها؛ فكان ذلك عملاً في البرّ راجحاً وأثراً في الصالحات خالداً؛ لم يعهد مثله لملك سواه. والله جلّ وعلا هو رازق الكمال، والهادي إلى سبيل الخير؛ خلد الله ملكه، وضاعف أجره، ورفع في عليين درجته. هذا مع أمره أيده الله بفتح أهراء الزرع، وإباحة بيعه للنّاس؛ بعد الحطّ من سعره الذي اقتضته المجاعة؛ رفقاً بالنّاس، وحفظاً لنظام حياتهم. أعلى الله كلمته، وأجزل مثوبته بمنه وكرمه. وكان قد ورد على بابه العلي الأمير **إبراهيم ابن الأمير أبي زكرياء ابن السلطان أبي عبد الله محمد**؛ صهر الخليفة **يحيى الحفصي** من **المغرب**؛ راجياً منه ــ أيده الله ــ إعانته

على الثأر بأخيه السلطان **أبي عبد الله محمد**؛ صهر الخليفة، واستنقاذ **بجاية** من يد مغتصبها؛ قاتل أخيه المذكور؛ وما تأتي في ذلك بوسائل غير مضاعفة؛ فأجاب نصره الله داعيه، ووشحه زيّ الإمارة وأضفى عليه لبوس الملك، وأفاض عليه أبحر النّعم؛ فما شئت من مراكب فارهة، وعدد حالية، وقمص مفوفة، وبذر موزونة ومعدودة، وسوّغه الطبل، والبند، ومجبَى **مدينة تدلس** لنفقته؛ حتّى بفتح الله عليه بلده، وأمر جيوشه المظفرة بقطرها؛ أن ينهضوا من عند أخرهم لمظاهرته. وكان انصرافه عن الباب العلي يوم الأحد الموفي عشرين لذي القعدة؛ أنجح الله في الفخر مساعيه، وأرجح في الكمال موازينه.

وفي يوم الجمعة سادس عشر ذي الحجة المبارك؛ عسكر نصره الله بأعالي المنية؛ من ظاهر الحضرة، وأنهض ولده المولى الأعلى **أبا تاشفين** أعزّه الله مشرقاً؛ ليضم العساكر الشرقية **بالبطحاء**، ويتصدى بها للقاء ركاب الخلافة العلية؛ عند نهوضه لتمهيد أرجاء قطره، والوقوف على حدوده، ومصارخة **الأمير إبراهيم** المذكور. وانقضت السنة؛ والبقاء لله وحده، وهو نعم المولى، ونعم النّصير، ولا

قــوّة إلاّ بــه. تــم السفــر الأول مــن كتــاب بغيــة الــرواد في أخبــار الملــوك مــن بــني عبــد الــواد بحمــد الله وحســن عونــه.

*****

استدراك وإضافات[1]

مسجلة في المخطوطين: (أ) الذي يرمز لمخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية. و (ب) الذي يرمز لمخطوط السيد ابن طالب

رجع إلى التاريخ: و في يوم الجمعة الخامس عشر من ذي الحجة؛ عسكر مولانا أيده الله **بالمنية** من ظاهر الحضرة العلية، وأنهض ولده الأمير الأعلى المولى **أبا تاشفين**؛ مشرقاً؛ ليضم العساكر الشرقية **بالبطحاء**؛ ويتصدى بها للقاء المولى والده أيده الله؛ وكملت السنة، والبقاء لله وحده.

*****

[1] هذا الاستدراك أضافه ألفرد بل إلى هذه النسخة؛ مستمداً إياه من مخطوطي: المكتبة الوطنية الجزائرية، والمخطوط الخاص بالسيد ابن طالب.

سنة سبع وسبعين وسبعمائة[1]

في أول هذه السنة؛ **خرج عبد الله بن سفير**[2] **بن عامر** بإخوانه من **المغرب**، وشرّق إلى قبيله **بني عاف**[3]؛ فانضاف إليه منها غوغاء من أهل الفساد، وشايعه صديقه **أبو بكر بن عريف**، لمرض قلبه إذ ذاك؛ بإغزاء مولانا ـ أيده الله ـ بلاده، واستقدموا **أبا زيان ابن السلطان المرحوم أبي سعيد** عم أمير المؤمنين؛ فشرّقوا، وانجمع جميع المنافقين؛ ومولانا **أبو تاشفين** ـ أعزه الله كما قلنا ـ مع قبيله، والشيخ **محمد بن عريف** بظاهر **البطحاء**؛ وهو يضم جيوشه. وفي سابع عشر؛ رحل مولانا **أبو حمو** ـ أيده الله ـ عن الحضرة العلية؛ مشرقاً؛ ولقيه بجمع خدامه **محمد بن عريف**، ونزل على **البطحاء**، وأفاض في **زناتة والعرب** بحر عطائه؛ الذي لا ساحل له؛ والمخالفون مع **أبي زيان بمنداس**؛ تلعب بصائرهم؛ وانجمع رأيهم على غدر القائد **عطية بن موسى**؛ **بمازونة**؛ عشية يوم الجمعة

---

[1] 1375م.

[2] يسميه في مواضع أخرى سقير أو شقير أو شيقر.

[3] لعل المقصود هم بنو عامر.

الرابع من ربيع الأول؛ فافرغ الله عليهم الصبّر، ومنحهم الخيل قبيل العشاء الآخرة؛ وهم في أوعار كودة، ومهاو زليقة؛ فأوسعهم قتلاً، وأسراً، وسلب طبل **أبي زيان** وعلامه، وانقلبوا ((**بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللهُ المُؤْمِنِينَ القِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيّاً عَزِيزاً**))[1].

ووفدَ البشير غداً إلى الخليفة نصره الله؛ فأنجزَ ـ أيده الله ـ بقايا العطايا، وارتحل سابع الشهر؛ قصد القوم، وفي ظاهر **البطحاء**؛ اعترضه ولده الأعز بعسكره، والقائد **عطية** بجنوده؛ فتضاعفت الكتائب، واستبحرت المحلة؛ وطار إلى المخالفين النّذير؛ فاجفلوا كالظلمان؛ كل يبغي لنفسه النجاة؛ فغربت **أولاد سفير بن عامر**، وشرّقت أهل **أبي بكر ابن عريف**؛ مع السلطان **أبي زيان**؛ فبعث مولانا أيده الله ولده الأعلى المولى أبا **تاشفين** لاعتراضهما بأطراف **التل** الشّرقي؛ فأطنب سعده الله **حصين**، **والثعالبة**، وقعد لهما بمرصد **وطاء حمزة**؛ ونهض مولانا ـ أيده الله ـ في أثرهما مشرقاً؛ وبظاهر المرة

---

[1] الآية كاملة هكذا: ((وردَّ اللهُ الذين كفروُا بغيْظهمْ لمْ ينالُوا خيْراً وكَفى اللهُ المؤْمنين القِتالَ وكان اللهُ قويّاً عزيزاً)). سورة الأحزاب؛ الآية: 25.

أمر النّاس بالتجديد، وأخذ أهبة الصحراء؛ فضاقتْ على **أبي بكر بن عريف** الأرض بما رحبت، ويئس النجاة؛ فأرسل إلى خليفة الله أكبر بنيه، وأعزهم عليه؛ بأخ له صغير مرهوناً على مقامه الكريم في إقالة عثاره – أيده الله – وقبول خدمته؛ على البراءة من **أبي زيان** وطرده، والرّضى بغرامة من الحبّ والزكاة، وإعطاء أخاه رهناً آخر على ذلك؛ فوسع حلم مولانا – أيده الله – وسمح لهم، وعفا عنهم، وحاسن أولاده، وردهم إلى أبيهم؛ فضلاً منه، وكرماً؛ فلم يبق بعدها **لأبي زيان** إمداد، ولا مدّة لنجاة؛ فشرّق بعلته، واستقر في جوار **أبي الليل بن موسى**؛ قانعاً بسلامة رأسه.

وثنَى مولانا أيده الله العنان إلى حضرة ملكه؛ فدخلها أواخر ربيع الثاني. وفي غرة جمادى الأولى؛ وصل مولانا – أيده الله – رسول ملك **المغرب أبي العباس ابن السلطان أبي سالم ابن السلطان أبي الحسن**؛ شافعاً **لخالد بن عامر**، **وساسي بن سليم**؛ المستقرين – يومئذ – ببلاد **المغرب**؛ فشفّعه نصره الله فيهما؛ على أنْ يصلاَ إلى بابه الكريم. وفي وسط هذا الشهر؛ أنهض مولانا – أيده الله – الوزير **أبا عبد الله بن مسلم** بخدامه **الحجزو أولاد ذياب**؛ لأخذ **أولاد**

سفيـر بـن عامـر، وطردهـم مـن الصحـراء؛ وتبعهـم إلى **السمـام**؛ منقطـع رملـه، وأقصـا حدهـا. وفي ثامـن رجـب؛ وصـل إلى بـاب مولانـا ــ نصـره الله ــ **زكريـاء بـن عامـر**؛ عـن أخيـه **خالـد**، و**سعيـد بـن عثمـان**؛ عـن ابـن عمـه **سـاسي بـن سليـم**؛ بمقتـضى شفاعـة ملـك **المغـرب** بهمـا؛ ومتحدثيـن كيـف تكـون الخدمـة؛ فأبـا الخليفـة نصـره الله إلاّ وصولهمـا لبابـه الكريـم؛ فصدّهمـا الخـوف، وخرجـا إلى صحرائهمـا؛ ينطقـان بالخدمـة، وتشهـد أفعالهمـا الذميمـة بالخـلاف؛ فتبعهمـا مـن قبيلهمـا غوغـاء؛ وشرقـوا لانتهـاز الفرصـة في **أولاد عريـف**؛ خلصـاء الخليفـة.

وكـان المـولى **أبـو تاشفيـن** بمحلتـه؛ في **جبـل هـوارة**؛ فاقتـضى نظـره ــ أيـده الله ــ أن يتـرك محلتـه **بهـوارة**؛ فجـدّ بجيشـه السيـر، ورفـع ثـلاث علفـات، وجنـب نجـع **سويـد**، ومـن معهـم مـن **أولاد يعقـوب**، وأصحـر في أثـر المخالفيـن بعـداً؛ إلى أن أدركهـم بمـاء إكـر؛ مـن أعـالي **مينـة**؛ عشيـة يـوم الثلاثـاء ثـاني ذي الحجـة؛ فأحاطـت بهـم عساكـره؛ فذهلـوا، ولـم يجـدوا ملجـأ، ولا مدخـلاً؛ فحبسـوا ظعنهـم، وباتـوا، وبـات المـولى ــ أيـده الله ــ مطانبهـم، ورُسُلهـم تتـرَى عليـه ليلهـم كلّـه؛ راغبيـن منـه الإقالـة، والإبقـاء عليهـم؛ فمـا

رحـــم ضراعتهـــم، ولا رجـــع عـــن حربهـــم. وفي الصبـــح مـــن ذلـــك اليـــوم؛ رتّـــب جيوشـــه، وقـــرع طبولـــه، ونشـــرَ بنـــوده، وحمـــل عليهـــم حملـــة واحـــدة؛ فلـــم يكـــن إلاّ ساعـــة؛ وإذا بهـــا قامـــت عـــلى ســـاق واحـــد، وخلّفـــوا النجـــع بأســـره؛ بمـــا فيـــه؛ مـــن: الكـــراع، والضـــرع، والذخائـــر؛ وقـــد عالقتهـــم الخيـــل؛ وكـــان أول مـــن غزاهـــم **عبـــد الله بـــن سفيـــر بـــن عامـــر**، وأخـــوه **ملـــوك**؛ فأرســـل المـــولى **أبـــو تاشفيـــن** ـ لحينـــه ـ بـــرأس **عبـــد الله** المذكـــور، وبـــرأس **ملـــوك** إلى **تلمســـان**، وزاد في أثـــر الآخريـــن إلى غـــروب الشمـــس؛ فقتـــل منهـــم أيضـــاً **العبـــاس بـــن مـــوسى بـــن عامـــر**، و**محمـــد بـــن زيـــان الـــولادي**، وقتـــل منهـــم خلقـــاً لا يحـــصى.

وفي ذلـــك اليـــوم قطـــع دابـــر أكابـــر **أولاد سفيـــر ابـــن عامـــر**، وأمـــسى المـــولى **أبـــو تاشفيـــن بســـوف**؛ مـــن **السرســـو**؛ وأخـــذ جميـــع النّجـــع، ولـــم ينـــج منهـــم عقـــال واحـــد. ورجـــع أيـــده الله إلى محلتـــه **بهـــوارة**، واستـــأذن والـــده؛ فأمـــره بالقـــدوم عليـــه للحضـــرة العليـــة؛ في يـــوم الجمعـــة الحـــادي والعشريـــن لـــذي الحجـــة؛ فقـــدم المـــولى **أبـــو تاشفيـــن** أعـــزه الله إلى الحضـــرة العليـــة؛ بالنصـــر، والتعظيـــم، والفتـــح المبيـــن.

انتـــهى مـــا وجـــد مـــن هـــذا التاريـــخ المســـمى **ببغيـــة الـــرواد في ذكـــر ملـــوك عبـــد الـــواد.**

*****

الملحق الأول[1]

قلت: وما أشبه حزم مولانا أمير المسلمين ــ أيده الله تعالى في خروجه الأول والآخر إلى الصحراء تحصنا بها من العدو ثم انقلابه عليه عند ذبول شوكته ــ بما ذكره **أبو عبد الله محمد ابن أبي محمد بن محمد بن ظفر في سلواناته**؛ إلاّ أن ذلك الملك **الهندي** في مثاله؛ آوى ــ يومئذ ــ إلى معقل أشيبٍ بقنة جبل وعر، ومولانا أمير المسلمين هذا ــ أيده الله ــ لم يكن له حصن؛ سوى متون عراب الخيل؛ المطهمة الجرد، وهجن الإبل، ثم ابعاد المغار، والتّنائيَ في تنايف القفار؛ وبينهما بون بادٍ فلنات بذلك الخبر السالف؛ ليتّضح فضل هذا الخالف؛ إذ بضدّها تتبينُ الأشياء.

فنقول: وصِفَ لكسرى **أنوشروان** أرض من التّخوم **الهندية**؛ تكاثب **إقليم بابل**، وذكرت عنده

---

[1] الملحق الأول هذا؛ والملحق الثاني الذي يليه؛ كانا ضمن سياق الكتاب؛ الأمر الذي أثقله؛ نتيجة للاستطراد الطويل؛ وعلى هذا فقد قام ألفرد بل باستخراج النصين من أصل النص التاريخي المتعلق بالموضوع؛ ثم إثباتهما في آخر الكتاب كملحقين إضافيين. وهما ــ كما أشار ألفرد بل ــ مقتبسان من كتاب (سلوان المطاع في عدوان الأتباع)؛ لمحمد بن ظفر.

بحسن المنظر، وطيب الهواء والماء، وكثرة الإتاوة، وزكاء الثمار، وكثرة العمائر، وحصانة المعاقل. ووصف له أهل تلك الأرض؛ بعظم الجسوم، وبلادة الفهوم، وشجاعة القلوب، وقوة الأبدان، والصبر على العمارة، وملازمة الطاعة، ولين المقادة؛ فشرهت نفس **كسرى** إلى تملك تلك الأرض، والتكثر بأهلها. وكان يقال: **((الشَّرَهُ أعرقُ الخصائلِ في اللُّؤْمِ؛ فالحِرصُ أبُوهُ الذي يولدُهُ، والبَغْيُ ابنهُ الذي يَلِدهُ، والطَّمَعُ شقيقُهُ، والذُّلُّ رفيقُهُ))**. وكان يقال: **((مَنْ شَرِه وقَعَ فيما كَرِه))**. وكان يقال: **((الشّره شدَّة يُنتِجها طَبْعُ ويُهيجُها طَمَعُ))**.

قيل: فلما طمحت نفس **أنوشروان** إلى تملك تلك الأرض؛ سأل عن ملكها؛ فأخبر بأنه عظيم من **أراكنة الهند**؛ وأنه شابٌّ منقاد لشهواته، مقبل على لذاته؛ إلاّ أنه سالك صراطاً من العدل لا يجور، ومالك منهلاً من البذل لا يغور؛ إلى رأفة برعيته؛ قد أشربت قلوبهم وده، وصرفت آمالهم إلى ما عنده. فيبعث له **كسرى** رجلاً من ثقات أصحابه؛ قد اقتبس أدباً من آداب الملوك، وتفقه في سياستهم، وكان ذا دهاء، وفكر، وحزامة، ومكر؛ فأمره بتأمل مسالك تلك الأرض، والبحث عن

ثغورها، ومعاقلها، وتطلب عورتها، وتفقد أخلاق ملكها وأهلها؛ وكتب معه كتاباً إلى ذلك **الأركن**؛ يدعوه به إلى الدخول في طاعته، ويحذره التعرض لصولته بمخالفته.

فانطلق ذلك الرسول؛ حتى قدم على **الأركن**؛ فأحسن نزله، وبالغ في بره وتكرمته، وعمي عليه الأخبار، وبالغ في قبضه عن التّصرف، وفي قبض النّاس عن لقائه، واحتجب عنه، ولم يستدع الكتاب منه، وندب ـ لاختباره، وعِلْمِ ما قصد له ـ رجلاً من دهاة أصحابه؛ فأمره بالتجسّس على أنبائه، والتّلطف في مداخلته ومخاتلته. فانطلق ذلك الجاسوس؛ فاكترى حانوتاً بحذاء دار الرسول؛ وملأه فخّاراً، وجلس فيه يبيع ذلك الفخّار. وكان للرسول غلامٌ يخفّ في حوائجه، ويتصرف في مئاربه؛ فجعل الجاسوس؛ إذا رأى ذلك الغلام؛ هشّ له، وأكرمه، وسأل عمّا له من حاجه؛ إلى أن أنس به الغلام؛ فكان يجلس إليه، ويستعين به على أمره، فلبث على ذلك مدة؛ لا يسأله عن شيء من أمر سيده؛ فلمّا تأكد أنس الغلام به؛ قال له يوماً: من تكون؟ ومن يكون ذلك الذي في هذه الدار التي تدخلها؟ فقال له الغلام: صحبتني منذ كذا وكذا ولا

تعرفني؛ فقال له الجاسوس: وما عليّ؛ فقال له: أنا غلام رسول **كسرى**؛ وسيدي في هذه الدار؛ فقال له الجاسوس: ومن **كسرى**؟ ومن رسوله؟ فقال له الغلام: هو ملك **بابل**؛ أرسل سيدي إلى ملك أرضكم؛ فقال له الجاسوس: قد عرفت حين ذكرت لي **بابل**؛ لأني كنت في صباي أجيراً لرجل من أهل **بابل**.

ثم أمسك عن الغلام أياماً، لا يسأله عن شيء. وكان يقال: ((**التّنْقير تنفير**)). وقيل: ((**التّنْقيب يُريب الأريب**)). وقيل: ((**من تسرّع إلى الأمانة؛ فلا لوم على من اتّهمه بالإضاعة، ومن تسرّع إلى المشاركة في السِّرّ؛ فلا لوم على من اتّهمه بالإذاعة، ومن تنصّح قبل أن يستنصح؛ فلا لوم على من اتّهمه بالخداع، ومن عني بكشف ما ستر عنه؛ فلا لوم على من اتّهمه بخبث الطّباع**)). قيل: ثمّ إن الجاسوس قال للغلام يوماً: إذا خرج مولاك فأرني إيّاه، فقال الغلام إن مولاي لا يتصرف. قال الجاسوس: أمريض هو؟ فقال الغلام: لا ولكنّ ملككم حظر عليه الخروج، وعلى النّاس الدخول إليه؛ فبكى الجاسوس. فقال له الغلام: ما الذي يبكيك. فقال الجاسوس: أبكتني الرّحمة لمولاك

مما هو فيه؛ لأني ابتليت بمثله، وذلك أني حبست يوماً في دين كان عليَّ، ومُنعتِ امْرأتي من الدخول إليَّ؛ فلولا أن الله مَنَّ عليَّ برجل ـ كان محبوساً معي ـ سلاَّني بحديثه، وأنسه؛ لهلكت غمّاً؛ فهل تحدِّث مولاك وتسليه. فقال الغلام: إنّي لا أعرف هذا، ولا أدري خبراً أطرفه به. فقال الجاسوس: أفلا أدلّك على ذلك. قال الغلام: بَلَى أحسن إليّ بذلك. فقال له الجاسوس: إذا خرجت من عند مولاك فطف في المدينة، وتأمل منا تراه فيها؛ وإذا رأيت جماعة يتحدثون؛ فاجلس إليهم، واستمع إلى ما يفيضون فيه؛ فإذا رجعت على سيدك، وخلوت معه؛ فقل له: رأيت اليوم كذا وكذا، وسمعت من يقول كيت وكيت؛ فإن في هذا تسلية له، وأنساً من وحشته؛ ويوشك من إذا فعلت ذلك؛ أن تحضَى به عنده. ففعل الغلام ما أمره به الجاسوس. فقال له سيده: منْ دلّك على فعل هذا. فقال الغلام: أنا فطنت له ففعلته. فقال له سيده: كلاّ؛ ليس هذا في قوَى عقلك؛ فأخبرني بمن دلّك عليه. فقال الغلام: دلّني عليه جارٌ لنا؛ يبيع الفخّار؛ ما رأيت أجهل منه، ولا أبله. فقال له سيده: وما الذي دلّك على جهله وبلهه. فقال الغلام: إنّه قد صحبني أكثر من

شهـر؛ وهــو لا يعــرف مــن أنــا، ولا مــن سيــدي؛ وذكــرت لــه الملــك كســرى؛ فــإذا هــو لا يعرفــه؛ فلمّــا سمــع ذلــك الرســول؛ استــراب، وحــدس أنــه متجســس عليــه؛ لمّــا رأى أنــه قــد أفــرط في تجاهلــه.

وكــان يقــال: **((مــن أفــرط؛ فهــو كمــن فــرط، ومــن احتفــل في غلــوه؛ استفــلّ عــن علــوه))**. وكــان يقــال: **((مــا دلّ عــلى الأحــوال كالأقــوال، ولا هتــك قنــاع المعقــول كسمــاع المقــول))**. وكــان يقــال: **((مــن لــم تعرفــك غائبــاً أذنــاه؛ لــم تعرفــك شاهــداً عينــاه))**. قيــل: فلمّــا سمــع الرّســول مقــال عبــده؛ أمــره أن يأتيــه بــه؛ ففعــل؛ ولمــا رآه الرّســول حقّــق مــا كــان ظنــه بــه؛ مــن كونــه جاسوســاً عليــه، وأكرمــه، وقربــه، وتظاهــر لــه بغبــاوة وجهــل؛ لا مزيــد عليهمــا؛ وسألــه أن يواصــل زيارتــه؛ فلبــث الجاســوس متفقــداً حــال الرســول؛ في ليلــه ونهــاره؛ مــدة متراخيــة؛ ولمّــا ظــنّ ذلــك الجاســوس؛ أنــه قــد حصــل مــا أراد علمــه؛ مــن أمــر رســول كســرى؛ ذهــب إلى الملــك؛ فأخبــره أن ذلــك الرســول فَــدِمٌ غَــبيّ؛ لا ذكــاء لــه، ولا عنــاء عنــده؛ أكثــر مــن أنــه ذو نجــدة، وفروسيــة، ونفــس أبيــة؛ فوثــق الملــك بقولــه؛ وتخيّــل الرســول بالصّــورة الــتي مثلــه بهــا الجاســوس عنــده.

وكان يقال: ((**إذا كان الخبر يدخله الصدق والكذب؛ فالقضاء له بأحدهما قبل الإمتحان؛ جورٌ**)).

وكان يقال: ((**إنما يقضي بصدق الخبر عصمة المخبر؛ لا صدقه**)). وشرح ذلك؛ أن المخبر الصادق – إذا لم يكن معصوماً – فهو عرضة للتدليس، وفرصة للتلبيس؛ وكون المخبر ثقة صدوقاً إنّما يفيد سلامته من التحريف فيما نقله؛ ولا يفيد عصمة إدراكه فيما أدركه؛ فقد ينظر الصادق المغفّل إلى الشّمس؛ فيخبر أنّها غير سائرة، وينظر إلى القمر ودونه مقطّعات السّحاب؛ فيخبر أنّه أدرك سرعة سيره، وينظر إلى سفينة جارية إلى البرّ؛ فيزعم أنّ البرّ يجري إليها، وينظر إلى أفعال الشعوذي؛ فيخبر عن الأشياء بخلاف ما هي عليه، ويسمع كلام الببغا المحجوبة عن بصره؛ فيخبر عن إنسانٍ؛ فلم يدخل الخلل من جهة تحريفه؛ لكن من جهة إدراكه. قيل: فلمّا وثق **الأركن** بمقالة جاسوسه؛ أحضر رسول **كسرى**؛ فأكرمه، وخاطبه بكل قول حسن، وأخذ منه الكتاب، وخلع عليه، وردّه إلى منزله مكرماً مبروراً، و أباح له التّصرّف، وأذن لمن أراد قصده في زيارته، وتابع إتحافه وتكرمته.

ولبث بذلك عاماً؛ ثم أحضره، وسلّم إليه جواب الكتاب، وأعطاه هديّة إلى كسرى؛ يقال أن فيها سيفاً؛ طوله خمسة أشبار، ولونه كلون النحاس الأحمر؛ يعمل في الحديد؛ كما يعمل غيره من السّيوف في الرّصاص، وصحفة من الياقوت الأزرق، تسَعُ منّاً من الطّعام، وكأساً من الزّمرد البحري؛ يسع رطلاً من الشّراب، وألف دُرَّة فريدة، وقنديلاً من المهى؛ فيه ياقوتة حمراء كبيضة الحمام؛ إذا علق في بيت فيه مصباح ليلاً؛ ألقى شعاع الياقوتة على الألوان القابلة للحمرة؛ فلا يشك أحد في حمرتها، وطيباً كثيراً، ودروعاً، ودرقاً، وغير ذلك؛ وخص الرّسول بحباء، وذخائر نفيسة؛ وصرفه إلى مرسله.

فلمّا قدم الرّسول على كسرى؛ سأله عمّا ندبه لتعرفه؛ فأخبره بطيب تلك الأرض، وفضائل خصائصها، وشرف مزاياها، وحصانة ثغرها؛ وأنه لم يجد إليها عورة تُوتَى منها؛ إلاّ غرارة سكانها؛ فإنّ عقولهم متهيئة لقبول الخدع، محجوبة عن النظر في العواقب؛ وأن هذا هو موجب حسن طاعتهم لمن ألفوا طاعته؛ فلو ندب الملك إليهم رجالاً؛ يحسنون نصب الدّعوات إلى الدول؛

لاستمالوهم، وصرفوا طاعتهم عن ملكهم؛ وإذا انصرفت طاعتهم؛ لم تقم لملكهم ـ بعد ذلك ـ قائمة؛ لأنهم أعضاؤه الذين يصول بهم؛ فهم في الرّخاء؛ ثمار مجتناة، وفي البلاء؛ سيوف منتضاة. فنظر **كسرى** فيما كتب به إليه **الأركن**؛ فوجده قد خاطبه بالملاطفة، واعترف بفضله، وتملقه، ورغب إليه في الموادعة، والمؤاخاة؛ فاستشار **أنوشروان** وزراءه في أمره، وأعلمهم أن نفسه لا تطيب بمسالمته؛ فاختلفوا عليه؛ فأجمع على أن يردّ هديته إليه؛ ففعل.

ثم إنه ندب لاستفساد رعيته رجالاً؛ يحسنون نصب الدّعوات، وقلب الدول؛ وأمدهم بالأموال، وأزاح عنهم عللهم، وبيّن لهم مثالاً يحذون عليه؛ فنفذوا لما أمرهم به؛ حتّى انتهوا إلى مملكة ذلك **الأركن**؛ فتفرقوا فيها، وأعمل كل واحد منهم قوته فيما انتدب له؛ فلما أتى عليهم عامان؛ أحكموا أمر ذلك؛ في دار مملكة **الأركن**، وفي غيرها من: مدنه، وحصونه، ورساتيقه؛ وكتبوا بذلك إلى **كسرى**؛ فحرّك إليهم **المرزبان** المتولي ربع المقابل لتلك الجهة **الهندية**؛ وذلك أن إقليم **بابل** كان مصروفاً إلى أربعة **مرازبة**؛ لكل **مرزبان** ربع منه؛ ومع كل

مرزبـان منهـم؛ خمسـون ألـف مقاتـل. فلمّـا شـرع ذلـك **المرزبـان** في الحشـد، والإعـداد؛ كتـب عيـون **الأركـن** بتلـك الجهـة إليـه؛ يخبرونـه بـأن **المرزبـان** المجـاور لجهـة بـلاده؛ قـد أخـذ في حشـد الأجنـاد، وتأهـب الإستعـداد؛ فعلـم **الأركـن** أنـه قاصـده؛ وضجـم النّفـاق ببـلاده، وتحـدث النّـاس بقصـد **المرزبـان** إليـه؛ وأكثـروا الأراجيـف؛ فانتبـه **الأركـن** مـن غفلتـه؛ وبحـث عـن الأمـر؛ فوقـف عـلى حقيقتـه.

وكـان أمـر مملكتـه يـدور عـلى خمسـة رجـال؛ أربعـة منهـم هـم وزراؤه، والخامـس هـو صاحـب بيـوت النّـار، ورئيـس **الزمازمـة**، والديـن يأخـذون عنـه دينهـم. فجمعهـم **الأركـن**، وعرّفهـم بمـا بلغـه مـن فسـاد قلـوب رعيتـه، وحشـد **المرزبـان** لقصـد بـلاده؛ وأظهـر لهـم الحاجـة إلى كفايتهـم؛ فجلسـوا يتناظـرون في ابتغـاء صـواب الـرّأي؛ فقـال أحـد الـوزراء الأربعـة: الـرّأي أن يستصلـح الملـك رعيتـه؛ فيمـلأ أيديهـا رغبـات، وقلوبهـا آمـالاً؛ حـتّى يستقيـم معوجهـا، ويأنـس نافرهـا؛ فـإنّ عدونـا إذا علـم ذلـك؛ جَبُـنَ عـن الإقـدام علينـا؛ وإن أقـدم لقينـاه بكلمـة مجتمعـة، وأيـد متناصـرة؛ فقـال رئيـس **الزمازمـة**: إنّمـا يصلـح هـذا مـن الرعيـة؛ لـو كـان فسادهـا؛ إنّمـا

أوجبه هضم جور، أو عسف سيرة؛ فيزال عنها سبب فسادها فتصلح؛ وليست رعية الملك بهذه الصفة؛ وإنما أورد عليها الفساد؛ جهلها بمواقع الصّواب، وبطرها لترادف النعم. وقد قيل: ((**أربعة إذا أفسدهم البطر؛ لم تزدهم التكرمة إلاّ فساداً: الولد، والزوجة، والخادم، والرعية**)). وضربوا لذلك مثلاً القوى الأربع المرذولة؛ إذا هاجت لتعدي حدود المصلحة؛ وهي: **الغضب: إذا تعدّى حدّ الشجاعة، وحدّ الأنفة؛ من الرذائل. والشهوة: إذا تعدت حدّ** راحة **العقل؛ من كد اكتساب الفضائل. والحرص: إذا تعدّى حدّ الكفاية. والكسل: إذا تعدّى حدّ** راحة **الجسم؛ من كدّ اكتساب المصالح**. فإن هذه القوى الأربع؛ إذا تعدّت هذه الحدود؛ لم تزدها المداراة، والرفق؛ إلاّ هيجاناً وطغياناً؛ وإنما تعافى بحسم موادها. فقال الملك: صدق الحكيم؛ ثم قال وزير آخر من الوزراء الأربعة: الرأي عندي؛ أن تضرب بمن صلح من الرّعية؛ من فسد منها؛ حتّى تستقيم، وتستوثق لنا؛ ثم نلقى عدوّنا بمن لا نخاف دخله، ولا نحذر غشّه؛ فأنّا مضطرون إلى الحرب؛ لكون عدوّنا؛ لا برضية إلاّ أخذ ما بأيدينا جملة. فقال رئيس **الزمازمة**: هذا أنفع لعدونا من جيشه، وأدعى

إلى طاعته من دعاته؛ مع أنّه إذا علم بحربنا فيما بيننا، وتناصبنا؛ ذهبت هيبتنا من نفسه، وبلغ فينا أمله.

وقد قالت الحكماء: ((أربعة؛ من استقبلها **بالعنف، والرّدع؛ في أربعة أحوال؛ هلك بها: الملك: في حال غضبه، والسّيل: في حال صدمته، والفيل: في حال غلمته، والعامة: في حال هرجها ومرجها)).** وقالوا: ((**إن أشبه شيء يردع العامة عن تمردها وهيجها؛ معاناة الجُدَري؛ حال إنبعاثه إلى سطح الجسد؛ بالأطلية الرّادعة**)). فقال الملك: صدق الحكيم. وقال وزير ثالث: الرأي عندي أن تطلب: أوّلاً تعيين من فسدت طاعته من الرّعية؛ فنميزه عمن سواه؛ ثم نرَى فيه رأينا بما يقتضيه حاله من قلّة أو كثرة، وضِعَة أو نباهة، وضعف أو قوّة؛ ونقابله بما توجبه حاله من التّدبير. فقال رئيس **الزمازمة:** البحث الآن عن هذا خطر عظيم؛ لأنه يوحش المريب؛ فيحركه إلى اللحاق بعدونا، واعتماده بالنّصائح، ودلالته على عورتنا؛ وإذا التحق بعدوّنا قاتل معه على بصيرة ليست لعدونا، وبذل جهده في العود إلى وطنه، وأهله وماله؛ وعدوّنا لا يقاتلنا على مثل ذلك؛ وربما لم ينفصل عنك المريب؛ بل

يقاومنا بموضعه، ويكاشفنا، ويتكثّر علينا بشكله من الرّعية فينصرونه؛ وإن لم يكونوا على مثل رأيه؛ بعلّة مشاكلته لهم؛ كما أن الكَلْبَيْن؛ لا يمنعهما تعاديهما، وتهارشهما من التّعاون على الذّئب إذا أبصراه، ولا يلتفتان إلى تحقق الذّئب في الخلق الكلبي؛ ولكنهما ينافرانه، ويصطلحان في التعاون عليه؛ نظراً إلى خصيص توحشه، وأنفته، وجرأته. وكذلك العاميّ لا ينظر إلى الملك؛ من حيث تحققه في الخلق الإنساني؛ بل ينظر إليه من حيث خصيص تفرده، وأنفته، وعلوّ همّته؛ فينافره لذلك. ويألف العاميّ الذي شاكله في الأخلاق؛ بعلّة المشاكلة.

وقد قالت الحكماء: ((**ثلاثة؛ إنْ كاشفتهم بالامتحان في ثلاثة أحوال؛ خسرتهم: مؤدبك؛ في حال استقلالك، وصديقك؛ في حال اختلالك، وامرأتك؛ في حال اكتهالك**)). والرعية كالزوجة، وإدبار الدولة كالاكتهال. وقالوا مثل ذلك؛ مثل امتحان قوى معدّ الناقهين من الأمراض بالأطعمة الغليظة. فقال الملك: صدق الحكيم. فقال الوزير الرابع: ــ وكان أوسعهم علماً وأفضلهم رايا ــ أمّا أنا؛ فأحدث الملك حديثاً أخبرني به مؤدبي؛ وكان من آخر ما أفادنيه؛ وقال لي أخزن هذا الحديث في حبّة قلبك، ولا تتمنّ

أن تعيش إلى اليوم الذي تحتاج فيه إليه؛ وإنّي لأحسب أنه هذا اليوم. فقال الملك: قلْ نسمع لحديثك. فقال رئيس **الزمازمة**: ما أولاه بالإصابة. فقال الوزراء الثلاثة: إنه لكذلك. فقال الوزير الرابع: إنما نحن كأصابع الراحة؛ في افتقار بعضها إلى بعض؛ وقوة بعضها ببعض، وتزيّن بعضها ببعض؛ ثمّ إنما نستمدّ من نور عقل الملك السعيد بنظرنا إليه؛ كما تستمد الدراري من نور الشمس؛ فكلّنا إلى الملك محتاج، وبه معتضد. فقال الملك: قل أيها الوزير الصالح بالقبول والكرامة؛ لك ولمن نبت عنه؛ فأنتم في مناصحتنا، والغناء عنّا، والأداء إلينا؛ كالحواسّ الخمس للقلب؛ فسجدوا له أجمعون.

ثم قال ذلك الوزير الرابع: زعم مؤدبي أن رجلاً موسراً من التّجار كان يأوي ــ في داره ــ إلى بيت مبطّن السّقف؛ وفيما بين ذلك السّقف وبطانته فيران كثيرة؛ فكنّ وادعات فيما اشتهين من الأمنة، وتيسير الطعمة؛ يمرحن النهار كله على حال طمأنينة؛ فإذا جاء الليل نزلن من السقف؛ فتفرقن في مخازن التاجر، ومساكن عياله؛ فأكلنّ واحتملنّ؛ فكثر أذاهنّ على التاجر؛ وأنه دخل مسكنه ذلك يوماً؛ فاستلقى فيه مفكراً في بعض

أمـوره؛ وجعلـت الفيـران تمـرح عـلى بطانـة السّقـف، والتّـراب يتساقـط مـن خلـل الألـواح؛ فضجـر التاجـر، ونهـض مبـادراً بتحويـل مـا في البيـت مـن الأثـاث؛ ثـم أمـر عبيـده؛ فوضعـوا بطانـة السّقـف؛ وانتشـر الفيـران في البيـت؛ فقتلـنّ شـرّ قتلـة؛ ولـم ينـج منهـنّ إلاّ جـرذ و فـأرة؛ كانـا غائبيـن عـن السّقـف؛ فلمـا رجعـا، وأبصـرا فسـاد وطنهمـا، ومصـارع الفيـران في جميـع الـدّار؛ راعهمـا ذلـك، وأقبـل الجـرذ عـلى الفـأرة؛ فقـال لهـا: لقـد صـدق القائـل: ((**مـن صحـب الدّنيـا واثقـاً بهـا؛ كـان كالنّائـم في الظّـل الـذي يكـون قبـل بلـوغ الشمـس إلى نصـف دائـرة فلكهـا الأعـلى؛ فيتقلـص الظّـل عنـه؛ بتصويـب الشّمـس؛ فيوقظـه حرّهـا، ولا يجـد للظـل عينـاً، ولا أثـراً**)). فقالـت الفـأرة: صدقـت؛ فمـا ذا تـرى؟ فقـال الجـرذ: أرى أن لا أسكـن بموضـع ينـال منـه هـذا المنـال، وأفـرّ مـن الإنسـان جهـدي؛ فـإن هَيْجَهُـمْ شديـدٌ، وحِيَلِهِـمْ أمـضَى مـن قـوّة غيرهـم مـن العوالـم. فقالـت الفـأرة: أنـا معـك؛ فانطلقـا حـتى أتيـا أرضـاً بـارزة؛ ذات أخـلاط مـن الوحـوش؛ تكتنـف واديـاً معشبـاً؛ فيـه غـدران مـاءٍ ذات ضفـادع، وسلاحـف؛ فأعجبهمـا ذلـك؛ وسـارا في الـوادي يلتمسـان موضعـاً يحتفـران فيـه جحـراً؛ فانتهيـا إلى ربـوة عاليـة في وسـط ذلـك الـوادي؛

قد انجاب عنها مسيل الماء فيه؛ يميناً وشمالاً؛ فاحتفرا في أصل تلك الرّبوة جحراً؛ رضياه وأوطناه.

وإنهما علوَا يوماً من الأيام تلك الرّابية؛ فرأيا في أعلاها يربوعاً ـ قد علت سنه ـ على باب جحرٍ له؛ فرحّب بهما، وحادثهما، وسألهما عن أمرهما؛ فأخبراه؛ إلى أنْ ذكرا له أنهما أوطنا جحراً في أصل تلك الربوة؛ فقال لهما اليربوع: لولاَ أنّ التنصّح كثيراً ما يدعو إلى التّهمة لنصحت لكما. فقالاَ له: ما أحوجنا إلى نصحك. فقال لهما: إنه كان يقال: ((**أربعة؛ لا تقدم عليها؛ حتى تسأل عنها الخبير بها: السوق: لا تقدم عليها؛ حتى تسأل عن النافد والكاسد فيها، والمرأة: لا تقدم على خطبتها؛ حتى تسأل عن منصبها، وخلقها، والطريق: لا تسلكها؛ حتى تسأل عن أمنها، وخوفها، والبلدة: لا توطنها؛ حتى تسأل عن مرافقها، وسير سلطانها، وأخلاق أهلها، وقوة من يكيد أهلها، ويعاديهم**)). وكان يقال: ((**أنظر إلى المتنصح؛ فإذا أتاك بما يضر غيرك، ولا ينفعك؛ فاعلم أنه شرير، وإن أتاك بما ينفعك، ويضر غيرك؛ فاعلم أنه طامع، وإن أتاك بما ينفعك؛ ولا يضر غيرك؛ فاصغ إليه، وعول عليه**)). وكان يقال: ((**إذا لم تعنْ ناصحك**

على نفسك؛ كان ناصحك؛ كمن يروم تقويم ظلّ عود معوجّ؛ قد نصب قبل، أن يقيم العود في منصبه)). وكان يقال: ((إذا أردت أن تعلم ما يغلب على الإنسان؛ من قوى الخير والشرّ؛ فاستشره؛ يدلّك رأيه عليه أصح دلالة)). وكان يقال: ((شرّ ما في عالم الأخلاق التّعاطي؛ لأنّ التّعاطي يزيد المتخلق به شراً، ويعرضه في مواسم الخزيِ؛ وهو كالضّعيف يتعاطي القوّة، وكالجاهل يتعاطى العلم، وكالفقير يتعاطى الغنَى)). وكان يقال: ((إذا احتجت إلى المشورة في أمر؛ فلتشاور ذوي الحنكة، والتّجربة من طبقتك، وذوي صناعتك، ولا تعدل عنهم إلى غيرهم؛ ممن ليس من طبقتك؛ فيخرجك عن حدّك لكونه خارجاً عن علم خصائصك)). واعلمّا أنه قد جمعتني وإياكما مناسبة صناعية؛ وهي حفر الجحر؛ إلاّ أني في علمها أرسخ منكما؛ فانتقلاً عن حجركما؛ فإنّه بئسَ الجحر، ومن شرّ الأوطان؛ وأنا ابن نجدة هذه الأرض، والخبير بها.

وقد قيل: ((قتل أرضاً خابرها))؛ فَتَحَوَّلاَ عنْ ذلكَ الجُحْرِ، وأطْلِبَا مَأوًى سِواه. فخرجا من عند اليربوع يهزءان به، ويسخران منه، وينسبانه إلى الهرم والخرف؛ ورجعَا إلى جحرهما؛ فلبثا فيه مدّة

طويلة، وولدا فيه أولاداً. ثم إنّ الجرذ خرج يوماً من الأيام؛ فأوغَلَ في تلك الأرض؛ لبعضِ شأنهِ، ثم عاد قاصداً إلى الربوة؛ فإذا السّيل قد جرَى في ذلك الوادي، وأحدق بالرّبوة، وارتفع حتّى صارت الرّبوة في مثل البحر الزّاخر؛ فوقف على ضفة الوادي؛ ينظر متحسراً لفساد وطنه، وهلاك ألفه وولده، وذهاب ما أعدّ من طعمته؛ فرأى اليربوع قائماً على الرّبوة آمناً؛ فناداه اليربوع: أيّها الجرذ؛ كيف وجدت ثمرة إضاعة الحزم، ومعصية الخبيُر النصيح. فقال الجرذ: وجدتها مرّة. فقال اليربوع للجرذ: هوّن عليك، وخفّض من حسراتك؛ فإنّ النّعمة في بقاء نفسك؛ تربي على المصيبة بأهلك وولدك؛ فأنِّسْ النّعمة بالشّكر تألفك؛ فتستمع بها.

وأنه كان يقال: **((أظهر البشرى لثلاثة: للصّديق، والغريم، والنّعمة))**. وكنان يقال: **((الحرّ لا تذهله إساءة من كان أحسن إليه؛ عن شكر إحسانه السّالف عنده))**. وكان يقال: **((إذا أحسن إليك محسن، ثم تنكّر إليك، وأصابك بمساءة؛ فلا تنقبض عنه، ودم على شكرك لنه، وبرّك به؛ فإن ذلك أوجه شفيع لك عنده))**. فقال الجرذ لليربوع: ما كان أشقاني أيّها الحكيم بمعصّيتك، والبعد عنك.

وبحق قيل: **((ينبغي للعاقل أن يصحب العقلاء المهذبين بالحكمة والأدب، ويستشير ذوي البصائر والحنكة))**. ولو كنت ذا بصيرة؛ لعلمت أنّك – أيّها الحكيم – لمْ تكلفْ نفسك صعود هذه الرّبوة الكؤود، وهبوطها؛ على ضعف بدنك، وكبر سنّك؛ إلاّ لأمر اقتضته الحكمة، وأوجبه الرّأي المصيب. ثم إنّ الجرذ أمهل؛ حتّى ذهب السّيل؛ فصعد الرّبوة، واتّخذ بها جحراً؛ إلى جانب جحر اليربوع؛ فأوطنه آمناً، قرير العين. فهذا ما أخبرني به مؤدّبي.

فقال الملك: صدقت أيها الوزير الصالح قائلاً، وسدّدت ناصحاً، وأصبت مشيراً، وتلطفت مبلغاً، ودعوت سميعاً؛ فالتمس لنا ربوةً نرضاها لاستقرارنا؛ نلزم أنفسنا الصّبر على صعودها، ونقصر فيها على مألوف ملاذها وانبساطها في هذا العالم الخبيث؛ نجتني السّلامة التي اجتناها اليربوع من هذه الفتن. فقال الوزير: أيّها الملك السعيد؛ المفدّى بالنّفوس الزّكية؛ عشت ما بدا لك أن تعيش، ونلت ما أملت؛ فما أعجب قبولك لما نهديه إليك من نعمك، ونجلوه عليك من حكمك؛ وإني لأعرف في ناحية من ممالكك معقلاً؛ تطلّ منه على أهل الأرض أطلال زُحل على الكواكب؛ تغال دونك

الأبصـــار اللاّمحـــة، والأفكـــار الطامحـــة؛ وهـــو مـــع ذلـــك ذو هـــواء عليـــل، ومـــاء سلسبيـــل، وحدائـــق باسقـــة، ومرافـــق متناسقـــة؛ وقـــد كـــان بعـــض سلـــف الملـــك السعيـــد عـــني بـــه بعـــض العنايـــة؛ فقطـــع عليـــه أملـــه القـــدر الحتـــم القاطـــع لعقـــود الحيـــاة.

فلمّـــا سمـــع الملـــك مـــا دلّـــه عليـــه وزيـــره؛ مـــلي ســـروراً، وركـــب مـــن فـــوره؛ في خاصتـــه وثقاتـــه؛ حـــتى انتـــهى إلى ذلـــك المعقـــل الـــذي دلـــه عليـــه وزيـــره؛ فوجـــده في رأي عينـــه أفضـــل ممـــا صـــوره الوزيـــر في نفســـه، ووجـــد بـــه رسومـــاً وثيقـــة، وآثـــاراً أثرهـــا بعـــض مـــن تقـــدم مـــن آبائـــه؛ فحشـــد إليـــه المهندسيـــن، والبنائيـــن، والعمـــال؛ وأمرهـــم بالجـــدّ في إكمالـــه، وبـــادر مـــن فـــوره؛ فنقـــل إليـــه خـــاص بيـــوت أموالـــه، وخزائـــن سلاحـــه، ونفائـــس ذخائـــره؛ وحشـــد رعيتـــه لحمـــل الأرز إليـــه؛ فأودعـــه منـــه مقشـــوراً وغيـــر مقشـــور؛ مـــا ظـــنّ أن فيـــه كفايـــة، وذلـــك أن الأرز الـــذي لـــم يقشـــر طويـــل البقـــاء. وأعـــدّ لنزلـــه عدتـــه؛ وهـــو مـــع ذلـــك يســـدّ الثغـــور، ويجنّـــد الجنـــود، ويشيّـــد الحصـــون.

فلمّـــا مضـــت لـــه ثلاثـــة أشهـــر مـــن يـــوم كتـــب لـــه جواسيســـه بحركـــة **المرزبـــان** وحشـــده؛ اقتحـــم **المرزبـــان** ثغـــوره؛ في الجيـــوش المتوافـــرة، والعـــدة الكاملـــة؛

وظهر دعاة **كسرى**؛ بتلك النّاحية؛ فيمن استفسدوه من الرّعية؛ فغلبوا على ما يليهم من البلاد. واستعمل **المرزبان** عليها عمالاً من ثقات أصحابه، ورتّب فيها حماة من جنده ومن أهلها؛ ثمّ دنا يطوي الأرض؛ فوافته جيوش **الأركن**؛ فدافعته ببعض الدفاع، ثمّ إنه انهزم من كان في قلبه مرض؛ فانهزم المناصحون بانهزامهم، واستولى **المرزبان** على عسكرهم، وأخذ الأموال، واستبقى النفوس؛ ثم تجاوزهم يطوي المملكة طياً.

وكان **الأركن** ـ عندما اقتحم **المرزبان** ثغوره ـ قد بعث بأهله وحشمه إلى ذلك المعقل، وجمع وجوه أهل حضرته، وذكرهم ما سلف من إحسانه إليهم، وذكر ما أبلغه من فساد الطّاعة، وما كرهه من امتحانهم، ومعاقبة المسيئين منهم؛ فتنصلوا بما قذفوا به عنده، وحلفوا له على استقامة طاعتهم، وصدق مناصحتهم؛ فقال لهم الملك: إني لم أجمعكم لهذا، ولست بناكل عن عدوّي، ولا بمستبعد الظّفر به، والنّصر عليه، ولا بمعين تهمة أحد منكم؛ غير أنّه أخبرني بعض وزرائي؛ عمّن سلفني أنّه شرع في بناء معقل، وعني به بعض العناية؛ فحال بينه وبين إتمام ما أراد من ذلك

الانحلال المحتوم؛ على عالم التّركيب؛ فحملني على تكملة ما شرع فيه جدّي. قول الحكيم: ((إن أبرّ الملوك من أتمّ سعيَ سلفه، وأعقّهم من انقطع سعيهم عنده))؛ ثم إني أحببت أن أجعل ذلك الحصن من عددي، وذخائري؛ لقول الحكماء: ((إن أحزم الدعاة من أعدّ لجميع قضايا العقل أحكاماً)). وقولهم: ((يجب على الملك ألاّ يخلو من خمسة معاقل يتحصّن بها: أحدها؛ وزير صالح؛ ليتحصّن برأيه في وقت شدائده، والثاني؛ سيف قاطع؛ يتحصّن بحدّه إذا غشيَ عدوّاً، والثالث؛ فرس سابق؛ يتحصّن بظهره إذا لم يمكنه الثّبات، والرابع؛ امرأة حسناء؛ يحصن بها فرجه وبصره، والخامس؛ قلعة منيعة؛ يتحصّن بها إذا أحيط به)). فاتخذت هذا المعقل؛ لنكمل به حصوني، ونقلت إليه ذخائري، وما يكرم علي؛ فمن أراد منكم أن يقتدي بي في فعلي؛ أخذاً بالحزم فليفعل.

ولمّا فرغ من مخاطبتهم؛ أذن لهم فخرجوا من عنده؛ فاقتدى به منهم من كان ذا عقل وخبرة؛ فجهّزوا إلى ذلك المعقل أهليهم، وأموالهم، وأقواتهم. وأما المرزبان؛ فإنّه سار في تلك المملكة يطويها طيّ السجلّ؛ لا يقاومه جيش إلاّ هزمه؛ حتى

أشرف على حضرة **الأركن**؛ فنزل منها فرسخ؛ وتهيّب الإقدام عليها؛ وقد كان **الأركن** أمر النّاس بالخروج إليه؛ فخرجت أمة عظيمة، وخرج **الأركن** في أربعة آلاف مقاتل من عبيده وخاصته وثقاته؛ فقام بهم – في معزل عن حشوده ورعيته – بظاهر المدينة، وعبّى فيوله، ورتّب صفوفه؛ وكان بالمدينة داعيان من دعاة **كسرى**؛ فاغتنما الفرصة، واهتبلاها عند خروج الملك عن المدينة؛ فظهرا، واتبعهما من كان أطاعهما؛ فوثبوا بخليفة المدينة فقتلوه، واستولوا على المدينة، وضبطوها.

وبينما الملك في جنوده بظاهر المدينة؛ أتاه رئيس **الزمازمة** حافياً، حاسراً، يلطم وجهه، وينتف شعره؛ فأمر الملك بحمله معه على فيله، واستخبره؛ فأخبره بذهاب دار ملكه، وخيانة رعيته؛ فانحاز الملك لخاصته، ومن كان معه على بصيرة في طاعته، وتوجّهوا نحو الحصن؛ وانتهى خبره إلى **المرزبان**؛ فجرّد خيلاً لاتّباعه؛ فأدركوه؛ فأوقف من جيشه من كفاهم، وسار حتّى دخل حصنه. وأما **المرزبان**؛ فإنّه قصد المدينة؛ فدخلها، وضبطها، وأحكم أمرها؛ ثم سار في جيوشه إلى ذلك الحصن؛ فرأى منظراً عجيباً، رائعاً، ومعقلاً أشباً مانعاً؛ ولم

يمكنه النّزول بالقرب منه؛ فنكص إلى حيث أمن؛ ونزل في جيوشه متحفظاً؛ وكتب إلى **الملك الهندي** كتاباً؛ يخاطبه فيه بالتّعظيم والإجلال، ويعرض عليه خصالاً؛ منها أن يردّه إلى مملكته مكرماً مرفوعاً على أنْ يدين بطاعة **كسرى**؛ فلمّا انتهى رسول **المرزبان** إلى **الملك الهندي** حجبه؛ ولم يأخذ كتابه، وأمره بالعود إلى مرسله؛ فيئس منه **المرزبان**.

وكان يقال: **((صرفك البصر إلى عدوك إضاعة، وإصغاؤك السمع إلى حديثه طاعة))**. وكان يقال: **((إذا أمكنت عدوّك من أذنك؛ فقد تعرضت للغرق في بحره، والحصول في وهق سحره))**. وكان يقال: **((عجباً لمن يصغى إلى عدوه سمعاً؛ وهو لا يرجو عنده نفعاً))**. وكان يقال: **((إذا عجزت عن التّحصّن من كلام عدوك؛ فأنت عن التّحصّن من كيده أعجز))**. ثم أن **المرزبان** عاد إلى المدينة، وكتب إلى **كسرى** بالفتح، وبما تهيأ له وعليه من الأمور. فكتب إليه **كسرى** يأمره بأن يقيم في تلك المملكة، و يترك التّعرض لذلك **الأركن** في حصنه؛ إلاّ إن يبدو منه فساد، وأن يذكي العيون عليه، ويقيم المشائخ في جهات حصنه؛ ففعل **المرزبان** ما أمره به **كسرى**؛

ولبث بذلك مدة؛ وجعل أغشام الفرس يعيثون في تلك المملكة، ويعاملون أهلها بالفظاظة ولقساوة؛ التي طبع الهند على ضدّها؛ فدبّت الشحناء في النفوس، ودخلت أهل تلك المملكة الغيرة؛ لمّا رأوْا؛ أنّ خراج أرضهم يحمل إلى غيرها، وينفق في غير أهلها؛ وعرفوا فضل ما كانوا فيه، ومشقة ما صاروا إليه؛ فبسطوا ألسنتهم، وخاف **المرزبان** إن يردعهم عن القول؛ فيستوحشوا منه؛ فكفّ عنهم؛ فكان ذلك داعية إلى زيادتهم في بسط الألسنة.

وكان يقال: ((**أيدي الرعية تابعة لألسنتها؛ فإذا قدرت أن تقول قدرت أن تصول**)). وكان يقال: ((**ترك نكير الصغائر؛ مدعاة إلى ارتكاب الكبائر. فأول نشوز المرأة كلمة سومحت بها، وأول حرن الدّابة حيدة سوعدت عليها**)). قيل: وأمّا **الأركن الهندي**؛ فإنّه لمّا استقر في حصنه؛ شاور وزراءه؛ فأشاروا عليه بالصّبر، وكفّ الأذى، وبسط العدل والإحسان، وتأمين السّبل، وإجازة المستجير، و تأليف المستوحش، والأخذ بالفضل والعفو؛ فاتّخذ هذه الخلال شرعاً يدين به؛ فازدادت سمعته حسناً، والقلوب إليه ميلاً، والألسنة شكراً. واتّفق أن عاملاً **للمرزبان** كان على ثغر من تلك الثّغور؛ أساء

السّيرة فيهم؛ فقام إليه رجل كان أفضل أهل عمله؛ فوعظه، ونصح له؛ فكره العامل ذلك، وكتب إلى **المرزبان** يزعم أن رجلاً من أهل عمله يعارض أمره، ويولب العامة عليه؛ فكتب **المرزبان** إليه؛ يأمره بحمله إليه مقيداً؛ فأخذ العامل الرجل وقيّده، وبعث إلى **المرزبان** به؛ مع رجال من الجند؛ فتبعهم أحداث من فتيان ذلك الثغر، وفتّاكهم؛ فقتلوا أولئك الموكّلين بذلك الرجل، وأطلقوه؛ فأتى الرّجل إلى العامل؛ فأخبره بما فعل أولئك الأحداث؛ وأنه عجز عن دفعهم؛ فأمر به العامل؛ فضربت عنقه؛ وكان ذا منزلة عند أهل بلده؛ فوثبوا بالعامل فقتلوه وقتلوا أكثر رجاله، وضبطوا ثغرهم، وانضوى إليهم من كان على مثل رأيهم، ومن كان في غير حصن، وكاتبوا من يليهم؛ فأجابوهم إلى ما صنعوه؛ فطردوا عمّالهم، وانتقضت طاعة **كسرى**؛ في مواضع كثيرة من تلك المملكة؛ في أسرع مدة.

ولمّا انتهى ذلك إلى **المرزبان** جمع جنده، وضبط حضرته؛ على حال ذعر وخوف شديد، وكتب إلى **كسرى** يستمده؛ وكان أهل حضرته؛ عندما خرج عنهم رئيس **الزمازمة**، وتوجه مع ملكهم إلى حصنه؛ قد قدّموا مكانه خليفته، وكان مرضياً

عندهم؛ فلمّا رأى ما فيه **المرزبان** من الذّعر والتّوقي، وقصده من اخافه بالمحنة والعقوبة؛ دخل على **المرزبان**؛ فقال له: إنّي أريد أن أسألك عن أمر؛ ظننت أن علمه عندك. فقال **المرزبان**: قلْ. قال: بلغني أنه مما أوصى به **أزدشير بن بابك**؛ ملك **بابل**؛ أنه قال: قد تخرج الرّعية بعنف السّياسة إلى ما لا تريد من المعصية، وأنّه قال في وصيته: ينبغي لمن تغلب على ملك وغصبه ربه؛ أن يحفظ الصورة والشريطة التي تسلم عليها تلك المملكة؛ فإنها محفوظة عليه وثابتة؛ في عقد تسلمه تلك المملكة، وأنها ستخرج من يديه بمثل ما صارت به إليه. وقيل: أن هذه الوصية كانت مكتوبة في مجلسه؛ بإزاء سريره، وموضع قضائه؛ ففهم **المرزبان** ما أراد؛ إلاّ أنّه أحبّ الوقوف على آخر ما عنده. فقال: الأمر على ما بلغك أيها الشّيخ. فقال رئيس **الزمازمة**: إذا كان الأمر على ما بلغني؛ فما لك لم تستعمل الحكمة التي علمت، وعنفت في سياسة الرعية؛ عنفاً أخرجها أو لعلّه يخرجها عنِ الطّاعة؛ ولم تحذر خروج هذه المملكة من يدك؛ بمثل ما صارت إليك. فلمّا سمع **المرزبان** مقالة رئيس **الزمازمة** انتهره، وتهدده؛

وكان شيخاً ضعيف البدن، كبير السّن؛ فسقط إلى الأرض مغشياً عليه، وحمل إلى منزله فمات بعد أيّام؛ فعظمت المصيبة لموته، وساءت القالة، وسمحت الأنفس من الشّقاق؛ بما كانت منقبضة عنه؛ وفشا ذلك في الرّعية فشواً تاماً؛ فاستحضر **المرزبان** وجوه من بحضرته؛ فوعظهم، وحذّرهم بطش **كسرى**، ورغّبهم في العافية؛ فأرضوه بألسنتهم، وتسلّلوا عنه؛ وغاظه أمر أهل الأطواف المنتقضة؛ وشغل عنهم **المرزبان** بتحصين البيضة؛ فبعثوا رسلاً إلى **الأركن**؛ الذي كان ملكهم يسئلونه الصّفح عنهم؛ وأن يبعث إليهم رجلاً؛ ينحازون إليه؛ فأعطاهم أماناً عاماً، واستعمل عليهم عاملاً؛ فألقوا إليه المقاليد، واستنصروا في طاعته، ونصحوا في الذّبّ عنه؛ واضطر **المرزبان** إلى أن يبعث إليه جيشاً فبعث؛ فعادوا منهزمين مفلولين؛ ولم يجد بداً من الخروج إليهم بنفسه؛ فحصّن دار الملك، واستخلف عليها من ظنّ أنّه يضبطها؛ وخرج متوجهاً إلى عدوّه؛ فلمّا فصل عن المدينة؛ وثب أهلها بأصحابه؛ فاستوعبوهم قتلاً وتشريداً، وأحرزوا مدينتهم؛ وبلغ ذلك **المرزبان**؛ فاستمر لوجهه خارجاً من تلك المملكة؛ حتى قدم على **كسرى** طريداً مفلولاً. وعاد **الأركن** إلى دار

ملكه؛ فجرى على سيرة العدل، والأخذ بالحزم، وقمع شهواته، واستعمل الحنكة التي أفادته التّجارب إياها.

*****

الملحق الثاني

لمّا عزم سابور بن هرمز على الدّخول إلى بلاد الرّوم متنكراً متجسساً؛ نهاه نصحاؤه، وحذّروه التغرير بنفسه في أمر يمكنه أن يستنيب فيه غيره؛ فعصاهم. وكان يقال: ((أشقى الناس وزراء الأحداث من الملوك، وعشاق الفتيات من الشيوخ)). وكان يقال: ((إنّما عسر صرف الأحداث عن غيّ الهوى إلى رشد الرّأي لأمرين: أحدهما؛ قوّة سلطان الشّهوات عليهم، والثاني؛ أنّ التّجارب لم ترض قواهم على مخالفة هواهم. وذوُو الحنكة بخلاف ذلك)). وكان يقال: ((لاَ تستخفّن بأمرك، ولا تستبدّن بتدبيرك؛ فإنّ من استخفّ بتدبيره ذلّ، ومن استبدّ برأيه زلّ)).

ثم إن سابور؛ توجه إلى بلاد الروم، واستصحب وزيراً كان له ولأبيه من قبله؛ وكان شيخاً ذا دهاء، وحزم، وسداد رأي، وحنكة، وبصر بالدّيانات، واللّغات، وتبحّر في العلوم، وخبرة بالمكائد؛ فسلّم إليه سابور جميع ما يظنّ أن له إليه به

من حاجة، أو تدعوه له داعية؛ و أمره أن ينحاز عنه؛ في قرب منه؛ ومراعاة لجميع أحواله في نهاره وليله؛ وتوجها معاً نحو الشّام؛ فتزيّا ذلك الوزير بزيّ الرّهبان، وتكلم بلسان **الجلالقة**، واحترف بصناعة الطبّ والجراحة؛ وكان معه الدّهن اليمني؛ الذي إذا دهنت به الجراح برئت، واندملت في الحال.

قال محمد[1] **عفا الله عنه**: رأيت جماعة ذكروا أنّهم رأوا هذا الدّهن، وحدّثني بعضهم؛ أنّه امتحنه بأنْ شرَّح اللّحم، ودهنه منه؛ فالتأم مكانه.

فكان ذلك الوزير – في مسيره نحو **بلاد الرّوم**، وبعدما دخلها – يداوي الجرحى بأدوية؛ يضيف إليها شيئاً يسيراً من ذلك الدّهن؛ فتبرأ جراحهم بسرعة؛ وإذا عنيَ بأحد من ذوي الأقدار داواه بذلك الدهن صرفاً؛ فيبرأ مكانه؛ ولا يأخذ على المداواة أجراً؛ فانتشر له – في **بلاد الروم** – ذكر وصيت؛ بالعلم، والزّهد. وكان يقال: ((**من غرس العلم اجتنى النباهة، ومن غرس الزّهد اجتنى العزّة، ومن غرس الإحسان اجتنى المحبّة، ومن غرس الفكرة اجتنى الحكمة، ومن غرس الوقار**

---

[1] **محمد بن ظفر.**

اجتنى المهابة، و من غرس المداراة اجتنى السّلامة، ومن غرس الكِبر اجتنى المقت، ومن غرس الحرص اجتنى الذّل، ومن غرس الطّمع اجتنى الخزي، ومن غرس الحسد اجتنى الكمد)). وكان يقال: ((الأمم؛ على اختلاف: أديانها، وأزمانها، وبلدانها؛ متفقة على حمد أخلاق أربعة: العلم، والزّهد، والإحسان، والأمانة)).

قيل: فانطلق سابور ووزيره منفردين؛ إلاّ أن الوزير يراعي أحوال سابور أشدّ المراعاة؛ فلم يزالاَ على ذلك؛ حتّى طافا جميع الشّام، وتجاوزا الدّروب، وقصدا القسطنطينية؛ فقدماها؛ فذهب الوزير إلى البطرك – وتفسير هذا الاسم: أبو الأباء – فاستأذن عليه، فأذن له، وسأله عمّا يريد؛ فأخبره أنّه هاجر إليه من أرض الجلالقة؛ ليتشرف بخدمته، ويدخل في أتباعه؛ وأهدى إليه هديّة نفيسة؛ حسن موقعها من البطرك؛ فقرّبه، وأكرمه، وأحسن نزله، وألحقه ببطانته، واختبره؛ فوجده لبيباً، ممتعاً؛ فأعجب به غاية الإعجاب، وجعل الوزير يتأمل أخلاق البطرك؛ ليصحبه بما يوافقه، ويتنفق عنده، ويحسن موقعه منه. وكان يقال: ((إذا أردت صحبة رئيس؛

فأنظر ماذا يستميل نفسه، وينفق عنده من الآلات؛ فإن كنت مطيقاً للعمل بها في طلب إقباله؛ عليك وحظوتك عنده؛ فاقدم عليه؛ و إلاّ فرضْ نفسك على ذلك؛ حتى تعلم أنها قد أطاقته وأحكمته؛ فتقدم على بصيرة)).

قيل: فلمّا تأمّل وزير **سابور** أخلاق **البطرك**؛ وجده مائلاً إلى الفكاهات، معجباً بنوادر الأخبار؛ فأخذ الوزير في إتحافه بكل نادرة غريبة، وملحة عجيبة؛ فلم تطل المدّة به في صحبته؛ حتى حلَي بعينه وقلبه، وصار ألصق به من شعرات جفنه. وجعل ـ مع ذلك ـ يعالج الجرحى، ولا يأخذ على ذلك عوضاً؛ فعظم قدره عند النّاس، ورمقته القلوب. وكان يقال: **((إذا كانت القلوب مجبولة على منّة المحسنين؛ كانت المحبّة رقّاً))**. والأحرار يكرهون الاسترقاق؛ فالحرّ ـ على الحقيقة ـ من فدى نفسه من رقّ المحسنين؛ بمكافأتهم على إحسانهم جهده؛ إذا لم يستطع؛ فليرق نفسه لهم معذوراً.

وجعل الوزير يتعاهد أحوال **سابور**، وفي كلّ وقت؛ إلى أن صنع **قيصر** وليمة؛ وحشد إليها النّاس على طبقاتهم، وتهدّد من يتخلف عنها. فأراد **سابور** حضورها؛ ليطلع على هيئة **قيصر**، وهمّته في

قصره، وذخائره؛ فنهاه وزيره على التّغرير بنفسه؛ فعصاه، وتزيّا بزيٍّ؛ ظنّ أنّه يستر به أمره؛ ودخل دار **قيصر**؛ مع من حضر الوليمة. وقد كان **قيصر**؛ لمّا بلغه ما أيدّ الله به **سابور** من لطف الفطنة، وعظم الهمّة، وشدّة البأس في حال صباه؛ حذره حذراً شديداً؛ فبعث إلى حضرته بمصوّر ماهر؛ فحكَى صورة **سابور** في مجلسه، وحال ركوبه، وغير ذلك من ضروب الأحوال؛ التي شاهده المصور عليها؛ وقدم بتلك الصّور على **قيصر**. فأمر **قيصر** بأن تصوّر تلك الصّور على فرشه، وستوره؛ وفي آلات أكله وشربه؛ فصنع ذلك على ما أمر به رسمه.

فلمّا دخل **سابور** دار **قيصر**، واستقر في مجلسه، وطعم مع من حضر ذلك المجلس؛ أتوا بشراب في كؤوس: البلّور، والذّهب، والفضة، والزجاج؛ وكان بالمجلس رجل من حكماء الروم؛ ذو فراسة صادقة؛ فلمّا وقعت عينه على سابور أنكره، وجعل يتأمل شخصه، ونظرته، وإشارته؛ فرأى عليه مخائل الرّياسة؛ فطفق يستشبهه؛ ولا يصرف بصره عنه؛ فأتي ــ ذلك الرومي المتفرس ــ بكأس فيها صورة **سابور**؛ فتأملها؛ فانطبعت في نفسه مثالاً

لسابور؛ وغلب على ظنّه أنّه هو؛ فأمسك القدح في يده طويلاً؛ ثم قال رافعاً صوته: إنّ هذه الصّورة التي في هذا القدح لتخبرني خبراً عجيباً؛ فقيل له: ما الذي تخبرك. فقال: تخبرني أنّ الذي هي مثال له معنا في المجلس؛ ونظر إلى سابور؛ وقد تغيّر حين سمع مقالته؛ فحقق ما ظنّه، وأعاد القول؛ فبلغ كلامه **قيصر**؛ فأدناه وسأله؛ فأخبره أن سابور معه في مجلسه؛ وأشار إليه؛ فأمر **قيصر** بالقبض على **سابور**؛ فقبض عليه، وقرب من **قيصر**؛ فسأله عن نفسه؛ فتعلل بضروب من العلل؛ فقال ذلك المتفرس: لا تقبلوا قوله؛ فهو سابور لا محالة؛ فأمر **قيصر** بقتله ليرعبه بذلك؛ فاعترف بأنّه **سابور**؛

وكان يقال: ((**قلوب الحكماء تستكشف الأسرار من لمحات الأبصار وطال ما دلّت أوائل المبصرات على أواخر المنتظرات**)). وقيل: ((**كما أن الأبصار مرايا تنطبع فيها المشاهدات؛ إذا سلمت من صداء الآفات؛ فكذلك القلوب مرايا تنطبع فيها الغائبات؛ إذا سلمت من صداء الشّهوات**)). وقيل: ((**مِنَ الأدلّة على مكاشفة الله القلوب في بعض الغيوب؛ أنّ الإنسان قد يتوقّع الشّيء يكرهه أو**

يحبه؛ ثمّ يكون ذلك الشّيء على نحو ما توقّع؛ فقد يرى الإنسان الإنسان؛ فيحبّه لغير إحسان فرط منه إليه، أو لغير إساءة جناها عليه؛ ثم يكون منه الإحسان أو الإساءة)).

قيل: فلمّا اعترف **سابور** بصدق ذلك المتفرّس؛ حبسه **قيصر** مكرماً، وأمر؛ فعملت له من جلود البقر صورة بقرة؛ كأعظم ما يكون من البقر؛ وطويت عليه الجلود؛ سبع طبقات، واتخذ لها باباً ــ من أعلاها ــ في ظهر الصّورة؛ يدخل إليه شيءٌ ويخرج منه؛ وجعلت فيها كوّة في أسفلها؛ في موضع المبال. وأمر **بسابور**؛ فجمعت يداه إلى عنقه بجامعة من الذّهب؛ ذات سلسلة؛ ليمكنه معها تناول ما يصلحه من الطّعام وغيره، وأدخل **سابور** في جوف تلك الصورة؛ وهذا بعد أن حشد **قيصر** جنوده، واستعد لغزو **بلاد الفرس**؛ ووكّل بتلك الصّورة التي سجن فيها **سابور** مائة رجل؛ من ذوي البأس والقوّة؛ يحملونها دولاً بينهم؛ وجعل على كلّ خمسة منهم رئيساً يضبط أمرهم، وصرف أمر جميعهم إلى **المطران**؛ ومعنى هذا اللّقب: صاحب البلد؛ إلاّ أنّها رياسة دينية؛ وهو خليفة **البطرك**؛ فكانت تلك الصّورة؛ التي فيها **سابور** في متوسط

العسكر؛ وضربت عليها قبّة تسترها، وأطاف بها خمسون من المتوكلين بها؛ ورؤساؤهم معهم؛ وضربت حولها عشر قباب مستديرة بها؛ فكان في كلّ قبّة خمسة؛ ورئيسهم معهم؛ وضربت **للمطران** قبّة مجاورة لقبة **سابور**؛ وضربت خارج القباب كلّها خيمة؛ يصنع فيها طعام المتوكّلين بقبة **سابور**؛ على حسب أقدارهم، ومراتبهم.

وسار **قيصر** متحفّلاً في جنوده؛ وقد عزم على خراب **بلد الفرس**، وتعفية معالم ملكهم؛ لعلمه ألاّ دافع يدفعه عنهم. وكان يقال: **((الحزم التزام مداجاة العدوّ؛ ما دامت لدولته ريح إقبال؛ كما أنّ العجز إضاعة الفرصة فيه؛ إذا أدبرت دولته، وركدت ريح إقباله))**. وكان يقال: **((العاقل؛ لا يكون في ملك سلطان اجتمعت فيه خصلتان: الانهماك في اللّذات، وإضاعة الفرص))**. وكان يقال: **((تميز الملوك عن السّوقة؛ إنّما يكون بفضيلة الذّات؛ لا بفضيلة الآلات. وفضيلة ذات الملوك بخمس خصال: رحمة تشمل رعيّته، ويقظة تحوطهم، وصولة تذبّ عنهم، ولباقة يكيد بها الأعداء، وحزامة ينتهز بها الفرص؛ فهذه فضيلة الذات؛ وأما فضيلة الأدوات: فاتخاذ المباني**

الوثيقة العلية، والملابس الأنيقة السّرية، والذخائر النّفيسة السّنية، والمطاعم الشّهيّة، والمراكب البهيّة. فهذه فضائل الأدوات؛ على ما دُونِها من أجناسها؛ فيكون للقصر فضل على غيره من القصور، وللثّوب فضل على غيره من الثّياب وللذّخيرة فضل على غيرها من الذّخائر، وللطعام فضل على غيره من الأطعمة، وللدّابة فضل على غيرها من الدّواب؛ فالفضيلة لهذه الأشياء؛ لا لمالكها)).

قيل: سار قيصر بجنوده؛ ومعه سابور على الهيئة التي ذكرناها. قال وزير سابور للبطرك؛ إنّما استفدت بخدمتك، والقرب منك؛ الرّغبة في صالح الأعمال؛ وأنّه لا عمل أفضل من تنفيس كربة عن مجهود، وجرّ نفع إلى مضطرّ؛ وقد علمت كفايتي في معاناة الجرحى؛ وأن نفسي لتنازعني إلى الصّحبة للملك في سفره هذا؛ فلعلّ الله أنْ يستنقذ بي نفساً صالحة؛ يترحّم عليّ من أجلها، ويقدّس قلبي بخدمتها؛ فكره **البطرك** ذلك؛ وقال له: قد علمت أنّي لا أستطيع فراقك ساعة؛ فكيف تطالبني بالسّفر البعيد؛ ما ظننت أنّك تلقاني بما أكرهه، وتسومني بما يشقّ عليّ احتماله؛ كما لم أظنّ أنّك تؤثر شيئاً من الأشياء على القرب منّي، والتّحبب

إليّ؛ فقد أزلتني عن حسن ظنّي بك؛ ولم يزل الوزير يتضرّع إلى **البطرك**، ويتملّق، ويقرب إليه العودة؛ إلى أنْ سمح له بذلك؛ فأذن له، وزوّده، وكتب معه إلى **المطران**؛ يخبره فيه: أنّه قد بعث إليك بسويداء قلبه، وسواد بصره؛ فليحلّه من نفسه بأعلى المراتب، وليستضيء برأيه فيما أشكل عليه. فقدم وزير **سابور** على **المطران**؛ فعرف له حقّه، وأنزله معه في قبّته، وجعل زمام أمره ونهيه في يده؛ وجعل الوزير يتنفق على **المطران** بما يعجبه، ويستميله بما يميل به إليه، ويطرفه كلّ ليلة بأخبار ممتعة؛ رافعاً بها صوته؛ ليسمع **سابور** حديثه؛ فيتسلّى بذلك، ويدسّ في أحاديثه ما يجب أن يعلمه **سابور** من الأخبار، ويفطّنه إيّاه من الأسرار؛ فكان **سابور** يجد لذلك أعظم راحة؛ وكان الوزير قد أعدّ لتخليص **سابور** أنواعاً من المكائد؛ رتّبها، وأسسها عندما قدم على **المطران**.

وكان يقال: ((**من ظنّ من الملوك أنّ لفطنته فضيلة على فطنه وزيره فقد غلط؛ وإنْ أضاف إلى هذا الغلط مخالفة الوزير؛ لم يفلح؛ وإنّما كانت فطن الوزراء أثقب من فطن الملوك؛ لأنّ الملوك يتفقهون ــ أبداً ــ في سياسة من دونهم**

من الرّعايا؛ لا غير؛ والوزراء يتفقهون في سياسة الملوك، وسياسة الرّعايا؛ فهم أشبه شيء بالجوارح؛ التي تصيد، وتفترس، وتصيدها أيضاً جوارح أشدّ منها؛ فهي أعرف الجوارح بمكائد الاحتراس، ومكائد الاكتساب)). وكان يقال: ((أحسن الوزراء حالاً من أعدّ لكلّ أمر - يجوز وقوعه، ويمكن كونه - عدة؛ وإذا وقع الأمر؛ قابله بما كان أعدّ له. وأسوأ الوزراء حالاً من توكّل على لطف فطنته، وقوّة حيلته، ودربة ممارسته؛ فترك الإعداد للأمور - وقبل نزولها - ثقة بنفسه؛ وإنّما هو ذلك بمنزلة من ترك تزوير القول، وإعداده، وترويته؛ توكّلاً على فصاحته، وقوة بديهته، وحسن ارتجاله؛ فيوشك أن يستولي على العيّ، والحصر في بعض مقاماته؛ وبمنزلة من ترك حمل السلاح؛ توكّلاً على قوّة بدنه، وشجاعة قلبه؛ فيوشك أنْ يظفر به عدوّه؛ في بعض المواطن)).

قيل: وكان من المكائد التي أعدّها وزير سابور؛ أنّه امتنع من مواكلة **المطران**، وزعم أنّه لا يريد أن يخلط بالطّعام الذي زوّده **البطرك**؛ طعاماً غيره؛ لما يرجوه من بركة الاغتذاء به؛ فكان إذا

حظر طعام المطران؛ أخرج هو من ذلك الزاد؛ فانفرد بالأكل منه. فلم يزل قيصر سائراً بجنوده حتّى بلغ أرض فارس؛ فأكثر فيها القتل، والسّبي، وتغوير المياه، وقطع الشّجر، وإخراب القرى والحصون؛ وهو ـ مع ذلك ـ يواصل السّير؛ مبادراً ليستولي على دار ملك سابور، ويباغت من بها من رؤوساء الفرس؛ قبل أن يملكوا عليهم رجلاً.

ولم يكن للفرس همّ إلاّ الفرار بين يديه، والتّحصّن بالمعاقل. فلم يزل قيصر على ذلك؛ حتّى بلغ مدينة سابور، وقرارة ملكه؛ وهي المسماة جنديسابور؛ فأحاط بها جنوده، ونصب عليها المجانيق، ولم يكن عند من بها من عظماء الفرس حيلة في دفعه؛ بأكثر من ضبط الأسوار، والقتال عليها؛ وكلّ هذا قد علمه سابور؛ على التّفصيل؛ بما يفهمه إيّاه وزيره، ويدسّه في أحاديثه من الإشارات، والرّموز، والكنايات. وكان سابور؛ لم تُسمع منه كلمة؛ منذ سجنه قيصر في تلك الصورة. فلمّا عرف سابور أنّ قيصر قد ثقلت وطأته على أهل جنديسابور، وثلم الأسوار بالمجانيق، وأشرف على افتتاح المدينة؛ عيلَ صبره، وساء ظنّه بوزيره، وجزع، ويئس من النّجاة؛ ممّا هو فيه؛

فلمّا جاءه الموكل بطعامه؛ قال له: إنّ هذه الجامعة قد نالت منّي منالاً؛ ضعفت عن احتماله؛ فإنْ كنتم تريدون بقاء نفسي فنفّسوا عنّي منها، واجعلوا بينها وبين عنقي ويدي خرقاً من الحرير؛ فجاء الموكل بطعامه إلى **المطران**؛ فأعلمه بمقالة **سابور**، وسمعها وزير **سابور**؛ فعلم أنّ **سابور** قد جزع، وساء ظنّه؛ وفطن لما قصده **سابور**.

فلمّا جنّ اللّيل، وجلس لمسامرة **المطران**؛ قال له: لقد تذكرت الليلة حديثاً غريباً؛ ما ذكرته منذ كذا وكذا سنة؛ ووددت أنّي لو كنت حدّثته **للبطرك** قبل سفري عنه؛ فقال **المطران**: إنّي راغب في أنْ تحدّثني به اللّيلة؛ أيّها الحكيم الرّاهب؛ فقال الوزير: نعم وكرامة؛ ثم اندفع يحدثه رافعاً صوته؛ ليسمع **سابور**. فقال: أنه كان عندنا **بجليقية** فتى وفتاة؛ في غاية الحسن، والظّرف؛ واسم الفتى عين أهله، واسم الفتاة سيدة النّار؛ وكانا زوجين مؤتلفين؛ متحابّين؛ لا يبغي أحدهما بالأخر بدلاً؛ وأن عين أهله؛ جلس يوماً مع أصحاب له يتحدثون؛ فتذاكروا النّساء؛ إلى أن وصف أحدهم امرأة بالجمال البارع، والظّرف الرّائع؛ اسمها ما معناه سيّدة الذّهب؛ فوقع بقلب عين أهله ميل إليها؛ فسأل

الواصف لها عن منزلها؛ فذكر له أنّها بقرية غير قرية عين أهله؛ ففكّر عين أهله في أمرها، وخامره حبّها، وطمحت نفسه إليها؛ طموحاً شديداً.

وكان يقال: **((العقل كالبعل، والنّفس كالزّوجة له، والجسم كالبيت لهما؛ فإذا كان سلطان العقل على النّفس مبسوطاً؛ اشتغلت النّفس بمصالح الجسم؛ كاشتغال المرأة التي قهرها بعلها بمصالح نفسها، وبيتها، وولدها، وبعلها؛ وصلحت الجملة. وإذا كان السّلطان للنّفس على العقل؛ كان سعي النّفس فاسداً، ونزاعاتها مذمومة؛ كفعل المرأة التي قهرت بعلها))**. قيل: فانطلق عين أهله إلى القرية التي تسكن بها سيدة الذّهب، وطلب منزلها حتّى عرفه؛ ولم يزل يتردّد إليها حتّى رآها، فرأى منظراً معجباً؛ ولم تكن بأحسن من امرأته. ولكنّه كان يقال: **((من ضرورة النّفس؛ أن تحنّ إلى التنقّل في الأحوال؛ إذ كانت نقلت بالتّركيب إلى عالم الكون؛ ثمّ ينتقل بالتفريق إلى عالم الفساد؛ وما افتتح أمره بالنّقلة؛ فأليق الأحوال به النّقلة))**. ونازعت عين أهله نفسه؛ إلى الاستكثار من رؤية سيدة الذّهب؛ فلزم المعاودة إلى منزلها، والتّمتع بتأمّلها؛ حتّى فطن له بعلها؛ وكان **جليقياً** غليظ الطّبع، قاسي القلب،

شديد البطش؛ يسمى الذّئب؛ فترصّد عين أهله؛ حتّى مرّ به؛ فلمّا رآه وثب عليه؛ فقتل فرسه، ومزّق ثيابه، وتعتعه، وعنف عليه، واستعان بأصحاب له؛ فاحتملوا عين أهله، وأدخلوه إلى دار الذئب، وربطوه إلى سارية في بيت من بيوتها، ووكّل به الذئب عجوزاً قطعاء اليد، جدعاء الأنف، عوراء العين، شوهاء الحالة.

فلمّا جنّ عليه اللّيل؛ أوقدت العجوز ناراً تصطلي بها؛ فتذكّر عين أهله ما كان فيه من السّلامة، والرّفاهية، والعزّ؛ فزفر زفرة عالية؛ فأقبلت عليه العجوز، وقالت: يا أيّها الفتَى؛ ما ذنبك الذي أوردك مورد الذّلّة والشدة؟ فقال عين أهله: ما علمت أنّ لي ذنباً. فقالت العجوز: هكذا قال الفَرَسُ للخنزيرِ؛ فلم يصدّقه الخنزيرُ؛ ثم باحثه عن أمره؛ فظهر على ما خفي عنه، وعلم صدق ظنّ الخنزير. فقال عين أهله للعجوز: إنْ رأيت أنْ تحدّثيني بذلك فإنّك تحسنين إليّ به. فقالت العجوز: ذكر أن فرساً كان لرجلٍ من الشّجعان؛ وكان يكرمه، ويحبّه، ويحسن القيام عليه، ويعدّه لمهمّاته؛ ولا يصبر عنه ساعة؛ وكان يخرج به في الغدوات إلى مرج؛ فيزيل سرجه ولجامه، ويطيل رسنه؛

فيتمرغ حتى تطلع الشّمس؛ فيردّه. وأنه خرج به يوماً إلى المرج، ونزل عنه؛ فلمّا استقرت قدمه على الأرض؛ نفر الفرس، وجمح، ومرّ يعدو بسرجه ولجامه؛ فطلبه الفارس يومه كلّه؛ فأعجزه، وغاب عن عينه إلى غروب الشّمس؛ فرجع الفرس، وأظلم عليه الليل؛ جاع؛ فرام أن يرعى فمنعه اللّجام، ورام أن يتمرّغ؛ فمنعه السّرج، ورام أنْ يستقرّ على أحد جنبيه؛ فمنعه من ذلك الرّكابان؛ فبات بشرّ ليلة.

ولمّا أصبح؛ ذهب يبتغي فرجاً ممّا هو فيه؛ فاعترضه نهرٌ؛ فدخله ليقطعه إلى ضفّته الأخرى؛ فإذا هو بعيد القعرِ؛ فسبح فيه، وكان حزامه ولببه من جلدٍ لم يبالغ في دبغه؛ فلمّا خرج من النّهر؛ أصابت له الشّمس الحزام واللّبب؛ فيبسا، واشتدّ عليه؛ فورم لبابه ومحزمه، واشتدّ الضّرر عليه؛ إلى ما به من الجوع؛ فلبث بذلك أيّاماً إلى أن ضعف عن المشي؛ فقام؛ فمرّ به خنزيرٌ؛ فهمّ بقتله؛ ثمّ عطّفه عليه ما رأى به من الضّعف؛ فسأله عن حاله، فأخبره بما هو فيه؛ من أضرار: اللجام، والحزام، واللّبب؛ وسأله أن يصطنع عنده معروفاً، و يخلّصه مما ابتليَ به؛ فسأله عن الذّنب الذي استحق به تلك العقوبة؛ فزعم الفرس ألاّ ذنبَ

لـه. فقـال لـه الخنزيـر: كـلاّ؛ بـل أنـت كـاذبٌ في زعمـك، أو جاهـل بجرمـك؛ فـإنْ كنـت كاذبـاً؛ فمـا ينبـغي لي أن أُنَفِّسَ عنـك خناقـاً، ولاَ أصطنـع عنـدك معروفـاً، و لاَ أنْ أتخـذك وليـاً، ولاَ ألتمـس عنـدك شكـراً، وأطلـب فيـك أجـراً.

وأنـه كـان يقـال: ((أنّـه إذا رأيـت نَفْـسَ الكـذّاب؛ قـدْ تَشبَّـثَ بهـا عالـم الفسـاد؛ فكِلْهـا إليـه؛ لأنّـه اللاّئِـق بهـا؛ لفسـاد تركيبهـا. والدّليـل عـلى فسـاد تركيـب نفـس الكـذّاب؛ أنّهـا مضطربـة، مُعْرِضَـة عـن الحقيقـة في الحـوادث، ونزّاعـة إلى العـدم المحـض؛ فتتصـوّر الوجـود عدمـاً، والباطـل حقّـاً؛ وتصـوّر ذلـك في نفـس المغتـرّ بهـا، الرّاكـن إلى قولهـا)). وكـان يقـال: ((إحـذرْ مقاربـة ذوي الطّبـاع المرذولـة؛ لئـلاّ تسـترق طباعـك مـن طباعهـم وأنـت لا تشعـر)). وكـان يقـال: ((أصعـب مـا يعانيـه الإنسـان؛ ممارسـة صاحـب لا تحصـل منـه حقيقـة)). وكـان يقـال: ((لا تطمـع في استصـلاح الـرّذل، والحصـول عـلى مصافاتـه؛ فـإن طباعـه أصـدق لـه منـك؛ فلـن يتـرك طباعـه لـك)). ثـم قـال الخنزيـر: وإنْ كنـت يـا فـرس جاهـلاً بجرمـك؛ الـذي استوجبـت بـه هـذه العقوبـة؛ فجهلـك بذلـك أعظـم

منه. فمن جهل ذنوبه؛ أصرّ عليها، ولم يرج فلاحه.

وكان يقال: ((احذر الجاهل؛ فإنّه يجني على نفسه؛ ولست أحبّ إليه منها)). وكان يقال: ((ما شيء أشبه بالكذب من الجهل؛ لأن الكذّاب يتناسى الصّورة، والقضية المحسوستين؛ ويتخيّل الكذب؛ الذي هو ضدّهما حتى ينطبع ذلك في عقله؛ ويترك الصّواب عمداً إلى غيره. والجاهل يرى الأشياء على خلاف ما هي عليه؛ فيرَى القبيح حسناً، والحسن قبيحاً؛ وإنّما الفرق بين الجاهل والكاذب؛ أنّ الكاذب يأتي ما يعلم خطأه فيه، والجاهل لا يعلم ذلك؛ فهو على نفسه، وعلى غيره أشدّ جناية من الكاذب)). فقال الفرس للخنزير: ينبغي لك ألاّ تزهد في اصطناع المعروف. فقال الخنزير: لست بزاهد في ذلك، ولكنّه كان يقال: ((العاقل يتخيّر لمعروفه؛ كما يتخيّر الباذر لحبوبه التي يبذرها؛ فيما زكى من الأرض)). فحدّثني يا فرس عن ابتداء أمرك؛ فيما نزل بك، وعن حالك قبل ذلك؛ لأعلم من أينَ دهيت؛ فحدّثه الفرس بجميع أمره، وكيف كان عند فارسه، وكيف فارقه، وما لقيَ في طريقه؛ الى حين اجتماعه به. فقال له

الخنزير: قد ظهر الآن أنّك جاهل بجرمك، وأنّ لك ذنوباً ستة: أولها؛ خذلانك فارسك الذي أحسن إليك، وأعدّك للمهمات. والثاني؛ كفرك لإحسانه. والثالث؛ إضرارك به في طلبك. والرابع؛ تعدّيك على ما ليس لك؛ و هو السّرج، واللّجام. والخامس؛ إساءتك إلى نفسك؛ بتعاطيك التّوحش؛ الذي لست له أهلاً، ولا لك عليه مقدرة. والسّادس؛ إصرارك على ذنبك، وتماديك في غوايتك؛ فقد كنت متمكناً من العود إلى فارسك، والاستقالة من فرط جهلك؛ قبل أن يوهنك اللّجام بالجوع، واللّبب والحزام بالضبط. فقال الفرس للخنزير: أمّا إذ عرّفتني ذنوبي، وأيقظتني ممّا كنت ذاهلاً عنه، محجوباً بحجاب الجهل؛ فانطلق الآن، ودعني فإنّي مستحقّ لأضعاف ما أنا فيه. فقال الخنزير: أمّا إذ عرفت وفطنت لهذا القدر، ولمت نفسك، ووبّختها، واخترت لنفسك العقوبة على جهلها، واستعملت الحكمة التي وعيتها؛ فإنّك حقيق بأنْ يُنفّس عنك. وأنه قيل: أن **الأب لوقا** كتب على باب بيته: **((لنْ ينتفعَ بحكمتنا إلاّ من عرف نفسه، ووقف بها عند قدرها؛ فمن كان بهذه الصّفة فليدخل؛ وإلاّ فليرجع؛ حتّى يكون بهذه الصّفة))**. ثمّ

إنّ الخنزير قطع عذار اللّجام؛ فسقط، وقطع الحزام؛ فنفس عن الفرس.

قال: فلمّا سمع ـ عين أهله ـ ما خاطبته به العجوز، وفهم ما ضربت له من الأمثال؛ أقبل على العجوز؛ وقال لها: قد صدقت فيما نطقت، وضربت لي مثلاً كشف لي عن جليّة أمري، وأفَدْتِني حكماً لا كفاء لها، وأدبتني فتأدبت، ووعظتني فاتّعظت. ثمّ حدّثها، ورغب إليها في أن تمنّ عليه بالاصطناع، وتطلقه كما فعل الخنزير بالفرس. فقالت العجوز: إنّك غرّ؛ لا بصيرة لك بأكثر الأمور، وأن الذي سألتني لا يمكنني الآن فعله، ولعلّي أجد لك فرجاً ومخرجاً ممّا أنت فيه؛ فعليك بالصّبر. وأمسكت العجوز عن مخاطبته.

قال: فلمّا انتهى الوزير ـ في حديثه ـ إلى هذه الغاية؛ أقبلَ المطران، وقال إنّي أحسّ في رأسي صداعاً، وفي أعضائي فتوراً ولا يمكنني اللّيلة إتمام الحديث، ولعلّي أنْ أكون في اللّيلة القابلة نشيطاً؛ إلى ذلك قديراً عليه؛ فأكمل مسامرتك باكماله؛ ونهض إلى مضجعه. فجعل **سابور** يتصفّح حديث وزيره، ويتأمّل الأمثال التي رصّعه بها؛ ففهم أنّ الوزير قد كنى عنه **بعين أهله**؛ لأنّه ملك **فارس**، وكنى عن

مملكته وإقليم **بابل**؛ **بسيدة النّار**؛ لأن رعيّته يعبدون النّار، وكنى عن **بلاد الروم**؛ **بسيّدة الذّهب**، وكنى عن طموح نفس **سابور** إلى رؤية **مملكة الروم**؛ بطموح **عين** أهله إلى رؤية **سيدة الذهب**، وكنى عن أخذ **قيصر** له؛ بقبض الذّئب على **عين أهله**. وقصد ـ بما ضرب له من الأمثال الحكيمة تأديبه ـ على شرهه، وتغريره بنفسه، ومخالفته لنصحائه، وكنى عن نفسه، وحاله، وعجزه، وحزنه، وذلّه في خدمة **المطران**، وطلبه مرضاته، وتملّقه بالعجوز القطعاء، الجدعاء، العوراء، المشوّهة الخلق؛ وعرّفه أنّه لاَ يمكنه تخليصه في ذلك الوقت، وأنه ساعٍ في خلاصه؛ فسكنت نفس **سابور**؛ لمّا فهم ذلك، وعاود ثقته بوزيره، واستروح ريح الفرج.

ولبث بذلك ليلته وغدها؛ إلى اللّيلة القابلة؛ فلمّا تعشّى **المطران**، وأخذ مقعد المسامرة؛ قال للوزير: أيّها الرّاهب الحكيم؛ أخبرني ما كان من أمر **عين أهله**؛ وكيف كانت عاقبة شدّته. وهل خلّصته العجوز من وثاق الذّئب، أمْ لا؛ فإنّ نفسي إلى علم ذلك متطلعة؛ وأراك اللّيلة صالح الحالِ. فقال الوزير: سمعاً لقولك، وطاعة لأمرك؛ ثمّ أقبل عليه يحدثه؛ فقال: إنّ **عين أهله** أقام على حالته موثقاً

طول ليلته تلك؛ فلمّا أصبح دخل الذّئب فتهدّده بالقتل، وزاده إلى وثاقه قيداً ثقيلاً، وخرج عنه؛ فقطع **عين أهله** نهاره ذلك بالأماني؛ فلمّا أجنّه اللّيل قلق، واستوحش؛ فبكى، وانتحب؛ وجاءته العجوز؛ فأضرمت ناراً قريباً منه، وجلست تصطلي؛ ثم أقبلت على **عين أهله**؛ فقالت له: تعزّ واصبر، واذكر مصائب النّاس؛ فتأس بهم، ولا تذهل عن النّعمة العظمى في حفظ نفسك. فقال لها **عين أهله**: لقد صدق القائل: **((هان على الطّليق ما لقيَ الأسير))**. فقالت له العجوز: أيّها الفتى؛ إنّ حداثة السّنّ؛ قصّرت بك عنْ ادارك كثير من الحقائق؛ أفتسمع حديثاً لك فيه سلوة ؟ قال: نعم؛ فانعمي عليّ به. فقالت: ذُكِرَ أنّ تاجراً مكثراً؛ كان له ابن؛ ليس له ولدٌ غيره؛ وكان شديد المحبّة له، والشّغف به؛ فأتحفه بعض معارفه بغزال؛ شرخ، صغير؛ فعلق به قلب الغلام؛ فكان لا يفارقه. وجعل أهل الغلام على ذلك الغزال حلياً نفيساً، وارتبطوا له شاة مرضعة؛ حتّى إذا اشتدّ الغزال، وشدن، ونجم قرناه؛ فقال الغلام لأهله: ما هذا في رأس الغزال. قالوا: قرناه؛ فأعجبه سوادهما، وبريقهما. فقيل للغلام: إنّهما سيكبران، ويطولان؛ حتّى تكون

صفتهما كيت وكيت. فقال الغلام: لأبيه أحبّ أنْ أرَى ضبياً له قرنان كبيران؛ فأمر أبوه فصيد؛ له ظبيّ ثَنيّ السّن؛ قد استكمل قوة، ونمواً؛ فأعجب به الغلام، وأكرمه أهله، وحلّوه، وأنسوه؛ فأنس، وألف الغزال، والظّبي للمجانسة الطبيعية. فقال الغزال للظّبي: ما ظننت ــ قبل أن أراك ــ أن لي في الأرض شكلاً؛ ثمّ لمّا رأيتك وقع في نفسي أنّ لي أشكالاً سواك. فقال له الظّبي: نعم؛ إنّ أشكالك لكثيرة. فقال له الغزال: أينَ هي ؟ فأخبره الظّبي بتوحشها، وانفرادها في فلوات الأرض؛ فراراً من النّاس؛ وحدّثه عن مراتعها، ومواردها، وازدواجها، وتناسلها؛ فارتاح الغزال لما سمع من الظّبي؛ وتمنى أن يراها؛ فيكون معها. فقال الظّبي: هذه منية ليس لك فيها خير؛ وأنت قد نشأت في رفاهية من العيش، وأمنة لا تعرف غيرهما؛ ولو حصلت فيما تمنيت لندمت.

وأنه كان يقال: **((ثلاثة من لم ينزلها منزلتها، ويرع لها حقها؛ أسرعت مفارقته، والتّحول عنه عن قرب؛ وهي: الملوك، والعلماء، والنّعم)).** وكان يقال: **((الأماني في الشدّة ارتياح، وفي الرّخاء جماح؛ فلا ينبغي أن يأذن العاقل لنفسه من الأماني؛ إلاّ في المقدار الذي يؤنس الوحشة، وينفّس**

الكربة؛ فإن استيلاء الأماني على النّفوس؛ كتأمّر السّفل؛ الذين يعدّون الرّؤوس أعجازاً، والأعجاز رؤوساً؛ ويسعون في قلب الأعيان، وتغيير صورة الصّواب)). فقال الغزال للظّبي: لا بدّ لي من اللّحاق بأشكالي؛

فلمّا رأى الظّبي أنّ الغزال غير منته، وخاف عليه أن يقطع به؛ قبل بلوغه ما تمناه؛ لأنّه غرّ؛ لا يعرف التحرّز من مكائد الأنس؛ لم يجد بدّاً من إتّباعه، والكون معه؛ ليقضي حقّ حرمة أُلْفَتِهِ إيّاه؛ فرصد حيناً؛ يمكنه فيه الفرار، وخرجا جميعاً؛ حتّى لحقا بالصّحراء؛ فلمّا عاينها الغزال فرح ومرح، وذهب يعدو؛ لا يثنيه شيء؛ فسقط في أخدود ضيّق؛ قد قطعه السّيل؛ فنشب فيه؛ وانتظر أن يأتيه الظّبي ليخلصه؛ فلم يأته؛ فبقي هنالك. وأمّا ولد التّاجر؛ فإنّه لمّا أصبح؛ عدم الغزال والظّبي؛ فجزع لفقدهما، وأشفق عليه؛ فاستدعى كلّ من يعاني الصّيد بذلك البلد؛ فعرّفهم القضيّة، وكلّفهم طلب الظّبي والغزال، ووعد من وجدهما له؛ وعداً مرغوباً فيه؛ وانبثّوا في سهل الأرض، وحزنها يطلبون. وركب التّاجر دابّته، وفرّق اتباعه على أبواب المدينة؛ ينتظرون من يأتي من

الصّيادين؛ وانطلق هو وعبدان من عبيده؛ حتى أتوا الصّحراء فرأوا على بعد رجلاً؛ مكباً على شيء بين يديه؛ فأسرع نحوه؛ فإذا هو صيّاد قد أوثق ظبياً؛ وهو يريد ذبحه؛ فتأمله التّاجر؛ فإذا هو ذلك الظّبي الذي يطلبه؛ فتخلصه من يد الصّياد، وأمر عبديه ففتّشاه؛ فوجدا معه الحلي؛ الذي كان على الظّبي؛ فسأله: كيف ظفر بالظبي، وأين وجده؟ فقال: إنّي بتّ أتصيّد؛ فنصبت شركاً، وكمنت قريباً منه؛ فلمّا أصبحت؛ جاء هذا الظّبي، ومعه غزال؛ فمرّ الغزال يعدو، ويمرح في جهة غير جهة الشرك؛ وجاء هذا الظّبي يمشي حتّى حصل في الشّرك؛ فأخذته، وقصدت به المدينة؛ فلمّا بلغت هذا الموضع؛ ظهر لي أنّي مخطئ في إدخال هذا الظّبي المدينة حياً؛ لعلمي أنّه إذا ريء؛ طولبت بما كان عليه من الزّينة؛ فرأيت أن أذبحه، وأدخل به لحماً؛ فهذا خبري. فقال له التّاجر: لقد جنى عليك شحّك الخيبة والحرمان؛ فماذا عليك لو أطلقته فذهب؛ وحصلت أنت على حليه، وزينته.

ولقد صدق القائل: **((لا يدخل الشّره مدخلاً؛ إلاّ أعتقبته المحرمة، و لا يدخل البخل مدخلاً؛ إلاّ أعتقبته الحسرة))**. ألا ترى؛ أن من حمله البخل،

والشّره على أكل اللّقمة؛ التي عافتها نفسه؛ كان متعرّضاً للمحرمة؛ بتهوّع ما أكله، والحسرة عليه؛ عند مفارقته. ثمّ إنّ التّاجر بعث بالظّبي إلى ولده مع أحد عبديه، وقال لذلك الصيّاد ارجع فأرني الجهة التي رأيت الغزال سعى نحوها؛ فرجع به إلى تلك الجهة، وجعل الصيّاد يفتّش، ويتشرّف على المواضع المرتفعة، ومشى التّاجر على رسله؛ فسمع نزيز الغزال – وهو صوته – فصاح به التّاجر؛ فلمّا سمع الغزال صوته عرفه؛ فصوّت، واتبع التّاجر الصّوت؛ حتّى أقام عليه؛ فإذا هو في أخدود؛ أي شق من الأرض؛ منشباً فيها؛ فأخذه، ونادى الصّياد؛ فوهب له دراهم، وصرفه. ورجع التّاجر بالغزال إلى ولده وكملت مسرّة الغلام، وجعل الغزال يتجنّب الظّبي إذا رآه؛ ولا يألفه كما كان؛ وإذا حصل معه في موضع؛ نفر منه أشدّ النّفار. فتنغّصت مسرّة الغلام لذلك؛ وجهد أهله – بكلّ حيلة – أنْ يجمعوا بين الغزال، والظّبي؛ على حال ألفة، وسكون؛ فلم يقدروا على ذلك.

فبينما الغزال – يوماً – قائماً في بيت؛ دخل عليه الظّبي؛ فعاتبه على نفاره منه، وطول هجره. فقال له الغزال: أنسيت غدرك لي؛ أحوج ما

كنت إلى عونك، وأوثق ما كنت بنصرتك. فقال له الظّبي: إني لم أغدر، ولم أخن؛ ولكن عدم رسوخك في علم التّجربة؛ أوقعك في تهمة البريء؛ وإنّي لم أتأخر عن تخليصك مما حصلت فيه؛ إلاّ مضطراً إلى التأخّر عنك؛ عاجزاً عن المبادرة إليك. وقصّ عليه قصّته؛ وإنّه حصل في شرك الصّيّاد؛ فعلم الغزال عذره، وعادا إلى تآلفهما.

قال: فلمّا سمع **عين أهله** حديث العجوز، وفهم ما أرادت به؛ من ذكر عجزها عن تخليصه؛ أمسك عن خطابها.

قيل: فلمّا انتهى وزير سابور من حديثه إلى هذا الحدّ سكت. فقال له **المطران:** أيّها الحكيم الرّاهب؛ ما هذا السّكوت؛ لعلّك تريد أن تؤخر إخباري؛ بما كان من عاقبة **عين أهله**، وما لقي من الذّئب، وما صنعته معه العجوز. فقال له الوزير: إنّي عازم على ذلك لفتور أجده في أعضائي؛ فقال له **المطران:** لا تفعل؛ فإنّ ذلك يسوءني، ويشقّ عليّ؛ فاحمل لي على نفسك اللّيلة؛ أيها الحكيم؛ فإنّي راغب في تأنيسك، معجب بأحاديثك. فقال الوزير: أفعل ذلك؛ طلباً لمرضاتك؛ ولو علمت أيها **المطران**؛ ما ذخرت لك من عجائب

الأخبار، وغرائب الأسمار؛ لعجبت من ذلك أشدّ العجب. ثمّ اندفع يحدثه؛ فقال: إنّ **عين أهله**؛ لمّا سمع حديث العجوز، وفهم ما أرادته؛ أمسك عنها. ولبث ليلته تلك بأسوإ حال.

ولمّا أصبح؛ دخل عليه الذّئب؛ فنال منه، وتعتعه، وعنّفه، وتهدّده بالقتل، وزاده قيداً على قيده، وعرّفه أنّ لا ناصر له، ولا مخلص من يده، وخرج عنه؛ فجعل يعلّل نفسه بقية نهاره، ويمنّيها الفرج؛ فلمّا أقبل عليه اللّيل استوحش، واحتوشته الأفكار الممرضة؛ وانتظر أنْ تجلس إليه العجوز أو تحادثه؛ فلم تفعل؛ وجعلت العجوز تكثر الدّخول إلى البيت الذي فيه **عين أهله**، ولا تستقر فيه؛ فساء ظنّ **عين أهله**، وأيقن بالهلكة؛ وما شكّ في أنّ الذّئب يقتله تلك اللّيلة؛ فأقبل على البكاء؛ حتّى ذهب صدر من اللّيل، ثمّ قال للعجوز: ما لك لم تؤنسيني في هذه اللّيلة بحديثك، ولا جلست إليّ؛ فجلست إليه؛ وقالت له: أمّا ما كان في رؤيتي: قطعاء، جدعاء، عوراء، مشوّهة، سيّئة الحال؛ ما يحملك على التأسّي، والتسلّي؛ فأحمد الله، واشكره على سلامة نفسك، ومعافاتك من بلاء؛ هو أعظم من بلائك؛ حتّى قلت: هان على الطّليق ما لقي؛

الأسير؛ ولو اعتبرت باطن حالي؛ ما ظهر لك منها؛ لعلمت أن أسري أشدّ من أسرك؛ فاستمع إليّ؛ أحدّثك حديثي.

اعلم أيّها الفتى؛ أني كنت زوجة لبعض الفرسان، وكان لي محسناً، وبي رفيقاً، ولي محباً؛ فكنت معه في أرغد عيش وأهناه؛ فلبثت معه مدّة طويلة، وولدت له أولاداً ذكوراً وإناثاً؛ فكبروا في رفاهية ونعمة؛ فغضب الملك على زوجي لأمر كان منه؛ فقتله، وقتل ذكور أولادي، وباعني أنا وبناتي مفترقات؛ فاشتراني هذا الفارس؛ الذي عدا عليك، واحتملني إلى هذه القرية، وأساء إليّ، وكلّفني من العمل ما لا طاقة لي به، وأكثر معاقبتي على غير ذنب؛ لما طبع عليه من القسوة، والفظاظة؛ فسألته مراراً أن يرفق بي، واستعنت عليه بإخوانه، ومن يكرم عليه؛ لكي يخفّف عنّي، أو يبيعني؛ فلم يزده السّؤال، والشّفاعات إلا قسوة عليّ، وإضرراً بي؛ فلبثت كذلك سبع سنين؛ ثم فررت منه؛ فتبعني فأدركني؛ فجدع أنفي، ثمّ تمادى في قسوته عليّ، وإضراراه بي؛ وعاودت مسألته، والاستشفاع إليه؛ وهو مقيم على سوء رأيه فيّ؛ فمكثت بذلك سبع سنين أخرى؛ ففررت منه؛ فظفر بي، وقطع يدي، وقال لي: إنّما

بقيَ من أعضائك التي انتفع بها عيناك، ويدك، ورجلاك؛ فإنْ فررت بعد هذا؛ قطعت رجليك معاً، وأبقيتك أنتفع بعينيك للحراسة، ويدك في العمل، وأقسم على ذلك بغليظ الأيمان؛ وعاود عسفي، ومضرتي؛ وقد عزمت على أنْ أخلّصك اللّيلة، وأقتل نفسي بيدي؛ طلباً للرّاحة ممّا أنا فيه؛ فلهذا رأيتني أكثر الدخول عليك، والخروج عنك؛ وإنّما ذلك لحيرتي، وجزعي من الموت؛ وقد طابت نفسي على الموت. ثمّ إنّها فتحت قيود **عين أهله**، وقطّعت وثاقه، وتناولت سكيناً؛ فقال لها **عين أهله:** لئن تركتك تقتلين نفسك؛ لقد شاركتك في دمك، وانتزع السّكين من يدها. وقال لها: قومي اذهبي معي؛ لكي ننجو معاً، أو نعطب معاً. فقالت له: إنّ كبر سنّي، وضعف بدني؛ ليمنعاني من إتباعك، والهرب معك. فقال لها: إنّ اللّيل متسع، والموضع الذي نأمن؛ إذا وصلنا إليه قريب؛ ولي قوّة على حملك. فقالت: أمّا إذا عزمت على هذا؛ فإنّي لا أحوجك إلى حملي؛ ما دامت فيّ مسكة؛ وخرجا معاً؛ فلم ينقض اللّيل؛ حتّى بلغا إلى حيث أمنا؛ فجزاها **عين أهله** خيراً؛ بما صنعت، واتخذها أمّاً؛ يسمع لها ويطيع. فهذا ما بلغني من ذلك. فقال

المطـران: مـا أعجـب أحاديثـك؛ أيهـا الحكيـم؛ وقـد وددت ألاّ أفارقـك أبـداً؛ وأنّ سفـري هـذا يطـول؛ لتطـول متعـتي بـك، ويعظـم حـظّي مـن أنسـك؛ ولقـد استعذبـت مفارقـة الأهـل والوطـن؛ بقربـك؛ ونهـض كـلّ واحـد منهمـا إلى مضجعـة.

وبـات **سابـور** يتصفـح حديـث وزيـره، ويتأمـل أمثالـه؛ ففهـم: أنّ الغـزال؛ مثـل لـه، وأن الظّـبي؛ مثـل للوزيـر، وأن خـروج الظّـبي مـع الغـزال إلى الصّحـراء، وحصـول الغـزال في الأخـدود؛ مثـل لصحبـة **سابـور**، ووزيـره؛ حـتى حصـل **سابـور** في حبـس **قيصـر**، وأن نفـار الغـزال عـن الظّـبي؛ يمثـل سـوء ظـنّ **سابـور** بوزيـره؛ لتأخـره عـن استنقـاذه. وعـرف أن الوزيـر قـد عـزم عـلى تخليصـه، والخـروج بـه إلى المدينـة ليـلاً، وأن المدينـة قريبـة منهمـا؛ وأنّـه يحملـه؛ إنْ عجـز عـن المـشي. فأيقـن **سابـور** بقـرب الفـرج. ولمّـا كانـت اللّيلـة القابلـة؛ تلطّـف وزيـر **سابـور**؛ حـتّى دخـل الخيمـة الـتي يطبـخ فيهـا الطّعـام **للمطـران**، والموكّليـن بحفـظ **سابـور** عـلى خلـوة؛ فألـقى في جميـع الأطعمـة مرقِـداً قـوي الفعـلِ. و لمّـا حضـر طعـام **المطـران**؛ انفـرد الوزيـر بأكـل زاده؛ عـلى مـا جـرت بـه عادتـه؛ فلـم يكـن غيـر ساعـة؛ حـتّى استحـوذ المرقـد عـلى

جميعهم؛ فانجدلوا في مواضعهم صرعى على مراصدهم؛ وبادر الوزير بفتح باب الصورة عن **سابور**؛ واستخرجه، وأزال الجامعة عن عنقه، ويديه؛ وتلطّف حتّى أخرجه من عسكر **قيصر**، وقصد به **جنديسابور**؛ وهي مدينة ملكه؛ فانتهيا معاً إلى سورها؛ فصرخ بهما الموكّلون بحراسة السّور؛ فتقدم الوزير إليهم، وأمرهم بخفض أصواتهم، وعرّفهم بنفسه، وأعلمهم بسلامة ملكهم؛ فابتدروا، وأدخلوهما المدينة؛ فقويت نفوس أهلها، وأمرهم **سابور** بالاجتماع، وفرّق فيهم السّلاح، وعهد إليهم أن يأخذوا أهبتهم؛ فإذا ضربت **الروم** نواقيسهم الضّرب الأول؛ خرجوا من المدينة، واقتربوا من عسكر **الروم**.

وقاموا على تعبية، وتأهب حتّى إذا ضربت النّواقيس الضرب الثّاني؛ حملوا بأجمعهم؛ كلّ فرقة على من يليها؛ فامتثلوا أمره، وانتخب **سابور** كتيبة عظيمة؛ فيها أشجع أساورته، وقام معهم؛ فيما يلي الجهة؛ التي فيها أخبية **قيصر**. فلمّا ضربت النّواقيس المرّة الثّانية حملوا من كلّ جهة، وقصد **سابور** أخبية **قيصر**؛ ولم تكن **الروم** متأهبين؛ لعلمهم بضعف **الفرس** عن مقاومتهم؛ وأنّهم قد بنوا أبواب مدينتهم؛ فما شعروا حتّى دهمهم

الفرس؛ فأخذ سابور **قيصر** أسيراً، وغنم جميع عسكره، واحتوى على خزائنه، ولم ينج من جنوده إلاّ القليل. وعاد **سابور** إلى قرار ملكه؛ فقسّم الغنائم بين عسكره، وأفاض الصّلات على جميع من في مدينته؛ بقدر أحوالهم، وأحسن إلى حفظة ملكه، وشرّفهم، وفوّض جميع أموره إلى وزيره؛ الذي خلصه؛ ثمّ أحضر **قيصر**؛ فأكرمه، ولاطفه؛ وقال له: إنّي مبق عليك؛ كما أبقيت عليّ؛ وغير مجاز لك بتضييق محبسي؛ ولكنّي آخذك بإصلاح ما أفسدت؛ من جميع ممالكي؛ فتبني ما هدّمته، وتغرس مكان كلّ نخلة قطعتها – من بلادي – زيتونة، وتطلق كلّ من في مملكتك؛ من أسرَى الفرس. فضمن له **قيصر** ذلك كلّه، ووفّى له به.

ولمّا انتهى في الإصلاح؛ إلى بناء ما انثلم من سور مدينة **جنديسابور**؛ قال **سابور لقيصر**: إنّما تبنيه من تراب بلادك؛ فأمر **قيصر** رعيته من **الروم** بحمل التّراب من بلادهم إلى **جنديسابور**؛ فرجّع ما انثلم من سورها. فلمّا تمّ **لسابور** ما أراد من ذلك كله؛ أحسن إليه، وأطلقه إلى دار مملكته؛ بعد أن قال له: خذْ أهبتك، وأعد عدتك؛ فإنّي غاز أرضك عن قريب.

تم هذا الكتاب

بحمد الله

وعونه

بوزياني الدراجي

مصادر ومراجع التحقيق

ـ القرآن الكريم:

ـ **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**؛ وضع: محمد فؤاد عبد الباقي؛ دار الشروق؛ القاهرة؛ 1945م.

ـ **صحيح البخاري**؛ دار الفكر؛ بيروت؛.

ـ **صحيح مسلم**؛ دار الفكر؛ بيروت.

ـ **الجامع الصحيح** (سنن الترميذي)؛ دار الفكر؛ بيروت؛ 1978م.

ـ **معالم السنن**؛ في شرح سنن أبي داود؛ المكتبة العلمية؛ بيروت؛ 1981م.

ـ **أبو حمو موسى الزياني**؛ حياته وآثاره؛ لعبد الحميد حاجيات؛ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع؛ الجزائر؛ 1974م.

– **الإحاطة في أخبار غرناطة**؛ للسان الدين ابن الخطيب؛ تحقيق: محمد عبد الله عنان؛ مكتبة الخانجي؛ القاهرة؛ 1974م.
– **أزهار الرياض في أخبار عياض**؛ لأحمد بن محمد المقري التلمساني؛ تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي؛ لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة؛ 1939– 1942م.
– **الاستقصا لأخبار دول المغرب القصى**؛ لأحمد ابن خالد الناصري؛ تحقيق: جعفر الناصري، ومحمد الناصري؛ دار الكتاب؛ الدار البيضاء؛ 1956م.
– **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**؛ لأبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الملقب بابن مريم الشريف المليتني المديوني؛ تحقيق: محمد ابن أبي شنب؛ المطبعة الثعالبية؛ الجزائر؛ 1908م.
– **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد** (الجزء الأول). لأبي زكرياء يحيى بن خلدون؛ تحقيق: د. عبد الحميد حاجيات؛ المكتبة الوطنية ؛ الجزائر؛ 1980م.
– **تاريخ بني زيان ملوك تلمسان** (مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان)؛ لمحمد بن

عبد الله التنسي؛ تحقيق: محمود بوعياد؛ المؤسسة الوطنية للكتاب؛ الجزائر؛ 1985م.
– **التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً** (مستمد من المجلد السابع للعبر)؛ تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي؛ لجنة التأليف والترجمة والنشر؛ القاهرة، 1951م.
– **تلمسان في العهد الزياني**؛ لعبد العزيز فيلالي؛ ENAG / EDITION ؛ الجزائر؛ 2002م.
– **الجغرافيا**؛ لأبي الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي؛ تحقيق: إسماعيل العربي؛ ديوان المطبوعات الجامعية؛ الجزائر؛ 1982م.
– **ديوان المتنبي**؛ لأحمد بن الحسين الكوفي المعروف بالمتنبي؛ تحقيق وشرح: عبد الرحمن البرقوقي؛ المكتبة التجارية الكبرى؛ القاهرة.
– **روضة النسرين في دولة بني مرين**؛ لإسماعيل ابن الأحمر؛ تحقيق: الغوثي بوعلي، وجورج مارسي؛ 1917م.
– **زهر البستان في دولة بني زيان**؛ لمؤلف مجهول؛ مخطوط بمنشيستر RYLANDS: لدى المحقق نسخة الجزء الثاني منه؛ في ميكروفيلم.

- **سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون**؛ لجمال الدين بن نباتة المصري؛ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم؛ دار الفكر العربي؛ القاهرة؛ 1964م.
- **العبر وديوان المبتدأ والخبر**؛ لعبد الرحمن بن خلدون؛ دار الكتاب اللبناني؛ بيروت؛ 1968م.
- **العقد الفريد**؛ لأحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي؛ تحقيق: أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم الابياري؛ لجنة التأليف والترجمة والنشر؛ القاهرة؛ 1950م.
- **القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس**؛ مقتبس من كتاب نزهة المشتاق؛ لأبي عبد الله الشريف الإدريسي؛ تحقيق: إسماعيل العربي؛ ديوان المطبوعات الجامعية؛ الجزائر؛ 1983م.
- **القبائل العربية في المغرب** في عصري الموحدين وبني مرين؛ لمصطفى أبو ضيف أحمد عمر؛ ديوان المطبوعات الجامعية؛ الجزائر؛ 1982.
- **لسان العرب**؛ لابن منظور؛ تصنيف: يوسف خياط؛ دار لسان العرب؛ بيروت.
- **معجم البلدان**؛ لأبي عبد الله ياقوت الحموي؛ دار صادر؛ بيروت؛ 1977م.

ـ **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**؛ (قطعة من كتاب المسالك والممالك؛ لعبد الله بن عبد العزيز البكري؛ تحقيق: ماك قوكين دي سلان؛ مكتبة أمريكا والشرق؛ باريس؛ 1965م.

المقتبس من أنباء أهل الأندلس؛ لابن حيان القرطبي؛ تحقيق: د. محمد علي مكي؛ دار الكتاب العربي؛ بيروت؛ 1973م.

ـ **نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية**؛ لبوزياني الدراجي؛ ديوان المطبوعات الجامعية؛ الجزائر؛ 1993م.

ـ **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب؛ لأحمد بن محمد المقري التلمساني؛ تحقيق: إحسان عباس؛ دار صادر؛ بيروت؛ 1968م.

ـ **نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين**؛ لمحمد عبد الله عنان؛ لجنة التأليف والترجمة والنشر؛ القاهرة؛ 1966م.

ـ **واسطة السلوك في سياسة الملوك**؛ للسلطان أبي حمو موسى الثاني؛ مخطوط المكتبة الوطنية؛ الجزائر.

ـ **واسطة السلوك في سياسة الملوك**؛ للسلطان أبي حمو موسى الثاني؛ (طبع بتونس)؛ تصحيح محمد البشير التواتي؛ مطبعة الدولة التونسية؛ 1862م.
ـ **وصف إفريقيا**؛ للحسن بن محمد الوزان الفاسي؛ ترجمة: محمد حجي، ومحمد الأخضر.؛ دار الإترب الإسلامي؛ بيروت؛ 1983م.

Supplément aux dictionnaires Arabes (R. ozy)

ملاحظة:

نشر الجزء الأول من هذا الكتاب ضمن منشورات وزارة الثقافة، في إطار برنامج تظاهرة:

"الجزائر عاصمة للثقافة العربية 2007".

محتوى الكتاب

ـ تقديم:.. 09

ـ القسم الثالث:.................................. 19

ـ الباب الأول: في ذكر سجاياه الكريمة وسيره الحميدة:.................................. 24

ـ الباب الثاني: في أوليته ومصير الملك إليه:...... 40

ـ الباب الثالث: سنة ستين وسبعمائة:........... 95

ـ سنة إحدى وستين وسبعمائة:................ 147

ـ سنة اثنتين وستين وسبعمائة:................ 185

ـ سنة ثلاث وستين وسبعمائة:................. 215

ـ سنة أربع وستين وسبعمائة:................. 261

ـ سنة خمس وستين وسبعماية:............ 283

ـ سنة ست وستين وسبعمائة:................. 305

ـ سنة سبع وستين وسبعمائة:................. 323

ـ سنة ثمان وستين وسبعمائة:................ 361

ـ سنة تسع وستين وسبعمائة:................. 385
ـ سنة سبعين وسبعمائة:......................... 394
ـ سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة:............... 443
ـ سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة:............... 460
ـ سنة أربع وسبعين وسبعمائة:............... 484
ـ سنة خمس وسبعين وسبعمائة:............... 501
ـ سنة ست وسبعين وسبعمائة:............... 534
ـ استدراك وإضافات:.......................... 579
ـ سنة سبع وسبعين وسبعمائة:............... 580
ـ الملحق الأول:................................. 586
ـ الملحق الثاني:................................ 615
ـ مصادر ومراجع التحقيق:..................... 648
ـ محتوى الكتاب:................................ 656

تحميل كتب ومجلات

abbassa.wordpress.com

Bibliotheca Alexandrina

06445256